

قشورش جنبه
٤١٥

المجتمع الأنجلوسى في العصر الأموى

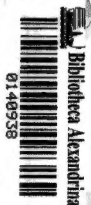
« ٤٢٢.١٣٨ هـ / ٧٥٥.٣٠٠ م »

تأليف

الدكتور

حسين يوسف دويدار

استاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد
جامعة الأزهر



المجتمع الأنزلسي في العصر الأموي

(١٣٨ - ٤٢٢ هـ / ٧٥٥ - ٣١٠ م)

تأليف

الدكتور

حسان يوسف وزير

استاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة - خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة
للعالمين ، سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله
وصحبه أجمعين . وبعد ...

غلا زالت. الأندلس (الفردوس المفقود) — رغم كثرة ما كتب عنها
فى نواحى شتى — تحتاج إلى المزيد من البحوث والدراسات التى تعالج
مختلف مظاهر الحياة فيها .

وربما كان من أشد ما تقتقر إليه المكتبة العربية عن الأندلس تلك
الدراسات الشمولية التى تنظر إلى هذه البلاد وحضارتها فى العمر
الإسلامى ككل متهاك ، ولا تكتفى بمجرد السرد الوصفى على نحو
ما تفعل معظم كتب التاريخ ، وبخاصة فى النواحى السياسية
والعربية وإنما تحاول تحليل تلك الحضارة على ضوء نظريات فلسفة
التاريخ أو نظريات الثقافة أو البناء الاجتماعى .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية فى المشرق والمغرب لا تزال فى حاجة
إلى مثل هذه الدراسات ، فإن الحاجة أشد بالنسبة للأندلس
باعتبارها حالة فريدة فى تاريخ الإسلام تمثل قيام حضارة متميزة
فى مزيج من ثقافة الإسلام والثقافة الأسبانية الأوربية ازدهرت
ازدهارا هائلا بحيث تركت بصماتها على كل التاريخ الإسلامى بل
والعالمى أيضا ، ثم أخذت فى الضعف والتدهور والتراجع نتيجة
لما حل بالمسلمين فى الأندلس . وإن تركت ورائها الكثير من الآثار التى
لا يزال بعضها باقيا فى المجتمع الأسباني حتى الوقت الحاضر .

ولم تكن حضارة الأندلس حضارة بسيطة التركيب ، وإنما كانت

تتألف من عناصر متعددة ومتباعدة أشد التباين فى أصولها البشرية والثقافية ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر قوة تلك الحضارة وثرائها ، وعاملا من أهم عوامل تلك القوة وذلك الثراء . غير أنه فى نفس الوقت كان يحمل بذور الضعف وأسباب التدهور والانتسام . وربما كان تعدد العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى هو العامل الأكثر أهمية فى ذلك التنوع الحضارى والثقافى ، والمركيزة الأساسية التى قام عليها فى الوقت ذاته .

ويتمثل هذا التنوع العرقى فى وجود الكثير من العناصر كالعنصر العربى والبربرى والإسباني والصقلبى واليهودى إلى غير ذلك من أجناس .

والتاريخ الأندلسى له طبيعة خاصة ، فمعظمه بحروب ونزاعات قامت بين العناصر البشرية التى سكنت الأندلس سواء بين المسلمين وبعضهم ، أو بين المسلمين والمسيحيين الأسبان الذى جعل الأسبان يخلصون تاريخهم الوسيط فى أنه تاريخ (حركة الاسترداد) La Recon Quista . وهو ما يعبر عنه فى بعض الأحيان (بمعركة القرون الثمانية) La Batalla de Ocho هذه الطريفة السياسية والحربية لتاريخ الأندلس جعلت المصادر - حتى فى حال توافرها - تغفل الجوانب الاجتماعية أو تشير إليها إشارات مقتضبة من بعيد .

ولا شك أن دراسة التاريخ اليوم أصبحت تعنى بالحضارة والتطور الاجتماعى والاقتصادى والفكرى فى المقام الأول . ولا شك أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تعتبر مؤشرا لحضارة أى مجتمع من المجتمعات ، ومن هنا كانت دراستها أمرا مهما لأنها فى النهاية تعبر عن حضارة هذا المجتمع ومدى تقدمه وازدهاره . ومن هنا فقد وقع اختيارى على دراسة المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة حيث اهتم الكثيرون بدراسة هذا العصر من النواحي

السياسية والحربية بينما كان الاهتمام قليلا بدراسة هذا العصر من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة والتي هي نتاج ما يسمى بالحضارة . لأن هذا العصر قد شهد تأسيس الحضارة الإسلامية في الأندلس وازدهارها ومن هنا كانت أهمية الموضوع .

ودراسة التاريخ ليست مجرد سرد للأحداث السياسية ، أو تصوير للمعارك الحربية أو ذكر لسير الملوك والخلفاء والسلطين فقط . وإنما أصبحت ذات نظرة فلسفية شمولية عامة يمكن الحكم بها على الدول والعصور ومدى تحضرها وتقديمها .

وهذا الموضوع الذى نحن بصدده - وهو المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى - موضوع متنوع الجوانب متصل بالحقائق يأخذ بعضه ببعض لأن دراسة الحياة الاجتماعية فيه هى النتاج النهائى لجميع أنواع الحياة فيه أو بعبارة أخرى نتاج ما يسمى بالحضارة .

ولذا فإن هذه الدراسة لا تتعرض لكل التفاصيل الجزئية الدقيقة ولكنها توضح لنا ملامح عامة لصورة هذا المجتمع من هذه النواحي التى اغفلها كثير من المؤرخين ولم يهتموا بها كثيرا ولم يوردوا عنها إلا نتنا وشذرات كان لابد من البحث والتنقيب عنها كثيرا حتى يظهر الإنسان منها بشئ . وهذا خلافا لدارسى الحياة السياسية والحربية وسير الملوك والسلطين حيث يجدون مادة خصبة ثرية .

ولست ادعى اننى قد جمعت فروعيت ، واننى قد الممت بكل دقة من دقائق الموضوع ، لأنه كما قلت متنوع الجوانب . ولكننى حاولت قدر جهدى وطاقتى أن أبلوره فى صورة يمكن أن تحظى بالقبول .

وقد قسمته إلى فصول ستة : تحدثت فى الفصل الأول عن عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى وأهم مميزاتهم ، وتحدثت فى الفصل

الثانى عن العلاقات بين هذه العناصر بصفة عامة ، وخاصة بين العرب والبربر والإسبان ، وفى الفصل الثالث تحدثت عن حالة المجتمع الأندلسى من الناحية الدينية لما لها من تأثير كبير على الحياة الاجتماعية.

وأما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن مظاهر الحياة الاجتماعية من ميدان وعمائر ، وطعام وشراب ، وملابس وأزياء ، وزينة وحفلات ، والمساب وغير ذلك .

وأما الفصل الخامس فقد تحدثت فيه عن الحالة الاقتصادية وأثرها على الحياة الاجتماعية .

وفى الفصل السادس والأخير تحدثت عن حالة المجتمع من الناحية العلمية والثقافية .

وقد حاولت تدرج جهدى وطائفتى فى هذا الموضوع المتشعب الطويل ، والله وحده يعلم كم عانيت فيه من جهد ومشقة ، وإذا كان فى مولى شئ من المنقص أو القصور ، فليأتى التمس سعة المصدر والتوجيه فيما عسى أن يكون مفارداً للنقد أو الاعتراض . والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والسداد والهدى والرشاد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

مدينة نصر/يناير سنة ١٩٩٤ م .

د. حسين يوسف توينار

الفصل الأول

عناصر السكان في الأنفلس

تمهيد

عناصر السكان في الأندلس (١)

كان المجتمع الأندلسي يتكون من عناصر شتى تنوعت أصولها البشرية وعقائدها وثقافتها ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الواندون من عرب ويربر وموالى ، وفيه الموالى المنسوبون إلى انقطاع شرقية مختلفة ، وفيه الممالك الجلوبون من بلدان عديدة .

أما أهل البلاد فهم الذين أطلق عليهم (عجم الأندلس) وكانوا في أكثريتهم من الأسباب الذين دخلوا في الإسلام فسموا بالمسالمة ، ومن الذين بقوا على ديانتهم من الأسباب والرومان والقوط ، واليهود وغيرهم وأصبحوا أهل ذمة .

وأما الواندون فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، كما كان منهم البربر الذين قدموا من شمال أفريقية . وكان أولئك يمثلون الجيش الفاتح للبلاد بقيادة طارق بن زياد . ولم يلبث هؤلاء الفاتحون الجدد أن اختلطوا بأهل البلاد وتزوجوا منهم ، وكان من ثمار هذا الاختلاط ظهور عنصر جديد هو عنصر المولدين .

(١) الأندلس : لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم إلا بعد فتح المسلمين لها ، وهذا اللفظ الذي أطلق على الأقاليم التي خضعت لسلطان المسلمين في شبه جزيرة أيبيريا لا يقتصر مدلوله على المعنى الجغرافي ، بل يشمل مختلف العناصر التي استظلت بظل المسلمين سواء أسلمت أم لم تسلم . ويميز ياتنوت الحموي عن هذه التسمية فيقول « هي كلمة أعجبية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفتها في الإسلام » .

(معجم البلدان : ج ١ ص ٢٦٢ دار صادر بيروت) ويستثناء
الإشارات المعارضة والمقلية التي وردت في كتب الرحالة والمؤرخين
والجغرافيين الأندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لا تعرف
كذلك كلمة (إسبانيا) . والمصادر العربية محدودة القليل منها تقول
بلاد الأندلس .

وقد كان المستشرق الهولندي (دويز) سنة ١٨٨٢ م (١) أول
من بحث هذه المسألة ، ثم جاء المستشرق (سيبولد) فتوسع
فيها ، وسار على رأي دويز في أن كلمة أندلس أخذت من لفظ
(فانداليسيا Wandalacia) أو فنداليسيا . الذي كان يطلق
على إقليم باطنة الذي أحاطه قبائل الوندال الجرمانية (أو الفاندال)
ما يقرب من عشرين عاما منذ سنة ٤٠٩ م . وكان نصارى الأسبان
يطلقون على هذا الإقليم اسم إشبانية أو شبانية باسم رجل
يقال له إشبان بن طيطس أو اشبانس (د . الطاهر مكي : دراسات
أندلسية ص ١٢) أو نسبة إلى مدينة إشبيلية التي كانت تصرف
في العصر الروماني باسم (إشبلايس : Hispalis) .

وكان العرب يطلقون أول الأمر هذا الاسم على هذا الإقليم
الجنوبي بالذات ، ثم عمموا على شبه الجزيرة كلها . وعندما بدأ
سلطان المسلمين في التطلع أصبح هذا الاسم يطلق على الأراضي
الباقية في أيديهم حتى انتصر على آخر مملكة لهم بالأندلس وهي
غرناطة (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة أندلس ج ٣ ص ٣٥ ،
دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب رقم ٦١ ص ٢) .

وهذا التدرج في التسمية تؤيده رواية الحميري عن البكري
التي يقول فيها : « إن اسم شبه الجزيرة في القديم كان إيليه
(إيبيريا) ، ثم سميت بعد ذلك باطقة ثم سميت إشبانيا باسم
رجل ملكها في القديم ، أو الإشباني. الذين ملكوها في الأول من
الزمن ، ثم أطلق عليها الأندلس أخذاً من اسم الأندلس. الذين
سكنوها » يقصد بهم قبائل الوندال .

(الروض الماطر ص ٣٢ ، البكري : المسالك والممالك ص ٥٨) .

وعلى هذا فإن لفظ الأندلس معرب من الوندال *Vandalus*
(الفاندال أو الفاندالوس) وهي القبائل الجرمانية التي غزت شبه
الجزيرة في القرن الخامس الميلادي . فلما جاء المسلمون بعد
الفتح هربوا هذا الاسم من (وندلس) بعد هز الصوت الأول
إلى أندلس : (انظر : د. أحمد هيكس : الأدب الأندلسي ص ٤ ،
د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩) .

وقد ذكر بعض المؤرخين المسلمين عدة تعليلات لهذه
التسمية تبعد عن التحقيق التاريخي ، وتقرب من الروايات الشعبية
شبه الأسطورية . فقد ذكر المقرئ عن ابن سعيد المغربي : أن
هذه البلاد سميت باسم الأندلس بن طموال بن بابت بن نوح
عليه السلام لأنه أول من نزلها .

وذكر ابن الأثير : أنها سميت باسم أندلس بن يثث بن نوح
لأنه أول من سكنها وعمرها .

كما ذكر ابن خضاري وابن الأثير أيضاً : أن أول من سكن

هذه البلاد قوم يعرفون باسم الاندلس بالثمين المعجزة تسمى
البلد بهم ثم عرب بعد ذلك بسين مهلة . والمعروف أن هؤلاء
لم يكونوا أول من سكن هذه البلاد ، بل سبقتهم اجناس اخرى
كالفيقيين واليونان والرومان . وشيبه بهذه التغطيات ما ذكره
الابعض في إطلاق لفظ إسبانيا على هذه البلاد :

هل هو نسبة إلى إشبان بن طيطش الذي كان اسمه أمبهان
ثم تحول في لسان العجم إلى إشبان ، وأنه تقابل مع الخضر
عليه السلام ، ويشره الخضر بالملك العظيم والاستيلاء على بيت
المقدس في عيسارات مسجوعة كسجع الكهان اوردوا المقري
في (فتح الطيب ج ١ ص ١٢٤) ومنها « يا إشبان إنك لنو شان ،
وسوف يحظيك زمان ، ويعليك سلطان ... الخ » .

او نسبة إلى رجل صلب في هذه البلاد يسمى إشبانس
إلى غير ذلك (انظر : فتح الطيب ج ١ ص ١٣٠ ويمدها ، الكابل
ج ١ ص ٥٥٦ ويمدها ، البيان المغرب ج ٢ ص ١ - ٢) .

والرأى الراجع أن هذه التسمية قد اطلقتها الفينيقيون - عندما
مزوا هذه البلاد في القرن العاشر قبل الميلاد - على الشاطئ الذي
نزلوا عليه Ischepan- im أى شاطيء الأرانب حيث وجودا
أسرابا كثيرة منها عليه . ثم حرف هذا الاسم بعد ذلك إلى
Hespania أو إسبانيا ، (انظر : د. أحمد هيكال : الأدب
الاندلسي ص ٥ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الاندلس

ولما الماليك فكان يؤتى بهم من أماكن شتى في أوروبا وخاصة من المناطق السلالية . وكان تجار الرقيق من الجرحان واليهود وغيرهم يبيعونهم صفارا ، ثم يبيعونهم في أسواق إسبانيا ، وقد عرف هؤلاء باسم الصقالبة ، ثم غلب هذا الاسم على كل الرقيق الأبيض حتى ولو لم يكن سلافيا .

وكان من الطبيعي أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض وتتلاقى — سواء بالمصاهرة أو العشرة أو الجوار أو التعامل — وإن يأخذ بعضها من بعض مما كان له أثره في إثراء الحضارة الأندلسية . وازدهارها .

والحق أنه رغم تعدد العناصر السكانية في الأندلس ، ورغم الاختلاف فيما بينها في نواحي شتى ، إلا أن الروابط القوية وبخاصة روابط الإسلام والعروبة كانت تشد أغلبها في كثير من الأحيان ، وتطبعها بالطابع الأندلسي المميز حتى من لم يدخل منهم فيه . فقد كانت هناك

ص ٩) . هنا وقد ظل اسم الأندلس الذي أطلقه المسلمون على شبه جزيرة إيبيريا (إيبيرية) مدة طويلة ولم ينته بخروجهم منها ، وإن أخذ مدلوله يتناقص تبعا للوضع السياسي للمسلمين حتى صار في آخر الأمر يطلق على مملكة غرناطة ، وأصبح في اللغة الإسبانية أندلوسيا أو أندلوسيا (Andalusia) ويطلق الآن على ثمانية أقاليم في جنوب إسبانيا : وهي المرية ، وغرناطة ، وجيان ، ودرطية ، ومالقة ، وقادش ، وولبة ، وإشبيلية . انظر : د . حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩ ، د . أحمد هيكل الأدب الأندلسي ص ٤ ، الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية ص ٧ — ٨ تحقيق د . محمد شامة) .

دائما البيئة المشتركة ، والتعلقة المشتركة ، وكانت هناك غالبا الحكومة الواحدة ، والسياسة الموحدة ، ثم كانت هناك الحضارة التي صبغت هذه العناصر على اختلافها بصبغتها الواضحة .

وكل من هذه العناصر اثره في تلك الحضارة التي لم ينطوى شعاعها بزوال سلطان المسلمين ، بل ظلت متقدة في نفوس صائعيها والمتأثرين بها قرونا عديدة ، وما زالت بعض شواهدا وآثارها باقية في إسبانيا حتى اليوم .

فالحضارة الإسلامية في الأندلس هي نتاج ذلك التفاعل والتبادل بين كل هذه العناصر البشرية التي عاشت على أرضها وانصهرت غالبا في بوتقتها حتى أصبح لها شخصية مميزة شملت مختلف العناصر في الشخصية الأندلسية (٢) .



(٢) انظر د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسي ص ٢٢ .

د. لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ١٧ .

د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٢٢ - ٢٣ ،

د. العبادي : الإسلام في أرض الأندلس ، مجلة المختار من عالم

الفكر ص ٩٤ سنة ١٩٨٤ .

أولا : العنصر العربي

مثل العنصر العربي أهم سكان الأندلس ، وأبرز عناصر المجتمع ، حيث كان العنصر القائد والمسيطر على هذه البلاد منذ البداية ، وكانت طليعة هذا العنصر قد جاءت مع موسى بن نصير سنة ٩٢ هـ واستقرت بعد الفتح ، وسبوا بالبلديين ، وبلغ عددهم ثمانية عشر ألفا جلهم من العرب والموالي وعرفاء البربر كما تقول بعض الروايات (١) .

وقد سبقت هذه الطليعة امداد قليلة كانت في الجيش الفاتح بقيادة طارق بن زياد (٢) . يقول صاحب أخبار مجموعة « ندعا موسى مولى له كان على مقدمته يقال له طارق بن زياد تبعته في سبعة آلاف من المسلمين جلهم

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ . وليس كما ذكر د. السيد عبد العزيز سالم بأن الثمانية عشر ألفا كانوا من العرب . (انظر مجلة علم الفكر ص ١٢٩ عدد ٣ سنة ١٩٨٢) .

(٢) وقيل طارق ابن عمرو (انظر جنوة المختبس ص ٢٤٨) ، بغيبة المختبس ص ٣٢٨) . وقد اختلف في أصله : فذهب البعض إلى أنه بربري من قبيلة نفزة (نفزوة) ، وقيل من زناتة (المقرى : نفع الطيب ج ١ ص ١٥٢) ، وذهب البعض الآخر إلى أنه كان مولى لموسى بن نصير من أصل فارسي من همدان . وقيل أنه ليس لموسى وإنما هو لرجل من صنف ، وقيل مولى لهم .

ونذكر ابن عذاري نسبه هكذا : « طارق بن زياد بن عبد الله بن رفه بن ورجحوم بن ثيرغاس بن ولهاص بن يطوفت بن نفزوة » (البيان المغرب ج ٢ ص ٦) ، وقيل إنه من سبي البربر . والراجح أنه بربري من نفزة . (انظر أخبار مجموعة ص ٦ ، نزهة المشتاق ص ١٧٩) .

من البربر والموالي. ليس فيهم 'عرب إلا قليل' (٢) ، ثم طالعة الحبر
ابن عبد الرحمن الثقفي (ع. ذي الحجة ٩٧ هـ) حيث قدم واليسابا على
الأنطس ومعه « أربعائة رجل من إفريقية منهم أول طوالع الأنطس
المعدون » .

ثم تعاقبت أفواج القرب بعد ذلك ، ومن أشهرها الفوج الذي
قدم إلى الأنطس مع بلج بن بشر القشيري سنة ١١٤ هـ ، والذي
أطلق عليه ' طالعة بلج ' ، وأصبح هؤلاء يلتقيون بالثانيين تميزا
لهم عن الطالعة الأولى التي كانت في الفتح وبعدة مجاهرة واستقرت
وسميت ' بالبلديين ' . وكانت هذه الطالعة تبلغ نحو عشرة آلاف منها
ثمانية آلاف من العرب والفران من الموالى (٤) .

كما وفد عدد من العرب المسلمين مع أبي الخطار البيني سنة ١٢٥ هـ
الذي ولي الأنطس لغض النزاع الذي دار بين البلدين والمسلمين ، وإقرار
الأم والنظام بالأنطس ، وسمى هؤلاء (بالطلعة الثانية) (٥) .

كما قدمت موجة جديدة من القبائل العربية من الأمويين وانصارهم
خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأنطس بقيادة عبد الرحمن الداخل

=

(انظر عنان : دولة الإسلام في الأنطس هاشم ٢ ص ٣٩) .

د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٢١٢ ، د. أحمد
الشعراوي : دراسات في تاريخ أسبانيا ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأنطس ص ٦ ، وانظر كذلك
الروض المعطار ص ٩ ، نصح الطيب ص ٢٣١ ، البيان المغرب
ج ٢ ص ٦ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٢٣ ، ٤٤ - ٤٦ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح
الأنطس ص ١٥ .

(٥) يذكر ابن القوطية أنهم كانوا ثلاثين رجلا ولكننا نعتقد أن تبعهم
كثيرون حيث سموا بالطلعة الثانية (تاريخ افتتاح الأنطس
ص ١٩) .

(صقر قريش) نظرا لاضطهاد العباسيين للأمويين وانصارهم بالشرق ، وترحيب عبد الرحمن بهم ، فضلا عما سمعوه من خصب هذه البلاد وغناها . وتتابع اندفاع القبائل العربية من تيس وكلت واليمن إلى الأندلس للاستقرار بها والإقامة فيها ، وقد كان هناك عدد كبير من التابعين في هؤلاء الداخلين إلى الأندلس فضلا عن أحد الصحابة أشارت إليه بعض المصادر وهو المنذر الأسلمي الذي دخل الأندلس مع موسى ابن نصير وكان قبل ذلك قد نزل إفريقية ، وذكر أنه حدث عن رسول الله ﷺ بحديث ذكره ابن الأثير والمقرئ وهو « من قال إذا أصبح رضى بآله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيا فانا الزعيم لأخذن بيده حتى أدخله الجنة » (٦) .

وقد ذكر القيروانى : أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفتقون أهل إفريقية (٧) وأن ثلاثة منهم دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير وهم : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ الأنصاري ، وحبان بن أبي جبلة القرشي ، وأبو ثامة بكر بن سودة الجذامي .

كما ذكر المقرئ وغيره (٨) أسماء آخرين من التابعين الذين دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير أو بعده ومنهم : أبو راشد حنشل ابن عبد الله الصنعائي ، وحيوة بن رجاء التميمي وزيد بن قاسم السكسكي ، وعبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وعبد الرحمن بن عبد الله الفالقي — قائد المسلمين في بلاط الشهداء — ،

(٦) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٢ ص ١٧٤ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٩ .

(٧) طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨٤ .

(٨) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٨ ، ص ٢٨٨ ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . وقد وضع ابن يشكوال كتابا لا يعرف له وجود حتى الآن عن التابعين الذين دخلوا الأندلس أشار إليه المقرئ وهو بعنوان (التنبية والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين) (نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ ، ٦٠) .

والمغيرة بن أبي بردة الكنانى ، وعلى بن رباح بن نصير اللخمي ، وعياض
ابن عقبة بن نافع الفهري ، ومحمد بن لؤس ابن ثابت الأنصاري ،
ومنصور بن حزامه ، وعبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكنانى .

وقد أورد المرقى أنساب العرب ومنزلهم بالأندلس نقلا عن
ابن غالب وابن حزم مذكراته « لما استقرت قدم الإسلام بالأندلس ،
وتنام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها ،
فمنزل بها من جرائم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم .

فأما العدنانيون فمنهم خنفس ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم من
قريش فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين
ابن على بن أبي طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد
انتشار ملك بنى أمية ، وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس ، وكانوا يعرفون
أيضا بالقرشيين ، وأما بنو زهرة فمنهم بإشبيلية أعيان متميزون .

وفى الأندلس من ينسب إلى جمح وبنى بنى عبد الدار ، وكثير من
قريش المعروفين بالفهريين من بنى محارب بن فهر وهم من قريش الطواهر ،
ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الأندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء
الفضلاء ، وبنو الجد الأعيان العلماء ، ومن بنى محارب بن فهر
يوسف بن عبد الرحمن الفهري سلطان الأندلس الذى غلبه عليها
عبد الرحمن الأموى الداخل وجد يوسف عقبة بن نافع الفهري صاحب
الفتوح بإفريقية ، ولهم فى الأندلس عدد وثيرة .

وأما المنتسبون إلى عموم كثافة فكثر وجلهم فى طليطلة وأعمالها ،
ولهم ينسب الوثشيون الكنتانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القضاة
أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب
الرحلة . وأما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فمنزلهم بجهة أريولة
من كورة تدمير ، وأما تميم بن مرة بن أدبن طابخة بن إلياس بن مضر فخلق

كثير ، وهؤلاء خضعوا من العدنانية . وأما تيس عيلان بن إلياس بن مضر من العدنانية ففى الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومن تيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة وهم بالثبيلية كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن ، ولهم منزل بجوفى بطنسية على ثلاثة أميال منها ، وبالثبيلية وغيرها منهم كثير ، ومنهم من ينتسب إلى سعد ابن بكر بن هوازن ومنهم كثير بفرناطة .

ومن تقيف بالأندلس جماعة وإليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفى وإلى الأندلس .

وأما ريعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ريعة بن نزار ، وإقليم هؤلاء مشهور بلسهم بجوفى مدينة وادى آس ، ومنهم من ينتسب إلى محارب بن عمرو ومنهم بنو عطية أعيان فرناطة ، ومنهم من ينتسب إلى النهر بن قلسط كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر ابن عبد البر ، ومنهم من ينتسب إلى تغلب بن وائل كبنى حمديس أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن وائل كالكيريين .

وأما أباد بن نزار فينتسب إليهم بنو زهرة المشهورون بالثبيلية وغيرهم .

وكان القحطانية وهم المعروفون باليمانية الأكثر بالأندلس ، والمالك فيهم أرسخ إلا ما كان من خلفاء بنى أمية فإن القرشية خدمتهم على الفرقين . وكثيرا ما كان يقع بينهم وبين المضربة وسائر العدنانية الحروب بالأندلس كما كان يقع بالشرق » (٩) .

(٩) القرى : فتح الطب ج ١ ص ١٣٦ وبمعناها . المطبعة الأزهرية . سنة ١٣٠٢ هـ .

ومن القبائل الشهيرة التي نزلت بعض بيوتها بالأندلس قبيلة الخزرج التي يتصل بها نسب بني نصر (بني الأحمر) ملوك غرناطة آخر ممالك المسلمين في الأندلس .

ويذكر المقرئ نقلاً عن الرازي : أنه دخل الأندلس من قرية سمع ابن عباد الخزرجي الصحابي الجليل سيد الخزرج رجلاً أحدهما نزل أرض تاركونا (فاركنا) ، والآخر نزل قرية من قرى سترسطونة عرفت بقرية الخزرج (١٠) .

وقد ذكر ابن حزم : أنه كان لسعد بن عباد رضى الله عنه ولدان قيس وسعيد وقال : « وسعيد هذا عقب بالأندلس بقرية ويقال لها قريلان من عمل سرقطة من قبل الحسن بن سعيد بن سعد بن عباد ، وشخونة بنو عرم بن جيل بن عسلم بن قتادة بن وتاد بن قيس ابن سعد بن عباد » (١١) .

وقد ظل العرب بالأندلس يحفظون أنسابهم ويفتخرون بها وبالصفة التي تربطهم بالقبائل العربية حتى بعد اختلاطهم بغيرهم من العناصر الأخرى في الأندلس وشكلوا نسل الإمبراطورية والبرجوازية في المشرق (١٢) .

(١٠) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٦٠ ط ١ الطبعة سنة ١٣١٩ هـ .

(١١) جبهة أنساب العرب ص ٣٦ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م

(١٢) ليمى برونسفال : الحضارة العربية في إسبانيا ص ١٨ ترجمة

د. الطاهر مكي ط ١ دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

وكانوا يتميزون بالعشائر والأخذ والقبائل إلى أن قطع ذلك المنصور ابن أبي عامر ، وقصد بذلك تثبتهم ، وقطع التحابهم ، وتمصبهم في الاعتراء ، وتقدم القواد على الأجناد ، وجعل في جند القائد الواحد عدة فرق من كل قبيلة وذلك للقضاء على العصية العربية ليسهل عليه السيطرة على مقاليد الأمور في الأندلس . وكان لذلك أثره الواضح في انحسار ملءة الفتن والثورات الداخلية كثيرا عن ذي قبل ، وفي إضعاف نفوذ العنصر العربي (١٣) .



ثانيا : العنصر الجبري

البربر هم سكان شمال إفريقيا أو ما يعرف ببلاد المغرب التي تمتد من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسي . وقد قسم الجغرافيون العرب هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام بعد الفتح الإسلامي لها بحسب القرب أو البعد عن مقر الخلافة في المشرق وهي :

المغرب الأدنى (إفريقيا) وقاعدته القيروان ، والمغرب الأوسط وقاعدته طلمسان . والمغرب الأقصى وقاعدته فاس(١) . وكان العرب يستعملون لفظ إفريقيا ليشمل المغرب الأدنى والأوسط(٢) .

(١) انظر ابن خلدون المقدمة ص ٥٩ — ٦٠ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٩١ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٩٤ هـ ص ٢١ .

وقد اختلف المؤرخون والكتاب في تسمية البربر بهذا الاسم . فقد ذكر ابن خلدون أن أحد ملوك التباغة في الين ويدعى إفريقش بن قيس ابن صيفي غزا بلاد المغرب فبنى بها المدن والأحصار فسميت باسمه ، وأنه سمع السكان يتكلمون بلغة غير مفهومة فقال : ما بربركم فسموا بالبربر (العبر ح ٦ ص ١٠٦) . وذكر الفيروز بادي : أن البريرة هي كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل ويرر (ترتيب القاموس المحيط ص ٤٤٠) . وذكر البعض أنهم ينسبون إلى مهاجر عربي من حمير يسمى (بر بن قس) وأنه عندما هاجر إلى بلاد المغرب لم يفهم لغة أهلها فسموها ببريرة وسماهم البربر (انظر د. حسين مؤنس : معسلم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٣) . وسار بعض الكتاب المعاصرين على ذلك فقال : إن

كلمة بربر أطلقها العرب في مذهبهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي لأنهم يتكلمون بلغة غير مفهومة ، والعرب يطلقون هذه الكلمة على الأصوات المتجمعة غير المفهومة لهم .

(انظر تاريخ الفتح العربي للبيها ص ٦) . وعلى هذا فإن تسمية البربر بهذا الاسم لا علاقة له بلون البشرة أو الجنس وإنما باللغة فلها كانت لغة هؤلاء السكان غير عربية فحدث في نظر العرب غير مفهومة ، فاطلقوا عليها بريرة ، كما أطلقوا كلمة عجة أو أعجبية على لغة الأعاجم . بينما ذهب آخرون إلى أن هذا اللفظ إفريقي كان اليونان يطلقونه على كل من لايتكلم الإغريقية فكلوا يسمونهم (بارباروي)

ثم جاء الرومان فاطلقوا هذا الاسم على سكان شمال إفريقية (المغرب) Barbari ، (بربري) بمعنى غير متحضر لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم ، وعربيه المسلمون إلى بربر أو برابر ،

كما أطلق الرومان على سكان إقليم مورطانية إسم مور Maures وما لبث هذا الإسم أن عم على سائر البربر ، أو أن هذا الإسم مشتق من سكان بريرة على ساحل البحر الأحمر الذين كانوا أصل سكان إفريقية . (انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ١٨ د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ٤٩ هاجس ٢٧ ، عنان : دولة الإسلام في الاندلس العصر الاول ص ١٣ هامش ٢) .

وقد استعمل الفرنجة هذه الكلمة وقصدوا بها معنى آخر أشار

ويحاول بعض المؤرخين والكتّاب العرب إرجاع نسب البربر إلى أصول عربية، فيفتكروا البربر بـ : أن البربر عرب أصلاً وهم من ولد قيس عيلان ، أو بطنان من حمير هما صنهاجة وكتلة ساروا إلى المغرب أيام فتح إفريقية بن قيس بن صيفى لها (١٢) .

ويؤكد ابن خلدون ذلك فيروى عن البكري : أنه كان لمضر ولندان هما قيس وذهقان ، وأن البربر ينسبون إلى قيس بن عيلان بن مضر ولذلك ينتفض أحد شجرآء البربر بقوله :

أيها السائل عنا أصلنا قيس عيلان بنو العز الأول
إن قيساً قيس عيلان هم معدن الحق على الخير دال

ولذا يرى بعض علماء النسب من العرب : أن لوأنه من حمير ، وهوارة من كندة ، وزاتنه من التبابعة أو الممالقة ، وأن زواوة ومكلائه من حمير أيضاً (٥) .

كما يرى بعض المستشرقين هذا الرأي فيقول : إن عدداً من سكان

إليه الأب لويس معلوف بقوله « وفي المجاز البربري هو المتوحش. والهمجي » (التجدد في اللغة والأعلام ص ٢١) .

والحققة أن البربر لا يسمون أنفسهم بهذه التسمية ويرونها تعبيراً مستهجنًا وإنما يسمون أنفسهم بأسماء قبائلهم وشعوبهم كالمصابدة والزواوة وصنهاجة وكتامة . (انظر د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامي ٤ ص ١٢٦) .

(٣) ترتيب التلموس المحيط ج ١ ص ٢٢٨ ، ص ٢٧٩ .

(٤) العبر ج ٦ ص ٦٥ .

(٥) الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي لليبيا ص ٧ .

تجبه الجزيرة الغربية قد هاجروا إلى شمال إفريقية من طريق الساحل الغربي من الجزيرة ، وأنه سلك هذا الطريق نحو إفريقية مهاجرين سابينون حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م واستقروا هناك (٦) .

والحقيقة أن مسألة أصل البربر العربي هذه لا يمكن الجزم فيها برأي قاطع بهذه السهولة نظرا لتطاول القرون وتقلب الأجيال وهجرات القبائل والشعوب من مكان إلى آخر تبعاً لظروف البيئة والمناخ والحاجة والغزو والحروب وغير ذلك ، ونظراً لتشعب الآراء وتمسدها في هذه المسألة (٧) .

حيث يذكر البعض أن البرانس هم أصل البربر وأنهم سكنوا هذه البلاد منذ القديم ، وأنهم ينتهون إلى سكان حوض البحر المتوسط حيث يشبهون سكان جزر البحر المتوسط وسكان الأندلس من حيث بياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العيون ، وأن البربر هم جدد نسبياً على بلاد المغرب قدموا في الغالب من جنوب غرب القارة الإفريقية ، ونزلوا ببرقة أولاً ، ثم انتشروا قريبا ، وأنهم جنس إفريقي أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين من البرانس ، ومن اختلاط هذين العنصرين نشأ العنصر البربري الذي استعرب بعد ذلك باختلاطه بالعرب بعد فتح بلاد المغرب (٨) .

(٦) غيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٠ ، ١٤ .

(٧) يقول ابن حزم : قال قوم : إنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام ، وادعت طوائف منهم إلى اليمن وإلى حمير ، وبعضهم إلى تيس عيلان . وهذا باطل لا شك فيه وما علم المنسلون لتيس عيلان أنسابه بر أصلاً ، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكذيب مؤرخي اليمن ، جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٥ .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، ٢٤ .

كما يذهب البعض الآخر إلى أنهم ينتمون إلى أصلهم إلى الجنس الحلي وإن كانوا من نفس العنصر الليبي القديم الذي عرفه الفراعنة (٩).

ومهما يكن من أصل البربر فيبدو أن العرب قد عرفوا الطريق إلى شمال إفريقية منذ زمن طويل حيث ذكر ابن خلدون : أن ملوك النين من القبيلة قد غزوا شمال إفريقية عدة مرات فاستكان لقلبهم السكان ، ودانوا بدينهم وإن كان في هذا شيء من التجوز والتعميم . ومن المتعارف عليه أن البربر ينقسمون إلى قسمين كبيرين أو جنين عظيمين هما البتر والبرانس ، وربما كانوا من أصل واحد كما ذهب ابن خلدون (١٠) .

أو اثنين جدين يهذين الإسمين ، أو نسبة لنوع الحياة وأسلوب المعيشة والطبع الحضارى لكل منهما . فالبرانس : هم الذين يعيشون في السواحل والريف ولهم الحواضر ، والبتر : هم الذين يعيشون في طور البداوة ويتخذون بيوتهم من الشعر ، وينتجعون المراعى بين الجبال والوديان والصحارى (١١) .

(٩) د. عبد المنعم ملحد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ٢٩

هامش ٧

(١٠) العير : ج ٦ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ . حيث ذكر أن العرب لما دخلوا بلاد المغرب ، بعد الفتح تأثروا بانتسابهم إلى تحطائين وعدنائين فقسموا قبائل البربر إلى قسمين كذلك قسم نسبوه إلى ماذغيس بن بر القتب بالأبتر فسماوا البتر ، وقسم نسبوه إلى برنس بن بر فسماوا بالبرانس .

(١١) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٣ ، د. العبادى : المجلد فى تاريخ الأتلس ص ٣٢ .

وقد غسر البعض هذين الإسمين بأنها نسبة إلى الزى الذي يلبسونه
فالبرانس هم الذين يلبسون البرنس — وهو الزى الذي لا يزال المغاربة
يلبسونه إلى الآن — والبتري هم الذين لا يلبسونه .

والحقيقة أن هذا التفسير اللغوي لا يقوم على أساس متين فليس
من الضروري على كل برانسي أن يكون مرتديا للبرنس كما أنه ليس
بلازم أن يكون للبتري عاريا منه .

لما تقسيم البربر بحسب البداوة والحضارة فهو تقسيم لا يمكن
الآخذ به أيضا على إطلاعه فقبيلة زنقة البترية الأصل كانت على حد قول
ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا ولذلك جعلها فرعا مستقلا
من سائر البربر ، كما أن البرانس المحضرون كانوا قلة بالنسبة للبتري
البدو الذين يشكلون السواد الأعظم من السكان (١٣) .

وعلى أي الأحوال فقد كان البربر في معظمهم في طور البداوة عند
الفتح العربي لبلادهم يعيشون في شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى كما
يقول ابن خلدون ، وأغلبهم على الوثنية يؤمنون بالسحر والكهانة ، وقليل
منهم دان باليهودية أو المسيحية أو المجوسية (١٤) .

وذلك لأن العرب عندما دخلوا بلاد المغرب وجدوا صورا مشابهة
لنحية في شبه جزيرتهم من الناحية الاجتماعية والقبلية ، فاندمجوا مع البربر
واختلطوا بهم — بالرغم من شدة المقاومة التي لقوها منهم بالتزاوج وبادل
منهم موقف الحاكم المنزول عن الحكوميين بل امتزجوا معهم بالتزاوج وتبادل
العادات والتقاليد ، وكان للإسلام ولغة القرآن أثر كبير في ذلك .

(١٢) د. العبادي : المجلد في تاريخ الأندلس ص ٣٢ .

(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين في الأندلس ص ١٩ .

(١٤) العسبر : ج ٦ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

مما ساعد على انتشار العربية بينهم . ولذا فإن ما يذكره بعض الكتاب-
اليبيين من أن القبائل العربية التي نزلت بشمال إفريقيا قد تبريرت بطول
الزمن في زيارتها ولغتها وعاداتها لا يمكن قبوله (١٥) .

والمتبول أن البربر هم الذين تعربوا أو تعرب الكثيرون منهم بكثرة
الهجرات العربية إلى بلادهم منذ القديم ، وطول اختلاطهم بالعرب
وبخاصة بعد الفتح الإسلامي لبلادهم حيث أصبح الإسلام والعربية هما
الطابع العام السائد فيها ولا زال إلى الآن بالرغم من محاولات الاستعمار
الفرنسي التي قام بها زمن الاحتلال إثارة العصبية بين العرب والبربر
والتفريق بينهم وإحياء اللغة البربرية .

وكما كان للعرب صفات وأخلاق اشتهروا بها فقد كان للبربر صفات
وأخلاق اشتهروا بها كذلك — وتقرب من صفات العرب — وقد ذكر ابن
خلدون هذه الصفات في وصف لا يدع زيادة لستريد فقد وصفهم
« بمعز الجوار وحماية النزيل » ورمى الأثرة والوساقل ، والوفاء بالقول
والعهد ، والصبر على المكروه ، والثبات في الشدائد ، وحسن الكلمة
والإغضاء عن العيوب ، والتجافي عن الانتقام ، والرحمة بالمسكين ، وبر
الكبير ، وتوقير أهل العلم ، وحمل الكل ، وتهئية الكسب للمعنوم ، وقرى
الضيف ، والإمانة على النواصب ، وعلو الهمة ، وإياء الضيف ، ومقارعة
الخطوب ، وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه ، فلم في
ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف ، لم كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون
أسوة لمتبعيه من الأمم ، وحسبك ما اكتسوه من حبيدها واتصفوا به
من شربنها أن قادتهم إلى مراتى العز ، وأوفت بهم على ثسايا الملك ،

(١٥) الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي لليبيا ص ٧ .

حتى غلبت على الأيدي أيديهم ، ومضت في الخلق بالقبض والبسط
أحكامهم» (١٦) .

وقد اشتهر البربر إلى جانب هذه الصفات التي عددها
ابن خلدون بانهم أهل خيال واعتقاد بالسحر والكهنة والتنجيم . ولا ننسى
مقاومتهم الشديدة للعرب الفاتحين تحت قيادة امرأة تدعى الكاهنة ،
ولا يزالون إلى الآن في الأعم الأغلب يعتقدون في قراءة الكف وفتح الكتاب
وإدماء معرفة الغيب (١٧) .

كما ظهر منهم تسبلة نظموا أنساب قبائلهم في شجرات شبيهة
بشجرات الأنساب العربية وإن كان لا يوثق في هذه الشجرات
كثيرا (١٨) .

هذا وقد كان البربر من أسبق العنصر البشرية التي دخلت
إلى الأندلس فقد كان الجيش الفاتح لها بقيادة واحد منهم وهو
طارق بن زياد (١٩) ، كما أن معظم هذا الجيش كان منهم حيث كانوا سبعة

(١٦) المعبر : ص ٦ ج ١٠٤ . وذكر ابن عذارى أن سليمان
ابن عبد الملك قال لموسى بن نصير فأتخبرني عن البربر قال « هم
أشبه العجم بالعرب لواء ونجدة وصبرا وفروسية ، فير أنهم
أغدر الناس لا ولاء لهم ولا عهد » وهذا يناقض ما ذكره ابن
خلدون عنهم من الولاء بالقول والعهد (البيان المغرب ج ٢
ص ٢١) وهذا دليل على اختلاف وجهات نظر المؤرخين والكتاب
في وصف الأقوام أو الأشخاص لأسباب عديدة .

(١٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٨ — ٦٩ .

(١٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥ .

(١٩) أنظر من نسبه : البيان المغرب ج ٢ ص ٦ ، فتح الطيب ج ١
ص ١٢٣ .

آلاف في البداية ثم ما لبثوا أن زيدوا بعد ذلك إلى اثني عشر ألفاً (١٢٠) .
وقد كان قرب بلادهم من الأندلس مما سهل من توالى هجراتهم إليها ،
واستقرارهم فيها بعد الفتح ، وكانوا ينزلون بصنة خاصة في المناطق
الجنوبية والغربية من الأندلس نظرا لشبهها ببيئتهم في المغرب .

وكانت منطقة روندة وإقليم تاركنا بالذات منزلا لجماعات البربر التي
استوطنتها بعد استقرار عملية الفتوح الأولى (٢٢) .

وقد عسّد ابن حزم في الجبهة بيوتت البربر في الأندلس
تفصيلا ... وذكر منهم بنو دليم الفقهاء من وزداجة ، وعوسجة بشنت
برية من ملزوزة ، ومنهم بنو إلياس من مغيلة ، وبنو زوال من مغيلة أيضا ،
وبنو وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس من مكناسة ، وبنو
الخروبي من زناتة وكذلك بنو عزون الأمراء بشنت برية من زناتة أيضا ،
ومنهم الأمراء بالثغر وبنو هذيل من مديونة ، وبنو عبادوس من سرتة ،
وبنو رزين بالسهلة وبنو ذو النون بويذة ، وكان لهم ضلع في الفتن التي
أفضت إلى سقوط الخلافة الأموية ، واستأثر جباة منهم بالآطاليم
الجنوبية من الأندلس على عهد ملوك الطوائف (٢١) .

(٢٠) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٧ . وليس كما ذهب د. السيد
سالم إلى أن الجيش كله كان من البربر (تاريخ المسلمين ص ١٢٢) .
(٢١) د. أحمد الشعراوي : دراسات في تاريخ أسبانيا ج ١ ص ١١٣
هلبش ٢ دار النهضة العربية سنة ١٩٧٣ م ، الأمويون أمراء
الأندلس الأول ص ٣٠٦ .

(٢٢) أنظر جبهة أنساب العرب ص ٩٨ - ٥٠٣ سلسلة ذخائر العرب
٢ دار المعارف بمصر ط ٤ تحقيق هارون .

ثالثا : الموالى

جاء عدد كبير من الموالى إلى الأندلس مع جيش موسى بن نصير سنة ٩٧هـ وفى طائفة بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٤هـ وكلت هذه الطائفة أو هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف من العرب والعين من الموالى (١) . وكان أغلب هؤلاء الموالى من أهل المغرب من البربر الذين دخلوا فى طائفة بنى أمية ومنهم بنو الخليفة وينو وانسوس ، أما الباقون فكانوا من أهل الشام والعراق وبلاد الفرس . وقد ازداد عدد الموالى فى الأندلس بهؤلاء الذين دخلوا فى هذه الطائفة حيث انضموا إلى من كان بالأندلس قبل ذلك من موالى بنى أمية واصبحوا يؤلفون حزبا هاما وطائفة قوية تعرف بالأمويين (٢) نظرا لمواليتهم لبنى أمية .

وقد استطاع عبد الرحمن الداخل بفضل مناصرة هؤلاء الموالى تأسيس دولة لبنى أمية فى الأندلس بعد أن سقطت فى المشرق على يد العباسيين وانصارهم .

ومنهم بنو بسيل وهم بيت من أكبر بسونات الموالى الأمويين من أهل الشام . وكان أول من دخل الأندلس منهم عبد السلام بن بسيل الرومى وكان أبوه بسيل مولى لبنى أمية ويتضح من نسبه أنه من أصل رومى . وقد دخل عبد السلام الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل مع ابنه عبد الواحد ويحيى فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشذونة ومورور والجزيرة الخضراء وغيرها ، وولاه الوزارة ، كما تولى ابنه يحيى بعض الولايات كجيان فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، كما تولى أخوه

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ .

(٢) ورد هذا الاسم عند خروج بلج من قرطبة لمخالفة جيوث عبد الرحمن .

الكتابة والخيال وغيرها ، كما كان يوسف بن بسيل والليسا على طليطلة سنة ٢٣٤ هـ وأصبح من كبار رجال الدولة في عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، وكان له دور في تأييده للاستيلاء على مغليد الحكم بعد والده ، وقد ولى شخونة في عهده . وقد اشتهر من هذا البيت كثيرون تولوا مناصب كبرى في الدولة . كما دخل في عداد الموالى بالأنطلس عدد كبير من الأسبان الذين دخلوا في ولاء بني أمية بعد الفتح امثال : بنو قسي ، وبنو بلرون ، وبنو قومس بن قنارلة ، وبنو مرتين وأصبحوا موالى اصطناع لهم يلتمسون حمايتهم(٣) . ويذكر ابن حزم قطعة من نسب بني قسي المولدين بالغرغر فيقول : « كان قسي قومي »(٤) الثغر في أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الأنطلس لحق بالشام ، واسلم على يدي الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمي إلى ولائه ، ولذلك كان بنو قسي في أول أمرهم إذا وقعت العصبية بين المضربة والبيانية يكونون في جبهة

==

ابن علقمة ، ومن معه من أعداء الساميين ، وكان معه (عشرة آلاف من الأمويين والساميين) (تاريخ افتتاح الأنطلس ص ٨٦) .

(٣) د. حسين مؤنس : فجر الأنطلس ص ٤٠٣ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٧ . مولى الاصطناع : هو مولى الموالاة أو الحليف وهو من ينحبه الخليفة شرف الانتساب إليه ، ويستخذه في شؤونه ومجرى عليه الأرزاق فيصير مولى له (أنظر مقسمة ابن خلدون ص ٩٦) .

(٤) كلمة Comes كلمة لاتينية ، وهي في الأصل تعني مرافق الملك ونديه ، ثم أصبحت تطلق في اسبانيا زمن القوط على ولاة الكور ، ومنها اشتق اللفظ الإسباني Corde والفرنسي Conte وتذكرها بعض المصادر العربية قوط بدلا من قومس . وتقابلها كوند Conde بالإسبانية الحديثة وكونت Cont بالإنجليزية .

المصرية ، فولد قسى نرتون وأبو ثور وأبو سلامة ويونس ويحيى « ثم أخذ.
يعدد بعد ذلك ذرية كل واحد منهم(٥) .

وقد لعب الموالى دورا هاما فى تاريخ الأندلس حيث اعتمد عليهم
بنو أمية كثيرا وقتلدهم أهم المناصب فى دولتهم لتفانيهم فى الإخلاص
لبا ، فكان منهم الوزراء والكتاب والتواد والقضاة . وقد نجح
الموالى فى كورة البيرة فى تأسيس دولة لهم بزعامة عبد الوهاب بن جريج
زمن الفتنة الأولى او عصر الاضمحلال الأول ، او دويلات الطوائف الأولى
التي تمزقت فيها وحدة الأندلس وقام الثوار فى سائر الأثناء بشق
عصا الطاعة على بنى أمية(٦) .

وقد كان هؤلاء الموالى يحسبون انفسهم عربا ، ويدعون أرومات
عربية ينسبون انفسهم إليها ، ويقتبسونها من أصول ساداتهم وحتى
اولئك الذين كلقوا من أصول اسبانية منهم ادموا أصولا عربية بمرور
الزمن(٧) .

وسواء صحت هذه الأنساب أم لم تصح فميتها كانت مابلا
اساسيا وفعالا فى حياتهم ، فهم جميعا يتصرفون كما لو كانوا عربا
يتبذلون عن غيرهم ولهم حق الحكم والسيادة(٨) .

وقد ذكر ابن حيان أن جماعة من موالى الخلفاء الأمويين تسموا

(٥) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

(٦) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٤٣
وبعدها .

(٧) انظر : المقتبس ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، نفح الطيب ج ٤ ص ٤٥ ،
تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٠) .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٦ .

باسماء العرب فأنكر عبد الرحمن الأوسط عليهم ذلك بفضل أئنته ، ونهى عنه ، وكان له مولى من مناقاة أبيه يسمى محمد وولد له ولد سباه مسرور سمى به على جد الأمير فحسنت نثأته وتقته وتعبده واشتهر فضله ، حتى ولاه عبد الرحمن القضاء بقرطبة . فتوفى بعد عام من سنة ٢٠٨ هـ (٨) .

ولا يعرف على وجه التحديد ماذا يقصد راوى الخبر الذى ذكره ابن حيان بهذا فلمنا نعرف للعرب أسماء اختصوا بها دون الموالى . ولو استعرضنا أسماء بيوت موالى بنى أمية وغيرهم بالاندلس وأسماء زرارهم فإئنا لا نجد فروقا جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخالص التى أورد لنا ابن حزم بثلاث النماذج منها من للجبهة .

كما إئنا لا نجد من المصادر الأندلسية ما يدل على أن امراء وخلفاء بنى أمية قد ضائقوا ذرعا بذلك فيما عدا هذا الخبر الذى سلقته ابن حيان وما أكثر ما نجد حتى من الأسر الأسبانية الأصل التى أسلمت من يشمون بأسماء إسلامية كمحمد وإبى بكر وغيرها دون أن يكون ذلك عربيا أو مستغريا . إلا إذا كان المقصود أن هؤلاء الموالى الذين تسبوا بأسماء عربية قد ادموا نسبا عربيا كما حدث من بعض الموالى وخاصة الفرس من المشرق من العصر العباسى الأول ووجد ذلك مقاومة منبهة من العرب . مثل أبى مسلم الخراسانى الذى ادمى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس (١) .

(٩) ابن حيان : المقتبس ص ١٨٧ .

(١٠) تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٩٧ .

رابعاً : العنصر الإسباني

يذهب الكثيرون إلى أن الأصول القديمة لسكان إسبانيا تعود إلى مزيج من عنصرى السلت (الكلت) ، والإيبيريين (١) . فقد توالى على هذه البلاد الكثير من الغزاة . حيث غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر ق.م ، واطلقوا على الشاطئ السذى نزولاً عليه اسم Ischepan- im (إسبانيا) أو شاطئ الأرائب . وأسسوا عدة مستعمرات ومدن ، من أشهرها مدينة قادس التى لا تزال إلى اليوم هناك كما غزاها اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ، واطلقوا على نسواحلها اسم ليبيريا .

ثم ما لبث أن أطلق هذا الاسم على شبه الجزيرة كلها . كما خضعت هذه البلاد فى هذا القرن أيضاً للقرطاجنيين الذين أسسوا فيها مدينة (كرتا جونونا) أى قرطاجنة الجديدة التى اقتنصوها غامصة لهم . وهكذا شهدت هذه البلاد منذ سنة ٤٥٥ ق.م وحتى سنة ٢٠٥ ق.م تأثيرين : أحدهما أوربى من طريق العنصر السلتى واليونانى والآخر آسيوى إفريقى أو سامى من طريق العنصر القرطاجنى .

ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتينى أوربى عند مجئ الرومان سنة ٢٠٥ ق.م ، حيث أسسوا على البلاد من القرطاجنيين وأسسوا مدينة Italica (طالقطة) والتى تسمى بالطقطة . وهو اسم مشتق

(١) يذكر د. العبادى : أن العناصر السلتية Celts جاءت من أوربا

وأن العناصر الإيبيرية Iberos جاءت من المغرب .

(انظر مجلة عالم الفكر ص ٣٤٣ العدد الثانى المجلد

المعشر سنة ١٩٧٩ م ، المختلر من عالم الفكر ص ٩٣) .

من كلمة إيطاليا . ولما ضعفت الدولة الرومانية الغربية عانت إسبانيا — كغيرها من ولايات الدولة الرومانية — من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة التي تصفت عليها منذ سنة ٤٠٩ م حيث اجتاحتها قبائل الآلان ، والسويف (السوابيون) والوندال الذين كانوا أكثر العناصر الجرمانية تخريباً ، فاستقر السويف وقسم من الوندال في جليقية واشتوريش ، ونزل الآلان في لشدانية (البرتغال حالياً) ، وأقام معظم الوندال في باطقة وجزء من شرق الأندلس . ثم جاء القوط الغربيون بزعملة أطاوولف فانتزعوا برشلونة من الوندال سنة ٤١٤ م واتخذوها مقراً لهم ، واضطروا الوندال إلى العبور للمغرب سنة ٤٢٩ م ، وظلوا يحكون هذه البلاد إلى أن كان آخر ملوكهم غيطشة Witiza (٧٠٠ م) الذي اغتصب روعريك (لذريق) حاكم باطقة الملك منه ، مما أدى ببنائه إلى الاستعانة بالعرب من طريق جولييان (يليان) حاكم سبته وحثهم على فتح الأندلس (٢) .

وقد أسلم عدد كبير من الإسبان بعد الفتح ، وكان لسياسة التسامح التي سار عليها الفاتحون أثر كبير في ذلك ، بالإضافة إلى

-
- (٢) انظر بنيامين مارنجهون : مدينة الإغريق والرومان ص ٩٣ ترجمة أمين تكلال القاهرة سنة ١٩٤٨ م ، دائرة معارف الشعب كتاب الشعب ٦١ ص ٣ ، د . السيد سالم : تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٥١ — ٥٦ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٥ وبعدها . د . عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ ، على إسلام : اسبانيا والأندلس ص ١٨ . د . إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربيين ص ٢١ القاهرة سنة ١٩٥٨ . د . حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٦ .

ما وجده هؤلاء من مبادئ وقِيم نبيلة لى الإسلام دفعتهم إلى اعتناقه من إيمان ، كما دخل بعضهم فيه لصالح شخصية . وقد أطلق العرب على هؤلاء اسم المسألة أو الاسألة . أما الذين بقوا منهم على دينهم فقد عرفوا باسم العجم (٢) .

وقد اعتبروا أهل ذمة عليهم دفع الجزية للمسلمين فى مقابل حمايتهم والدفاع عنهم داخل دولة المسلمين بالاندلس فقد أمنهم موسى ابن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية (٣) وكان لهم رئيس يلتب بالقومس . وكان أول من تولى هذا المنصب فى عهد عبد الرحمن الداخل رجل يسمى أرتباس . وكان كما ذكر ابن القوطية « من عقلاء الرجال وله جملة صالحة من الأخبار » ، كما كان هناك قبايسة محليون ينتخبهم النصرارى لكل مدينة ، كما كان لهم قاضى يعرف بقاضى العجم أو النصرارى يفصل فى منازعتهم ، وكان أول قاضى لهم حفص ابن عبد البر وكان يتبع القوانين القوطية فى الحكم بينهم (٥) .

وقد أطلق على النصرارى الإسبان الذين عاشروا المسلمين ، واخططوا بهم ، وتعلموا العربية دون أن يدخلوا فى الإسلام اسم (المستعربين) وكانوا يشكلون غالبية سكان البلاد فى السنوات الأولى من الفتح

-
- وقد أنكر د. مؤنس إتصال أبناء غيطشة بالعرب وحثهم على غزو الأندلس فى ص ٥٦ ثم عاد بعد ذلك فى ص ٦٤ ورجح اتصالهم . (انظر : فجر الأندلس ص ٥٦ ، ٦٤) .
- (٣) د. لطى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٢ ، د. العبادى : مجلة المختار من عالم الفكر ص ٩٦ .
- (٤) الرسالة الشريفة ص ١٩٩ ، تاريخ المسلمين وأئامهم ص ١٢٠ .
- (٥) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ ، ٣٨ ، ص ٥ .

غير أن أعدادهم أخذت في التناقص بدخول الكثيرين منهم في الإسلام حتى أصبحوا أقلية بالنسبة للمسلمة . وقد تفرغ أهل الذمة بحريتهم الدينية ، وعاشوا إلى جوار المسلمين في حرية وأمان وسلام في أحياء خاصة (٣٦) .

والكتاب الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لـ صاحب أريولة بعد فتحها سنة ٩٤هـ خير شاهد على ذلك ونمته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب من عبد العزيز بن موسى ابن نصير لـ نصير بن عبدوش أنه نزل على الصلح ، وإن له عهد الله وذمته ونبة نبيه ﷺ إلا يقدم له ولا أحد من أصحابه ولا يؤخر ، ولا ينزع عن ملكه ، وأنهم لا يقتلون ، ولا يسبون ولا يفسق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون من دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وادى الذي اشتربنا عليه ... الخ » (٣٧) .

وقد طبق المسلمون سياسة التسليح معهم فتركوا لهم أرضهم يزرعونها ويدفنون خراجها وتركوا لهم كنائسهم ، ولم يستولوا عليها ما عدا الكنائس التي تسبوا بينها وبين النصارى ليقيموا فيها بمسجد جامعة . مثل مسجد رفينة الذي أقيم في جزء من كنيسة سلتنا رفينة . وذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير أقام فيها وذلك غير صحيح والحقيقة أنه أقام داره بجوارها وأبنت على بابها المسجد الذي قتل فيه .

(٣٦) تاريخ المسلمين وأئلامهم في الأندلس : ص ١٢٠ .

(٣٧) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ٦٢ - ٦٣ ، بغية الملتبس

ص ٢٧٤ ، عجم الأندلس . ج ١ ص ٥٥ - ٥٦ ، د. لطفي

عبد البقيع : الإسلام في إسبانيا ص ٢٢ - ٢٣ . وهناك اختلاف

لطيف في بعض ألفاظ هذه المعاهدة لدى بعض المصادر .

بومثل جلع قرطبة الذي اقيم في شبطر بن كنيسة شنت بنجنت ، وكان النصراني اديرهم مثل دير ارملاط في الطريق بين قرطبة وإشبيلية ، ودير سان خوان دي لايتيا الذي اقله الراهبان غوتو وفيلكس في عهد عقبة بن الحجاج السلولى شمال إسبانيا ، وكانت إشبيلية في العصر الأموي مركزا استقيا هاما . وكان أول من تولى رئاسة اسقفية إشبيلية المطران المتد بن غيطشة (٨) ، وكانت اصوات اجراس الكنائس تقرر جنبا إلى جنب ببع اصوات المؤذنين في المسجد . مما يدل على مدى تسامح المسلمين ، وتركهم النصراني يمارسون شعائرهم بحرية تامة .

وقد وصف الشاعر أبو عامر بن شهيد إحدى الكنائس بقرطبة وقد بات فيها ليلة مع بعض أصحابه فقال : « وقد مررت بأضغاث آس ومررت بسرور واستيناس ٠٠٠٠ وقر النوافيس يبهج سيمه ، ويرق الحيا يسرج لعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحا بالزنانير ابدع توشيح » (٩). كما نظم ابن حزم أبياتا جاء فيها :

التي هي وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصراني النوافيس (١٠)

وقد ظل النصراني الإسبان يتمتعون بحريتهم الدينية حتى جاء المرابطون إلى الأندلس وأخذوا يحدون منها : فمنعوا قرع النوافيس ،

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٧١ وبمعدها ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤ ، ٣٧ نفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ . نجر الأندلس ص ١٣٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين في الأندلس . ص ١٣١ .

(٩) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(١٠) طوق الحمالة ص ٣٤٧ .

والزموهم بارتداء ثياب معينة ليتبينوا عن المسلمين ، والا يركب أحد منهم فرسا ، والا يشتري مسلم منهم رداء يرتدوه . (١١) .

ويبدو ان ذلك قد كان بسبب اشتداد حركة الغزو المسيحى (الاسترداد او الاستعادة) كما يسميها الإسبان ، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم ومعلونة الدول المسيحية فى شمال إسبانيا ضد المسلمين . فهو رد فعل للدفاع عن النفس وتأمين البلاد . ولذلك فقد نفي الموحدون كثيرا منهم إلى المغرب ليكونوا بمعدين عن مناصرة الملك المسيحية ضد المسلمين ، وكان الخليفة ابو يوسف يعقوب المنصور هو اشد خلفاء الموحدين وطأة عليهم .

ورغم ذلك فان احوال اهل الذمة بصفة عامة تحت حكم المسلمين لا تقارن بما اصاب المسلمين بعد ذلك على يد الاسبان المسيحيين بعد ان اخذت دولة الإسلام فى الانحلال والسقوط ويكنى ذكر محاكم التفتيش وويلاتها ككليل على ذلك .

ويشهادة الكثير من المستشرقين فان المسلمين كانوا اكثر تسامحا مع غيرهم من اصحاب الديانات الأخرى يقول المستشرق الروسى بارتولد « ومهما يكن من شىء فإن النصارى الذين عاشوا فى ظل حكم المسلمين لم يصعب قط ما اصاب المسلمين فى إسبانيا من الظلم والعنوان » (١٢) . هذا وقد برز من هؤلاء المستعربين الإسبان الذين شققوا باللغة العربية وتسموا باسماء عربية شخصيات كان لها دور هام بالاندلس ،

(١١) ابن عبدون : آداب الحسبة ص ١١٢ - ١١٣ .

المراكشى : المعجب ص ٢٠٣ طبعة السبعة سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٧ - ترجمة حمزة طاهر - ط ٥ دار المعارف بمصر د.ت .

مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف في المخطوطات الإسبانية باسمه
(ريسونديو) ، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم ، والأسقف قرطبة
أصبغ بن عبد الله بن نبيل (١٣) ، كما نبغ منهم عدد من المترجمين تلموا
بترجمة كثير من الكتب القشتالية « الإسبانية » إلى العربية والعكس.
بفضل إجادتهم للغة العربية واللاتينية ، وكانوا بذلك حلقة اتصال بين
الثقافة العربية والأوربية ومن هؤلاء القاضي جيزون قاضي النمارة.
بقرطبة في خلافة الحكم المستنصر ، وكان يقوم في بعض الأحيان بدور
المترجم بين الخليفة وكبار الإسبان . (١٤)

وكما لعب المستعمرون دوراً ثقافياً فقد لعبوا دوراً سياسياً هاماً
بمخالفتهم للمولدين ضد العرب في عصر الأمير عبد الله . كما تجلّى في
ثورة عمر بن حفصون (١٥) .



(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٣٢
(١٤) د. أحمد هيك : تاريخ الأندلس ص ٣٠
(١٥) أنظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٥٩ ، ٢٦٥

خامسا : عنصر المولدين

ويقصد بهذا العنصر الجيل الذي ولد من آباء مسلمين سواء
كانوا عربا أو بربر ، وامهات أعجميات سواء كن إسبانيات أو غير
ذلك ، ونشأ على الإسلام . فقد أتبل الفاتحون من العرب والبربر على
مصارعة أهل البلاد ، فتزوج الكثيرون منهم من الإيبانيات ، وعاشروا
أهل البلاد واختلطوا بهم ، وعن طريق ذلك انتشر الإسلام ولغته في
الأنطلس ، وامتزجت دماء الفاتحين من عرب وبربر بدماء أهل البلاد
الأصليين ونشأ من ذلك جيل المولدين . (١)

(١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأنطلس من ١٢٨ ،

د. لطفى عبد البديع : الإسلام في إسبانيا من ٢٤٠ .

اتصل بالعناصر العربية والبربرية في الأنطلس عنصران آخران هلمان
بوهما المولدون ، والصقالبة . ومن المولدين من اندمج في المجتمع الأنطلسي
المسلم اندماجا جعل بعضهم يتدعون أنسابا عربية ومن هؤلاء أسرة بنى
مغيث الرومى الأصل ، وكان منهم من ختم الثقافة العربية ومنهم بقى بن
مخلد وابن حزم وابن سراج القرطبي . وكما كان للمولدين فضل في خدمة
الثقافة العربية فقد كان للصقالبة فضل أيضا واشتهر منهم كثيرون
مثل جوزر مولى الحكم المستنصر ، وفاتن مولى المنصور بن أبى عامر
الذى ناظر صاعدا اللقوى وانتصر عليه . ويذكر جولدزير أن العرب كانوا
يتعاملون عليهم بما دعا بعضهم إلى تأليف كتب في ذكر مفارهم وهو
كتاب (الإستظهار والمغلبة على من أنكر فضل الصقالبة) .

ولعل هذا الكتاب يعد أول محاولة للتدليل في دائرة الشعوبية وإن
لم يكن في صميمها حيث دافع فيه مؤلفه عن بنى جنسه دون التهجيم

على غيرهم . (نوارد المخطوطات ج ٣ ص ٢٤١) .

أما الميل الحقيقي للشعوبية فقد أخذ طابعه الكلي في محيط المولدين ، ولكن يتميز هذا الميل بحرصه على الإسجام مع الإسلام ، على العكس من شعوبية المشرق حيث ترى الشعوبيين فيه من الملاحدة والزنادقة في أغلب الأمر .

ويعد محمد بن سليمان المعافري من أقطاب الشعوبيين في الأندلس . ومنهم أبو محمد عبد الله بن الحسن المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وكان معروفاً بشدة تعصبه للعجم والغض من شأن العرب . ويلاحظ أن كلمة العجم عند شعوبى المشرق تعنى الفرس في القسم الأول أما عند شعوبى الأندلس فتعنى الإسبان والروم .

ويبدو أنه لم يكن هناك تنافس أدبي للشعوبيين في الأندلس إلا بعد زوال الخلافة الأموية حيث انتقبت إلى دويلات صغيرة استطاع فيها المولدون والمقاتلة أن يستأثروا بعدة ولايات ، ومن ثم أصبحنا نسمع صوت الشعوبية قويا .

ومن أقوى هذه الأصوات صوت أبى عابر بن غرسية الذى عاش في بلاط مجاهد الصقلي ملك دانية ، والف رسالة في تفضيل العجم على العرب وصوت ابن سيدة العالم اللغوى صاحب المخصص الذى يقول عنه الذهبي « وكان شعوبيا يفضل العجم على العرب » ... وكان منقطعا إلى الأمير مجاهد المامرى .

(انظر الرسالة والرّد عليها في نوارد المخطوطات القسم الثالث

ص ٢٤٦ - ٢٣٠) .

وقد كان هذا الجيل يشكل على عهد أمراء بني أمية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنهم تكونت جماهير الأندلس وأهل البيوتات منهم ، وكان فيهم من يدمى نسباً في المشرق يرى فيه تعظيماً لشأنه مثل ابن حزم ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس « أنه كان من غرائب إتيانائه في فارس ، وإتباع أهل بيته له في ذلك بعد حنطة من الدهر » (٢) كما احتفظ كثير منهم بأسمائهم الإسبانية القديمة مثل : بنو أنجليس ، وبنو القبطرنة وبنو رذلف ، وبنو مرنديش ، وبنو خرسمية ، وبنو فرتون أصحاب تطيلة والفجر الأعلى . (٣)

وفي كتب التراجم الأندلسية كثير من هذه الأسماء والكنى . ومن مشاهير المؤرخين المولدين أبو بكر بن القوطية صاحب كتاب (تاريخ الانتفاخ الأندلس) .

وقد كان جل أمراء الأندلس وخلفائها من أصل مولد تجرى في عروقهم دماء غير عربية وبخاصة الدم الإسباني من جهة الأمهات أو الجدات ، فقد كان عبد الرحمن الداخل من أم ولد بربرية تسمى راج أو رداح ، وكان ابنه هشام من أم ولد تسمى حلال أو حوراء ، وكان الحكم بن هشام من أم ولد تسمى زخرف ، وكان عبد الرحمن الناصر من أم ولد تسمى مزنة ، وكان هشام المؤيد بن الحكم المستنصر من أم ولد بشكنسية تدعى صبح ، وغير هؤلاء كثيرون (٤) .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١٢ ص ٢٥٠ نشر أحمد غريد رفاعي .

(٣) انظر في ذلك ابن حيان : المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ص ١٦ وبعدها نشر بلثور أنطونيه ، باريس سنة ١٩٣٧ ، وجمهرة أنساب العرب ص ٤٦٧ .

(٤) انظر المقري : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ - ١٦٠ ، المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١١ - ٣٨ الضبي : بقية الملوك ص ١٢ - ٣٣

ومع ان هؤلاء المولدين كانوا يعتقدون الإسلام ، ويمشيون حيلة:
المسلمين الوافدين على الاندلس ، إلا ان الكثيرين منهم كانوا يتعصبون
لاصولهم الإسبانية الأولى ويتحالفون مع بنى جلدتهم من العجم او النصرارى.
فهد العرب والبربر معاً(٥) .

ولقد تألفت منهم جماعات كبيرة عاشت فى المدن الهامة مثل:
طليطلة التى كانت تضم اكبر طائفة منهم ؛ وكانت مركزاً من اهم مراكز
عصبيتهم ، وقد ظهر ذلك فى الحركات الثورية المتعددة التى قاموا بها ضد
الأمويين وميلهم للانتماء الى سلطان قرطبة .

وكذلك كانت إشبيلية معقلاً هاماً من معقلاتهم . حيث كانوا يمثلون
اكبر طائفة من سكانها ، وكانوا يعملون بالإدارة والتجارة وظهر منهم
الكثير من الأغنياء(٦) .

وقد انتهز هؤلاء المولدون فرصة ضعف دولة بنى أمية فى عهد
الأمير عبد الله فثاروا فى عدة نواحي من الاندلس ضد السلطة المركزية
وكان من اخطر ثوراتهم ثورة عمر بن حفصون الذى تغلب على ببشتر ،
وثورة عبد الرحمن بن مروان الذى عرف بابن الطيقى - نسبة إلى
جليقية - « وكانت دعوته عصبية للمولدين على العرب »(٧) كما رثار
يحيى بن بكر بن رندل فى شنت مرية باشكونية(٨) .

(٥). حنان : دولة الإسلام - العصر الاول القسم الثانى ص ٢٧ هامش ١

(٦) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٧) ابن حبان : المقتبس ص ١٥ - ١٦ .

(٨) انظر القزرى : فتح الطيب ج ٢ ص ٤١٧ ، ابن حزم : جبهة انسابه

العرب ص ٤١٥

وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد إنتشار اللغة العجمية أو اللطينية — كما يسميها المؤرخون العرب — بين الاندلسيين من عرب وبربر ، وهى ما يطلق عليها اسم اللغة الرومانتية (الاسبانية الحديثة أو المالكية) واختلاطها باللغة العربية (٩) .

ومن طريقهم تداخلت العربية والرومانتية تداخلا كان من مظاهره نشأة من الموشحات والأزجال (١٠) .



(٩) د. لطفي عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٥ ، د. حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٣٧٧ ، البير حبيب : الحركة اللغوية فى الاندلس ص ٣١ — ٣٢ .

(١٠) من الموشحات والأزجال راجع : د. أحمد هيكال : الادب الاندلسى ص ١٤٥ وبعدها ، د. عبد الميزان الأهوانى ، الزجل فى الاندلس بالقاهرة سنة ١٩٥٧م د. محمد عنانى : الموشحات الاندلسية عالم المعرفة عدد ٢١ ، صوبيل مستيرن : الموشح الاندلسى ترجمة د. عبد الحميد شححة ، دار الاداب بالقاهرة سنة ١٩٩٠م .

مسألة : اليهود

شكل اليهود عنصرا من عناصر السكان في المجتمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي ، وقد عاثوا كثيرا من اضطهاد الرومان لهم بدخول المسيحية إسبانيا ، وخاصة بعد القرارات التي إتخذها المجلس الكنسي في مدينة البيرة سنة ٤٠٣ - ٢٠٤ م ، ثم ازداد اضطهادهم بعد المجلس الكنسي الذي عقد في طليطلة سنة ٥٨٩م وقدم فيه الملك (ريكارو) الذي كان يكره اليهود عدة اقتراحات للمجلس تتلخص في : منع استخدام اليهود للمسيحيين في أي عمل ، وعق أي عبد مسيحي مملوك لليهودي ، ومنع زواج المسيحيات من اليهود ، ومنع الختان الذي كان يفرضه اليهود على عبيدهم ومعتقبة من يصنع ذلك بمصادرة أملاكه ، وطرد اليهود من مناصبهم في الحكومة ، وعدم تعيينهم مستقبلا ، وإزائهم بتعليق شارة مميزة لهم في مكان ظاهر حتى يعرفهم الجميع .

وقد وافق المجلس على هذه المقترحات وبدأ تنفيذها ، ثم جاء الملك (سميت ت ٦٢١ م) فضيق الخناق عليهم أكثر وأكثر وخاصة في إقامة شعائرهم الدينية وأعطاهم مدة سنة لاعتناق المسيحية أو الرحيل عن إسبانيا ، نهاجر الكثير منهم وبقى البعض متظاهرا باعتناقه المسيحية خروبا على نفسه وأملاكه .

ولكنهم كثروا يمارسون شعائرهم المسيحية سرا . وكان هؤلاء يسمون باليهود المستترين *Judaizantes* . ثم جاء عهد الملك (سبوتالا) فتنفس اليهود الصعداء حيث لم يكن متعصبا للمسيحية كسلفه ، فانتبهز اليهود الفرصة وعاد الكثير منهم إلى اليهودية علنا . ولكن بعد موته جاء الملك (سيسفاند) الذي طلب من المجلس الكنسي تجديد

القرارات السابقة الخاصة باليهود . وفى سنة ٦٣٢ م جدد المجلس
تدراجه السابقة وأضاف إليها قرارات أخرى منها :

- ١ - إلزام اليهود بتسليم أبنائهم الذين بلغوا سن السابعة للكنيسة
لتعديدهم وتربيتهم تربية مسيحية .
- ٢ - تسليم اليهودى ، إذا ارتد عن المسيحية إلى أحد المسيحيين
ليسير عبدا له .

وفى عهد الملك (كاثيلا) قرر المجلس الكنسى بطليطلة طرد اليهود
من البلاد فصاروا إلى العهد بأنهم سيخلصون للمسيحية ولن يمسودوا
لدينهم مرة أخرى ، وظلوا محافظين على ذلك طوال عهد هذا الملك
فلما مات وأعطى الملك (مسوانيد) حاد كثير منهم إلى اليهودية مرة
أخرى وكانوا يقيمون شعائرها علنا . ثم أرغم اليهود على عهد الملك
(إرنيج) على التنصر وأصدر أمرا - عن طريق المجلس الكنسى بطليطلة -
بتحريم كتب اليهود المعادية للمسيحية وتحريم الختان ، ثم أصدر الملك
(إيكيا) صهر إرنيج أمرا بتسليم كل اليهود للمسيحيين ليكونوا عبيدا
عندهم ، ومصادرة جميع أملاكهم وتوزيعها على المسيحيين ومعلوبة من يعتق
يهوديا من المسيحيين وفصل أولادهم عنهم بالقوة وتصريرهم . (١)

وقد كان هذا التعسف وذلك الاضطهاد الذى لقيه اليهود طوال عهد
الرومان والقوط راجعا بالإضافة إلى العداء التقليدى بين اليهودية
والمسيحية إلى المؤامرات والفتن والاستغلال الذى تلم به اليهود
ومارسوه على المجتمع الإشبلى وغيره من مجتمعات أوربا . ولذلك ذكر
أنهم اتصلوا بيهود المغرب وطلبوا منهم إفساء العرب على فتح
الأنطلس ، وبالرغم من أنه لا توجد دلائل على ذلك إلا أنه من غير المستبعد

(١) انظر د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأنطلس ص ١٣ - ١٧

أن يكون ذلك قد حدث فقد عامل العرب اليهود معاملة طيبة عند دخولهم
الاندلس ، وعهدوا إليهم بحراسة بعض المدن التي فتحوها تحت إمرة المسلمين .
ولا يستبعد أيضا أن يكون اليهود قد آزروا المسلمين عند الفتح لتخليصهم
من ظلم القوط واضطهادهم وخاصة بعد ما سمعوا عن تسامحهم (٢) .

ولما استقر المسلمون في الأندلس تخلص اليهود من ظلم واضطهاد
الحكام الذين سبقوهم فقد منحهم المسلمون حريات لم يكونوا يطموح بها منها
حرية العمل والتنقل والتملك بالإضافة إلى الحرية الدينية . وكان لذلك
آثره في هجرة الكثير من يهود أوروبا إلى الأندلس بعد فتح المسلمين لها .

وكان اليهود يتجمعون في عدة مدن بالأندلس وعلى رأسها
غرناطة التي كانت تزخر بكبر جالية يهودية ولذلك سميت (اغرناطة
اليهود) ، ومنها مدينة اليسانة التي تقع جنوب قرطبة ويقول عنها
الإدريسي : إن سكانها كانوا من اليهود فقط ، وأهلها أغنياء مياسير أكثر
غنى من اليهود الذين يسائر بلاد المسلمين فقط ولا يداخلهم فيها مسلم
اليتة (٤) ، ومنها أيضا قرطبة ولبطلة وإشبيلية ومرقسطة والبحيرة ومالقة .
وقد كلفوا يحتكرون بعض المهن والحرف التي تدر عليهم أموالا طائلة كتجارة
الرقيق والخصيان والحريير والتوابل . وكانوا لثرائم يرسلون ببعض
أموالهم إلى إخوانهم من يهود المغرب والمشرق وأوروبا (٥) .

(٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من ١٣٣ ،
د. لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا من ٢٢
(٣) السيد سالم : المرجع السابق من ١٣٢ ، د. الطاهر مكي : دراسات
اندلسية من ٥٥

(٤) وصف المغرب وأرض السودان وبصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق
من ٢٠٥ ط. ليدن سنة ١٨٦٦ م .

(٥) المقرئ : فتح الطيب ج ١ من ١٧١ ، ابن خلدون : المعبر ج ٢ من ١٤٢
د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ من ٤٨٢ .

ولذلك لعب اليهود دورا هاما في الحياة الاقتصادية وكذلك في الحركة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الأطباء والفلاسفة والشعراء مثل حسداى بن شبروط (شبروط) طبيب الخليفة الناصر الذى كان رسوله في استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الأجنبية ، وتقام بدور هام في السفارة التي أوفدها قسطنطين السليح إلى الأندلس سنة ٥٣٨ هـ ، كما استند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نائير .

هذا وقد لعب اليهود دورا مهما في الحياة السياسية في زمن ملوك الطوائف وخاصة في ملكة غرناطة حيث وصل واحد منهم وهو ابن النفريلة إلى مرتبة الوزارة في دولة بنى زيرى الصنهاجيين ، وغدا له من النفوذ والسلطان ما جعل الكثير من اليهود يسيطرون على الكثير من مناصب الدولة نظرا لتقريبه لهم مثل إسحاق بن إسحاق بن إبراهيم الذي أصبح صاحب الشرطة في إيليه ، كما وصل أبو الفضل بن حسداى ابن شبروط إلى مرتبة الوزارة في ملكة سرقسطة (٦) .

وقد كان لليهود - مثل النصارى - نظام إدارى خاص بهم في الأندلس حيث كان لهم رئيس يتولى شئونهم يسمى (الناجد) أو الحاخام

(٦) د. محمد عبد المجيد : اليهود في الأندلس ص ٢٢ - ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثرهم ص ١٢٢ د. الطاهر مكي : دراسات أنطلمسية ص ٥٤ ومصدرها ، على محمد راضى : الأندلس والناصر ص ٧٦ . وابن النفريلة : يدعى صمويل هاليفى ويسمى في المصادر الأندلسية إسمايل أو اشموال وهو من أهل ماردة ، ولد في قرطبة ، وتتلذذ في الدراسات اليهودية على يد أبى حنوك ابن موسى رئيس الطائفة اليهودية بالأندلس ، ودرس الفلسفة على يحيى بن داود وتعلم العبرية واللاتينية والعربية ، واستطاع

==

الأكبر . وكان من أشهرهم في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حسداى
ابن شبروط (٧) .

ولم يكن لليهود حضارة أو ثقافة تذكر بالأندلس قبل الإسلام ،
ومن نبيغ منهم فقيها كان ذلك في ظل الإسلام وتسامحه وتحت رايته .
بدليل أنهم في أسبانيا القوطية لم يكن لهم مثلاً كان في الأندلس
الإسلامية ، فتراثهم بالأندلس يعد ثمرة من ثمرات الاختلاط بالثقافة
العربية التي نهلوا منها ، ولذلك عندما أخذ حكم المسلمين في الزوال
من الأندلس نصبت العقليات اليهودية ، ولم يظهر لهم تراث مماثل
إلا خلال عصر النهضة في أوربا (٨) .

لقد تمتع اليهود في هذا العصر الأيوبي بكثير من الوان التسامح
لم يظفروا به خلال حكم القوط ، ولا غيروا فقد غدوا عنصراً هاماً
في الإدارة والتجارة والصيرفة كما استندت إلى الكثير منهم مناصب هامة
في الدولة ، وأصبحت بعض الحرف تكاد تكون مقصورة عليهم (٩) .

ان يسيطر هو وأبنيه يوسف بن بعده في دولة بني زيري
في غرناطة فتولى بيت المال والوزارة ، كما تولى أبنيه مرتبة
الوزارة أيضاً ولابن النفريلة كتب طعن فيه في الإسلام والقرآن
الكريم وقد رد عليه ابن حزم الأندلس في رسالة نشرها في
القاهرة د . احسان عباس سنة ١٩٦٠ م بعنوان (رسالة في الرد
على ابن النفريلة اليهودي) .

(٧) اليهود في الأندلس ص ٢٤ .

(٨) اليهود في الأندلس ص ٤٤ ، ٥٢ .

(٩) الإسلام في أسبانيا ص ٣٤ .

سليما : الصقلية (١)

كان لفظ صقلبي يطلق في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)
بالأندلس على الرقيق المجلوب من أوربا ، وكذلك من المناطق الشمالية
في إسبانيا . فقد ذكر ابن حوقل الذي زار الأندلس في هذا القرن
أن الصقلابة كانوا يجلبون من سواحل البحر الأسود ، ومن إيطاليا ،

(١) يرجع الصقلابة في أصلهم إلى الجنس الآري (أو الهندو أوري) .
والمعروف أنهم تزحوا من آسيا ، واستمروا يتوسعون في أوربا
حتى القرن العاشر الميلادي حيث ظهرت قوتهم ، وظل مستوهم
الحضارى ضعيفا بالنسبة للشعوب التي اصطدبوا بها . وقد
انقسموا إلى شعوب عديدة سكنت بلدانا مختلفة مثل بولندا
وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وروسيا ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :
١ - السلاف الجنوبيون : (اليوجسلاف) في الجنوب والوسط
ويشملون البلغار والمرب والكروات والسلوفينيين (سكان
سلوفينيا) .

٢ - السلاف الغربيون : في بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا
وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا .

٣ - السلاف الشرقيون : أو الروس ويتقسمون إلى الروس
الكبار في الوسط والشمال ، والروس الصغار في الجنوب ،
والروس البيض في القرب (انظر : محمد ديب : تاريخ العرب في
إسبانيا ج ١ ص ٢٧٨ ، د. سهام أبو زيد : تاريخ الصقلابة في مصر
الإسلامية ص ١٤٤ مجلة كلية الدراسات الإنسانية العدد التاسع سنة

ومن قطلونيه وجبقيه فى شمال إسبانيا(٢) .

وقد أطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم فى العصور الوسطى على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار أو بعبارة أخرى سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقا إلى البحر الإديراتى غربا(٣) . فيشير المسعودى إلى أن الصقلية اجنّس متعددة من الروس والبلغار والصرب والسلاف من أصول آسيوية كانت تسكن القوقاز حول البحر الأسود(٤) .

ولقد دأبت القبائل الجرمانية المتبربرة والفراسنة على سببى الكثير من أفراد تلك الشعوب ، وبيعهما إلى المسلمين فى الأندلس ، وللهنذا سموا بالسلاف بمعنى الرقيق أو العبيد ، ثم جهر اللفظ فى العربية إلى

(١٩٩١ م) ، د. أحمد العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ص ١٢٥
مجلة المختار من عالم الفكر الكويت سنة ١٩٨٤ م) .

وقد غلب على هذه الشعوب اسم السلاف وتطلق سلاف
Slaves فعربها العرب إلى صقلبي التى ترادف عبيد Slave
وقد أصبح هذا اللفظ يطلق على الرقيق من هذه الشعوب حتى
أن الإنرج قد استخدموه بنفس هذا المعنى فى لغاتهم Sklave
بالانجليزية ، Esclave بالفرنسية Slavery باللاتينية
(جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ٥ ص ٣٣ - ٣٤) .

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ص ٣٣٣ ، المختار من عالم الفكر ص ١٢٥ .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٥ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٥ وبعدها ، التنبيه والإشراف
ص ٥٦ .

صقالبة وتوسع في استعماله فأصبح يطلق على كل الرقيق الأبيض
المجلوب من أمة لمة مسيحية (٥) .

وكان أغلبهم يؤتى بهم أطفالاً من حوض نهر الدانوب وبلاد
الفرنجة ويربون تربية عسكرية ، ويدربون على الخدمة في القصور ،
والانخراط في سلك الجندي ليكونوا جنوداً في الحرس أو الجيش . وكان
المستفيدون منهم في القصور يتم خصالهم للتعليم بخدمة الحريم ،
وكان معظم تجار الرقيق من اليهود ، ولهم معامل خاصة للخماء
في أوربا - وخاصة في فرنسا - ومن أشهر معاملهم فيها معمل فردان
بمنطقة اللورين ، وكذلك في الأندلس - وخلمة في مدينة خلف بجاية
وهي شينا القديمة عاصمة إقليم البيرة - وكان معظم أهلها
من اليهود (٦) . وعليهم تسع تبعه هذه العملية الشنيعة التي يجرمها
الإسلام . ولذلك فقد كان الخصيان يباعون بأثمان مرتفعة من غيرهم
من الرقيق . يقول ابن حوقل « وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة
الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند تربيتهم بها يخصون ويفعل ذلك بهم

(٥) د. سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطى ج ١ ص ٦٢١ ، ليني
بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا ص ١١٠ عنان : دولة
الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٤٦٦ .

(٦) آدم مئز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٥٣ ، د. لطفى عبد البديع :
الإسلام في إسبانيا ص ٣٦ . ومن المعارف عليه أن الروم
البيزنطيين كانوا أول من قام بعملية الخماء . (الحيوان ج ١
ص ١٢٥) ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٢ .

تجار اليهود (٧) .

وقد تميز الخصيان من المتقلبة بمدة صفات منها ما ذكره الجاحظ حيث قال : « والخصى أجود خدمة ، وانطن لأبواب العطاء والمنولة ، وهو بها أنفق ، ولها اليق ، ونجده أيضا أنكى عقلا عند المخاطبة . والصقلبي سلس القياد لبراعته من وعورة العصبية » ويبدو أن الجاحظ قد حكم في ذلك على من شاهده في بغداد منهم حيث كانوا قلة غير متمسبة بخلافهم في الاندلس حيث كثروا وظهرت مصيبتهم وشعوبيتهم واضحة ضد العرب وخاصة في الجزائر الشرقية التي استقل بها الأموي بجاهد العماري بعد سقوط الخلافة الأموية وكان معظم سيكائهم منهم . كما أنهم مشهورون بالصبر مع طول الركوب ، حتى يلقوا القرب في ذلك ، كما أنهم يجيدون الرمي بالنشاب لإجادة تامة .

كما وصلهم الجاحظ بأنهم لا يتكلمون من الصناعات إلا صفارها ، ويجيدون الضرب على الأوتار . ولكن هذا الرأي لا يمكن تعميمه على كل المتقلبة ولا يمكن الأخذ به كتاعدة عامة بدون استثناء . وشبههم أيضا بالحمال الأبيض وشبه الزنج بالضمال الأسود (٨) .

وقد اشتهروا بخصن الخدمة كما يستدل على ذلك من قول الخوارزمي « ويستخدم التركي عند غيبة المتقلبي » (٩) . كما اشتهروا بالشدّة والمراس في الحروب يقول ابن مبدون

-
- (٧) صورة الأرض من ١٠٥ — ١٠٦ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٢ ، ص ٨٥ ، ظهر الإسلام ج ٢ ص ٦ .
(٨) الحيوان ج ١ ص ١١٦ — ١١٧ ، المحاسن والمساوي ج ١ ص ٣٩٦ .
(٩) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١١٦ .

» ومن أراد المبيد لحفظ النفوس والأموال فالهند والنوبة ، ومن أرادهم للكسدة وللخدمة فالزنج والأرمين ، ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالترك والمستغلبة « (١٠) .

وقد كان الأمير الحكم بن هشام أول من استكثر منهم واتخذ منهم حرساً خاصاً له فجلسب منهم خمسة آلاف وأطلق عليهم اسم الخرس لعجمتهم (١١) . ثم أخذت أعدادهم في الإزدياد وخاصة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث ذكر أن عددهم وصل في قرطبة وحدها في عهده نحو ثلاثة عشر ألفاً وبسبعمائة وخمسين (١٢) .

وقد نبغ عدد كبير منهم ، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة في الإدارة والجيش وخاصة في عهد الناصر مثل نجدة الصقلي تساند الجيش ، والدرى صاحب الشرطة ، وأفلح صاحب الخيل ، وخلف مدير الطراز سنة ٣١٣ هـ ، وقد حاكم طليطلة سنة ٣٣٦ هـ (١٣) .

(١٠) رسالة نفقة في شري الرقيق (نوار الخوطوط) ص ٣٥٢ .
(١١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٧ . أطلقت عليهم مدة أسماء لغري مثل الأبناء ، والفتيان ، والطفاء ، والمولوج ، والمجاوب ، والماليك إلى جانب الخرس ، والمستغلبة .

(١٢) د. لطفى عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ٣٦ . وهذا الرتم مختلف في تقديره فبعضهم يصل به إلى خمسة عشر ألفاً أو يزيد ، وعلى كل فليس هناك تقدير دقيق لأعدادهم إلا أن ذلك يدل على ظهور عنصر جديد في المجتمع الأندلسي كان له دور واثق مقل أو مشابه للعنصر التركي في المشرق .

(١٣) د. العبادي : الإسلام في أرض الأندلس . مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٢٦ ، تاريخ العرب في إسبانيا ص ٣١٢ .

كما استكثر الحكم المستنصر منهم فاشتد شوكتهم ، وكثروا في البلاط ووصل الكثير منهم إلى النفوذ والسلطان وعلى رأسهم مائق وجوزر اللذين كان لهما دور كبير في عهد المستنصر وابنه هشام . وقد نبغت طائفة منهم في العلم والأدب إلى جانب الحرب والسياسة ومن هؤلاء خازن مكتبة المستنصر ويسمى طييد . وقد خصهم واحد منهم وهو ابن حبيب الصقلي بكتاب ذكر فيه مآثرهم وسماه (الاستظهار والمخالصة على من انكر فضل الصقلية) (١٤) .

وتد ذهب الكثيرون إلى أن الهدف من اعتماد الأمويين على هذا العنصر كان هو الحد من نفوذ العنصر العربي والبربري ، وإضعاف سيطرتها على الجيش حتى لا يكون لهما نفوذ وسلطان وتؤثر بتدخلونها في الثورات ضد الأمويين .

ويبدو أن الأمويين كانوا قد ملوا من كثرة الفتن والثورات والصراعات التي قام بها العرب والبربر ضدهم ، وكذلك الصراعات بين العنصرين العربي والبربري فازادوا الاعتماد على عنصر آخر جديد يتميز بالقوة والفتوة ليكون سندا لهم كما اعتمد العباسيون منذ عصر المعتصم بخاتمة على العنصر التركي بعد أن ملوا من كثرة الفتن والصراعات بين العنصرين العربي والفارسي .

إلا أن ذلك قد أدى إلى ازدياد المنافسة والعصبية بين عناصر المجتمع فبدلاً من أن يكون الصراع بين عنصرين أساسيين هما العرب والبربر أصبح بين عناصر ثلاثة مما كان له أثره في المجتمع الأندلسي من فواحي شتى .

ومثال ذلك أنه عندما ولى الناصر مملوكه نجدة الصقلبي قيادة الجيش. التوجه لقتال ملك ليون (راميرو الثنى) سنة ١٢٢٧هـ فى موقعة الخندق. عند مدينة سيمانتقه هزم الجيش هزيمة شديدة وقتل نجدة ، وفر الناصر بنحو خمسين فارسا فقط بعد أن نجا باعجوبة ، حيث قيل إن سبب الهزيمة هو تغير نفوس العرب الذين كانوا فى الجيش لتولى قيادته صقلبي ، وتقديه المتعالية عليهم مما جعلهم يتركونه وحده غادى ذلك إلى هزيمته . ويقول صاحب أخبار مجبوعة عن هذه الموقعة « إن عبد الرحمن لم يكن له بعدها غزوة بنفسه » (١٥) .

وقد لعب الصقلابة دورا هاما فى الحياة السياسية بالاندلس فى هذا العصر حيث تدخلوا فى تولية الأمراء وعزلهم ، وشاركوا مثل البربر فى غمار الفتن والمؤامرات التى اندلعت فى قرطبة وغيرها . وكان من أشهر زعمائهم فيها خيران الصقلبي .

كما كان لهم دور أيضا فى الحياة العلمية حيث برز من بينهم بعض العلماء والأدباء والشعراء مثل فائق الصقلبي الذى برع فى الأدب وناظر ماعدا العالم اللغوى عند المنصور بن أبى علر فائحه وأعجب به المنصور ، ويذكر أنه وجد فى تركته بعد وفاته دفتر أدبية حسنة الضبط . كما ألف الأمير مجاهد الصقلبي صاحب دانية كتابا فى العربية يدل على قوته فيها (١٦) ويذكر ابن الأبار أن جيبا الصقلبي ألف زمن هشام

(١٥) أخبار مجبوعة فى فتح الأندلس ص ١٤٥ - ١٤٦ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١٩ ، تاريخ العرب فى أسبانيا ص ٢٨٠ .
(١٦) الضبى : بغية المتهمس ص ٤ .

الوزير كتبه (الاستظهار والمقالة على من انكر فضل الصقلابة) يتمصب
فيه لقومه . وذكر ابن بسام انه اطلع على هذا الكتاب الذى احتوى على
جملة من اخبارهم ونوادرهم واشعارهم ولكنه اعترض عن عدم ذكر شئ
منها فى كتابه النخيرة حيث قال « وشعرهم خارج عن شرطنا وليس
من جمعنا » (١٧) .

كما كان لهؤلاء الصقلابة اثر ايضا فى الحياة الاجتماعية حيث جلبوا
معهم من بلادهم الكثير من عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم ، وقد اشر
أطروطوسى إلى اختلاصهم بأنواع من الألحان والرقصات الشعبية
نسبت إليهم مثل اللحن الصقلبي والرقص الصقلبي الذى ذكرنا بشئ
منه الرقص الإسباني الحديث (الفلانجو) (١٨) .

ولذلك يرى المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا : ان الصقلابة
كانوا يمثلون العنصر الأوربي فى المجتمع الأندلسي ، وعن طريقتهم
انتقلت بعض المصور الشعرية التى نقلت فى الأندلس إلى البيئات
الأوربية واثرت فيها (١٩) .

ويبدو ان الصقلابة كانوا يعتبرون أنفسهم عنصرا متميزا ولذلك فإنهم
لم يختلطوا كثيرا بالعناصر الأخرى ، وحاولوا المحافظة على كيانهم الخاص
بما بحث فيهم النزعة العنصرية أكثر من غيرهم ، ولذلك فإنهم كانوا
أساس الحركة الشعبية فى الأندلس تلك الحركة التى انبعثت من الإمارات
الصقلبية فى عصر ملوك الطوائف ، حيث استطاع الصقلابة

(١٧) النخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ج ١ ق ١ ص ٢١٠ .

(١٨) الحوادق والبديع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبي تونس سنة ١٩٥٩ م .

(١٩) الإسلام فى إسبانيا ص ٢٨ .

أن يستأثروا بنصيب من تركة الخلافة الأموية فكونوا لهم ممالك في شرق
الأندلس وخاصة في بلنسية ، وطرطوشة ، ودانية ، والمرية ، ومرسية .
وكانت هذه الممالك الصقلبية تجمعها رابطة تحالف وولاء عنصرى
وتسمى بالدولة العلمرية الصقلبية تمييزا لها عن الدولة العلمرية التى
أسسها المنصور بن أبى علر . لأن أصحابها كانوا من ممالك
العماريين (٢٠) .

ومما يدلنا على نزعة الصقلبية الشعبوية ضد العرب كتاب
ابن حبيب السابق ذكره والذي اعتبره البعض البداية الأولى للشعبوية
في الأندلس ، وكذلك تلك الوثيقة المحفوظة حتى اليوم وهى رسالة
أبى عامر بن غرسية (٢١) إلى الشاهر أبى عبد الله الحداد أو أبى جعفر
الخرّاز والتى يفضل فيها العجم على العرب (٢٢) .
ويبدو أن السبب في هذه النزعة الشعبوية بين الصقلبية
بخامة أن معظم أهالى الإمارات الصقلبية التى انتشرت فيها هذه النزعة

(٢٠) المختار من عالم الفكر ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢١) غرسية تعريب جارميا Garda ومعناه في الإسبانية
صاحب الحيلة أو النطرب أو المسكر كما ورد في معجم المجمع العلمى
الإسباني ، وهو اسم شائع في أسبانيا تسمى به كثير من الملوك
والأبراء ومنهم غرسية ملك البشكنش ، كما تسمى به بعض المحدثين
ومنهم المستشرق الإسباني إميليو جارميا جوبيز (نواذر المخطوطات
ص ٢٣١) .

(٢٢) اختلف فيمن أرسل إليه ابن غرسية هذه الرسالة فذهب الكثيرون
إلى أنه أبو جعفر بن الخراز ، وذكر البعض أنه أبو عبد الله
ابن الحداد أو أبو بكر بن الحداد .

كانوا من الموالي من الصقلية والإفرنجية والبشكنس الذين رحب بهم
الصقلية في ولايتهم كما ذكر ابن حيان « بينما زهدوا في الأمراء
من العرب وأبنائهم ممن طرا عليهم فلم يواصوهم » (٢٣) .



والأرجح أنه (أبو جعفر أحمد بن أحمد بن أحمد بن سهل
الأنصاري المعروف بابن الخراز) . كما نص على ذلك ابن سعيد
في ترجمته لابن غرسية (المغرب ج ٧ ص ٢٣٥ — ٢٣٦) ، لأنه
ترجم لابن الحداد في موضع آخر إذن فهما شخصان مختلفان ،
ويبدو أن الاختلاف جاء من تصحيف بعض النساخ لقرب كلمتي
الحداد والخراز من بعضهما (انظر نوار المخطوطات ص ٢٣٥ —
٢٣٦) . وقد نشر الأستاذ عبد السلام هارون هذه الرسالة في
نوادير المخطوطات (ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٥٤) والردود عليها
من المعاصرين لابن غرسية من العرب ، وغير المعاصرين .

وابن غرسية من أصل مسيحي بشكنسي أسلم واتقن العربية
وآدابها حتى لقب بلشاعر والكاتب عاش في مملكة دانية الصقلية
وخدم في بلاط مجاهد العامري الصقلي وابنه علي ولذلك تعصب
عند العرب لكتب رسائله هذه . (انظر : نوادر المخطوطات
ج ٢ ص ٢٣٢) .

(٢٣) ابن بسام : الذخيرة القسم الثالث ورقة ٣ أنقلا من المختار من عالم
الفكر ص ١٢٩ .

ثالثا : النورمان (الفايكنج)

وختاك عنصر آخر فرض نفسه على الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الأوسط بفاراته البحرية على شواطئها في فترات عديدة من العصر الأموي . ويسمى هذا العنصر في المصادر العربية باسم (النورمانين ، والألمانين ، والمجوس) وهو تحريف للكلمة الإنجليزية *Norsemen* أو الإسبانية *Normandes* وتطلق على أهل الشمال من الدول الاسكندنافية أو سكان اسكنافوه (١) .

ولا تزال توجد في فرنسا حتى اليوم ولاية أو مقاطعة تحتفظ باسمهم وهي نورماندى أو نورمانديا حيث استقروا بها في أوائل القرن العاشر الميلادى بموجب معاهدة بين ملكهم رولو وملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالابله نتيجة لكثرة غزواتهم المدمرة على سواحل فرنسا كما أقامت جماعة منهم في جنوب إيطاليا ، واستخدمتهم الكنيسة في محاربة المسلمين في الأندلس وصقلية ، فقد هاجموا الأندلس سنة ٥٦٤هـ واستباحوا مدينة بريسبر شمال شرق سرقسطة، وهاجموا صقلية بعد ذلك

(١) المختار من عالم الفكر ص ١٣٠ . وتسمية معظم المصادر العربية لهم بالمجوس لا تعنى أنهم من جنسهم الفارسى ، وإنما اعتقادا منهم بأنهم كانوا يعبدون النار وهو اعتقاد خاطئ ، حيث كانوا إذا ما نزلوا في مكان خربوه ونهبوه واشعلوا النار فيه مثل القراصنة ، كما كانوا يحرقون جثث موتاهم نظرا هؤلاء المؤرخون أنهم يعبدون النار مثل المجوس ، ولعلهم قصدوا من هذه التسمية أنهم وثنيون حيث كانوا يعبدون النجوم ومظاهر الطبيعة وقد ذكر ا. أحمد أمين أنهم سموا بذلك لأنهم كانوا مجوسا قبل أن ينتصروا (ظهر الإسلام ج ٢ ص ١٠٨) ، ولكن ليست هناك أدلة على ذلك .

سنة ٤٦٤ هـ (٢) .

وكان موطنهم الأصلي في المناطق المحيطة بالبحر الباطي (بحر البلطيق) ، وقد انقسموا إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون والدنماركيون (سكان دنماركة أو دنمارشة) وهؤلاء هم الذين هاجموا سواحل الأندلس وسواحل المغرب أيضا .

وكانت بداية غاراتهم البحرية على الأندلس في سنة ٨٤٤/٢٢٩م . في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) . وكانوا يصيرون بتحركاتهم السريعة الخاطئة ، والأسمم النارية التي يطلقونها ، والأشعة السوداء التي تميز سفنهم وشبهها بعض المؤرخين بالطير الجون (٣) .

وقد استطاعوا في أولى غاراتهم هذه التي استمرت أكثر من ثلاثة شهور أن يحتلوا مدينة إشبيلية مدة أيام ، بعد أن هاجموا أشبونة لشبونة بالبرتغال حاليا ، واستطاع أهلها ردهم بعد معارك عنيفة حتى

وأما تسميتهم بالفايكج فانها مشتقة من كلمة Vlk النرويجية . وتعني سكان الخلجان .

ولهذا اطلق هذا الاسم على سكان شبه جزيرة إسكنديناوة لكثرة خلجانها ، وورد في المعاجم الإسبانية ان كلمة Vikings تعني المحاربين ولا تعارض فهم سكان شبه الجزيرة المحاربين (الامويون ابواء الأندلس ص ٣١٨) .

(٢) د. سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطى ص ٣٢٧ — ٣٢٩ ، الحنى : المسلمون في صقلية وإيطاليا ص ٣٠ — ٣١ د. الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٣٠٨ .

(٣) ابن مغازي : البيان المغرب ص ١٤٠ ، د. عاشور : أوربا في العصور الوسطى ج ١ ص ٢١٠ وبعدها ، د. الحجي : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

استطاع الأسطول الأندلسى الناشئ الوصول إليهم ومحاربتهم عند طليطلة وإشبيلية وردهم على أعقابهم . وقد قتلوا بعد ذلك بمدة فترات على الأندلس فى سنة ٢٤٥ هـ ، سنة ٢٤٧ هـ ، سنة ٣٥٥ هـ ، سنة ٣٦٠ هـ ، سنة ٣٦١ هـ (٤) .

غير أن عددا كبيرا منهم لم يتمكنوا من اللحاق بإخوانهم أثناء الإنسحاب ، فوقعوا أسرى فى يد المسلمين ، فخيروهم بين الإسلام أو القتل فقبلوا الإسلام ، وسكنوا ضواحي إشبيلية ، وأختلطوا بأهلها ، واشتغلوا بالزراعة وتربية الحيوانات ، وصناعة الألبان — التى يشتهر بها الدانمركيون إلى اليوم . (٤)

فيحدثنا المقبرى نقلا عن المؤرخ الحجارى — نسبة إلى وادى الحجارة — « أن مدينة شريس — وهى بنت إشبيلية وواديها وابن واديها — اقتصت بإحسان الصنعة فى المجينات وطبخ جنبها ممين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس من فحل شريس ولم يأكل بها المجينات فهو محروم » . (٥)

هذا وقد كان لغارات النورمان آثار هامة من النواحي السياسية والحربية ، فضلا عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية لأن أقام منهم بالأندلس .

مقد لفتت هذه الغارات نظر الأمويين فى الأندلس إلى أهمية

(٤) د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٢٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٣١ ، د. الشعراوى : الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ٢٢٠ .
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ والمجينات : نوع من التخلّط الحشوة بالجبن تولى بالزيت . (د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٢٣ هاش ١) .

إقامة علاقات سلمية بينهم وبين هؤلاء النورمان ، فأرسل الأمير عبدالرحمن.
الأوسط سفارة إلى ملك الدانمارك (هوريك) سنة ٢٣٠ هـ برئاسة
الشاعر يحيى النزال . (٦)

كما أن هذه الغارات قد لفتت الأنظار ونهت الأذهان إلى ضرورة
تحصين سواحل الأندلس ، وبناء أسطول قوى يستطيع حمايتها من
المعتدين ، ولذلك فقد بدأ الأمير عبد الرحمن الأوسط عقب الهجوم الأول
مباشرة في تحصين مدينة إشبيلية بأسوار عالية ، وأقام نقاطا للحراسة
على طول الساحل الغربى للأندلس عرفت بالرياحات كان يقيم فيها
المرابطون من المجاهدين ، واهتم بإنشاء دور لصناعة السفن تم فيها بناء
الكثير من المراكب والسفن وتزويدها بالآلات والأسلحة والمتجنينات
والحرائقات . وكان هذا ميلادا للبحرية الأندلسية التى استطاعت فيما بعد
أن تسيطر على غرب البحر المتوسط (٧) .

كما تأثر الأندلسيون بفن صناعة السفن عند النورمان فقد ذكر ابن
مغازى أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكبهم ووضعها

(٦) تحدث عن هذه السفارة بالتفصيل في بحثي عن السفارات بين
الأندلس والدول الأجنبية ص ١٩ — ٢٠

(٧) إين القوطية : تاريخ إبتتاح الأندلس ص ٦٧ . يرجع أن يكون
البيزنطيون هم الذين وصلوا إلى إستخدام الحرائقات أو النار
الإغريقية أو كرات النفط المشتعلة التى ترمى سنة ١٦٦ م ، ثم أدخلوا
عليها تحسينات على يد رجل يدعى (كالينكوس) وكان من أصل
سورى ثم أقام في القسطنطينية واستخدم هذا التركيب المحسن
لأول مرة أثناء حصار المسلمين لها سنة ٦٠ هـ في عهد يزيد بن
معاوية ، ونتج عنه إنسحاب الأسطول العربى من المدينة (راجع

نهر الوادي الكبير إستعدادا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وكان يطلق عليها اسم القراقير (٨) .

ولا يبعد أن يكون الذين أقالوا منهم في إشبيلية واستقروا تد ساهموا بخبراتهم في صناعة هذه السفن أو المراكب الجديدة .

وقد جاء في كتاب الجغرافية - المنسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري حوالى منتصف القرن السادس الهجري - « أنه كُنت تخرج من البحر مراكب عظام كان أهل الأندلس يسمونها القراقير وهي مراكب كبار بتلوع مريعة ، تجرى إلى ليلها وإلى خلفها ، وكان يخرج فيها اقوام يعرفون بالجوس كانت لهم شدة ويأس وقسوة وجلد على ركوب البحر ، وكاتوا متى ما خرجوا ظلت سواحل البحر مخافة منهم ، وكانوا أقل ما يخرجون في أربعين مركبا ، وربما بلغوا المائة مركب ويغلبون كل من لقوه في البحر ويسمونهم ويأسرونهم » . (٩)

كما أن أحداث هذه الغارات قد تركت آثارا في النواحي الأدبية والتاريخية فقد تحدث عنها الكثير من الأبناء والمؤرخين ، وظل صداها مسموعا في الأدب والتاريخ الأندلسي زمنا طويلا .

لويس أرشيبالد : القوى العربية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٢١٤ ، . وكان هذا السلاح مكونا من مركب كيميائي من النفط والكبريت والقصار تقذف به المراكب فتشتعل ولا ينطفئ بالماء بل يزداد اشتعالا . (د . إبراهيم المسدوي : الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٦ ، العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ٢٥٢) .

(٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ والقراتير جمع قرقر وهو السفينة الطويلة العظيمة (المعجم الوسيط ج ٢ ص ٧٣٦) .
(٩) كتاب الجغرافية ص ٢١٥ رقم ٢٤٠ نقلا عن د . الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٢٢٨ .

(م - ه - المجنح الأندلسي)

الفصل الثاني

العلاقات بين عناصر السكان

أولا : الاختلاط بين الأجناس

كان فتح العرب للأندلس — كغيرها من البلدان الأجنبية — سببا مهما في حدوث عملية اختلاط وامتزاج كثيرة بينهم وبين سكانها من الإسبان وغيرهم ، إختلاط في الأساليب والدياء ، واقتباس في النظم والمعادن والتقاليد ، وامتزاج في العقيدة الدينية ، وامتزاج في اللغة ، حيث دخل كثير من هؤلاء السكان في الإسلام وتعلموا اللغة العربية ، كما تعلمها كثير من لم يدخل في الإسلام لأنها لغة العلم والثقافة ، وسمى هؤلاء بالمستعربين .

Losmozarebes

وقد ساعدت عدة عوامل على حدوث هذه العملية من أهمها :
التعاليم السبحة والقيم النبيلة التي جاء بها الإسلام ، وادت إلى دخول الكثيرين فيه ، ثم الاختلاط بين العرب وبين أهل هذه البلاد في السككن والجوار ، والتعامل فيما بينهم في كثير من نواحي الحياة . (١)

وقد ادت الفتوحات التي قام بها المسلمون في الأندلس إلى دخول الكثير من العبيد والإماء في ملكهم بعد أن أصبحوا أسرى لهم ، وبذلك أصبح لكل جندي منهم مكددا من الرقيق يستخدمهم في قضاء حوائجه ، ويستولد الإماء منهم فيصرن إماء أولاد ، وتنتج من ذلك جيل مولد له صفات مختلفة تجمع بين الجنسين ، وحدثت بعد ذلك عملية اختلاط بشرية واسعة النطاق ، نظرا لأن المسلمين عندما دخلوا الأندلس لم

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٨٥ ط ١٢ مكتبة النهضة المصرية
سنة ١٩٧٨ م .

يمسحطحوا معهم زوجاتهم أو عقاتهم(٢) ، وكان منهم الكثير من غير المتزوجين ، ولذا غاتهم اضطروا إلى الارتباط بعلاقات المصاهرة مع أهل هذه البلاد وخاصة الإسبان ، هذا بالإضافة إلى حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة مما أدى إلى ازدياد الصلات بينهم وبين المسلمين .
الناجين .

ولعل ما يروى من قصص حول زواج بعض القادة المسلمين بالإسبانيات — وإن كان يبدو في بعضها مسحة من الجلفة أو الخيال — يعطينا فكرة واضحة عن هذه الظاهرة الإجتماعية الهامة التي كان لها أثرها الكبير في فواحي شتى .

ويذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير كان أول من تزوج من الإسبانيات ، فقد تزوج من (إخلونا) أرملة للزريق آخر ملوك القوط والتي تسميها المصادر العربية إيله وتكتبها بألم عاصم(٣) .

وحذا حذوه الكثير من العرب مثل زياد بن النابغة التميمي الذي تزوج من إحدى أميرات إسبانيا(٤) ، وعيسى بن مزاحم الذي تزوج من سارة القوطية بنت المنذر بن غيطشة في دمشق عندما ذهبت تشكو للخليفة هشام بن عبد الملك عنها أوطائس ، ثم قدمت معه إلى الأندلس

(٢) هناك حالات فردية شذت عن هذه القاعدة ، مثل طارق بن زياد الذي ذكر أنه اصطحب معه زوجته أم حكيم وتركها في الجزيرة الخضراء فسميت بعد ذلك باسمها ، وموسى بن نصير الذو ، اصطحب معه زوجاته وبناته كما يفهم من كلام صاحب الإمامة والسياسة (ج ١ ص ٨١) .

(٣) تذكر بعض المصادر أخرى أنها كانت إينة للزريق (أنظر البيلسن ، المغرب ج ٢ ص ٢٤ ، فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٥) .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣ ، أخبار مجموعة ص ٢٠ .

بعد زواجهما وسكنا إشبيلية وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق (٥) . ويعتبر عيسى هذا جد المؤرخ الأندلسي المشهور بلبن القوطية وهو (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ت ٣٦٧ هـ) وقد روى ذلك في كتابه (تاريخ إفتتاح الأندلس) .

وبعد وفاة عيسى بن مزاحم سنة ١٢٨ هـ تزوجت سارة من حمير ابن سميد فولدت له ولدا يدعى حبيب وهو جد بنى سعيد وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجزر وهم أشراف ولد حمير بإشبيلية (٦) . كما تزوج القائد البربري (مونوسه) — الذى كان حاكما على شريطية شمال إسبانيا واشترك مع القائد العربى عبد الرحمن الغافقى فى الفتح جنوب فرنسا — من ابنة الدوق (اودو) حاكم إقليم أكيثانيا وتدعى (لاميبييه أو مينيين) (٧) .

كما تزوج الأمير الاموى عبد الله بن محمد والى قرطبة من الأميرة البشكنسية ونقه لو (أنيجا) المعروفة باسم در — إينة ملك نافار (غرثون ابن غرميه) المعروف بالأنقر — والذى وقع فى أسر المسلمين ، وظل فى قرطبة نحو اثنين وعشرين عاما — وأنجب منها إينه محمد والد عبدالرحمن الناصر ، كما تزوج الشاعر تلمن بن عامر بن علقمة (ت ٢٨٣ هـ) — الذى تولى الوزارة للأمير محمد ولولديه المنذر وعبد الله — من ابنة رومانوس قومنس جنوب اسبانيا زمن القوط وتكنيها المصاير العربية بأب الوليد

(٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٧ .

(٦) تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٣٠ — ٣٢ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٧) انظر : تاريخ غزوات العرب ص ٨٨ ، فجر الأندلس ص ٢٥٢ .

بنت خلف بن رومان النصرانية فكان من نسله الكثير من الكتاب والعلماء .
والقضاة ومنهم الوزير الكاتب عيسى بن فطيس وابنه عبد الرحمن
ابن عيسى المحدث وقاضى الجماعة بقرطبة ٣٩٤ - ٣٩٥ هـ (٨) .

ولذا كان الناصر - ككلثر بنى أمية من المولدين بالاندلس - يتمصف
ببياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العينين ، ولذلك لقبوا فى الملاحم
الفرنسية بالملوك الشقر (٩) .

كما تزوج الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر
من يشكسية تدعى (أورورا) وتعرف بصبح فى المصادر العربية ، وهى
التي ولدت له ابنه هشام المؤيد الذى تغلب عليه المنصور بن أبى طاهر ،
واستطاع أن يصل من طريقها إلى السلطان والنفوذ (١٠) .

كما تزوج المنصور بن أبى طاهر من ابنة ملك ثلثل (سانشو غرسية)
المعروف بشاتجة ، وقد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم (عبده) ،
واتجب منها بالمنصور ولده عبد الرحمن الذى عرف باسم شنجول
فى المصادر العربية . حيث أطلقت عليه والدته اسم (مانشويو) أى
سانشو المسخير تكريها لذكرى والدها (١١) .

وتزوج مطرف بن موسى القسوى حاكم الثغر الأعلى (سرقسطة

(٨) ابن حبان المقتبس ج ٢ ص ٧٦ ، ١٨٢ ، بالنبيا : تاريخ الفكر
الاندلسى ص ٦٠٣ ترجمة د. حسين مؤنس ، الصلة ص ٢٠٩ ،
ترتيب المدارك ص ٢ ، ٤ ، ص ٦٧١ .

(٩) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥١ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام
فى أسبانيا ص ٢٤ - ٢٥ ، مجلة عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ ، مجلة عالم الفكر ص ٦٧ .

(١١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨ ، أعمال الأعلام ج ٢ ص ٦٦ .

وما حولها) من الأميرة (فلشكيطة) بنت سانشو ملك لافار ، كما تزوج أخوه موسى من أوربه بنت غرسية ابن ونقه ملك لكار أيضا (١٢) .

وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا هذه الأمانة للأبراء والخلفاء والعادة ، فلا شك أن الكثيرين من العمالة والجند قد فعلوا ذلك ، فالتلس على دين ملوكهم كما يقولون .

ومما يدل على مدى انتشار هذا الزواج المخطط وكثرته ، ما ذكره المراكشي حين قال : « وملا المنصور بن أبي عبد الله الأندلس غنائم وسببا من بنات الروم ، وأولادهم ونسائهم . وفي أيامه تفاللى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحقى وذلك لرخص الثمن بنات الروم ، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزون به ، ولولا ذلك لم يتزوج أحد . بلغنى أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع فلم تساو أكثر من عشرين دينار عامرية » (١٣) .

وفى هذا المعنى أيضا يذكر ابن عذارى : أنه عقب وفاة المنصور خرج الناس صائحين (مات الجلاب ، مات الجلاب) (١٤) ، وهى كلمة كانت تطلق على بائع الدواب أو النخاس (بائع الرقيق) ، واستعملت

(١٢) انظر من نسب أسرة بنى قنسى جبهة أنساب العرب ص ٥٠٢ تحقيق عبد السلام هارون ط ٤ دار المعارف بمصر ، المختار من عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٤) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣ .

هنا بمعنى المدح للمنصور والترحّم على أبيه لكثرة السبب في غزواته .
وقد حبيب العرب والبربر في هذا الزواج ما عرف من الإسبانيات .
من جمال وبياض يشرة ، وصفرة شعر وزرقة عيون وهي صفات
أحبوها كثيرا لأنها كانت جديدة عليهم « (٩) » .

وقد نتج من طريق هذا الزواج المخلط جيل من المولدين نشأ
على الإسلام ، وتعلم العربية ، وأصبح يؤلف على عهد بنى أمية
الكثرة الغالبة من السكان ، ومنه تكونت جماهير الاندلسيين (١٠) .

وقد اشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة : منها : الجبال
والذكاء والشجاعة ، وكان له اثره الكبير في تاريخ الاندلس وحضارتها ..

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢ ط ٤ مكتبة النهضة سنة ١٩٦٦ م .
(١٠) في بعض الأحيان القليلة أو النادرة كانت تحدث زيجات عكسية ،
حيث يتزوج بعض الملوك أو الأمراء الأسبان بزوجات لبعض
المسلمين ، مثل زواج ونقة بن ونقة ملك نافارا من امرأة موسى
ابن فرتون بن قسى أمير الثغر الأعلى بعد وفاته ، وزواج
أحد حكام جليقية من جميلة أخت محمود بن عبد الجبار
المصمودي البربري الذي أعلن الثورة في ماردة سنة ٢١٣ هـ على
الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واضطر بعد هزيمته إلى اللجوء
إلى جليقية وبقيت أسرته هناك ، وقد أنجب منها ولدا صار
أسقفا على مدينة شانت ياقب (سانت يعقوب) (انظر : المختار
من معالم الفكر ص ٩٧) .

ونظرا لأنه لا يجوز لمسلمة أن تكون زوجة لغير مسلم فلا بد
وإن أمثال هؤلاء الزوجات كن على ديانتهم النصرانية بعد
زواجهن بالمسلمين ، أو أنهن لجبرن على التنصر ، أو تحولن
إلى المسيحية .

وقد احتفظ كثير من أبناء هذا الجيل من المولدين بأسمائهم الإسبانية القديمة وعرفوا بها بعد تعريبها مثل بنو أنجلين ومنهم محمد بن عمر بن خطاب بن أنجلين أحد زعماء المولدين يشبيلية في عهد الأمير عبد الله (١١) وبنو شبرقة ومنهم علي بن حسن المعروف بابن شبرقة (ت حوالي ٣٠٠ هـ) وكان من أهل بطليوس وبني بها مسجدا على نخلته (١٢). وبنو يليل (جوليان) حكم سبته أيام الفتح ، ومنهم أبو عمر أحمد بن سليمان بن أيوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن البلكيث ابن أليان القوطي (ت ٢٨٨ هـ) وكان من مشاهير علماء قرطبة (١٣) ، وكذلك بنو الجريج (جورج) وبنو لنق ، وبنو القبطرقة (كابيتورنو) أي الراس المستدير ، وبنو مردنيش (مارتنيز) ، وبنو غرمية ملوك البشكنس الذين ينسب إليهم ابن غرمية القسوي الأندلسي المشهور ، وبنو ردف (رودلف) ، وبنو موسى بن فرتون القسوي أصحاب تطيلة والفسر الأعلى (مرتطة) في عهد بني أمية ، وكان جدهم فرتون قوس الثغر في عهد القوط (١٤) .

وهناك الكثير من المولدين من ينتسبون إلى أسر شهيرة ذات

(١١) ابن حيان : المتبس ص ٧٤ نشر منشور اتطونية باريس سنة ١٩٣٧ م .

(١٢) ابن الفرغى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢١٢ ترجمة رقم ٩١٨ .

(١٣) ابن الفرغى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٨٨ - ١٨٩ ترجمة رقم ٥٦٦ ، أعمال الأعلام ج ٢ ص ٤٩ .

(١٤) انظر ابن حيان : المتبس ص ١٦ ، ٧٤ .

أصول اسبانية نذكر منهم : أبا الفتح نصر بن أبي الفحول (ت ٢٣٧ هـ)
الذي تنسب إليه منية نصر وكان أبوه من نصارى قرمونة (١٥)
وليوب بن عبد ربه المرقسطى الأصل وكان من المسألة المولدين
تولى قضاء اشبيلية (١٦) ، وعبد السلام بن بسيل الرومى وكان أحد
مشاوري ووزراء عبد الرحمن الداخل . والعلامة الحافظ بقى بن مخلد
(ت ٢٧٦ هـ) الذى يرجع إلى أصل اسباني كذلك (١٧) . والأشتين
محمد بن عليم (ت ٣٠٧ هـ) وهو أول من ألف فى طبقات الكتاب
بالأندلس ، والنفية أبو محمد الأصيلي (ت ٣٩٢ هـ) ، وكان جده
من مسألة أهل الذمة وعمل أبوه وراقا للحكم المستنصر ، وأصله من
شذونة أو من الجزيرة الخضراء (١٨) . وكذلك أحمد بن عبد الله
القرطبي ، وهو ابن أخى قومس كاتب الأمير محمد وقومس هو
ابن انتيان بن يلسانة النصرانية ، أسلم بعد سنة ٢٤٦ هـ
وأشتهر بكثرة العبادة حتى نسمى بالمسجد العباد حمالة
المسجد (مسجد قرطبة الجامع) (١٩) . وكان له ابن يسمى عمر
ابن قومس الكاتب ت ٢٩٨ هـ (٢٠) .

وكذلك محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (ت ٣٣٠ هـ) المعروف
بالدرجون وهو من أسرة قرطبية شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الاعلام

(١٥) جبهة أنساب العرب ص ٩٦ .

(١٦) التكملة ج ١ ص ١٩٨ ترجمة ٥٢٣ .

(١٧) نفع الطيب ج ٢ ص ٤٧ ، ٥١٨ ، ج ٣ ص ١٦٨ ، بغية المنتس
ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ترجمة ٥٨٤ .

(١٨) ترتيب المنار ص ٣ — ٤ ، ص ٦٤٤ ، ٦٤٣ .

(١٩) انظر : تاريخ علماء الأندلس ص ٩ ترجمة ١١١٣ ، الخشنى :
قضاء قرطبة ص ٧٦ .

كمحمد هذا وأخيه أحمد وعمر (٢١) ، وأبو المطرف بن مورتشي (٢٨٦)
الذى تولى قضاء سرقسطة وكان منها ، وأبو وهب مثقال بن عفيف
(ت ٣١٧ هـ) ، وكان من أهل وثبة ، وأبو عمر بن قزلبان القرطبي
(٣٧٧ هـ) . وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت بهم كتب التراجم الأندلسية .
وحسبنا أن نتصفح هذه الكتب لنجد العديد من أسماء الأمراء والقادة
والقهاء والكتّاب التي تدل على أصل إسباني .

وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد انتشار اللغة
الرومانشية (اللاتينية الحديثة) بين الأندلسيين ويسمىها المؤرخون
العرب العجمية أو اللطينية . وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانشية
تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات (٢٢) .

ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالإسلام ، ويتحدثون العربية ،
ويتخذون غالبا نمط الحياة التي يتخذها المسلمون الواسدون على
الأندلس ، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم تلبا باعتبارهم منحدرين من أصول
إسبانية في الأصل ولم يتناسوا ثقافتهم الوطنية ، ولذلك فقد تعصب كثير
منهم لأصلهم الأسباني رغم إسلامهم ، وتحالفوا مع إخوانهم من النصاري
ضد العرب ، واستغلوا فترات ضعف الدولة الأموية وبخاصة أيام الأمير
عبد الله ، وثار بعضهم في عدة أماكن من الأندلس مثل ثورة عمر بن حفصون
في بيشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بالبن النجاشي في ماردة
وبطليوس الذي « كانت دعوته عصبية للمولدين على العرب » وثورة يحيى

(٢١) انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٣٧ ، ج ٢ ص ٥١ ج ٢ ص ٢٥
تراجم رقم ١١٥ ، ١٣٣١ ، ١١٨٩ ، وجسوة المقدس ص ١٨٤٧ .
(٢٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، لطفي عبد البديع :
(٢٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، الإسلام في إسبانيا
ص ٢٥ ، د. أحمد هيكال : الأندلس ص ١٥٠ .

ابن بكر بن ردف (رولف) فى شنت مرية باشكونية (٢٣) .

وتعد تألفت منهم جماعات كبيرة فى مدن الأندلس الهامة مثل طليطلة التى كانت من أهم مراكز تجمعهم — لأنها كانت عاصمة إسبانيا القديمة — إلى جانب النمارى ولذلك شهدت هذه المدينة الكثير من الثورات ومحاولات الانفصال عن سلطان الدولة الألبوية فى قرطبة . ومن أخطر هذه الثورات تلك الثورة التى قامت فيها فى عهد الحكم الرضى سنة ١٨٩ هـ (٢٤) وكان يقوى أمرها امراء مولدين مثل عبروس الوشقى ولب بن طريشة . وكذلك كانت إشبيلية مقلدا لها من معادلتهم ، وكان المولدون فيها يعملون غالبا بالتجارة فجنوا أرباحا طائلة ، وكان كثير منهم من الأثرياء الذين أنفوا من العصبية العربية فقمصوا ضد العرب لبني جنسهم (٢٥) .



(٢٣) ابن حبان المقتبس ص ١٥ — ١٦ ، د. السيد سالم : تاريخ

المسلمين وآثارهم ص ١٢٩ .

(٢٤) عنها راجع د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٢٢ ، د. محمد

زيتون : المسلمين فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٩٢ ويعدها .

(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ .

ثانيا : الامتزاج بين الثقافات

انتشار اللغة العربية بين الأسبان :

وإذا كان هناك امتزاج جسمى عن طريق الزواج المخطط فقد وجد هناك تلاقح بين اللغات والثقافات فى الأندلس وتأثير متبادل بينها ، واحتكاك ثقافى أدى إلى ظهور الحضارة الأندلسية بخصائصها المتميزة .

فقد انتشر الإسلام بين الكثيرين من سكان شبه الجزيرة الإيبيرية الذين سموا (بالمسالمة) ، وكانوا أغلبية بالنسبة لغير المسلمين من الإسبان الذين عاشوا بجوار المسلمين ، وأخذوا بالكثير من العادات والأساليب الإسلامية ، وتعلموا اللغة العربية وسموا (بالمستعربين) ، فقد لبسوا الملابس العربية واستعملوا الخنسان ، وامتنعوا من أكل لحم الخنزير ، واتخذ الكثير منهم أسماء عربية إلى جانب اسمائهم الإسبانية . كما اتقن الكثيرون منهم اللغة العربية .

وليس أدل على ذلك من تلك المصیحة التى أطلقها القسيس الفارو القرطبى سنة ١٠٢٤هـ / ١١٥٤م حيث كتب رسالة سماها (الدليل الخیر) ينتقد فيها بهرارة ذلك الاتجاه من الأسبان فى الإقبال على دراسة اللغة العربية وآدابها والمذاهب الدينية للمسلمين وفيها يقول : « إن إخوانى فى المدن يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وتقصصهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيفا .

وإن تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين بعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأئمة والرسائل ؟ با للحسرة

إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية وآدابها ... الخ» (١) .

ويقول (دوزى) : هجر أهل إسبانيا اللاتينية ، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكك من ذلك (يقصد ألفارو القرطبى) .

ويقول نيكلسون : فى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية ، وفى هذا الوقت ترجم تيسيس من أهل إشبيلية الصورة إلى اللغة العربية لتلاميذه فغضب منه زميل له واتهمه بالعمل على نشر اللغة العربية ، ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ ، وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا فى قرطبة وطليطلة حتى بعد أن استولى ألفونسو السادس عليها سنة ١٠٦٥ م .

ويقول توماس أرنولد : إن اللغة اللاتينية بلغت فى بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط حتى لقد أصبح من الضرورى أن تترجم قوانين الكنيسة الأسبانية القندية والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين ، وأقبل الناس على دراسة الآداب العربية التى ازدهرت فى ذلك العصر فى جلسة وشفه (٢) .

(١) أنظر : د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٧٠ — ١٧١ ، أندلسيات ج ٢ ص ٥٩ . د. أحمد هيكى : الأدب الأندلسى ص ٣٢ — ٣٣ ،
بالتنقيح : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

وقد كان هذا القسيس من النصارى المغمضين الذين أسهموا فى إثارة الفتنة المسيحية ضد الإسلام فى خلافة عبد الرحمن الأوسط والذى سميت بحركة الاستشهاد أو الانتحار .

(٢) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٩ — ٩٠ ،
توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٢ .

وهكذا زحزحت اللغة العربية اللاتينية عن عرشها الأول كما زحزح الإسلام المسيحية وصارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية ولغة العلم والثقافة كما صار الإسلام هو الدين الرسمى كذلك .

وإذا كان للإسلام أثر كبير فى انتشار اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم ، فقد كان لظاهرة التزاوج بين المسلمين والاسبان دور فى ذلك أيضا . وإلى جانب اللغة العربية الفصحى كانت هناك لغة عامية تستخدم فى الحياة اليومية بعيدا عن العلم والأدب : فقد ذكر ابن بسام فى حديثه عن الموشحات أن مقدم بن معافى القبرى (أواخر القرن الثالث) الذى يقال إنه اخترعها « كان يأخذ اللفظ العامى والمعجبى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة » (٢) .

كما ذكر ابن سمييد المغربى (القرن السابع الهجرى) أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والمعوام كثير الانحراف مما تقتضيه أوضاع العربية . حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوبيين المشار إليه بعلم النحو وهو يقرئ تلايذه لضحك ببله فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه (٣) .

وهذا دليل على أن الأندلسيين حتى الطمءاء منهم كانوا يفحشون بالعامية المتحرفة من العربية الفصحى .

وكما كانت الفصحى الأندلسية بهرور الزمن وبحكم البيئة وباحتكاك العناصر المختلفة ذات خصائص محلية ميزتها عن فصحى بلاد المشرق العربى ، فكذلك كانت العملية الأندلسية ذات سمات محلية حتى غدت عميرة الفهم على الكثيرين (٥) .

-
- (٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ ، ابن خُدون : المقدمة ص ٥٨٤ .
 (٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٢ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٦ .
 (٥) من هذه السمات انظر : د. أحمد هيك : الأدب الأندلسى ص ٣٣ - ٣٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٥ - ٧١ .
 (م ٦ - المجتمع الأندلسى) .

انتشار الإسبانية بين مسلمى الاندلس :

وتد كان من الطبيعي نتيجة هذا الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان أن يتأثر جيل المولدين بأماهم الإسبانية في لغتهم ومبادئهم وطرائق معيشتهم ، وإذا كانت اللغة العربية قد انتشرت بين الأسبان مسلمين وغير مسلمين فإن اللغة الإسبانية العالية بمفهوم خاصة قد أخذت تنتشر بين المسلمين أيضا وهي التي يسميها العلماء « الرومانسية (Romance) » وهي لهجة لاتينية كان يستخدمها الرومان فنسبت إليهم ، ويسمونها العرب الأماجية أو اللطينية (٦) .

ومما يدل على انتشار هذه اللغة على نطاق واسع ما ذكره ابن حزم عند حديثه بنى بلوى بالاندلس . حيث قال وكأنه يتمتع « وهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط رجالهم ونسأؤهم » (٧) . وهذا دليل على محافظتهم على لغتهم العربية وعاداتهم العربية .

كما يذكر الخنفي : أن أحد القضاة شكاه بعض العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) فطلب الشهود عليه وكان هناك شيخ أعجمي اللسان يسمى (ينير) مقدما مقبول الشهادة فسئل عن القاضي فقال بالأماجية : ما أعرفه إلا أن سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سيء (باللفظ المعجمي) فلما سمع قوله الأمير عجب من لفظه وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل إلا الصدق وعزل القاضي عن القضاء (٨) .

(٦) د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسي ص ٣٩ - ٤٠ ، مجلة

المختار من عالم الفكر ص ١٠٠ .

(٧) جبهة أنساب العرب ص ٤٤٣ .

(٨) قصة قرطبة ص ٩٦ .

(٩) قصة قرطبة ص ٩٦ . ومن مظاهر تأثير اللغة الإسبانية على الأسماء

العربية في الأندلس إضافة المقطع الآخر المكون من الواو والنون

بالإسبانية On . للأسماء للدلالة على الترخيم والتعظيم مثل حفص

وحفصون ، وخالد وخلدون ... الخ .

ويذكر القسبي : انه التقى في موسم الحج ببعض الاندلسيين
فوجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ولغة أخرى أعجمية (٩) .
ويروى ابن هشام اللخمي : انه نبت سن لأحد ابنساء الأمير
عبد الرحمن بن الحكم فوصفوا له طعماً يتناولوه الأطفال عند ذلك فقال
:لوزرائه : هذا الذي يسميه الناس بالأعجمية (اللتينية) هل روى
عن العرب فيها شيء ؟ (١٠) .

ويذكر ابن عذاري أن الوزير الشاعر أبا القاسم لب هجاء الوزير
عبد الملك بن جهور بأبيات أمام الخليفة عبد الرحمن الناصر قال فيها :

قال أمين الله في خلقه

في لعبة لرى بها الطول

لولا حيلالي من إيام ، الهدي

نضمت بالشمس شوقول

وكان أبو القاسم عندما وصل إلى توله شو سكت فقال له
الناصر قول لائنها على نحو ما اضمر وقال له : انت هجوته يا مولاي
— كانه كان يقصد ذلك — فضحك الناصر وامر له بمئة (١١) .

وهذا يدل على انتشار هذه اللغة الصليبية الإسبانية
(الرومانسية) بين الكثيرين سواء من علية القوم أو العامة .

وفي الشعر الأندلسي كثيراً ما نجد الفاظاً إسبانية وما يتبادلها

(٩) د. احمد هيكل : الادب الأندلسي ص ٤٠ .

(١٠) د. الامواني : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن
العامة مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث سنة ١٩٥٧ .

(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٧ وكلمة شوقول هي ترجمة للكلمة
الاسبانية Sa - Culo ومعناها الإلية أو أسفل الظهر .

(المختار من عالم الفكر ص ١٠١) .

بالعربية لها بطريق مباشر أو بطريق الاستعارة والكناية بصورة تدل على تمكن الشاعر من اللغة الأسبانية مثال ذلك قول ابن دراج القسطلي في مدح عبد الملك بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر حينما افتتح حصن لونة في شمال أسبانيا ومعناه البدر :

وانت الذي أوردت لونة قاهرا

خيولا سماه الأرض فيها نحورها

ويا ليت قوطا حين شاد بناءه

رأه وقد غرت إليك جوانبه

ويا ليت إذ سماه بدرا معظما

رأه في كف العجاج مغاربه

وحين يتحدث عن أحد قادة الأسبان واسمه لويث (لوبيز) ومعناه الذئب يقول :

كم من سمي له فيها وذئ نسب

لم ينخر ناله منه ولا ظفروه (١٢)

وتعتبر الموشحات والأزجال من أهم مظاهر انتشار اللغتين العربية والأسبانية بين الأنذلسيين ، وهي ما يسمى بالشعر الشعبي . وقد استخدمت فيه ألفاظ عامية عربية وأخرى رومانية ، ويعتبر هذا الفن من الشعر ثورة في عالم الشعر العربي ، وحركة من حركات التجديد فيه حررت من كثير من قواعد العروض . حيث لم يلتزم فيه القافية الواحدة كالتصيدة ، وإنما اشتمل على قواف متعددة وليس وحدته البيت الشعري ، وإنما المقطوعة الشعرية

(١٢) ديوان ابن دراج القسطلي ص ١٩ ، ٢١ ، ٤١٨ المكتب الإسلامي بيروت ١٣٨٩ هـ .

التي تتكون من غصن وقفل . أى ان الموشحة عبارة عن أفعسان
واتصال ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة .

ومن شروط هذه الخرجة أن تكون بالعلامة الدارجة أو بالعجبية
أى الإسبانية وأن تكون حارة محرقة ، حادة منقجة كما قال ابن سنان
الملك المصرى .

كما جرت العادة على أن تكون هذه الخرجة على لسان مائة
تتوزل فى الفتى على عكس القصيدة العربية التى تجسد الرجل فيها هو
الحب وهو الذى يتوزل .

كما ان الموشحة تبدأ من آخرها حيث تؤخذ العبارة العامة
أو الإسبانية لتكون المركز أو الخرجة ثم تبنى عليها البقية . على
عكس القصيدة الشعرية التى تهتم بمطلعها ومثال ذلك الغصن الأخير
من الموشحة بما فيه الخرجة :

ليل طويل

ولا معين

يا قلب بعض الناس

لا تلتين

انا قول قوقو

ليس بالله قوقو

والخرجة هنا إسبانية (قوقو CuCo ومعناها الماكر)
فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة : انا اقول انت مكار ولن
تذوق طعم قبتى ، فاهتز لها وجعلها مركزا أو خرجة لموشحته (١٣) .

(١٣) د. عبد العزيز الاهوانى : الاغنية الشعبية أصل التوشيح . مجلة
المجلة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٥٧م ، د. العبادى : الإسلام فى
أرض الاندلس مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٣ — ١٠٤ .

ثالثا : النزاع بين عناصر السكان

لم يكن المجتمع الأندلسي بعد الفتح مجتمعا بسيط التركيب ، وإنما كان يتألف من عدة عناصر متباينة في أصولها الجنسية والثقافية كما ذكرنا . وكان هذا التباين وهذا التعدد في وقت من الأوقات مظهرا من مظاهر القوة والثراء ، ولكنه كان يحمل في نفس الوقت بذور الضعف وأسباب التفكك والاضمحلال .

وربما كان تعدد الجماعات العرقية وتنوع العناصر البشرية في المجتمع الأندلسي هو العامل الأول والأكثر أهمية في ثراء ذلك المجتمع وازدهار حضارته ، والركيزة التي قام عليه في الوقت نفسه .

ويتجلى هذا التنوع العرقي في وجود الجماعات العربية والبربرية التي فتحت الأندلس ، وعاشت إلى جانب العناصر الوطنية أو الجماعات التي كانت تستوطن البلاد قبل الفتح . ورغم وحدة الدين والعقيدة لدى العرب والبربر فقد كان لكل من الفئتين ثقافته الخاصة المتميزة في أصولها وعناصرها .

وقد اختلف هؤلاء الفاتحون من عرب وبربر بالسكان الأصليين الذين كانوا يعيشون في الأندلس قبل الفتح من قوط وإسبان ورومان ويهود وغيرهم .

-
- عن نشأة الموشحات والأزجال وتطورها في الأندلس راجع :
- د. أحمد هيك : الأندلس الأندلسي ص ١٤٥ وي بعدها .
 - د. الأهواني : الزجل في الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧ م
 - د. محمد عفاني : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة رقم ٢١ .
- الفرق بين الموشحة والزجل : أن الموشحة عربية ما عدا الجزء الأخير المسمى بالخرجة فهو علمي أو أسباني ، أما الزجل فنشأته علمية دارجة كلها تتخلها كلمات وعبارات أعجمية .

وبالرغم من ذلك فلم يكن هناك اندماج تام وامتزاج كامل بين العناصر التي وجدت إلى الأندلس . فالمعصية العربية التي كانت ظاهرة في المشرق ما لبثت أن انتقلت إلى الأندلس وعملت عملها في تفتيت وحدة العرب ، وتقريبهم إلى شيع وأحزاب . ما بين مضرين وبينيين ، يتنازعون على الملك والرئاسة ، وما بين بلجيين وشابيين يتنازعون على خيرات البلاد ومن هو أحق بها (١) .

وكذلك لم يكن البربر وحدة واحدة فيما بينهم ، ووقع نزاع شديد بينهم وبين العرب وكذلك كان الأمر بالنسبة للعناصر الأخرى فلكل منها طابع وأهداف واتجاهات .

ويمكن القول : إن الفتن والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها والبعض بدأ مبكرا واستمر استمرارا يكاد يكون متصلا ، ولم تكن تهدأ إلا تحت ضغط القوة ، وما تكاد تهدأ حتى تبدأ من جديد عندما تضعف هذه القوة . بحيث يمكن القول : إن هذه الفتن والاضطرابات والحروب قد صاحبت تاريخ المسلمين في الأندلس من بدايته إلى نهايته إلا في عهود بسيطة شهدت فترات من الاستقرار طالت أو قصرت فمضى ذلك إلى ازدهار الحضارة والثقافة والعمران .

ولقد تميزت الأندلس من بين الأقطار التي فتحتها المسلمون بعوامل خاصة كانت مثار الاضطرابات والفتن والتلايل من حين لآخر . وقد ظلت هذه العوامل تتور حيناً فتسبب التفكك والانحلال ، وتكبح حيناً فتعود الأندلس إلى وحدتها وقوتها ، ولكنها اشتدت وتجمعت في النهاية لتؤدي إلى غروب شمس الإسلام من الأندلس (٢) .

(١) أنظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس من ٦٤٢

وبعدها ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١ .

(٢) د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٣٧ .

ويمكن ان نلخص هذه المواقف فيما يلى :

١ — عامل جغرافى : يتنقل فى بعد الاندلس عن بلاد المسلمين الى الشرق مما جعلها تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيانها إلا ما كان من دول شمال إفريقيا عند الاستنجد بها فى مرحلة الخطر . ولذلك كان من رأى عمر بن عبد العزيز أن يهود المسلمون منها لاتقطعهم من وراء البحر عن اخوانهم (٣) . فالعامل الجغرافى كان بعيد الأثر فى غربة الإسلام بشبه الجزيرة الأندلسية .

٢ — عامل قومى : فالمسلمون فى الاندلس كانوا بؤراء أمة مقاطعة تعتبر من أكثر شعوب أوربا تعصبا للمسيحية وهم الأسبان الذين سيطر عليها هدف واحد هو إخراج المسلمين من الاندلس بأى وسيلة والشار لهذاهم منهم (٤) .

٣ — عامل دينى : وهو خشية الأوربيين من الزحف الإسلامى حتى لا يسيطر على بقية أوربا فوقفوا يؤيدون الأسبان بكل قوة للدفاع عن المسيحية من ناحية وحراسة أوربا من المسلمين الغزاة من ناحية أخرى ، كما فعلوا بعد ذلك مع الأتراك العثمانيين (٥) .

٤ — الخلاف والصراع والتنافس بين عناصر المسلمين فى الاندلس وبخاصة بين العرب وبعضهم وبين العرب والبربر .

٥ — كثرة الفتن والثورات منذ بداية الفتح والى اشاعت الفوضى فى البلاد وراح ضحيتها الكثيرون ، وقادها زعماء كثيرون من مختلف العناصر . ومثال ذلك أن أسرة بربرية واحدة هى أسرة فرتون بن موسى ثل منها ثمانية فى مدينة واحدة هى سرقسطة (٦) .

(٣) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٢٦٠ ، معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٤٣ .

(٤) د. لطفى عبد البقيع : الإسلام فى اسبانيا ص ١٣ .

(٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٢٩ .

(٦) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٣٨ .

٦ — الخلاف على ولاية العهد بين أبناء الأمراء والملفنة والذى بدأ مبكرا منذ وفاة عبد الرحمن الداخل واستمر ينخر في جنب الدولة الإسلامية حتى مهدها الأخير .

٧ — استعانة المسلمين المتحاربين في الأندلس بأعدائهم من المسيحيين الأسبان والأوربيين لقتال إخوانهم ، مما جعلهم يفتنون بعضهم بعضا وعدوهم ينتهز الفرص للإجهاز عليهم . وقد أصاب ابن الشباط حين قال : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وأنصرف مغلوبا وإنما خذلهم التحاسد وفرط الخلاف والتباغض وتلا الإنصاف (٧) .

وكذلك الحجاري حين ذكر أن شارل مارتل لما شكك إليه قومه وقوف العرب على أبواب بلادهم قال : « لا تواجهوهم في إقبال أمرهم . فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة وحصانة ضد الهزائم فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم ، وبأخذوا في التنافس على الرياسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم فتتمكنون منهم بأيسر مجهود ، ويعقب المقرى على ذلك فيقول : فكان والله ذلك (٨) .

٨ — يضاف إلى ذلك أن هذه العناصر السكانية في الأندلس كانت تميل غالبا إلى العيش والتكفل في مناطق خاصة بها ، فمثلا كان العنصر العربي الغالب على قرطبة ، والعنصر البربري الغالب على غرناطة وملقة وقرمونة ، وعنصر المولدين الغالب على طليطلة وإشبيلية وكان لهذا اثره البالغ في المبل إلى الاستقلال والخروج مما كان

(٧) تاريخ الأندلس ص ٧٤ ، موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٣٧ .

(٨) نفع الطيب ج ١ ص ١٣٠ ، المجلد في تاريخ الأندلس ص ٦٤ .

يستلزم استعمال القوة العسكرية كوسيلة للحفاظ على الوحدة السياسية للبلاد (٩) .

ويرى د. حسين مؤنس : ان الأندلسيين كانت تموزهم روح الترابط والوحدة بسبب تفرقهم في شبه الجزيرة ، وان هذا قد أدى إلى تمزق البلاد بسهولة (١٠) .

والحقيقة ان تفريق السكان لا دخل له بالوحدة السياسية لأنها تتوقف على قوة الحكومة المركزية أو ضعفها وكل ما في الأمر ان طبيعة البلاد الجغرافية (الجبلية) قد جعلت هناك حواجز طبيعية من الصعب اجتيازها مما قسم الأندلس إلى أقاليم شبه منفصلة ، وساعد على الميل إلى النزعة الانفصالية في كثير من الأقاليم التي كانت تسكنها عناصر غير مربية تنفيذها عوامل قومية في كثير من الأحيان .

وامام هذا الخليط العجيب من الأجناس تكثفت العناصر العربية ، والفت نوعا من العصبية وظهرت آثار ذلك في صراع العرب مع البربر من جهة ومسح المولدين من جهة أخرى .



(٩) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣٦٤ .
(١٠) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ .

النزاع بين المغرب وبعضهم

لم يمض وقت طويل على استقرار المسلمين في الأندلس بعدد. فتحها ، حتى ظهرت آثار العصبية القبلية التي أدت إلى النزاع بين القبائل العربية من قيسية ويعينية .

وقد لعبت سياسة بعض الولاة في الأندلس دورا كبيرا في إنكفاء نيران هذه العصبية عن طريق ميلهم إلى غريق دون آخر وتقديسه عليه . فكان إذا ما تولى شخص من القيسية قدم تومعه وأثرهم على البنية مما يؤدي إلى إثارة النزاع والقتال والفتن وعلى سبيل المثال : فقد تعصب كل من عنبسة بن سحيم الكلبى ، وعذرة بن عبد الله الفهرى ، ويحيى بن سلامة العاملى خلال مدة ولايتهم التي استمرت سبع سنوات (شوال ١٠٣ هـ - ربيع الأول ١١٠ هـ) للبنية مما أوفر صدر القيسية(١) ، وامتلات نفوسهم الما وأصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية ، ولما تولى أمر الأندلس ولاة منهم مثل : حنيفة بن الأحوص القيسى ومثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، والهيثم بن عبيد الله الكنانى ،

(١) كانت موقعة مرج راهط سنة ٦٤ هـ بين جيوش الأمويين بقيادة مروان بن الحكم وجيوش عبد الله بن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهرى من أهم أسباب اشتداد العصبية بين البنية أنصار الأمويين وبين القيسية أنصار ابن الزبير ، حيث دارت الدائرة على جيش ابن الزبير وقتل قائدده ومعه نحو سبعين ألفا من قيس وقاتلها ، مما أوفر صدور القيسية ، فكانوا ينتظرون الفرصة لتسوية حسابهم القديم مع البنية .

(المسلمون في المغرب والأندلس من ٢٥٠ هـ إلى ٢ هـ ، المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة من ٣٤٠ هـ إلى ٢ هـ)

ومحمد بن عبد الله الأشجعي لقي البيهقون خلال عهودهم بلاء شديدا .
وقد اشتد الهيثم مع البيهقية شدة اثارتهم ودفعتهم إلى العصيان
علانية ، وبلغ من شدته أن انكر عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ذلك
— رغم أنه قوسى — وعزله وعاقبه عقابا صارما . وبدأت منذ عهد
الهيثم خصومة القيسية والبيهقية صريحة ، وإن لم تظهر آثارها الخطرة
نظرا لانشغال المسلمين حينئذ بالفتوح فيما وراء جبال البيرنيه
(البرانس) .

وقد تجلت حروب العصبيات والصراع المرير بين الفريقين في ولاية
عقبة بن الحجاج السلولى وظلت تخفت حينما عندما ينشغل المسلمون
في الفتوح الطبية لداعى الجهاد فيتناس العرب ما بينهم من عصبيات ، وتشتد
أحيانا أخرى عندما يبسداون في الاستقرار (٢) .

وقد أدى ذلك بالضرورة إلى عدم استقرار الأوضاع بصورة
عامة ، ودليل ذلك أنه تولى الأندلس خلال ما يسمى بعصر الولاة
(٩٥ — ١٢٨ هـ) عشرون واليا في فترة تقل عن نصف قرن ، منهم من
مكث نحو عدة أشهر ومنهم من استمر بضع سنوات ، وبعبارة أخرى فإن
متوسط حكم والى منهم كان نحو سنتين ، وهذا وحده يعطينا

(٢) أنظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارها ، د. محمد زيتون :
المسلمون في المغرب والأندلس ج ١ ص ١٩١ وبعدها . د. منى
حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٥ وبعدها .

(٣) اصطلاح معظم المؤرخين المحدثين على تصديق بداية هذا العصر
بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير في ذي القعدة سنة ٩٥ هـ .
بينما ذهب البعض إلى اعتبارها تبدأ بولاية طارق بن زياد منذ الفتوح
(د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠) . غير
أننا نعتبر أن طارق وموسى هم فاتحو الأندلس وأن أول الولاة هو
عبد العزيز الذي أسند إليه أبوه ولاية الأندلس قبل عودته
إلى المشرق .

عكرة عن الاضطراب وعدم الاستقرار الذين سادا الأندلس في هذه الفترة إذا ما استثنينا فترات قليلة حاول فيها بعض الولاة إشاعة الأمن والاستقرار (٤) .

ولكن ليس معنى ذلك أن المسلمين لم يبذلوا جهودا في مواصلة الفتوحات كما يعتقد البعض ، وأن كل ما بينهم كان نزاعا على السلطة والنفوذ أو مراعاة على المصالح فهناك جهود بذلت ، وهناك محاولات لنشر الأمن والاستقرار والعمران . إلا أن هذه النزاعات قد استغرقت كثيرا من الجهد والوقت ولو أنها وجهت ضد أعداء المسلمين ، وفي الفتح ونشر الإسلام لكن ذلك أجدى وأنتفع ، ولكنها جذبت الكثيرين في تيارها مما كان لها آثارها السيئة والخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين في الأندلس . ولا نستغرق في تفاصيل هذا النزاع الذي حدث في عصر الولاة وإنما نوجز الحديث عنه في خلال حكم بني أمية .

لقد استغل عبد الرحمن الداخل (صقر قرش) هذا الأوضاع السائدة من العصبية والاضطرابات حتى يصل إلى هدفه في إعادة دولة آبائه وأجداده مرة أخرى في الأندلس بعد أن سقطت في المشرق (٥) فأخذ في مراسلة موالى الأمويين بالأندلس الذين نشطوا لذلك وحاولوا استمالة الصميل بن حاتم زعيم القيسية لنصرة عبد الرحمن ،

(٤) انظر نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠ وبعدها ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٢٦ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٥ .
(٥) يرى ابن عذارى رأيا فريدا حين يذكر أن دولة بني أمية لم تنقطع وأن دولتهم في المشرق اتصلت بدولتهم في المغرب حتى سنة

ولكنه أبدى ترددا فلما يئسوا من مناصرة ربيعة ومضر ، ملأوا على .
جذب البنية لمناصرته .

وقد وجدها البهنيون مرسعة سقحة للأخذ بثأرهم من المضرية
الذين انتصروا عليهم في موقعة شقندة جنوبي قرطبة سنة ١٢٠ هـ (٦١)
ولاسترداد مكائنتهم التي فقدوها .

١٥٤ هـ ويبنى رايه على أن عبد الرحمن بن حبيب وإلى إفريقية من قبل
بنى أمية قد وصل عهد منه إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري
وإلى الأندلس الذي دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس في عهده ،
ويعلق على ذلك بأنه نكتة غريبة وفائدة عجبية ، البيان المغرب ج ٢
ص ٣٩١ ، وكان من الممكن أن يمتد بهذا الرأي لو أن يوسف
تنازل لعبد الرحمن وسلم إليه إمارة الأندلس ، ولكن الحرب التي قامت
بينهما تدل على أن الدولة الأموية قد انتهت بالمشرق وأن عبد الرحمن
هو الذي استطاع بجهوده إعادتها بعد ست سنوات من السقوط .
(١٣٢ - ١٣٨ هـ) . (المسلبون في المغرب والأندلس ج ١
ص ٢٤٠) .

(٦) يروى المؤرخون في سبب هذه المعركة أن رجلين اختصما عند
أبي الخطار البيني وإلى الأندلس أحدهما يميني والآخر مضري ، فغضى
أبو الخطار للبيني ، فاعتبر المضري أن ذلك الحكم غير عادل فشكا
إلى زعيم المضرية الصميل بن حاتم فذهب ليكلم أبا الخطار في شأن
الرجل واشتد الجدل بينهما حتى افلظ أبو الخطار للصميل في
القول وأمر جنده بإخراجه وضربه فخرج من مجلسه وقد مالت
معايته فلما سأل البعض : أبا حوئب ما بال مهاجك مائة ؟
قال : إن كان لي قوم فيسقيهمونها .

وكان ذلك سببا في قيام المضرية بالثأر لزعيمهم في تلك المعركة
التي كان من نتائجها عزل أبي الخطار وتولية يوسف بن عبد الرحمن
الفهري مكانه . (الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٨٦ ، الإملاء والسياسة
ج ١ ص ١٨١ ، القرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٢) .

يقول ابن عذارى (١) وكأثوا قوما قد وغرت صدورهم يمتنون
شيئا يجحدون به سبيلا إلى طلب ثراهم (٢) .

نابذوا استعدادهم لمناسرته بزعماء أبى الصباح اليمصبي شيخ
اليمنية فى غرب الأندلس وعلقة الجذامى ، وأبى علاقة الجذامى ،
وزيد بن عمر الجذامى ، وغيرهم من زعماء اليمنية ولم ينضم إلى
عبد الرحمن من المضربة سوى الحصين بن الدجن العقيلي لما كان بينه
وبين الصميل بن حاتم المضرى من خصومة وتباعد (٣) .

وقدم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس واستطاع بمساعدة
اليمنية وموالى الأمويين أن ينتصر على يوسف الفهرى فى موقعة
المصاراة سنة ١٢٨ هـ ويتولى مقاليد الأمور فى الأندلس واعتبر اليمنية هذه
الموقعة هزيمة للقيسية .

وإذا كان يوم المصاراة فاتحة الانتصار لعبد الرحمن ، فقد كان
بداية لسييرته الطويلة فى الكفاح والنضال فى سبيل بناء دولته وتوطيد

==

وكان زعيم اليمنية فى هذه المعركة يحيى بن حريث ، وكان
زعيم المضربة يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والصميل بن حاتم .
ويصف صاحب أخبار مجموعة هذه المعركة بأنها « أول حرب
كانت فى الإسلام بهذه الدعوة — ربما يقصد فى الأندلس —
لم تكن حرب قبل هذه الواقعة وهى الفتنة العظمى التى بها
يضاف بوار الأندلس إلا أن أن يحفظه الله » . (أخبار مجموعة
فى فتح الأندلس ص ٥٩) ، كما يصفها ابن عذارى بأنها « لم يعهد
حرب مثلها فى المسلمين بعد حرب الجبل وصفين » (البيان
المغرب ج ٢ ص ٥٢) .

(٧) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٥ .

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٥ ، د. محمد زيتون :
المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

أركانها حيث كانت الأندلس تروج بالفتن والعصبيات التي لم تكن تاصرة على مضر واليمن فقط بل شملت كل قبيلة وكل بطن انتفت حول زعاماتها ، وكانت لها مصالحها الخاصة ، ونسكت باستقلالها ، وأبت الخضوع لاية سلطة عامة ، وشملت كذلك البلديين والشاهيين (٩) . كما شملت البربر الذين حرصوا على الاحتفاظ بما حصلوا عليه خلال الفتن . من أراض وقصبا .

وكان هناك ما هو أشد من ذلك خطرا وهو الملك النمرانية في الشمال التي تخطت مربعا مرحلة الهسبزية وبدأت تستعد لحرب المسلمين ، وكذلك مملكة الفرنجة التي تبكت من انتزاع ما فتحه المسلمون خلف جبال البيرنيه (البرانس) (١٠) .

قامت دولة عبد الرحمن الداخل على مئون كبير من العرب البيرنيين ، الذين تصوروا أن الكلمة أصبحت لهم (١١) - معتقدين أنهم

(٩) يقصد بالبلديين العرب الذين قعدوا إلى الأندلس مع الفتح أو في أثنائه وكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الفتح ، ولهم نصب السبق ولذلك ينبغي ألا ينازعهم أحد فيه .

ويقصد بالشاهيين العرب الذين قعدوا في طائفة بلج بن بشر سنة ١٢٤ هـ ورفضوا الخروج من الأندلس لما راوه من خيراتها وثرواتها وتم توزيعهم على كور الأندلس المختلفة . (انظر الحلة السراء ج ١ ص ٦١ - ٦٣ ، المقتبس ص ٣٠٨ تحقيق د . محمود مكي ، د . حسين مؤنس فجر الأندلس ص ٣٦ ، د . محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس هامش ١٣ ص ٢٥٦ .

(١٠) د . محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٥٤ ، د . منى محمود : المسلمون الأندلس ص ٥٧ .

(١١) يذكر ابن القوطية : أن أبا الصباح اليمصبي زعيم البينية قال لثعلبة الجذامي وكان من وجوه جند فسطين بعد موقعة المصارة « يا ثعلبة هل لك رأى في فتحين في فتح ؟ قال له وكيف ذلك ؟

لا يزالون فى مصر الولاية ، وتكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد يحاول ان يزيل آثار ما سبق ويجعل الجميع وحدة واحدة تخضع لسلطان واحد فى مواجهة الاخطار الخارجية . فاعتبروا ذلك إنكارا لجهودهم ولذلك قاموا بثورات عديدة ضد من ساعدوه بالأس فى الجزيرة الخضراء ، وفى إشبيلية ولبليطة وباجسة وغيرها . وانضم الكثير منهم إلى ثورة العلاء بن مغيث التى قامت فى باجسة سنة ١٤٦ هـ وكان يدعو إلى طاعة أبى جعفر المنصور وطلع عبد الرحمن بن معاوية (١٢) ولكن عبد الرحمن استطاع بعد جهود كبيرة القضاء على هذه الثورات (١٣) .

ولأسف الشديد تمتد تعاون بعض الزعماء العرب مع شارلمان للاستيلاء على الثغر الأعلى (سرقطة وما حولها) مثل سليمان بن يقظان الكلبي (ابن الأعرابي) والى برسلونة والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقطة انتقلوا من عبد الرحمن الداخل ، وهان عليهم تمرىض الإسلام والعروبة فى الأندلس للخطر فى سبيل أهواء وأحقاد ومطامع

==

قال : قد استرحنا من يوسف ، فاسترح بنا من هذا — يقصد عبد الرحمن الداخل — وتكون الأندلس تحطانية . ولكن ثعلبة أخبر عبد الرحمن بذلك ، فاحتاط وضم مواليه إليه ، وجعلهم حراسه ، ولما رأى الميمنية ذلك حملوا من خطتهم . وهذا يدل على تطعنهم للملك والسلطان (أخبار مجبومة ص ٣١) .
(١٢) ابن القسوطية : تاريخ امتتاح الأندلس ص ٣٣ ، أخبار مجبومة ص ١٠٢ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

(١٣) عنها أنظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩٩ ويعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٢ ويعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٥٩ ويعدها .

(م ٧ — المجتمع الأندلسي)

شخصية . لولا أن اخفت هذه المحاولات بفضل تماسك جمهور المسلمين تحت راية عبد الرحمن .، وكانت مؤامرة المغيرة بن الوليد ابن معاوية سنة ١٦٨ هـ من سلسلة المؤامرات التي دبرت ضد عبد الرحمن — وكان ابن اخته — وساعده فيها هذيل بن الصبيل بن حاتم زعيم 'المضربة' ولكن تم اكتشافها ، وكذلك مؤامرة محمد بن يوسف الفهري الذي اطمأن الثورة في قسطنطنة شرق الأندلس وكان مصيره الهزيمة في ربيع الأول سنة ١٦٩ هـ (١٤) .

وفي عهد ابنه هشام ثار سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري ومعه عدد كبير من البينيين وتمكن من الاستيلاء على طرطشونة فهدمه موسى بن فرتون القومس والى الثغر الأعلى واستطاع أن يستردها ، كما ثار مطروح بن سليمان الأعرابي بعد مقتل أبيه واستطاع أن يستولى على سرقسطة ووشتة والثغر الأعلى كله (١٥) .

ثم جاء الحكم بن هشام بالريضي الذي تعتبر إمارته بداية النهاية لعصر القلاقل والاضطرابات التي قام بها العرب للقضاء على الإمارة الأموية ، وكان كثير من زعمائهم حتى ذلك الوقت لا يسلمون بالطاعة والانتقاد لها ، ولا تزال نفوسهم تطمح إلى العودة لعصر العصبية والفوضى . وكان لقوة الحكم وشخصته وشجاعته أثر كبير في القضاء على الكثير من الثورات التي قامت في عهده .

ثم جاء عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الذي كان على العكس

(١٤) د. سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(١٥) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس القسم الأول ص ٢٢١ د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢١٤ د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

من أببه لين الجانب هادئ الطباع لمعانت العصبية العربية من جديد بين المضربة واليهنية في كسورة تدمير لسبب ثلثه (١٦) أدى إلى قيام حرب بين الفرتين استمرت نحو سبع سنوات (٢٠٧ - ٢١٣ هـ) وقد انظر عبد الرحمن إلى إرسال جيش بقيادة يحيى بن عبد الله بن خلف فأوقع بهم في موقعة المصارة بلورقة وهزمهم وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف . وفي سنة ٢٠٩ هـ أرسل قائده أبيه بن معلوية بن هشام إلى تدمير فاشنيك مع اليهنية بقيادة أبي الشماخ محمد بن إبراهيم الذي ظل عدة سنوات يتحدى سلطان الإمارة ولم تهدأ حركته إلا بعد طلبه الأمان وعودته لثطاعة سنة ٢١٣ هـ . وكان ذلك سببا في أمر عبد الرحمن بهدم حاضرة تدمير (مدينة آلة) سنة ٢١٠ هـ وببناء مدينة مرسية مكانها سنة ٢١٦ هـ (١٧) .



(١٦) يذكر ابن عسيران أن السبب كان قيام أحد المضربين بزع ورقة دالية من جنان يملأ فقلته (البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤) ، بينما ذكر الحميري العكس وهو أن رجلا من اليهنية أخذ ورقة من كرم رجل مضري يغطي بها قلة فأنكر ذلك المضري ، واعتقد أنه فصل ذلك استخفافا به (الأرواح المعطّر ص ١٨١) . بينما يذكر د. حسين مؤنس : أن معظم جند تدمير (مرسية بعد ذلك) كانوا من اليهنية ، ولكن المضربة كانوا يحاولون السيطرة عليها رغم قلتهم ، ومن هنا كانت الفتنة . وهذا ما نميل إليه لأنه السبب الأقوى من وجهة نظرنا . (أنظر معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٠) .

(١٧) عسيران : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢١٤ .

التفراع بين العرب والبربر

كثرت انتفضات البربر وثوراتهم ضد العرب فى بلاد المغرب ، وكان من أخطر هذه الثورات التى لها اثر فى ثورات البربر بالاندلس ثورة ميسرة المدغرى (١) الذى اعتنق مذهب الفوارج ، ونصب نفسه إماما وتسمى بالخلافة والنق حوله الكثير من البربر الذين تشبهوا بالخوارج الأزرقاة وأهل النهروان من أصحاب الله بن وهب الراسبى فحلقوا رؤوسهم (٢) .

وقد انتهز ميسرة فرصة خروج حبيب بن أبى عبدة بجيش من العرب فى حملة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ونقض طاعة عبيد الله ابن الحبحاب وإلى إفريقية فى طنجة وأقاليمها ، وتدامى البربر فى المغرب بفسره وتلروا فى المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ .

وربب ميسرة على عمر بن عبد الله المرادى وإلى طنجة فقتله ، وولى مكانه عبد الأعلى بن حجاج ، وزحف إلى إسماعيل بن مبيد الله ابن الحبحاب فى منطقة السوس فقتله أيضا .

وهكذا أصبح موقف عبيد الله حرجا وساء موقف العرب ، فغضب لقتل ابنه وعامله على طنجة ، وكتب إلى قائد حبيب يأمره بالعودة حتى يتمكن من مواجهة هذه الثورة الخطيرة ، والتقى للفريقان بالقرب من طنجة ، وتحقق النصر للعرب فى البداية ، وتراجع ميسرة ، مما أدى إلى ثورة البربر عليه وقلته وتولية ابن حميد الزناتى مكانه الذى استطاع أن يحول الهزيمة إلى انتصار كبير فى موقعة عرفت بمقودة

(١) يسمى أيضا المدغرى ويلقب بالحقير بفتح الميم بسوق القيروان (ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس من ١٤) .

(٢) أخبر مجموعة فى فتح الأندلس من ٢٢ .

الإشراف حيث قتل فيها « حماة العرب وفرسانها وكلماتها وإبطالها »
كما يقول ابن مغازي (٣) .

وكان لهذه الهزيمة القاسية وقعها الأليم في نفوس العرب بالمغرب .
فانتشر الذعر الشديد بينهم ، وانتفضت البلاد عليهم وعميت فيها
الفوضى ، ويبلغ خبر هذه الثورة بلاد الأندلس فوثب أهلها على أميرهم
عقبة بن الحجاج السلولي ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهري . ولما بلغ
ذلك الخليفة هشام عزل عبيد الله عن إفريقية سنة ١٢٣ هـ وقال « والله
لاغضبني لهم غضبة عربية ، ولابعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره
عندي » (٤) .

وبعث بجيش تعداده سبعة وعشرون ألفا من أهل الشام
وانضم إليه ثلاثة آلاف من مصر وجعل على قيادته كلثوم بن عياض
القشيري الذي ولي المغرب بدلا من عبيد الله وجعل الأمر من بعده
لابن أخيه بلج بن بشر القشيري إن أصيب ومن بعده لثعلبة بن سلامة
العالمى وكان من غلاة القيسية وانضم عرب إفريقية الذين استوطنوا
بعد الفتح إلى هذا الجيش فأصبح عدده نحو سبعين ألفا (٥) ،
ولكن هذا الجيش لقي هزيمة أخرى قاسية عند بلدة بقدورة على
وادي مسبو سنة ١٢٤ هـ قتل فيها عدد كبير على رأسهم كلثوم وحبيب
ولم ينج منه إلا نحو عشرة آلاف على رأسهم بلج بن بشر لأنوا بمدينة
سبتة وتحصنوا بها ، وحاصروهم البربر حصارا شديدا حتى أشرافوا
على الهلاك . واضطر بلج إلى الاستعانة بعبد الملك بن قطن الفهري

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٥٢ .

(٤) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٣١ .

والى الأتلس (١٢١ — ١٢٥ هـ) وطلب منه السماح بالجوء إلى الأتلس .
له وإن معه خشية الاستئصال والهلاك ولكن عبد الملك تقاعس عن
نصرتهم خشية على سلطانه خاصة وأنه كان مهريا من عرب الحجاز
الذين شهدوا موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ وما حدث فيها من جند الشام
بالمدينة . ولما رأى عرب الأتلس إشراف إخوانهم على الهلاك أمدوهم
بقاريين من شعير وأمم ولكن لم يكن ذلك كافيًا (٦) .

وتغير الموقف فجأة عندما ثار البربر في الأتلس بعد أن علموا
بانتصار إخوانهم في المغرب « حيث انقضوا على عرب جليقية وقتلهم » .
وأخرجوا عرب استرقة والمدنيين التي خلف الدروب « وكان البربر
أكثرية بهذه المناطق » .

وأحس عبد الملك بالخطر الداهم عندما وجد أن البربر يتجهون
نحو قرطبة بقيادة ابن هدين الذي يقال له : (ابن زطرتي) (٧) .

(٦) أخبار مجموعة ص ٣٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢ .

(٧) أخبار مجموعة ص ٣٩ لا تذكر لنا المصلح شيئًا واضحًا عن
أسباب ثورة البربر على العرب في الأتلس — رغم أنهم قد اشتبكوا
سويًا في الفتح — وكل ما نفهمه أنها يمكن أن تكون امتدادًا طبيعيًا
وصدى لثورتهم في إفريقية التي كانت بسبب استبداد بعض الولاة
وسوء معاملتهم للبربر . وقد ذهب الكثيرون إلى أن هذه الثورة
كانت بسبب سوء معاملة العرب للبربر ، واختصاصهم أنفسهم بأجود
الأراضي والمناطق الخصبة تاركين البربر المناطق الجبلية القاحلة .
وذلك غير صحيح لأن جماعات كثيرة من البربر استقرت في مناطق
خصبة من الأتلس في الجنوب والشرق والغرب ، بل كانت هناك
أماكن تكاد تكون مقصورة عليهم مثل الجزيرة الخضراء ، ومن هذه

نخشى على مصيره ومصير بني جنسه خلسة بعد هزيمة جيوشه
التي أخرجها لقتال البربر بها جعله مضطرا إلى مد يد العون لبلج
وجنده الحاصرين في سبته للتعاون في القضاء على هذا الخطر الداهم .
فأرسل إليهم السفن للعبور إلى الأندلس ، واشترط عليهم الصودة
إلى سبته مرة أخرى بعد القضاء على ثورة البربر ، وأخذ بعض
الرهائن تنقبذا لذلك وأنزلهم بالجزيرة الخضراء (٨) .

والتقى الفريتان العرب البلديون وجند السلم من ناحية والبربر
من ناحية أخرى على وادي سليط في حوز طليطلة فهزم البربر هزيمة
تكسراء .

الأماكن الخصبة التي نزل بها البربر مع غيرهم من العرب كورة
لمحص البلوط شمال قرطبة ، وكورة السهلة وكانت من أخصب المناطق
في الأندلس ونزلها بنو رزبن من البرانس فنسبت إليهم واستقروا
بها في عصر ملوك الطوائف . والعرب لم يكونوا من الكثرة بحيث
ينفردون بكل المناطق الخصبة في بلد واسع كالأندلس . وكان البربر
يتفوقون عليهم في العدد نظرا لقرب بلادهم وكثرة هجراتهم .

ويبدو أن سكنى الكثير من البربر في المناطق الجبلية كان
بناء على رغبتهم بحسب ما اعتقدوا عليه في بلادهم ، وكان العرب
والبربر بعد الفتح ينزلون في المناطق المناسبة لهم وبحسب
اختيارهم دون ضغط أو إكراه أو تحييد لآماكن معينة ينزل بها
هؤلاء أو هؤلاء فسكنوا سويًا في مناطق ومتفردين في أخرى .
انظر : د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٢٨ ، ٣٨٨ ، معالم
تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، د. عبد الرحمن الحجي :
التاريخ الأندلسي ص ١٣٧ - ١٣٨) .

(٨) يذكر البعض أنه اشترط عليهم أن يعودوا بعد سنة واحدة
(د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٨) .

ولما انتهت الثورة طلب عبد الملك من بلج وأصحابه مغادرة الأندلس. فسألوه أن يهتدى لهم السفن التي تقلهم إلى تونس من سواحل البيرة وتدمير ، فاعتذر عن ذلك بوجود السفن في الجزيرة الخضراء لنقلهم إلى سبتة ، فقالوا له : أتريد أن تعرضنا لبربر طنجة ، ولما رأوا ما يراد بهم وثبوا عليه وأخرجوه من قصره وبليعوا بلجا مكانه في أول ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ (٩) .

ويبدو أن الشاميين كانوا يبيتون النية للبقاء في الأندلس والإقامة فيها بعد ما حدث لهم في إفريقية خلاصة وأنهم سمعوا عن خيراتها وهحاسنها ، ولم يجدوا وهم في موقنهم بالخرج أثناء حصارهم في سبتة إلا أن يوافقوا على شروط عبد الملك . ثم أخذوا يبحثون عن نريمة . تمكنهم من البقاء حتى وجدوا ذلك في اتهمله بقتل رجل فسانى من أشرافهم كان ضمن الرهائن في الجزيرة الخضراء ، وأدى ذلك إلى قتلهم له ، بالرغم من محاولة بلج أن يردهم عنه ولكنه لم يستطع خشية من تفرق كلمتهم وانفصاضهم من حولها (١٠) .

وقد أدى مقتل عبد الملك بن قطن إلى تحول النزاع بين البلديين . والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمينية . حيث أثار موجة من الغضب واتحد العرب البلديون — بقيادة ولدى عبد الملك قطن وأمية — مع البربر الذين كانوا يتلهفون للأخذ بثأرهم من أهل الشام ، والتقى هؤلاء مع جيش الشام بقيادة بلج في موضع يقال له (أتسوة برطورة) وانتهت الموقعة بهزيمة البلديين وكان معظمهم من اليمينية وقتل بلج فتولى مكانه ثعلبة بن سلامة العاملي ، ولما علم الخليفة

(٩) أخبار مجموعة ص ٤٠ — ٤١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ — ٤٤ .

(١٠) أخبار مجموعة ص ٤٢ .

عشام بن عبد الملك بذلك نصحه العباس بن الوليد بن عبد الملك بتولية
أحد اليمانيين على الأندلس فولى أبا الخطار بن ضرار الكلبي بعد
أن كتب إليه بأبيات يقول فيها :

انتم بنى مروان قيسا جماعتا

وفى الله إن لم تضافوا حكم عدل

كانكم لم تشهدوا مرج راضط

ولم تعلموا من لكان ثم له الفضل

وقيناكم هر الوغى بصدورنا

وليس لكم خيل تعد ولا رجل

فلما راينم واقد الحرب قد خيا

وطلب لكم منها المشارب والاكل

تفامقم عنا لكان لم يكن قنا

بلاد وانتم ما قد علمنا لها فعل

فلا تجزموا إن عضت الحرب مرة

وزلت عن الرقاة بالقدم التعل

تصرم جبل الوصل وانقطع الهوى

الا ربما يلقى فينقطع الصل(١١)

وفد أبو الخطار إلى الأندلس في رجب سنة ١٢٥ هـ ومعه سجل
الولاية من وإلى إفريقية (حفظة بن صفوان) ورفقته ثلاثون رجلا هم
الطالعة الثانية من العرب الشاميين . وكانت الحرب ما تزال ناشبة
بين الشاميين والبلديين ، فبعد مقتل بلجج تولى ثعلبة الماملى وقام
بمحرارة العرب البلديين والبربر في ماردة وهزمهم وسبى كثيرا منهم (نحو

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ - ١٩ .
ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٦٤ مع بعض الاختلاف في
الأساط .

عشرة آلاف) ، واخذ في بيع شيوخ البلديين من العرب لمن ينقص من ائمتهم حتى قيل إنه ياع أحد رجال عرب المدينة بكتب (١٢) وإن كنا نشك في ذلك لما فيه من مبالغة شديدة . فلما أقبل أبو الخطار أمر بإطلاق سراح الأسرى والسبي فسمى عسكره لذلك عسكر العافية (١٣) . ونظر في توزيع جند الشام على كور الأندلس بدلا من تجمعهم في قرطبة حتى يقضى على عوامل الاضطراب فأنزل جند دمشق بالبيرة وسماها دمشق ، وأنزل جند الأردن بكورة رية ، وجند فلسطين بشذونه ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند قنشرين بجيان وجند مصر بباجية وتدمير (مرسية) ، وكان إقرارهم على أموال أهل النمة من العجم من أرض ونعم ، ولم يمس غنائم البلديين من العرب والبربر بنقص (١٤) .

وفي عهد عبد الرحمن الداخل قامت ثورة خطيرة للبربر في شمال شرق الأندلس سنة ١٥٠ هـ وكان زعيمها نقيها بربريا يعلم الصبيان ويدعى شتقا بن عبد الواحد بن بربر مكناسة ، وقد ادعى أنه من ولد الحسن ابن علي ، وكلفت أمه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمي تسمى بعبد الله ابن حمد ، وذاعت دعواته بين البربر في هذه الناحية نظرا لكونهم أكثرية فيها ، واستطاع بهم أن يستولى على شنت بربره جنوب غرب طليطلة وجعلها مقرا له ، ثم استولى على ملاردة وقورية وبلن ، وعظم خطره وتمكن من هزيمة الجند الذين أرسلهم إليه حكم

(١٢) أخبار مجموعة ص ٤٥ .

(١٣) أخبار مجموعة ص ٤٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ .

(١٤) ابن الأبار : الحلة السراء ج ١ ص ٦١ — ٦٣ . نفع الطب ج ١

ص ٢٢١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٦١ — ١٦٢ (

د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

طليطلة بقيادة سليمان بن عثمان مما أدى إلى اتساع دعوته واستفحال حركته ، فسلر إليه عبد الرحمن بنفسه سنة ١٥٢ هـ فالتجأ الناصر بين معه إلى الجبال المحيطة بالمنطقة مما اضطر عبد الرحمن إلى العودة إلى قرطبة ، ثم أرسل مولاة بدرا لمقاتلته سنة ١٥٤ هـ فاهتلع بالجبال حتى لا يلتقى بالجيش الأموي ، ثم عاد عبد الرحمن لمقاتلته سنة ١٥٥ هـ بجيش جعل عليه هلال المديونى كبير البربر فى شرق الأندلس — بعد أن استماله واقتره على ما فى يده وعهد إليه بولاية الأندلس التى تطلب عليها شقنا بعد استخلاصها منه — وكان لذلك أثره فى بث الخلاف فى صفوف البربر ، فانفض عن شقنا كثير من أنصاره — واضطر إلى الانسحاب للاعتصام بالجبال مرة أخرى . وكانت المشاكل التى واجهت عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا الثأر مما جعل ثورته مستمرة قرابة عشر سنوات ، كما كان لاعتصامه بالجبال وتجنب اللقاء المباشر أثر فى هذا الاستمرار .

وإنك لم يتهنك عبد الرحمن من القضاء عليه إلا بهزيمة دبرها له أنان بن أصحابه بمساعدة هلال المديونى حيث قتلاه وحملوا رأسه إلى قرطبة وبذلك انفضت جموع البربر من حوله ، وخبت ثورته بعد أن ظلت نحو عشر سنوات تهدد سلطان عبد الرحمن ، وبذلك حققت الإمارة فى لحظات ما لم تحقته الحملات والجيش المتعاقبة فى سنوات (١٥) .

وفى عهد هشام بن عبد الرحمن قلمت ثورة للبربر سنة ١٧٨ هـ فى تاركنا من إقليم رندة ، وكنوا كثرة فى هذا الإقليم ، فخرجوا على

(١٥) انظر أخبار مبهومة ص ١٠٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ ، ابن خلدون : السبر ج ٢ ص ١٢٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٧ .

الطاعة ، وقتلوا كثيرا من السكان العرب فأرسل إليهم هشام جيشا استطاع هزيمتهم ، وغرأ من تآكروا التي ظلت خالية طوال سبع سنوات إلى طليبرة وترجيلة (١٦) .

كما قامت ثورة أخرى للبربر في ماردة سنة ١٩٠ هـ بقيادة أصبغ بن عبد الله بن وائسوس بسبب وقعة قلم بها بعض خصومه فخشى أصبغ من الحكم وشدته فدخل ماردة وفار بهيبيل واللف حوله البربر ، فخرج إليه الحكم بنفسه وحاصره ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى قرطبة بسبب فتنة قامت فيها ، ثم تابع حملاته بعد ذلك سبع سنوات ولكنه لم يستطيع القضاء على هذه الثورة ، وأخيرا استطاع استمالة جماعة من أهل ماردة من ثقاته أصبغ ففارقوه مما دعاه إلى طلب الأمان فأمنه الحكم وخرج من ماردة وأقام بقرطبة (١٧) .

وفي سنة ٢١١ هـ فار طوويل البربري بتكرنا في عهد عبد الرحمن ابن الحكم (الأوسط) فأرسل إليه قائد عبد الرحمن بن معلوية بن غنم فظفر به وقطع عاتقه (١٨) .

وفي سنة ٢١٣ هـ قامت ثورة للبربر في ماردة أيضا وتزعيمها رجل بربري يدعى محمود بن عبد الجبار ، وانضم إليه أحد المولدين ويدعى

(١٦) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ ، ابن الأثير : الكلب ج ٦ ص ١٤٤ .

(١٧) ابن الأثير : الكلب ج ٦ ص ٢٠١ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٠ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٢٤ ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٧٩ .

(١٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤ .

سليمان بن مرتين ويلقب (بقمضب) ، وشقيا عصا الطاعة على الأمير عبد الرحمن وقتلا حكم المدينة مروان الجليقي ، فأرسل فرقة حاصرت المدينة سنة ٢١٤ هـ إلا أنها لم تحقق نصرا يذكر ، فسار عبد الرحمن في السنة التالية وحاصرها حصارا شديدا ولكنه لم يتمكن من فتحها إلا في سنة ٢١٩ هـ . يعد أن فر منها الثغراني حيث قتل سليمان سنة ٢٢٠ هـ ، وقتل محمود سنة ٢٢٥ هـ . وقد سجل عبد الرحمن إخضاعه لهذه الثورة ببناء قصبته التي تعرف لدى العامة إلى اليوم باسم الدار وبها نقش عربي محفوظ إلى اليوم بهتحف القصبه في باردة بحل تاريخ ٢٢٠هـ (١٩) .

وفي سنة ٢٣٦ هـ ثار أحد البربر ويدعى حبيب البرنسي بجبال الجزيرة الخضراء والتف حوله جماعة من المفسدين فأخرج له الأمير عبد الرحمن الأجناد ففروا جيوفاً وقتلوا عددا كبيرا من رجاله (٢٠) .

وفي عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط كثرت الفتن والثورات كثرة بالغة بين العرب والبربر والمولدين . ومن أشهر الثوار البربر في هذا العهد الذين حاولوا الاستقلال بنو موسى بن ذي النون وكان أول من ثار منهم الفتح ومطرف اللذين ثارا في ثغنت بربه واتخذاهما حاضرة لهما ، واتلها فبها الكثير من المنازل والقرى والمساكن والحصون فعمرت وكثرت فيها المرافق ، وقد استقل مطرف

(١٩) انظر : ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٨٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤١٠ ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .
(٢٠) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ .

بحصن وبدة ، ويحيى بحصن ولبة وكان اكبر الحصون ، وبنى الفتح
حصن إيتليش ومصره وعمره . وقد قتل الفتح سنة ٣٠٣ هـ ، ودخل
أخوه يحيى فى خدمة الخليفة الناصر وتوفى أثناء غزوة سرقسطة سنة
٣٢٥ هـ ، أما مطرف فقد خدم الناصر أيضا واشترك معه فى بعض
غزواته فمولاة مدينة الفرج من الثغر الأوسط (٢١) .

وكذلك ثار عمر بن مضم الهترولى المعروف بالملاحى ، وكان من بربر
قرية الملاحه من كورة جيان ، وكان مجرد جندى من جنود عاملها فوثب عليه
وقتل واستطاع الاستيلاء على منصبها ، واستفحل أمره وأخذ يعيث
مسادا فيها جاورها من بلدان ، فأرسل إليه الأمير عبد الله جيشا بقيادة
أحمد بن محمد بن أبى عبدة فتمكن من هزيمته والقبض عليه والقنوم به
إلى قرطبة .

وكذلك ثار زعال بن يعيش بن فرائك المتغزاوى وكان من بربر نفزة
وخرج على الأمير عبد الله ، فى حصن أم جعفر فى ماردة واستطاع
أن يستقل بهذا الحصن استقلالاً جزئيا حيث ظل متمسكا بطاعة الأمير
ولو اسميا ولما مات خلفه ابن عمه عبد الله بن عيسى بن قوطى
حتى استنزل من الحصن أيام عبد الرحمن بن محمد (٢٢) .

كما ثار خليل وسعيد ابنا مهلب بكورة البيرة واستطاعا الاستلاء
على حصن قرظيرة واشيرغرة ورغم ثورتها إلا أنها كانا يدينان بالطاعة
للأمير عبد الله فمولاها على ما فى أيديها حتى كانت أيام الأمير عبد الرحمن
ابن محمد فاستنزل سعيد — بعد موت أخيه — ضمن من استنزل
من الثوار من حصونهم (٢٣) .

(٢١) ابن حبان : المقتبس ص ١٩ تحقيق بلشور انطونية .

(٢٢) د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢٥٦ — ٢٥ .

(٢٣) ابن حبان : المقتبس ص ٣٢ ، ابن عسار : البيان المغرب ج ٢
ص ٢٠٨ .

ثم جاء عهد المنصور بن أبى عامر الحاحب فازداد نفوذ البربر زيادة كبيرة حيث استكثر منهم واعتمد عليهم وجعلته شيعته وانصاره فى مواجهة خصومه ومنافسيه من الامويين والعرب الذين كانوا يحقدون عليه لاستبداده وسيطرته على الخليفة الاموى هشام المؤيد وتليب ذلك يتجلى من خلال وصيته لابنائه عبد الملك الذى تولى الحجابة بعده سنة ٣٩٢ هـ حيث يقول له « ولا تنظر بك وأصحابك السلامة فتنسوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة » (٢٤) .

وقد ادى ذلك إلى مزيد من التنافس بين المنصرين . حيث قدم المنصور البربر وآخر العرب واستقطبهم عن مراتبهم . وإذا كان ابن خلدون يرى أن سبب ذلك هو ضعف عصبية العرب مما ادى لاعتماده على البربر (٢٥) فإننا نرى أن ذلك هو الذى ادى إلى ضعف عصبية العرب ونفوذهم ، وكان سببا من اسباب انهيار دولة بنى أمية بالاندلس .

وقام صراع عنيف بين المنصرين تجلى بصفة خاصة فيما يعرف بالفتنة العظمى أو البربرية التى استمرت نحو عشرين عاما وبدأت فى مستهل سنة ٤٠٠ هـ . وقام البربر فيها بالكثير مما ادى إلى تخريب الكثير من مظاهر الحضارة وال عمران فى الاندلس وخاصة فى قرطبة وبمدينة الزاهرة ، وإشاعة الكثير من مظاهر الفوضى والاضلال فى المجتمع مما كان له اثره فى سقوط الخلافة الاموية سنة ٤٢٢ هـ (٢٦) .

(٢٤) ابن بسام الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ٥٧ .

(٢٥) المقدمة ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢٦) من هذه الفتنة بالتفصيل انظر : بهجة المجالس ج ١ ص ١٠ ،

ابن بسام : الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ٢٥ ، ابن حان : القتبس ص ١١٥ وبعدها ، البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٤٧ وبعدها ، قرطبة حضرة الخلافة الاموية ص ٧٩ وبعدها .

الفتن بين العرب والمولدين في الأندلس

كثرت الفتن والثورات في كل ناحية من نواحي الأندلس في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ هـ - ٣٠٠ هـ) ، ولم تقتصر على المناطق الجبلية فقط بل امتدت إلى القواعد والمدن الكبيرة مثل إشبيلية وبلبوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ، ولم تقتصر هذه الثورات على عنصر بعينه وإنما شملت الكثير من العناصر ، فشارك فيها المولدون والعرب والبربر ونشبت معارك عنيفة بين العرب والمولدين ، وبين العرب والبربر فضلا عن المعارك التي دارت بين العرب أنفسهم ، واستطاع الكثير من هؤلاء أن يستقلوا بأماكن كثيرة ، حتى لم يبق لحكومة قرطبة سلطان حقيقي إلا في العاصمة وأحوارها فقط (١) .

ويخلص لنا ابن الأثير الأوضاع في عهد الأمير عبد الله فيقول « وفي أيامه امتلأت الأندلس بالفتن ، وصار في كل جهة متقلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته » (٢) .

والحقيقة أن هذا الأمر لم يقعد عن مواجهة هذه الثورات ، وإنما بذل قصارى جهده للقضاء عليها ، وظل يكافح طوال مدة حكمه دون هوادة لاتخاذ دولة آبائه واجداده من الانهيار ، واستنفذ ذلك منه الكثير من موارد الدولة ، حتى ذكر ابن خلدون : أن خراج الأندلس قبله كان ثلاثمائة ألف دينار مائة ألف منها للجيش ومائة ألف للنفقة في النواصب . وما يعرض من الخطوب ، ومائة ألف ذخيرة ووفر

(١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٣١ ، د. محمد زيتون : المسلمون

في المغرب والأندلس ج ١ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) « الكامل في التاريخ » ج ٧ ص ٤٣٥ ، « تاريخ » ص ١٣٣ .

نماتنق الوهر في تلك السنين وتسل الخراج (٣) .

ويبين لنا الوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب أسباب انتشار الثورات والفتن في هذا العهد فيقول : « والسبب في كثرة الثوار بالانندلس يومئذ ثلاثة وجوه :

الاول : منعة البلاد وحصانة المعقل ويأس أهلها بمقارنتهم بعدو الدين فلم لهم شوكة وحد بخلاف سواهم .

والثاني : علو الهم وشيوخ الأنوف وقلة الاحتمال لتقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالانندلس من العرب والبرابرة اشراف يائف بعفسهم من الأذمان لبعض .

والثالث : الاستئناد عند الضيقة أو الاضطرار إلى الجبل الأسم والمقل الأعظم من ملك النصاري الحريص على ضرب المسلمين بعفسهم ببعض » .

وقد كانت السياسة التي جرى عليها بنسو امية في الانندلس منذ بداية أمرهم في اصطفاء الموالى قد أخذت تحدث أثرها في نفوس القبائل العربية التي أصبحت ترى في هذه السياسة نوعا من المهانة لها ، ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين في الثغر الأعلى والمناطق الجنوبية على يد ابن حفصون وجدت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها والانتصاف لعصبيتها وكرامتها (٤) .

وكان المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم الحكومة الاموية من ضروب

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٤١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين في الانندلس ص ٢٤٤ ، عنان : دولة الإسلام في الانندلس ص ٣٤٠ ، د. زيتون : المرجع السابق ج ١ ص ٣٢١ .
(٤) عنان : دولة الإسلام في الانندلس ، القسم الثاني ص ٣٥ .

الرعاية والتساح يضم أكثرهم لها الخصومة والكيد ، ولا يدينون.
بالولاء لها على الدوام ، وينتهزون الفرص للخروج عليها ، وكانوا يلغون
المعون والتأييد من بنى جنسهم من النصارى المعاهدين (٥) .

ولذلك انضبوا إلى ثورة ابن حفصون الذي كان مولدا ويرجع
إلى أصل أسسبلان مسيحي وكان يجيش بالمسيحية وعاد إليها بعد
أن أسلم وسبقه أبوه قبل ذلك بعدة أعوام (٦) .



(٥) عنان : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٦) نفسه ص ٤٢ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٠٢ وبعبارة

تاريخ المسلمين وأقاربهم في الأندلس ص ٢٥٩ وبعبارة .

ثورة المولدين بقيادة عمر بن حفصون

وقد كان من أخطر هذه الثورات التي تالت في الأندلس ثورة ابن حفصون المولدي (١) الذي كان يمثل في ثورته كل ما يجيش به المولدون . نحو العرب من بغض وكراهية ، فكان يدعوهم ومن إليهم من العجم المستعربين إلى الخروج على سلطان العرب ، ويذكرهم بها ينالهم من عسف واضطهاد على أيديهم ، وأنه قام ليرفع عنهم ذلك ويرد إليهم حريتهم وهو في ذلك لا يبقى سوى تقوية نفوذه وتوطيد سلطانه الذي بسطه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية من الأندلس فيما بين البحر ووادي شنييل (٢) .

(١) من هذه الثورة بالتفصيل : انظر البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٢ وبعدها ، ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ١٣٥ وبعدها ، عنان : دولة الإسلام ص ٢٠ وبعدها ، د. السرد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٩ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٣٢٢ وبعدها . وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دبيان ابن فرغلوش بن أذفونش القس ، ثار بالأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وبدأت ثورته سنة ٢٧٠ في جبل بربشتر (ببشتر) فيما بين رنده ومالقة وانضم إليه الكثيرون من المولدين والخارجين على الطاعة والفسدين ، واستولى على غرب الأندلس إلى رنده وعلى السواحل من استجة إلى البيرة وظل مستمرا في ثورته حتى مات سنة ٣٠٦ هـ فخلفه ابنائوه إلى أن قضى على ثورته سنة ٣١٥ هـ في عهد عبد الرحمن الناصر .

(انظر : المعبر ج ٤ ص ١٣٤٠ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨ عنان : دولة الإسلام ص ٢٠) .

(٢) عنان : دولة الإسلام في الأندلس (عصر الفتنة الكبرى) ص ٣١٢٧ .

ويبدو انه كلن يطبع فى الاستيلاء على متاليد الأمور فى الأندلس
بدليل انه اظهر الميل للدولة العباسية وقد قاوم هذه الثورة الأمير
محمد وابنه المنذر كما قاومها الأمير عبد الله متصومة شديدة
وفى سنة ٢٨٦ هـ اظهر ابن حفصون ما كلن يخفيه فعاد إلى النصرانية
وتسمى بصمويل . وقد أدى ذلك إلى انصراف الكثير من المولدين المسلمين
منه بينما فرح المعجم بذلك ، واشتد السخط عليه فى اتحاء الأندلس وجد
المسلمون فى قتاله حيث راوا أن حربه من الجهاد(٤٣) .

وحاول ابن حفصون أن يعوض ما فقده من اتصار ويقوى
مركزه فخطب الفونسو الثالث ملك ليون وعقد معه تحالف كما تودد
لبنى قسى فى الثغر الأعلى ، وخطب ابن الأغلب صاحب إفريقية وهاداه ،
وكذلك الفاطميين أعداء الامويين بالأندلس ، وظهر الدعوة العباسية
بالأندلس ، كما اظهر الدعوة لعبيد الله المهدي(٤٤) .

وقد كان للحملات التى أرسلها الأمير عبد الله أثرها فى استنزاف
قوة ابن حفصون بحيث لم يعد يشن حربا هجومية كما كان يفعل
سابقا فى عهد الأميرين محمد والمنذر وفى السنوات الأولى من حكم
عبد الله ، وكان لهذا كله أثره فى إضعاف ثورته التى استهزت ما يقرب
من النصف قرن حتى قضى عليها فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر
سنة ٣١٥ هـ (٥) .

(٣) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٣٢٥ ،
عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٤٣ .

(٤) ألبان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ .
د. محمد زيتون : المرجع السابق ص ٣٢٥ .

(٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم فى الأندلس ص ٢٦٥ .

١ - الفتنة بين العرب والمولدين في البيرة

ولم يكد يمشى عام واحد من إمارة عبد الله حتى اشتعلت نيران فتنة شديدة بين العرب والمولدين في كورة البيرة ، وكانت مدينة قسطة - حاضرة هذه الكورة (التي عرفت باسم فرناطة فيها بعد) تنحصر بعدد هائل من أهل الذمة من نصارى ويهود وكان المسلمون فيها قلة حتى أنها سميت (بإفرناطة اليهود) نظرا لكثرتهم فيها كما كانت تضم الكثير من المولدين ، وكان النصارى والمولدون - برغم إسلامهم - يؤلفون في عهد الأمير عبد الله رابطة قوية متألفة متحدة المصالح والأهداف حيث كان يغمر أكثرهم شعور بالكرهية ضد السكان العرب ، وكانوا ينظرون إليهم نظرة المستعمرين المقتصبين لبلادهم ، ومن هنا فقد اضطر العرب إلى تاليف جبهة قوية لمناهضة جبهة المولدين والمعاهدين وعرفت هذه الجبهة (بالعصبية) (٦) .

وكان أول من تزعم هذه الجبهة عربى من ناحية البراجلة في كورة البيرة يدعى (يحيى بن سقالة القيسى) وكان شديد التعصب للعرب ضد المولدين والعجم ، فنفذوا بقرصصون له حتى أتى إلى حاضرتهم قسطة فقتلوه بالرغم من عقده معهم أمانا مؤكدا واستولوا على حصن منت شاتر (منت شقند) بالقرب من البيرة .

فخلعه على رئاسة عصبية العرب مسوار بن حيدون القيسى .
« وكان فارسا شجاعا محاربا فكثر اتباعه واشتدت شوكته واعتزت العرب به » (٧) .

(٦) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٦ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس القسم الثاني ص ٣٥ .
(٧) ابن حبلان : المتنبس ص ٥٥ .

وقام سوار في بداية سنة ٢٧٦ هـ بالثورة في ناحية البراجيلة
موانضمت إليه بيوتات العرب من كورة البيرة وجيان وريه وغيرها ، للاخذ
بثأر يحيى واسترداد حصن منت شاطر الذي استولى عليه المولدون والعجم
موكان فيه نحو ستة آلاف منهم ، واستطاع استرداد الحصن وقتل الكثيرين
تففيه ، ثم اخذ في فتح حصون المسالة والنصارى واحدا بعد
الاخر ، وقتل الكثير منهم حتى ضجوا منه واستغاثوا بجمد بن
عبد الخافر عامل الامير عبد الله على البيرة ودموه إلى قتاله ، وبينوا
له انهم على طاعتهم للسلطان ، فخرج وخرجوا معه في جيش كثيف
لمقاتلة سوار ولكنه تمكن من هزيمتهم ، واهل في المولدين السيف
حتى ذكر انه قتل منهم سبعة آلاف واسر جمدا . واساء معاملته
ثم اطلق سراحه لكونه عربى ، وقد عرفت هذه الواقعة (بوقيعه
جمد (٨) .

وقد ادى هذا الانتصار إلى قوة نفوذ سوار واشتداد بأسه
فكاتبه العرب من حصن غرناطة حتى حدود قلعة رباح ، وصاروا
يبدأ على المولدين والنصارى . وخطب المولدون الامير حتى يكف بأس
سوار منهم ، وراسله الامير فظهر الامثال لطاعته وعقد مع اهل
تسطة الصلح ، ويظهر انه طلب من الامير عزل جمد فعزله وولى مكانه
مهر بن عبد الله بن خالد وكان شريكا لسوار ، وخرج سوار للاسهام
في مقاتلة ابن حفصون واغار على حصونه في سنة ٢٧٦ هـ ، فغضب
اهل تسطة لذلك وجمعوا جميعهم لقتاله فيها يزيد على عشرين الفا ،
واستطاع سوار هزيمتهم وقتل منهم نحو احدى عشر الفا وسميت هذه

(٨) ابن حبان : المتبى ص ٥٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢
ص ٢٠٢ .

الموقعة (بوقعة المدينة) حيث دار القتال فى سهل وادى شذيل بالقرب من غرناطة (٩) .

وامام ذلك لاذ المولدون بابن حفصون وخلصوا طاعة الامير عبد الله ، واشتبك ابن حفصون مع سوار فى معركة هزم فيها واصيب بجراح كثيرة فاضطر للعودة إلى حصنه فى بيشتر . وترك قائده حفص ابن المرة لمقاتلة سوار ، حتى استطاع أن يستدرجه للقتال فى نفر قليل سنة ٢٧٧ هـ ، ونصب له عدة كمائن خرجت عليه وتمكنت من قتله وجيء بجثته إلى قسطة فأنظر المولدون والنصارى فيها التسلية والفرحة حتى ذكر : « أن الكلالى بن نسلهم قطعن لحبه مرقا ، وأكله كثير منهم حنقا عليه لما قد نالهن من الشك فى بمولتهن وأهليهن والبتن فى ابنائهم » (١٠) .

وقد ادى ذلك إلى تصدع جبهة العرب ، فاختاروا بعده سعيد ابن سليمان بن جودى الذى حاول جمع شملهم ، ولكنه لم يتمكن من سد الفراغ الذى تركه سوار ، فلم يكن مثله فى القوة والشجاعة والسياسة ، وظل رئيسا للعرب فى البيرة نحو سبع سنوات حتى تمكن أعداؤه من قتله غيلة فى ذى القعدة سنة ٢٨٤ هـ (١١) .

(٩) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٢ وهو يذكر أن مجموع كانت ٢٣ ألف ، ابن حيان : المقتبس ص ٥٧ ، السد ساءم : مرجع سابق ص ٢٦٧ .

(١٠) ابن حيان : المقتبس ص ٦٠ .

(١١) ذكر ابن عذارى أنه قتل فى دار عشبة له يهودية . (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٤) .

ويقال إنه قتل بتبشير الأمير عبد الله بسبب إنبات قتلها فى ذم بنى

وقام برئاسة العرب بمده محمد بن أضحى بن عبد الملك الهذلي صاحب حصن الحامة (الحفة) فسار على سياسة شاقة ، ولكنه هزم في إحدى المعارك مع ابن حفصون وأسر وأقتاده أصحابه بهال - جزيل ، ومن ذلك الحين فقد العرب الزعامة الهائلة لسوار في القوة والشجاعة والسياسة فتفرقت كلمتهم وانحلت عصبيتهم ضد المولدين ، ووثبت العصبة فيما بينهم ووقع الاختلاف فتفرغوا للقتال مع بعضهم (١٢) .

٢ - الفتنة بين العرب والمولدين في لبلة

ومثلما حدث في البيرة حدث في لبلة حيث ألف العرب جبهة واحدة ضد المولدين والمسالمة ، وترغم هذه الجبهة رجل يسمى عثمان ويعرف بابن عمرو .

وقد ثار على واليهما عمرو بن سعيد القرشي واستطاع الاستيلاء على دار الإمارة وإخراج الوالي من المدينة ، وما لبث أن انضم إليه جماعة من العرب فاغار بهم على قري إشبيلية . ولما علم الأمير عبد الله بثورته بعث إليه عثمان بن عبد الغافر ليستميله فنجح في ذلك ، وعاد ابن عمرو إلى إظهار ولائه للأمر وفرق أتباعه ، وسكنت الفتنة إلى حين ، ثم لم تلبث

أمية جاء فيها :

يا بني مروان جدوا في الهرب

نجم الثائر من وادي القصب

يا بني مروان خلوا ملكنا

إنما الملك للإنساء العرب

(١٢) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٨ ، عنان : دولة الإسلام

في الأندلس (عصر الفتنة) ص ٣٦ .

أن اشتعلت من جسد بين العرب المولدين ، فسار ابن عمرو إلى حصن.
ترتبة فاستولى عليه وتحصن فيه ، وانضم إليه عثمان ورجاله وخرج
العرب بقيادة عثمان لملاقاة المولدين فهزموهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ،
وامتدت نيران هذه الفتنة إلى منت ميور التي ثار فيها رجل بن المولدين
يدعى ابن خصيب ، كما ثار مولد آخر يدعى ابن مفير في جبل العيون
وهو من حصون لبلة وأخذت نيران هذه الفتنة تمتد شيئا فشيئا حتى
وصلت إلى إشبيلية (١٢) .

٣ - الفتنة بين العرب والمولدين في شيبيلية

كانت إشبيلية تعد العاصمة الثنية للأندلس بعد قرطبة ، وكان
العدد الأكبر من سكاتها من النصارى المولدين ، بالإضافة إلى
مجموعات من السكان العرب أمثال بنى موسى وبنى الجند ، وبنى الحجاج
وبنى خلدون وغيرهم وكذلك من البربر . وكانت هذه القبائل العربية تؤلف
فيها بينها العصبية العربية في إشبيلية ، وقد قامت بعد الفتح
مصاهرات بين العرب والإسبان في إشبيلية وغيرها من كور الأندلس فكثر
زواج العرب بالأسبانيات ونشأ جيل عرف بالمولدين أصبح يشكل أغلبية
السكان بمضى الزمن واحتفظ كثير منهم بأسمائهم القديمة مثل بنى أنطون
وبنى شبرقة وغيرهم .

غير أنه بمضى الزمن أخذت العصبية تلعب دورها فاصبها نرى
في إشبيلية عصبية عربية يمثلها بنو أبى عبدة بزعامة أمية بن عبد الخافر
وبنو حجاج برئاسة عبد الله وأخيه إبراهيم وبنو خلدون بزعامة كريب
وخالد بن عثمان وهم قوم المؤرخ المشهور ابن خلدون ، وعصبية من .

المولدين يمثلها بنسو انجلين وبنسو شبرقة ، كما وجد فريق محاليد من العرب والبربر والموالى لم يتعصبوا لفريق وظنوا على ولائهم للإمارة الأموية (١٤) .

وكان التنافس بين العرب والمولدين على النفوذ والرياسة من أهم أسباب الاضطراب في المجتمع الأندلسي يومئذ .

وكان المولدون في إشبيلية كما وصفهم ابن حيان « اغلظ أهلها شوكة ، وأوسعهم نعمة وأعزهم جانباً ، وأحضرهم عدة ، يعتدون في اثني عشر رئيساً ، لكل رئيس منهم عقدة يعقدها وعدة يعتمد بها » (١٥) .

وكان السبب في اشتعال نيران هذه الفتنة هو قيام كريب بن عثمان بن خلدون بالتحالف مع سليمان بن محمد بن عبد الملك الثائر بشذونة ، وعثمان بن عمرو الثائر بلبله وكلتا من اليمنية ، وكذلك جنيد ابن وهب القرموني من البربر البرانس ضد المولدين والموالى بإشبيلية وعقدت كون هؤلاء حلفاً مع المضربين ، والبربر البتر من أهل كورة مورور المجاورة ونلاحظ هناك تداخل العصبية فائيزية والبربر البرانس في جهة ، والمضربة والبربر البتر في ناحية . وهذا يدل على مدى ما فعلته العصبية بالإضافة إلى المصالح في الفتن والصراعات التي قامت بين عناصر السكان في الأندلس .

ولكن كريب لم يستطع أن يحقق أهدافه في السطوة والنفوذ على إشبيلية أمام تكل المولدين والموالى فاضطر إلى الخروج من إشبيلية ، واستوطن قرية تشرف عليها تسمى (البلاط) ، ومن هناك حرض بربر ملردة ومدلين على مهاجمة إشبيلية لكثرة خبراتها ، فأغاروا على قرية

(١٤) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٩ كان الفريق المحاليد يتألف من عرب قرشيين وبعض الموالى الأمويين وبعض البربر .
(١٥) المتنبس ص ٧٥ .

تسمى طلياطه فقتلوا الكثير من أهلها واستباحوها وسبوا الكثير من نسائهم وذراريهم ، فخرج موسى بن أبى العاص والى إشبيلية لصددهم ولكنهم استطاعوا هزيمته ، وانطلقوا يشنون غاراتهم على جميع جهاتها فادى ذلك إلى عزل الأمير عبد الله له ، وتوليته حسين بن محمد المورى مكانه .

وفى عهد هذا الوالى ظهر بين قرطبة وإشبيلة طاع طريق بربرى الأصل يدعى (الطباشكة) مقام أهل استجه من المولدين وعلى رأسهم محمد بن غالب بإقامة حصن فى قرية شنت طرش - بموافقة الأمير - وقام وبعض أتباعه من البربر البتر والوالى والمولدين بحراسة الطريق بين قرطبة وإشبيلية حتى علا شأنه ، وتردد ذكر اسمه . فحسده بنو خلدون وبنو حجاج أميان إشبيلية من العرب فهاجموا لبلا للقضاء عليه حتى تكون لهم الكلمة العليا ولكنه استطاع هزيمتهم وقتل اأحدهم فشكوا إلى والى إشبيلية فطالب بئار المقتيل من ابن غالب ، فأرسلهم إلى الأمير ، فانتبس عليه الحكم فى قضيتهم نظرا لتضارب الأقوال والشهادات ، وعزل الوالى حسين ابن محمد المورى وولى مكانه محمد بن خالد الخالدى المعروف بالمعوج ، ثم ما لبث أن مزله أيضا وولى مكانه ابن عمه أمية بن عبد الخانر الخالدى فاستقر مع محمد ابن الأمير عبد الله فى قصر إشبيلية ، ووكل الأمير إلى ابنه البت فى القضاة ، فجمع الفردقين ولكنه وجد تعصبا فى كل فردق لرابه ، فاضطر إلى إرجاء النظر فى القضية أيضا وسبح لابن غالب بالعودة لحصنه ، فادى ذلك إلى غضب العرب وازدادت قلوبهم كراهية وتعصبا ضد المولدين ، وخرجوا من إشبيلية وأرسلوا إلى محالفهم ، وشقوا عصا الطاعة على الأمير عبد الله .

واستطاعوا الاستيلاء على مدينة قرمونة ، وحصن قورية وجزيرة

الأسيلة ، ولما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير أشبار عليه وزراؤه
بقتل محمد بن غالب المولد إرضاء العرب حتى يدخلوا فى طاعته مرة
أخرى ، فآخذ الأمير بذلك .

وقد أثار مقتل ابن غالب ثائرة المولدين والموالى ، فوثبوا
على عاهل إشبيلية أمية بن عبد الغافر بعد أن أرسلوا إلى خلفائهم
من المضرين والبتري فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

وفسر أمية للاحتباء بمحمد ابن الأمير عبد الله ، فأرسل إلى
محمد بن خطاب بن أنجلين زعيم المولدين بإشبيلية للتماهم معه
فى إطفاء نيران الفتنة ، وكان زعيم المولدين قد اتفق مع أصحابه
من المحاصرين للقصر على مهاجمته عند اذان الظهر إذا لم يخرج هو
ومن معه ، ولما مضى الوقت المحدد اقتحم المولدون القصر ونهبوا
خيله ومراكبه ، وكان أمية ورفاقه قد قبضوا على ابن خطاب ومن معه
وأمر غلماته بالاستعداد لصد المهاجمين ، واستمر حصار المولدين
للقصر حتى اليوم التالى واستنجد الأمويون بالجمعد بن عبد الغافر فأتبل
بمسكره من قرمونة ودخل إشبيلية واستطاع هزيمة المحاصرين وقتل
منهم عددا كبيرا .

وأمر محمد بضرب أعناق ابن أنجلين ورفاقه ومصادرة أموالهم
ونهب دورهم وكتب إلى أبيه بذلك فأمره بالعودة إلى قرطبة ، واستقدم
أمية والى إشبيلية سادات العرب وقربهم فأتلموا فيها بعض الوقت ، ثم
ما لبثوا أن عادوا للثورة مرة أخرى . وكان لمقتل الجمعد فى كمين
للطباشكة هو وأخويه أثره فى حزن أمية عليهم ، وفى عودة العصبيّة
بين العرب والمولدين من جديد حيث حمل عرب إشبيلية وقرمونة على

المولدين والاعاجم في إشبيلية وما جاورها حملة عنيفة قتلوا فيها
الكثيرين منهم .

وظلت الكلمة للجبهة العربية وحلفائها حتى استطاع الأمير عبد الله
القضاء على شوكتهم بالقوة تارة ، وبالحيلة تارة أخرى إلى أن تمكن
أبراهيم بن الحجاج من الاستقلال بإشبيلية سنة ٢٨٦ هـ بعد أن كانت مقسمة
بينه وبين حليفه كريب بن خلدون (١٦) .

واستمر إبراهيم في حكم إشبيلية وقربونة حتى توفي سنة ٢٩٨ هـ
غخله ولداه عبد الرحمن في حكم إشبيلية ، ومحمد في حكم قربونة حتى
انتهت دولتهم في بداية عهد الخليفة الناصر (١٧) .



(١٦) انظر الرواية كاملة في المقتبس من ٦٧ - ٨٥ .

(١٧) راجع تفصيل ثورة بني الحجاج في البيان المغرب ج ٢

من ١٢٨ - ١٣٥ ، ابن خلدون المعبر ج ٤ ص ١٣٥ ، ج ٧

ص ٢٨٠ - ٢٨١ . عنان : دولة الإسلام في الاندلس ص ٣٨ -

٤٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٨ ، ٢٨١ .

رابعاً : العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة

كان فتح المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) لمحنة عصر جديد ، وبداية تطور هام بالنسبة لها ، فقد كانت تعاني قبل الفتح الإسلامي لها من كثير من مظاهر الجور والعسف والاستبداد تحسب حكم القوط ، حيث كانت أقلية من الحكام والأمراء والنبلاء تمتع بكل مظاهر الثراء والنفوذ على حساب أغلبية تعرضت عليها الكثير من ألوان الرق والعبودية والاستغلال ، فلماء جاء الإسلام الفاتح قضى على ذلك كله ، وأشاع ميلادى العدالة والمساواة والحرية . وأقبل عليه الكثير من أهل هذه البلاد ، لما لمسوه فيه من قيم ومبادئ نبيلة خلصتهم مما كانوا فيه .

أما من بقى على دينه بنهم : فقد ترك لهم المسلمون الفاتحون الحرية الكاملة فى ممارسة شعائر عقائدهم الدينية ، وشربوا بذلك مثلاً أعلى فى التسامح . كما خففوا عنهم الضرائب الباهظة التى كانت مبروضة عليهم ، واكتفوا منهم بأداء الجزية التى كانت تتراوح قسلة أو كثرة على حسب مقدرة الشخص المالية .

وكان الخراج يفرض بالتساوى على من يحوز الأرض سواء كان مسلماً أو ذمياً . وهكذا تحرر أكثر الفلاحين من الاقطاع والرق القديم ، وتحوّلوا الأراضى وأصبح لهم حق التصرف فيها . ولم يكن لهم هذا قبل الفتح (١) .

(١) عنسلان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٧٤ ، لين بول : قصة العرب فى إسبانيا ص ٤ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠ .

وقد عومل أهل الذمة في الأندلس بمقتضى معاهدات تنظم ذلك ،
وباعتبار العهد الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتجديد حاكم
شرق الأندلس خير مثال لذلك . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى
لتدمير بن غندر يس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه ، وما
بعث به أنبياءه ورسله ، وأن له ذمة الله عز وجل ، وذمة محمد
ﷺ ، ألا يقدم له ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون
ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ،
ولا يكرهون على دينهم ، وأن صلحهم على سبع مدائن ، وأنه لا يدع
حفظ العهد ، ولا يحل ما اتعد ، ويصحح الذى فرضناه عليه والزمناه
أمره ، ولا يكتنأ خبرا عليه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية
من ذلك على كل حر دينار وأربعة أمداد من تمح ، وأربعة أمداد
من شعير ، وأربعة أفساط خل وقسطا عسل وقسط زيت ، وعلى كل
عبد نصف هذا — شهد على ذلك عثمان بن عبد الله القرشى ،
وسليمان بن قيس التجبى ، ويحيى بن يعمر السهوى ، وبشر بن قيس
النخعى ، ويعبش بن عبد الله الأزدي ، وأبو الأصم الهذلى ، وكتب
في رجب سنة أربع وتسعين » (٢) .

ولقد استطلاع المسلمون المانحون أن يقتضوا في أعوام قليلة على
الكثير من عناصر القلق والاضطراب ، وأن ينظفوا إدارة البلاد ، فقد

(٢) ابن الدلائى : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ص ٥ ، تحقيق
د. الأهوانى ، معهد الدراسات الإسلامية بدمشق سنة ١٩٦٥ م .
الحميرى : الروض المغطر ص ٦٢ — ٦٣ مطبعة لجنة التأليف
القاهرة سنة ١٩٣٧ م . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١١٤ —
١١٥ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٥٥ — ٥٦ .

أبقوا لأهل الذمة شرائعهم وقضائهم ، وعينوا لهم حكاما من أنفسهم يديرون شؤونهم ويجمعون الضرائب المقررة منهم ، وينصلون بينهم في الأحكام ، كما عينوا الكثير من الأكفاء منهم في مناصب هامة في الدولة مثل أربطاس الذي عينه عبد الرحمن الداخل أول قوامس للنصارى بالأندلس (٣) ، وجيزون قاضي النصارى بقرطبة الذي عينه الحكم المستنصر واتخذته إلى جانب ذلك مترجما له (٤) ، وحسداى بن شبروط اليهودي الذي اتخذته الخليفة عبد الرحمن الناصر طبيبا خاصا له وشدا من أصحاب النفوذ والثراء في عهد المستنصر (٥) .

وهكذا تمتع أهل الذمة بالكثير من الحقوق في ظل الحكم الإسلامي ، وكان لهذا التسامح أثره في رضائهم بالنظام الجديد ، واعتبرتهم صراحة بأنهم يؤثرونه على حكم الإفرنج والقوط كما يقول لين بول (٦) .

ويعترف بهذه الحقائق بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين المعتنقين فيقول دوزي مثلا : « لم تكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدمو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانوا عليه من قبل ، وكان العرب يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحدا في شؤون الدين ، ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل جمدوا للفتاحين تسليحتهم ومسلحهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج . ويقول معتزنا بأثار الفتح الإسلامي الإيجابية » كان الفتح العربي .

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٨ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٥٠ .

(٦) لين بول : العرب في أسبانيا ص ٣٨ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول ص ٦٤ - ٦٥ .

نعمة لاسبانيا ، فقد أحدث ثورة اجتماعية هائلة ، وقضى على الكثير من الأدواء التي كانت تملأها البلاد من قرون ... الخ » .

ويقول لين بول : « يجب ألا يخطر ببال أحد أن العرب ملأوا في البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم ، كما نمل قطعان التوحشين عليهم ، فإن الأندلس لم تحكم في عهد من عهودها بسلمة وعدل وحكمة كما حكمت في عهد العرب الفاتحين » .

ويقول أيضا « وكان للأسبان أن يحتفظوا بشرائهم وقضائهم ، وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيها شجر بينهم من خلاف . وكان التسامح الديني سائدا فلم يدع للأسبان سببا للشكوى » (٧) .

ويقول المؤرخ الأمريكي سكوت : « كان دفع الجزية يضمن الحماية لأهل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للبلد أن يجاهر بآرائه دون خشية ، والاحبار يزاولون شؤونهم في سلام . أما أقوال الكتاب النصراني التي ينسبون للعرب فيها أفظع المثلث فهي محض مبالغة وافتراء » .

وإن كنا لا نوافقه في أن المسلمين كانوا يسمحون للملاحدة بالمجاهرة بأرائهم خاصة إذا كان فيها تهجم الإسلام كما يتضح ذلك من حركة الاستشهاد التي سياتي ذكرها .

وينوه المؤرخ الأمريكي الدكتور (لى) بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وعن بغض الأجناس والتفرقة بينها .

(٧) أنظر : العرب في اسبانيا ص ٢٨ وبمعددها ، د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٢٧ - ٢٨ .

١م ٩ - المجتمع الأندلسي .

ويذكر المستشرق (التاميرا) أن اقلية الشعب الإسباني بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها وقضاها واساقفتها ، وكنايسها ، وبالجملة فقد بقيت البلاد محتفظة بما يشبه استقلالها المدني الكامل ، وقنع الخولا بأن يفرضوا عليها الضرائب الشرعية » .

وحتى بعض المستشرقين المتحاملين لم يجدوا مناسبا من الاعتراف بذلك مثل المستشرق الإسباني سيمونت الذى يقول « إنه فيها يتعلق بالتوانين المدنية والسياسية فإن النصرى الإسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة » (٨) .

انتشر الإسلام بين غالبية سكان إسبانيا حيث وجدوه طريقتهم إلى الخلاص وإلى الحرية والعدالة والمساواة ، كما اعتنقه البعض للحفاظ على ما تحت يده من أملاك وأراض ، أو للخلاص من دفع الجزية ، أو لرفع مكانته الاجتماعية .

ولم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها ، وصارت الغالبية العظمى من السكان مسلمين - وسما بالمسالة - أما الذين بقوا على دينهم فقد أخذ يقتلون شيئا فشيئا وعمرنوا بالمعاهدين والمعتدين وأهل الذمة والعجم . وقد بهر الكثير منهم بالمسلمين ومبادئهم - برغم بقائهم على دينهم - فأخذوا يقلدوهم في كثير من العادات والتقاليد والملابس والأزياء والطعام والشراب ، ويتعلمون اللغة العربية ويجيدونها ويتحدثون بها ويكتبون ولذلك سماوا بالمستعربين . وقد عاشت إلى جانب هؤلاء المستعربين النصرى جاليات من اليهود وجدت أيضا

(٨) انظر : عنسان : دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول
ص ٦٠ - ٦٥ .

د . محمد زيقون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ١٨٧ - ١٩٠ .

من المسلمين الكثير من ضروب التسامح وحسن المعاملة بعد أن وجدت
فى فتحهم لإسبانيا خلاصا لها من الجور والاضطهاد الذى كانت ترزح
تحتة أثناء حكم القسوط (٩) .

وبالرغم من هذا التسامح التام الذى أبداه المسلمون تجاه أهل
الذمة من يهود ونصارى ، إلا أن فريقا من الإسبان المتعصبين كانوا
ينظرون إلى المسلمين على أنهم غزاة مفتصبون ، وكان هؤلاء الغلاة
يتهمون إخوانهم من النصارى المعتدلين الذين ارتضوا حكم المسلمين
بالمروق والخيانة للدين والوطن .

وكان رجال الكنيسة منهم هم مبعث هذا التعصب ودعايته ،
يذرون بذور الشقاق ويوقدون نيران الفتنة ، ويوغفرون صدور
المطرفين والغلاة باسم المسيحية والحفاظ عليها ، وكانوا يبغيضون
المسلمين ، ويناصرون للمسيحيين الذين يقاومون المسلمين من خلال
حركة الاسترداد أو الاستمادة لطرد المسلمين من إسبانيا (١٠) .

وكان تظفل حركة الاستعراب عند إخوانهم من النصارى قد
أحدث رد فعل قوى لديهم فأخذوا يبدون أسفهم الشديد وتحصرهم
لذلك . وحاولوا عبثا وقف هذه الحركة دون جدوى ، فلم يجدوا
أمامهم سبيلا إلا الطعن فى الإسلام والسخرية من المسلمين ونبيهم معتمدين

(٩) انظر د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٩ - ٣٠ ، د. مصطفى
الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٥ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٣ .
(١٠) عن هذه الحركة راجع : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم
فى الأندلس ص ١٦٨ وبعدها . عنان : دولة الإسلام فى الأندلس
(العصر الأول) ص ٢٠٦ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ
المغرب والأندلس ص ٢٧١ وبعدها ، عادل بشتاوى : الأندلسيون
المواركة ص ٣٨ وبعدها .

على طائفة من الخرافات والأباطيل التي يروجها رجال الكنيسة .
ولم تكن العوامل الدينية هي وحدها مهتة ذلك التعصب ، بل
كان للموامل الاجتماعية أيضا دور في ذلك حيث أن هؤلاء كان يثير
تطويعهم ما يحيط بالحكم الإسلامي في الأندلس من مظاهر العز والسؤدد ،
وما يظهر به الحكم المسلمون من مظاهر الفخالة والعظمة ، وما ينعم
به المجتمع الأندلسي من حياة رغدة آمنة مستقرة (١١) .

وكان ينكى هذا الحقد في نفوسهم ما يتعرضون له — نتيجة
لتمصبيهم — من معاملة خشنه وخاصة من العامة . وبلغ هذا التعصب
مداه في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي بدأت حضارة الأندلس
في هذه في التآلق ، وأصبحت الأندلس في عسداد الدول العظمى
في العالم الإسلامي والمسيحي على السواء (١٢) .

وكان في وسع هؤلاء المتعصبين في طليطة وغيرها من المدن
البعيدة عن العاصمة « قرطبة » أن يرفعوا علم الثورة أو ينضموا
إلى الثورات التي تقوم ضد الأمويين ، ولكنهم في قرطبة قلموا بحركة
دينية خطيرة سنة ٢٣٧ هـ حيث عمدوا إلى تحقيق أهدافهم بواسطة
بسيطة وخطيرة في نفس الوقت وهي المجاهرة بسبب الإسلام ونبيه
في العلقات والأماكن العامة وهم يعلمون أن المسلمين لن يسكتوا على
ذلك ، وأن تلك جريمة شماء تعرض مرتكبيها لعقوبة القتل ، غير
أنهم أنزلقوا في هذا المتصدر عامدين حتى يكونوا شهداء وقديسين
فيؤدي ذلك إلى ازدياد فيران الفتنة (١٣) .

(١١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٥٩ .
(١٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس
ص ٢٢٩ — ٢٤١ .

(١٣) يذكر أن هذه الفتنة التي سميت بحركة الاستشهاد بدأت بحوار
دار بين قسيس من قرطبة يدعى برفكتوس مع بعض المسلمين
حول فضائل محمد وعيسى ، وحيث المناقشة فتحوط إلى جدال

وكان يتزعم هذه الحركة تسييس متعصب متهور من قرطبة يدعى يولوخويس أو (ايلاج) أخذ يسب الإسلام ويهاجم الأسبان الذين اعتنقوه ، ويوجب لاتباعه الاستشهاد في سبيل نمرة المسيحية ضد الإسلام ، وكان يساعده في ذلك شاب مسيحي من أغنياء قرطبة يدعى (الغارو) أخذ ينتقد الأسبان الذين يفعلون اللغة العربية وأدابها ويتركون اللاتينية وشروعها . وكان يساعدهما تسييس آخر يدعى (برغكتوس) ، وفنساء أسبانية تدعى (غلسورا) كانت قد أسلمت ثم ارتدت . وأدرك الأمير عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ورأى معالجته بالحزم والسياسة معا ، فاستدعى مجلسا من الأساتفة عقد في قرطبة برئاسة (ريكنارد) مطران إشبيلية ، ومثل الأمير في هذا المجلس كاتبه النمراني جوميز ابن أنطونبان بن جولييان عامل أهل الأندلس (١٤) وتم في هذا المجلس استعراض الموقف وما يمكن أن يترتب على أعمال هؤلاء الفلاة من عواقب خطيرة ، وأصدر المجلس قرارا ينتقد فيه مسلك هؤلاء المتطرفين ، ويحذر باقي النصاريين من الانضمام إليهم ، والتهديد باعتقال كل مخالف لذلك .

غير أن ذلك القرار لم يؤد إلى نتيجة حاسمة ، فقد تمادى هؤلاء في غيهم واعتقل الكثير منهم وزج بهم في السجون ، وتحسبوا للحاكمية فآخذوا يبالغون السنتهم بالسب والقذف في الإسلام ونبيه ،

عنيف أدى إلى طعن هذا القسيس في الإسلام ورسوله فقبض عليه وأعدم ما أدى ببعض رجال الكنياسة المتعممين إلى استغلال ذلك وعلى رأسهم يولوخويس للقيام بدعاياتهم ضد الإسلام (د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٩٥) .

(١٤) يسميه ابن القوطية قومن بن انتيان بن إليانه وقد اعتنق الإسلام فيما بعد وسمى بحمالة المسجد (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣) .

وحاول القضاة إقناعهم بخطئهم ومدى خطورته ولكن ذلك لم يجد نفعا ، عند ذلك أخذوا يحكمون عليهم بالقتل جزاء ما يصنعون ، وكان الأجبار يكرمون رفات هؤلاء القتل ويطلقون عليهم صفة الشهداء مما زاد هذه الحركة ضرا ، ورأى قضاة المسلمين خطر هذه الحركة فأروا عدم مقابلتها بالعنف حتى لا تزداد اشتعالا فأخذوا في مراجعة هؤلاء المخربين والحكم عليهم بالسجن بدلا من القتل ولكنهم كانوا يطالبون بالموت حتى يلحقوا بإخوانهم الشهداء ، حتى أن القاضي الذي حكم فلورا عندما حكم عليها بالسجن أخذت تطالبه بالحكم عليها بالإعدام وتمسكت في السب والتذف أمهه حتى حكم عليها بالموت ، وظلت هذه الفتنة مستمرة وحكم على نحو أحد عشر متعصبا في شهرين (١٥) . واعتقل يولوخيسوس وغيره من زعماء الحركة ، ورغم ذلك استمرت الفتنة ، ولما توفي الأمير عبد الرحمن أفرج عنه وعين اسقيا لينة طليطلة حتى يكف عن إشعال نيران هذه الفتنة مهددات قليلا ، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصل فتنته رغم ذلك وعند ذلك قبض عليه وأعدم في مارس سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م بأمر من الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن ، ويقتله أخذت الفتنة تضعف شيئا فشيئا حتى زالت ، وهكذا انتهت هذه الفتنة الخطيرة التي استمرت ما يقرب من ثمان سنوات ٢٣٧هـ / ٨٥١م - ٢٤٥هـ / ٨٥٩م ولم تحقق شيئا من أهدافها بل على العكس أدت إلى مقتل نحو أربعة وأربعين من المتعصبين ، وإلى إثارة السخط والاستنكار من جانب النصارى المعتدلين الذين كانوا يتسارعون تسلمح المسلمين (١٦) .

-
- (١٥) د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٥٠ - ٥١
 عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٥٨ - ٢٦١ .
 (١٦) د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٩٧ ،
 د. أحمد شلبي : المرجع السابق ج ٤ ص ٥١ د. السيد سالم :
 تاريخ المسلمين ص ٢٤٢ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس
 ص ٢٦١ .

الفصل الثالث

الحالة الدينية

من الطبيعي أن يكون التدين ، والعنفالية بشعائر الدين أمرا واضحا ،
وسمة مميزة في بلد شغل بالحروب طويلا ، واتقدت فيه روح الجهاد
والمرابطة كالانديلس . وقد كان لجاورة المسلمين للنصارى في أسبانيا
وأوروبا أثر بالغ في ازدياد هذا الشعور (١) .

ولذلك فقد اتصف أهل الانديلس علة بالتدين والمحافظة على شعائر
الدين إلا القليلين ، وكانوا يجلبون رجال الدين ويقدرتهم وخاصة الفقهاء
ومن هنا كان لثقب فقيه عندهم من أرفع الانقلاب ، وكانوا إذا ما أرادوا
تكريم عالم أو أمير عظيم أطلقوا عليه هذا اللقب .

كما كانوا يقيمون الحدود الشرعية ، وينكرون التهاون في تعطيلها
إذا راوا في ذلك تهاونا من قبل السلطان كما ذكر ابن سعيد المغربي (٢) .
وعندما دخل المسلمون الانديلس اظهروا حياسة بالغة في نصرة
الإسلام ونشره ، وخاضوا من أجل ذلك معارك شتى ، وحروب تكاد تكون
متصلة ضد الأعداء بحيث يمكن القول : إن حياسة المسلمين في الانديلس
كانت في مجموعها أو مجملها عبارة عن حروب ومعارك بينهم وبين بعضهم
من ناحية بلعمل العصبية والتنافس على الملك والرئاسة ، وبينهم وبين
النصارى من ناحية أخرى . ويلخص بعض المؤرخين الإسبان

(١) يقول القزويني : « ومن عجائب الدنيا المملكة الإسلامية
بالانديلس مع إحاطة الفرنج بها من جميع الجوانب » عجائب المخلوقات
ص ٣٨٨ .

وهي أعجوبة حقا بذل المسلمون في سبيل تكوينها الكثير ،
ومكنوا في صراع لا يكاد يهدأ حتى يبدأ من جديد لمدة لمائة قرون ،
وإستبناعوا في خلال فترات الهدوء والاستقرار القليلة إقامة
تلك الحضارة البانخة .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

تاريخ المسلمين في الأندلس مع الأسبان وحلفائهم من النصراني بأنها معركة القرون الثمانية Labatalle de Ocho . ولذلك فإن الحروب المتتالية للمسلمين مع الأسبان وحلفائهم من الأوربيين كانت تبعث في نفوسهم الحمية والحماسة الدينية فيما عدا فترات قليلة تعاون فيها بعض الطامعين في الملك والزئاسة - وخاصة في عصر ملوك الطوائف - مع هؤلاء الأعداء ، خاصة وأنهم أدركوا أن بقاءهم وبقاء دولتهم في الأندلس رهين ببقاء الإسلام والالتزام بنصرته ، فيذكر المقرئ عن إبراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق « أن أهل الأندلس أصحلب جهاد متصل » (٢) .

أولاً - المذاهب الفقهية

وإذا كان المسلمون قد شهدوا في المشرق نشأة الفرق والأحزاب السياسية والدينية التي أدت إلى مزيد من الصراع والتفتت والانقسام الفكرى والدينى والسياسى ، فإنهم لم يشهدوا مثل ذلك الصراع في الأندلس ، حيث كانت مذاهب أهل السنة هي المعول بها في الأندلس .

فقد كان مذهب الإمام الأوزاعى إمام أهل الشام (١٥٧ هـ / ٧٤٤ م) هو المذهب المعول به في بداية الأمر ، ثم بدأ مذهب الإمام مالك في دخول الأندلس منذ عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن الملقب بالرضا (١٧٢ هـ - ٧٨٨ م - ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م) (٣) .

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٧١ .

(٣) يذهب ليفى بروفنسال إلى أن مذهب مالك دخل الأندلس قرب نهاية حكم الأمير هشام الأول أو في السنوات الأولى من حكم ابنه الحكم (الحضارة العربية ص ١٥٨) . وقد ذهب د. حسن إبراهيم حسن وكذلك د. حسن على حسن : إلى أن مذهب مالك لم ينتشر

يقول ابن الغرضى فى ترجمة زهير بن مالك البلوى : « كان مقلها على مذهب الازواعى على ما كان عليه اهل الاندلس قبل دخول بنى أمية » (٤) .

وكان تلميذ الإمام الازواعى فى الاندلس ، والذي يرجع إليه الفضل فى نشر مذهبه الفقيه صعصعة بن سلام الشامى (قاضى قرطبة وصاحب الصلاة فيها ت ١٩٢ هـ) (٥) .

وقد ذهب الكثيرون إلى ان مذهب الإمام مالك قد بدأ فى الانتشار فى الاندلس فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وان اول من أدخله زياد بن عبد الرحمن اللخمي القتب بشبطين (ت ١٩٢ هـ) . وكان قد رحل إلى المدينة بعد عام واحد من إمارة هشام ، وتلميذ على يد الإمام مالك الذى كان معاصرا لهشام وكان يثنى عليه وعلى حسن سيرته ، ثم أصبح المذهب العام والسائد والرسمى منذ عهد الحكم ابن هشام ولذلك يذكر ابن سعيد « انه لا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب ما يتباحثون به » (٦) .

إلا فى عهد الحكم بن هشام ! انظر الحياة الدينية فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى ص ١٠٧ ، تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٢٢ . والحقيقة ان معظم المصادر تتفق على أن هذا المذهب قد بدأ فى الانتشار فى عهد هشام ، وأصبح المذهب الرسمى فى عهد الحكم .

(٤) تاريخ علماء الاندلس ص ١٥٣ . الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م القاهرة .

(٥) فتح الطب ج ١ ص ١٠٣ ، تاريخ علماء الاندلس ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥ ، ليلى بروفنسول : الحضارة العربية ص ٥٩ ، ١٥٨ .

(٦) وقد ذكر البعض : ان الفزازى بن قيس (ت ١٩٩ هـ) هو اول من أدخل الموطأ إلى الاندلس فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وكان مؤيدا بقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وشهد تأليف مالك للموطأ ، وأدرك نافع بن أبى نعيم القارىء ، وأخذ عن الازواعى ، ويقال إن عبد الرحمن عرض عليه القضاء فأبى واشتغل بالفقه والفقوى

وتختلف الروايات في سبب تحول الأندلسيين عن مذهب الإمام الأوزاعي إلى مذهب الإمام مالك . فمن قائل : إن العلماء والفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق قبلوا الإمام مالك في المدينة فاعجبوا بشخصه وفقهه المعتمد على الكتاب والسنة ، والذي يميل إلى الناحية العملية — فهو يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين ويتفق مع مصالح جمهورهم فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض من أوامره ونواهيه — وقد اخذت المذاهب الأخرى من هذه القاعدة بأطراف ولكن الإمام مالك يعمم ذلك ، ويجعله قاعدة ولم يكن يلجأ إلى الرأي إلا في حالات الضرورة القصوى (٧) .

ومن قائل : إن الإمام مالك مسأل بعض الحجاج الأندلسيين عن أمورهم هشام فائتوا عليه خيرا — وكان تقيا ورعا مجاهدا — فقال مالك — وكان في نفسه من بني العباس شيء — : ليت الله أن يزين موسنا بمثله ، أو ليت الله أن يزين حرما بملككم » .

فلما سمع هشام هذا سمح لتلاميذه من أمثال الغازي بن قيس ، وزيد ابن عبد الرحمن (شبطون) ويحيى بن يحيى الليثي ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبي هند ، وقرموس بن العباس بتدريس مذهبه ونشره ، وأمر القضاة بالعهد به . ومن هنا أخذ مذهب مالك في الانتشار حتى غدا المذهب الرسمي في الأندلس (٨) .

(انظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤ ، تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ج ٢ ص ١٧٧) .

(٧) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٧٤ .

(٨) انظر د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم والأندلس ص ٢١٨ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٤ — ٥٥ . ويذهب د. الشكعة : إلى

ويذكر المقرئ مسبب دخول مذهب مالك إلى الأندلس فيقول :
« ذهب الجيهود إلى أن السبب في ذلك هو رحلة علياء الأندلس إلى
المدينة ، وعند رجوعهم أفاضوا في الحديث عن فضل مالك ، وسعة
علمه ، وجلال قدره ، ومن هنا قبلوا على مذهبه ، على أن هناك
رأيا يذهب إلى أن مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة أميرهم فسرره
ما سمع من حسن سيرته وعذله في حكمه » وقد كان مالك يكره سلوك
بنى العباس وخاصة المنصور ، وذلك لما فعله بالأمازيغيين في ثورة
النفوس الزكية ، ومن هنا تمنى أن يهب الله المشرق خليفة عادلا ، وبلغت
أمنيته الحكم بن هشام فحمل الناس على اتباع مذهبهم وترك مذهب
الأوزاعي (٩) .

كما نقل المقرئ عن ابن حزم رأيه في ذلك حيث يقول (ابن حزم) :
« مذهب ابن انتشرا في بدء أمرها بالرياسة والسلطان مذهب أبي حنيفة
في المشرق ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحيى بن يحيى كان مكيئا
عند السلطان مقبول القول في القضاء ، وكان لا يلي قاضي في أقطار الأندلس
إلا بمشورته واختياره ولا يقبل إلا بأصحبه ومن كان على مذهبه ، والناس

أن الحكم بن هشام هو الذي نشر مذهب مالك بن جهمرة الناس ،
وخلط بين هشام وبين ابنه حين قال « سمع الحكم نساء مالك
عليه » . وقد اتفقت غالبية المصادر على أن هشام هو الذي
أنشأ مذهب الإمام مالك (انظر الأدب الأندلسي ص ٧٤) .

(٩) نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٨ المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢ هـ .

ويمكن دمج الرأيين في رأي واحد فيقول : إن مالكا سأل
بعض علماء الأندلس الذين التقوا به وتحدثوا على يديه وأسسوا
جسلا ل قدره وسعة وعنه عن أميرهم فأنشروا عليه خبرا
مما جعله يثنى عليه فتبني ما تمنى مما كان سببا في إقبال الناس
في الأندلس على مذهبه ومذهبهم وقام هؤلاء المسلمون بدور
أساسي في ذلك .

سراع إلى الدنيا فاقبلوا على ما يرجون به اغراضهم^(١٠) . ولكننا لا نوافق ابن حزم على أن السبب في إقبال الناس في الأندلس على مذهب مالك هو طمعهم في الدنيا ، والحق أن مذهب مالك مذهب واعي أو عملي يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين وفي صالح جمهورهم يعد من الإسلام ما لم يتناقض مع مبادئه وأحكامه أو أولاه ونواحيه ، هذا فضلا عن أنه مذهب أهل المدينة مستقر رسول الله ﷺ ومثواه والتي عاش فيها كثير من صحابته ، وتهوى إليها النفوس .

ويضيف ابن خلدون سببا آخر على طريقته في فلسفة أحداث التاريخ فيذكر أن البداوة كانت هي الغالبة على أهل المغرب والأندلس وأنهم لم تكن لهم حضارة أهل العراق ، فكنوا إلى مذهب أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة^(١١) . ونضيف إلى ما قلناه ابن خلدون أن مذهب مالك يعتمد على النصوص أكثر مما يعتمد على العقل والقياس ، وهذا أيضا مما يناسب البداوة . ويعد أكثر ملائمة لعقلية الأندلسيين .

ويفسر الأستاذ العبادي انتشار مذهب مالك بموايل سياسية فيذكر أن النفور كان شديداً، والخصومة مستحكة بين الأمويين والعباسيين حيث كان العباسيون على المذهب الحنفي لأن مالكا لم يكن يستريح لسياسة العباسيين^(١٢) .

وبالإضافة إلى هذه الأسباب فإننا نستطيع أن نضيف سببا آخر له أهميته وهو أن الأندلس لم تكن بمنأى عن التيارات المذهبية في المغرب الذي لا يفصلها عنها إلا مضيق صغير ، وكان المذهب المالكي قد انتشر في بلاد المغرب على يد سحنون وأسد بن الفرات اللذين

١٠) تفح الطيب ج ٢ ص ٢١٨ .

١١) المقدمة ص ٤٢٥ المطبعة الامبرمية سنة ١٣٢٠ هـ .

١٢) المحمل في تاريخ الأندلس ص ٨٩ .

انخلاء إليها وعملا على نشره مع طائفة من الفقهاء (١٣) .
ومن هنا امتد هذا المذهب إلى الأندلس حيث كان كثير من البربر
الذين شاركوا في فتحها على المذهب المالكي الذي غدا بمثابة الهوية
والقومية بالنسبة للسكان في المغرب والأندلس (١٤) .

وقد كان شبيبون أول من أدخل الموطأ كلها إلى الأندلس
على رأي الكثيرين وأخذ منه يحيى بن يحيى الليثي المصمودي ، الذي
أشار عليه زياد بالرحيل إلى المدينة للتنفيذ على يد الإمام مالك فلازمه
مدة وسمع عنه الموطأ ، ثم رحل إلى مكة فسمع من سفیان بن عيينة ،
كما سمع بمصر عن فقهائها الليث بن سعد وعبد الرحمن بن القاسم
العتقي ، ولما عاد إلى الأندلس عمل هو الآخر على نشر مذهب مالك ،
وتولى الرئاسة في الفقه والقضاء وأصبح إمام عصره ، وغدا له
منزلة سامية ومكانة عظيمة في عهد هشام الذي تربى الفقهاء حتى
سمى عصره بعصر نفوذ الفقهاء (١٥) .

وكذلك غدا له منزلة كبيرة في عهد حفيده عبد الرحمن الأوسط
وبلغ من نفوذ يحيى أنه كان لا يولى أحدا في القضاء إلا بشورته .

-
- (١٣) د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ . وسخنون هو
عبد السلام بن سعيد ، وكان من أشهر فقهاء المالكية بالمغرب ،
وعليه تتلمذ الكثيرون من فقهاء الأندلس . فيذكر أنه كان بكورة
إلييرة سبعة سمعوا بهم منه في زمن واحد وأصبحوا يديرون
حول كتابه المدونة الذي جبعه من آراء عبد الرحمن بن القاسم
العتقي تلميذ مالك وفقهه المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ هـ .
(انظر : الذخيرة ق ١ ج ١ ص ١٤٠ - ١٤١ ، ابن جبران
المقتبس ص ٣٠٣ تحفة د. محمود بكى) .
د. إحسان عباس : تاريخ الأندلس (عصر سيادة قرطبة
ص ٢٤ ، ص ٢٥ . الحياة الأدبية في المغرب ص ١٠٣ .
(١٤) د. حسن علي حسن : الحياة الدينية في المغرب ص ١٠٧-١٠٨ .
(١٥) د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٤٤ .

وقد أصبح المذهب المالكي في الواقع هو المذهب الوحيد المعترف به رسميا في الأندلس وأقام الغالبية العظمى من فقهاء أنفسهم حراسا له وتحصنوا له تحصنا شديدا وصل بالكثير منهم إلى درجة التعصب له ، وانتهى بهم إلى التقليد والجهود .

وقد وصل التعصب ببعض لدرجة أنه إذا تناظر فقيهان في قضية أو مسألة وقال أحدهما : قال رسول الله رد الآخر قائلا : وقال مالك وهذا من الجهل المؤدى إلى العصبية لأن مالكا ما استقى إلا من الرسول ﷺ .

كما وصل الخمس لدرجة أن بعضهم ألف كتباً في مناصرة هذا المذهب على غيره مثل عبد الوهاب بن نصر البغدادي الذي ألف كتاباً في مائة جزء كما يذكر المقرئ من (الوادي أشي) سباه (النصر لذهب إمام الهجرة) ويذكر أن الكتاب وقع في يد أحد قضاة الشافعية بمصر فالتقى به في النبل لما فيه من عصبية شديدة (١٦) .

ظل الأندلسيون في الأمم الأغلب على هذا المذهب وتحصنوا له وتعصب بعضهم له تعصبا شديدا ، ولذلك لم تعد الأندلس تسمع غير صوت هذا المذهب بفضل التأثير الذي مارسه فقهاؤه ، ولكن كان هناك أناس اعتنقوا مذاهب أخرى غير أن صوتها كان خافتا ، وكان هناك أمراء عرفوا كيف يتحررون من نفوذ الفقهاء المالكية كالحكم الرضوي ، ويسمحون بل وبشجعون دخول تيارات فكرية ومذهبية جديدة ما دامت لا تمس سلامة العقيدة ولا تهدد نظام الحكم مثل الأمير محمد الأول (٢٢٨هـ - ٢٧٣هـ) والحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) ولكن الفكر المناصر للمذهب المالكي حاول التقليل - إن لم يكن القضاء - على هذه التيارات

(١٦) انظر المقرئ ج ٣ ص ٢٧٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص. ٧٤ ، ليفي برونفيل : الحضارة العربية ص ١٥٤ .

الوافدة ، وإهمال شأنها ، وقصر النشاط الدينى فى مجالات الفقه والتشريع على هذا المذهب وحده (١٧) .

وقد كانت زيادة مذهب مالك مما قل من المذاهب الأخرى الخليفة لأهل السنة عموما ، وجعل الأندلسيين من عملة وعلما يصدرن من الغلب من رأى واحد وعاطنة واحدة (١٨) .

غير أن سيادة هذا المذهب لم تلغ وجود مذاهب أخرى سواء كانت مذاهب فقهية كالمذهب الشافعى والمذهب الحنفى والمذهب الظاهرى ، أو مذاهب دينية كالخوارج والشيعية والمعتزلة .

موقف فقهاء المذهب المالكى من المذاهب الأخرى :

تعصب فقهاء المالكية لمذهب مالك تعصبا شديدا ، وتحسبوا له تحسبا بالغا ، ولذلك وقفوا ضد انتشار المذاهب الأخرى سواء أكانت مذاهب فقهية أو دينية . فقد كان الإمام مالك عندهم هو صاحب الكلمة العليا والأخيرة فيما يتصل بالفقه والعقيدة وعلم الكلام .

وليل ذلك موقفهم من بقى بن مخلد الذى أدخل مصنف ابن أبى شعبة كاملا ، كما أدخل كتاب الفقه الكبير للشافعى ، كما أدخل أيضا كتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات ، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى ، وصنف تفسير القرآن ومسند النبى ﷺ ليس لأحد قبله كما قيل . واحتفظ بلون من الاستقلال الفكرى فلم يكن يتبع مذهباً معيناً وإنما يصدر فتاواه تبعاً لاجتهاده الشخصى معتبداً على القرآن

(١٧) لى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ١٥٤ .

(١٨) ابن الأحمر : نثر غرائب الجبان ص ٥٥ تحقيق د. رضوان الداية

دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

(م ١٠ - المجتمع الأندلسى /

والسنة (١٩) وهو شيء لم يكن لفقهاء المالكية أن يتركوه عليه .
ولكنهم لم يستطيعوا مهاجمته مباشرة وانتهزوا فرصة تدريسه
لمسند ابن أبي شيبة الذى يعرض آراء مالك وآراء الفقهاء الآخرين
مهاجموه .

وقد واجه بقى معارضة عنيفة من فقهاء المالكية وعلى رأسهم
ابن مرتيل (٢٠) ، واصبح بن خليل الذى ينسب إليه انه قال « لأن يكون
فى تابوتى رأس خنزير أحب إلى من أن يكون فيه مسند
ابن أبي شيبة » (٢١) ، ومحمد بن حارث (٢٢) . وقد أخذ هؤلاء الثلاثة
وغيرهم من المالكية فى إثارة العاصفة ضد بقى واقترح بعضهم إصدار فتوى
بإلحاح دمه وقرر بقى الرحيل فرارا بنفسه ، وبلغ الأمير محمد ما يحدث
فاستدعاه وجميع الفقهاء ومعدت مناظرة دافع فيها بقى عن آرائه بقوة نطلب
منه مسند ابن أبي شيبة ليطلع عليه ، ثم قال لخازن كتبه : هذا الكتاب
لا تستغنى عنه خزائننا فانظر فى نسخة لنا ، وقال لبتى فى صراحة :
انشر عليك وارو ما عندك . ونهاهم عن أن يتعرضوا له (٢٣) .

وإذا كان هذا مثل واحد يبين لنا كيف كان موقف فقهاء المالكية
من المذاهب الفقهية ، فما بالنا بموقفهم من المذاهب الدينية والكلابية
مثل مذهب المعتزلة والشيعة والخوارج ، لا شك أن الموقف كان أشد
وبدلنا على ذلك قول المقدسى (وهم يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ
مالك فإن ظهوروا على شافعى أو حنفى نسوه ، وإن عثروا على معتزلى
أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه) (٢٤) .

-
- (١٩) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٨٣ .
 - (٢٠) أنظر ترجمته فى ابن الفرضى المرجع السابق رقم ٢٤٥ .
 - (٢١) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٦٢٢ .
 - (٢٢) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ١١٠٧ .
 - (٢٣) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٢٨١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ .
 - (٢٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ .

ويكفى أيضا لهم ما صنع المالكية بالتعليم في الأندلس حيث
تصوره في الغالب على دراسة المذهب المالكي وعادوا ما سواه ولكن
كانت هناك أوقات يستطيع فيها أصحاب المذاهب الأخرى تدريس مذاهبهم
ولكن على استحياء أو في خفاء غالبا . ومن ثم فقد فشلت هذه المذاهب
في أن تجد لها أتباعا كثيرين مثل المذهب المالكي (٢٥) .

ومع مجيء المنصور بن أبي علبر اشتدت قبضة الفقهاء المالكية
حيث كان في حاجة إلى التأييد من جراء استبداده بالسلطة فغلبهم إليه
وامر بحرق كتب الفلسفة ، وأطلق لهم العنان في محاسبة الكثيرين على
مقائدهم فاتهم الكثيرون بالزندقة (٢٦) ، ولذلك أخذت حرية العلماء
تقيد في إلقاء دروسهم . ويبدو أن المنصور قد قام بذلك سلسة حيث
يقال إنه كان محبا للفلسفة في قرارة نفسه (٢٧) .

كما واجهه ابن حزم الظاهري نفس الموقف فاحرق كتب في ميادين
إشبيلية (٢٨) .

وفي بعض الأحيان كانت تخف حدة المواجهة للمخالفين في
المذهب نظرا للحاجة إلى توحيد الصف ضد العدو المسيحي المتربص
بالمسلمين على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم . وربما كان لهذا الاعتبار
آثره في عدم انتشار المذاهب المخالفة للمذهب المالكي في الأندلس
كثيرا .

(٢٥) روبرا ، التربية الإسلامية في الأندلس ص ٢٥ - ٢٦ ترجمة
د. الطاهر مكي . دار المعارف سنة ١٩٨١ .

(٢٦) الطوطوشى : سراج الملوك ص ١٦٧ ط بولاق .

(٢٧) نزع الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، روبرا : التربية الإسلامية ص ٢٦ - ٢٧

(٢٨) انظر : الطاهر مكي : دراست عن ابن حزم ط ٢ مكتبة وهبة
سنة ١٩٧٧ م .

المذهب الشافعى

بالرغم من سيادة المذهب المالكى بالأندلس إلا أن المذهب الشافعى وجد له طريقا إلى هذه البلاد منذ حكم الأمير محمد الأول (٢٢٨ - ٢٧٣ هـ) الذى كان أول أمير أموى يتسامح ويشجع دخول المذاهب الأخرى ، لما رآه وليس له من قوة نفوذ الفقهاء المالكية ، ورفضه فى الحد من نفوذهم كما حاول الحكم الرضى ذلك من قبل ، وأيضا توسيع أفاق الحياة الفقهية بحيث لا تقتصر على مذهب واحد . وذلك بالرغم من تحذيرات الفقهاء المالكية له (١) .

وكان قاسم بن محمد بن سيار القرطبى أول دعاة المذهب الشافعى فى العاصمة الأندلسية ، حيث كان قد تلقى فى المشرق على هذا المذهب وارتبط به ولما عاد إلى الأندلس دعا إلى ترك التقليد ، والأخذ بالحجة والنظر والاستنباط والاعتماد على الإجماع والقياس ، واخذ يدرس هذا المذهب فى قرطبة تحت رعاية الأمير محمد ، الذى منحه الحماية فى مواجهة دعاة التقليد من فقهاء المالكية بخاصة ، وعهد إليه بتحرير وثائقه وشروطه ، وظل فى هذا المنصب حتى توفي سنة ٢٧٦ هـ / ٨٩٠ م .

-
- (١) ليفى برويتسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٤ .
(٢) قاسم بن محمد بن سيار : هو مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك قال عنه ابن الفرضى : « كان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ومال إلى مذهب الشافعى . يذكر أن أباه أوصاه بالأخذ برأى الشافعى ، ولم يكن مثله فى حسن النظر والبصر والحجة قال عنه أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبلة (ما رأينا أفقه من قاسم ابن محمد ممن دخل الأندلس من أهل الرحل) وذكر أنه توفي سنة ٢٧٧ ، ٢٧٨ هـ (تاريخ علماء الأندلس ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ترجمة رقم ١٠٤٩ . »

وقد تكلم هذا التشجيع من الأمير محمد عندما شبل برعايته فقيها
آخر هو أبو عبد الرحمن بن مخلص القرطبي صاحب التفسير الذي
اشاد به ابن حزم وقال عنه :

« الكتاب الذي أقطع قطعا لا أستثنى فيه ، أنه لا يوجد في الإسلام .
تفسير مثله لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره » (٣) .

وقد قام بمحاولات لإدخال المذهب الشافعي إلى الأندلس إلا أنها لم تؤد
إلى نتائج هامة في سبيل نشر هذا المذهب (٤) .

وكان قد رحل إلى المشرق في طلب العلم ، وسمع من عدد من الأعلام
في مكة والمدينة ومصر ودمشق وبغداد ، واختلف إلى علماء المالكية
والشافعية ، كما سمع من الإمام أحمد وروى عنه وعن ابن أبي شيبة ،
كما سمع بإفريقية عن سحنون وغيره ولم يتبع مذهبا معينا ، وإنما كان
يصدر فيها يعرض له من قضايا بحسب ما يترأى له من اجتهاد معتبدا
على الكتاب والسنة ، وأخذ يدرس الحديث في قرطبة ويقرا مسند
ابن أبي شيبة ، وأصبح له تلاميذ ساروا على نهجه من أبرزهم محمد
ابن وضاح (٥) ، وقد صنف في الحديث كتابا رتبته على أسماء الصحابة
روى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابي وعلى أبواب الفقه المختلطة فهو مصنف
ومسند قال عنه ابن حزم « وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته

(٣) انظر ترجمته في المغية ص ٢٤٥ وبمدها (٥٨١) ، الجوزة ص ١٧٧
وبمدها (٣٣١) ، تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩١ وبمدها (٢٨٣) .

(٤) برونفيسال : الحضارة العربية في إسبانيا ص ٦٠ .

(٥) هو محمد بن وضاح بن زريع مولى عبد الرحمن الداخل ، كان من
الرواه الكثيرين طوف بالشرق في طلب العلم ، وسمع من كثيرين
منهم سحنون بن سعيد التنوخي بإفريقية وحماد بن يحيى الليثي
بالأندلس ، وأخذ يحدث بالأندلس مدة طويلة وروى عنه كثيرون
ونشرها كثيرا وتوفى سنة ٢٨٦ هـ (بغية المتيسر ص ١٣٣ - ١٣٤
ترجمة رقم ٢٩١)

، وضبطه وإتقانه وإحتتاله فيه بالحديث وجودة شيوخه « (٦) » .

وقد ملا الأندلس حديثا ورواية ، وقد ثار عليه فقهاء المالكية لأن مسند ابن أبي شيبة الذي كان يقرأه لم يكن يعرض وجهة نظر أهل المدينة فقط ، وإنما كان يعرض آراء خصومهم أيضا مما جعلهم يثيرون عليه العسيلة ويفرون به الأمير محمد ، وينكرون عليه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث مما جعل الأمير يتحدث إلى وزيره هشام ابن عبد العزيز في هذا الأمر ويدعوه إلى أن يضع له حدا ، فأحضره وخصومه من المالكية أمام الأمير الذي تصفح الكتاب ثم قال لخازن كتبه « هذا الكتاب لا تستغنى خزائنا عنه فانظر في نسخه لنا » ثم قال .
لبقى انشر علمك واروا ما عندك ، ونهلم أن يتعرضوا له .

فأخذ في نشر حديثه وقراءة روايته وانتشر الحديث من يومئذ بالأندلس ثم تلاه تلميذه ابن وضاح « نصارت الأندلس دار حديث وإسناد وكان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى ملك وأصحابه » كما يقول ابن الفرضى .

وكان مما انفرد به بقى انه أدخل مصنف أبى بكر بن أبى شيبة كلها ، وكتاب الفقه للشافعى وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقي . وقد اعتبره بعض المؤرخين شافعى المذهب على حين اعتبره البعض الآخر مستقلا من أى مذهب نقهى (٧) .

وقد صرحت الأندلس بعد ذلك عددا من فقهاء الشافعية الذين تولوا تدريس المذهب ونشره فيها وخاصة فى عهد الحكم الثانى (المستنصر)

(٦) بغية المتتمس ص ٢٤٥ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩٢ ، بغية المتتمس ص ٢٤٦ .

بعد أن كانوا في عهد أبيه الناصر قد التزموا جانب الظل فيما يبدو ، حيث لم يعد صوتهم قويا كما كان في عهد الأمير محمد ، بينما عك صوت المالكية قويا ، واشتدت تفضتهم على مقلبيد الحياة الدينية والثقافية . من جديد في حماية المنصور بن أبي طاهر (٨) ،

وقد كان الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر أحد الدعاة النشطين للمذهب الشافعي فيقول عنه الحميدى « كان فقيها شافعيا شاعرا اخباريا مفسكا » (٩) . وقد اتهم بالاشتراك في مؤامرة ضد والده فكان مصيره القتل سنة ٥٣٣٨هـ / ١٥٥٠م .

وكان من اتباع المذهب الشافعي أيضا أبو الجعد أسلم . ابن عبد العزيز بن هاشم القرطبي الذي تظهد على يد بقى بن مخلد ، ورحل . للشرق سنة ٥٢٦٠هـ ، ولقى بمصر عددا من أصحاب الشافعي ومنهم محمد ابن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم . وقد تضاء الجماعة مرتين في عهد الناصر ، وبالرغم من أنه كان يميل للمذهب الشافعي إلا أنه كان يقضى طبقا للمذهب المالكي لأنه المذهب الرسمي للدولة ، وقد توفى سنة ٥٣١٩هـ (١٠) .

ومنهم أحمد بن بشر بن محمد بن إسماعيل التجيبى المعروف بابن الأقبش وكان من أهل قرطبة سجع من ابن وضاح والخشنى وغيرهما ، وكان متقدما في معرفة لسان العرب والبصر بلغاتها منفردا في ذلك ، وكان مشاورا في الأحكام ، ويذهب في فتواه إلى مذهب الشافعي ويميل إلى النظر والحجة وتوفى سنة ٥٣٢٧هـ (١١) .

(٨) بروغنسالى : الحضارة العربية ص ١٦٦ .

(٩) جنوة المقتبس ص ٢٦٢ ترجمة (٥٥٥) .

(١٠) تاريخ علماء الأندلس ص ٢٧٨ ، جنوة المتنبس ، ص ٣٢٢ ، الخشنى :

قضاء قرطبة ص ١٨٢ - ١٨٨ ، ١٩٠ - ١٩١ .

(١١) ابن الفرضى ص ٣٣ ترجمة (١٠٢) .

ومنهم احمد بن عبد الوهاب بن يونس المعروف بابن صلى الله ، من اهل قرطبة . كان حليفا للفقهاء ، عالما بالاختلاف ، بصيرا بالحجاج حسن النظر ، وكان يميل إلى مذهب الشافعي ، وله سماع من شيوخ موثقته صحب عبيدا الشافعي وتفقه معه ، وكان له حظ وافر من العربية واللغة وسار في جملة المتأهلين للمستمرة ، وكان ينسب أيضا إلى مذهب الاعتزال (١٢) .

وخلال السنوات التي حفلت بالاضطرابات والفتن ، وسبقت سقوط الخلافة الاموية وجدد المذهب الشافعي بعض انصار له في قرطبة من ابرزهم ابن حزم الذي درس المذهب المالكي ، ثم تحول عنه إلى المذهب الشافعي بعض الوقت ، ثم تحول بعد ذلك إلى المذهب الظاهري ، وأصبح اكبر داعية بالاندلس ، وسخر مواهبه لبعثه وإحيائه من جديد (١٣) .



(١٢) ابن الفريسي : تاريخ علماء الاندلس ج ١ ص ٤٧ ترجمة ١٥٤ .
(١٣) د. محمود حمادة : ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان ص ٥٨ .

الذهب الضفى

الواقع أن هذا المذهب لم يجد له اتباعا فى الأندلس فى عصر بنى أمية إلا أفرادا ثلائل . وقد أبدى المقدسى دهشته من ذلك حين ذكر :
إنهم فى الأندلس يقولون لا تعرف غير كتاب الله وموطأ مالك ، على حين أن ثمة اتباعا كثيرين لمذهب أبى حنيفة فى المغرب .

وكان الرد عليه أن هذا من نعل الأمير ، ثم يروى قصة ينسبها إلى هذا الأمير الذى لم يذكر اسمه — ولعله هشام بن عبد الرحمن — فيقول : إن الأحناف والمالكية تناظرا بين يحيى ذات يوم فقال : من أين أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، قال : ومالك ؟ قالوا : من المدينة . فقال : عالم دار الهجرة يكتفىنا . وأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة وقال : لا أحب أن يكون فى عملى مذهب (١) .

ولكن يبدو فى هذه القصة طابع الصنعة والتكلف بالرغم من ذكر المقدسى أنه سمعها من عدة مشايخ فى الأندلس وهى من نوع الحكايات التى تجرى على ألسنة الناس دون تحقق من صحتها . فهل كان الأمير الأموى يجهل موطن أبى حنيفة ومالك حتى يسأل عن ذلك ؟ . ويظهر أن السبب فى ذلك هو عدم ميل الأمويين لهذا المذهب نظرا لأنه كان مذهب خصومهم العباسيين ، ولذلك مالوا إلى مذهب الأوزاعى إمام أهل الشام أولا ، ثم إلى مذهب الإمام مالك إمام أهل المدينة الذى اتنى على سياسة هشام بن عبد الرحمن الداخل بعكس العباسيين ، هذا بالإضافة إلى أن مذهب أبى حنيفة مذهب يعتمد على العقل والمنطق أكثر من مذهب مالك الذى

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٧ ، لينى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٢ — ١٦٤ .

يعتمد أكثر على النصوص ، مما جعل الاندلسيين - وكان فيهم كثير من البربر الذين انتشر مذهب مالك في بلادهم قبل ذهابهم إلى الاندلس - يقولون عليه أكثر نظرا لتوافقه مع طبيعتهم وثقافتهم البسيطة ، ثم إنه مذهب أهل المدينة مثنى رسول الله ﷺ ، ولها من المنزلة والمكانة ما لها .

ومن أشهر أتباع المذهب الحنفي في الاندلس الذين عثرنا عليهم في كتب التراجم الأعمى القرطبي الذي كان أول من تأثر من الاندلسيين ببقاه أهل العراق (٢) .

ويظهر ذلك من خلال رايه في شرب النبيذ فقد ذهب مذهب أبي حنيفة في هذه المسألة (٣) حيث قال : يقصر اسم الخمر على عصير العنب فقط . وإما ما اتخذ من غير العنب من الأثرية كالتمر والشعير فيسمى نبيذاً وهو حلال إذا لم يسكر لها إذا أسكر فإنه يلحق بالخمر فيصير محرماً . ويستدلون على ذلك بقوله ﷺ : حرمت الخمرة بمينها والأسكر من كل شراب ، وبما روى من أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ ويقول : إنا ناكل لحوم هذه الإبل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها في بطوننا (٤) .

(٢) وهو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيع المعافري المعروف بالأعمى القرطبي ، رحل من الاندلس إلى مكة سنة ١٧٩ هـ ، وسمع من سفيان بن عيينة وغيره ، وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار ، وكان صالحاً عاقلاً سرياً جواداً يذهب إلى مذهب أهل العراق توفي سنة ٢٢١ هـ (فتح الطيب ج ١ ص ٣٥١) .

(٣) عن هذه المسألة راجع : تفسير آيات الأحكام ج ١ ص ٢٧٧ وبعدها، الأجوبة الخفيفة في مذهب الإمام أبي حنيفة ص ٧٩ - ٨٠ .

(٤) الأصلهاتى : محاضرات الأتباء ج ١ ص ٤١٢ ، د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٣ ص ٢٠٣ . يروى الجهشيلوى : أن شريكاً القاضي تحدث مع معاوية بن يسار وزير المهدي العباسي يوماً بحديث في تحليل النبيذ فقال عافية القاضي وكان حاضراً :

ويتجلى ذلك من قصته (الأعمى القرطبي) مع القاضي محمد بن زياد الذى قبض على رجل شرب نبيذا فحبسه ليقيم عليه الحد ، فذهب الأعمى إلى حارسه وأخبره بأن القاضي قد أمر بإطلاق سراح الرجل فاطلق سراحه ولم يكن القاضي قد أمر بذلك . وكان قد عرض على الأعمى القضاء فرفض واشتهر بمزاحه ولثته صاحب حكايات ونواذر(ه) .

ومن الذين ذهبوا مذهب أهل العراق أيوب بن سليمان بن حكم ابن عبد الله بن بلكايش بن إليان القوطى ، وقد رحل إلى المشرق ، ودخل العراق فسمع بها وعاد ومعه الكثير من كتب أهلها ، وكان يميل إلى الحجة والفطر ولا يرى التقليد ، ولذلك انصرف عنه الطلاب ولم يتلمذ عليه إلا ابنه(٦) .

وقد وجد اتباع هذا المذهب اضطهادا من الأندلس كما يستدل على ذلك من قول المقدسى : « أما من الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك . فإن ظهروا على حنفى أو شافعى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه »(٧) .

=

ما سمعنا بهذا الحديث فقال شريك : وما يضر عالما إن جهل جاهل . ويرى أن عيسى بن موسى سأل أحد العلماء عن النبيذ فقال : حلال وقد أدركنا بعض أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه . أما مذهب الأئمة مالك والشافعى وأحمد وأهل الزورع فقد عسوا كل مسكر خمرا وحرموا كل أنواع المسكرات من العنب وغيره . (انظر الوزراء والكتل ص ١٤٤ ، ابن تيمية : المسيلة الشرعية ص ١١٣ ، د. أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى ج ١ ص ٢٠٢) .

(٥) ابن حيسان : المقتبس ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، ص ٢٣١ تحقيق د. محمود مكى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥ .

(٦) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٧٠ .

(٧) الحسن التتلمس ص ٢٣٦ . أحمد أمين : ظهور الإسلام ج ٢ ص ١٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣ .

المذهب الظاهري

تأسس هذا المذهب بالعراق على يد داود بن علي بن خلف
الاصبهاني البغدادي (٢٠٠ - ٢٧٠ هـ) . وكان على المذهب الشافعي
اولا ، ثم خرج منه وأظهر القول بالظاهر . وهو على حد قول
الخطيب البغدادي : « أول من أظهر احتمال الظاهر ، ونفى القياس
في الأحكام (١) » .

وقد نشأ هذا المذهب كرد فعل للمذهب القياسي والإسراف فيه ،
ويقوم على الأخذ بظواهر النصوص والتأويل ، ويتلخص في جعل مدارك
الشرع كلها منحصرة في النصوص والإجماع ، ورد القياس الجلي والعلّة
النصوص عليها إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع
مجاليها (٢) . وجعل المصادر الشرعية هي النصوص فقط وإبطال
القياس . وعدم الأخذ به . ويذكر أن دواود لما سئل عن ذلك وقد أخذ
الشافعي به قال : أخذت أدلة الشافعي في إبطال الاستحسان فوجدتها
تطال القياس (٣) .

وقد دخل المذهب الظاهري إلى الأندلس على يد عبد الله بن محمد
ابن قاسم بن هلال القرطبي المتوفى سنة ٢٧٢ هـ تقريبا وذلك في عهد
الأمير محمد الأول . وكان عبد الله قد رحل إلى المشرق وتلقى العلم على

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٢) د. حسن علي حسن : الحياة الدينية في المغرب ص ١١٢ ، د. محمود
حمادة : ابن حزم ومنهجه ص ١٥٨ ، د. صلاح الدين رسلان :
الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٨ .

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن حزم ص ٣٧٠ .

يسد داود مؤسس المذهب وكتب عنه كتبه كلها وادخلها إلى الأندلس
وغلب عليه هذا المذهب (٤) .

كما وجد عدد من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق ومهدوا لنفسه
الظاهرى بعد عودتهم ومن أشهرهم بقى بن مخلد وأبو عبد الله محمد
ابن وضاح ، وقاسم بن أصبغ ، حيث كانوا من علماء الحديث .

ومن ثم ظهر علماء أمكنهم أن يجهروا بظاهريةهم وعلى رأسهم القاضى
الشهير منذر بن سعيد البلوطى ت ٣٥٥هـ/٩٦٦م الذى كان « يؤثر هذا
المذهب ، ويجيع كتبه ، ويحتج لمقاتله ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فإذا
جلس للقضاء قضى بمذهب مالك الذى عليه العمل بالأندلس » (٥) .
ولذلك فإنه يعتبر الممثل الأول للمذهب الظاهرى فى الأندلس . يقول عنه
ابن الفرضى « وكان مذهبه فى الفقه مذهب النظار والاحتجاج وترك
التقليد ، وكان عالما باختلاف العلماء ، وكان يميل إلى رأى داود بن على

(٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس رقم ٦٥٥ .

(٥) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٣٣ . وقد لقب بذلك نسبة إلى موطن
نشأته وهو حصن البلوط بالقرب من قرطبة ، ولحق قضاء الأندلس
فى عهد الخليفة الناصر سنة ٣٣٩هـ ، وظل فى هذا المنصب فى عهد
المستنصر حتى تولى سنة ٣٥٥هـ فكانت ولايته للقضاء ست عشرة
سنة لم يؤخذ عليه فيها جور أو هوى — كما ذكر المقرئ — وكان
خطيبا مفوها خطب فى الاحتفال بفسارة قنسطنطين بعد أن أرتج
على أبى على القالى سنة ٣٣٨هـ .

قال عنه ابن حزم « كان مائلا إلى القول بالظاهر ، قويا على
الانتصار له ، ومن مصنفاته (الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب
الله) وإبانة عن حقائق أصول الديانة . (انظر نفع الطيب ج ١
ص ٣٣٣ ، بغية الملتزم ص ٤٦٦ ، جذوة المقتبس ص ٢٤٨ — ٢٤٩)

ابن خلف العباسي ويحجج له ، وكان بصيرا بالجدل ، منحرفا إلى مذهب أهل الكلام لهجا بالاحتجاج (٦) .

وكذلك أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت (ت ٤٢١ هـ) ، الذي تلمذ عليه ابن حزم ، وأخذ عنه المذهب يقول عنه الضبي « فقيه عالم ، زاهد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره أبو محمد بن حزم ، وكان أحد شيوخه » (٧) .

ويعتبر ابن حزم أكبر داعية لهذا المذهب بالأندلس ، فقد ناضل من أجل إحيائه ونشره بعد أن كان قد خبا في المشرق ، ولولاه لاندثرت نروعه فضلا عن أصوله وبقي اشتاتا متفرقات في بطون الكتب هنا وهناك .

وليست لدينا نصوص صريحة تبين سبب تحول ابن حزم إلى هذا المذهب واعتناقه له ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ - ضيق صدر ابن حزم بكثرة الآراء والاختلافات في المسألة الواحدة مما جعله يرد المصادر الأخرى غير النصوص والإجتماع ، ويرفضها ويؤلف الرسائل في إبطالها . مثل كتابه (إبطال القبلات والاستحسان) ، وكتابته (المحلى) الذي بين فيه ضعف هذه المصادر ونهايتها .

٢ - الخصومة والتنازع والفرقة بين أتباع المذاهب المختلفة نتيجة للاتباع والتقليد لأصحابها ، مما جعله يحل على التقليد ويرى أن الاختلاف بين المذاهب ليس رحمة كما يقال ، وإنما هو شر كله ولا يمكن أن يأتي

(٦) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٤٤ ، ترجمة (١٤٥٤) .

(٧) بغية المتلمس ص ٤٦٧ ، جذوة المتنبس ص ٣٥٠ .

بخير أبدا ، ووجد في منهج الظاهر الراحة للنفس والاطمئنان للقلب .

٣ - الفساد الخلقي والنفاس الاجتماعي الذي جعل طائفة من العلماء والفقهاء في عصره يقتربون إلى الحكام بلوى عنق النصوص مستخدمين في ذلك القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها . فانكر هذه الوصولية والأدوات التي استخدمها هؤلاء في سبيل الوصول إليها .

٤ - اقتناعه ببطالان التقليد ، وإن اتبع مذهب معين بدعة لأن « سيرة الصحابة والتابعين وطريقتهم هي الاجتهاد ، وطلب سنن النبي ﷺ ولا مزيد ، وترك تقليد إنسان بعينه » (٨) .

٥ - سعة علمه وكثرة اطلاعه على كتب السنن والآثار والفقه وغيرها مما جعله يرى نفسه مجتهدا توافرت فيه صفات الاجتهاد . ويطرح إلى أن يكون صاحب مذهب يقول عنه الذهبي « كان رجلا من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة » (٩) .

ويقول عنه الكوثري « وحيث كانت نشأته في بيت عز واعتزاز كان يطمح إلى التفرد بمذهب ليكون مقبولا لا تلبسا » (١٠) .

ولا فرو فقد بلغت تصنيفه في علوم شتى نحو أربعمائة مجلد تشتمل على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء لم يجتمع لأحد قبله إلا لابن جرير الطبري الذي ذكر أنه كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا (١١) .

(٨) رسائل ابن حزم : رسالتان أجاب فيها عن سؤالين ص ٩٢ .

(٩) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١١٥٣ .

(١٠) مقدمة كتاب النبذ في أصول الفقه الظاهري ص ٥ ، تحقيق الكوثري مطبعة الآثار بمصر سنة ١٩٤٠ م .

(١١) يلقوت : معجم الأبناء ج ١٢ ص ٢٣٨ ، ابن النعمان : شذرات الذهب

ج ٣ ص ٢٩٩ . المراكشي : المعجب ص ٢٠ - ٣١ .

ويعتمد منهج ابن حزم الظاهري على أصليين : الأول : القول بظاهر الكتاب والسنة والاجماع . والثاني : ليطال القول بالقياس والاستحسان . والرأى والتقليد .

ويعد ابن حزم من أشد دعاة المذهب الظاهري وإلمه في عصره ، وكتبه تعتبر المرجع الهلتي للتعرف عليه حتى قيل « من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي » (١٢) .

ولعل خير ما يوضح مذهب الظاهرية كتابه في أصول الفقه المسمى (الإحكام في أصول الأحكام) الذي سلك فيه مسلكا يدل على التجديد والابتكار حيث تحدث فيه عن مسائل لم يتحدث فيها ظاهرية المشرق . وقد عقد فيه فصلا بين فيه معنى الظاهرية ، وأنهم لا يعتمدون في استنباط الأحكام على القياس بل على النص فقط ، وإذا كان النص مطلقا أخذ على إطلاقه إلا إذا تبده نص آخر . بيد أن اعتماد الظاهرية على النصوص فقط قد أوقعهم أحيانا في بعض المناقضات ومثال ذلك : أنهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب لوجود النص ، ولا يوجبون غسله من ولوغ الخنزير مع أنه أشد نجاسة لعدم ورود النص .

وبينما يوجبون غسل اليد ثلاثا بعد القيام من النوم ، ويحكمون بنجاسة الماء الذي مسه يد مستيقظ لم يغسل يده ، نراهم يجهزون للجنب قراءة القرآن والجنوس في المسجد . إلى غير ذلك من المسائل التي جعلت البعض يحل عليهم بشدة (١٣) .

(١٢) صلاح الدين رسلان : السياسة والأخلاق عن ابن حزم ص ٥٣ .
يعد مذهب الإمام أحمد أقرب المذاهب للظاهرية لأنه يترك للقياس إلا في أضيق الحدود ، ويأخذ بالمأثور ، ويقف عند النصوص .

(١٣) أنظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٤ .

وقد أخذ ابن حزم يدعو إلى مذهبه الظاهري الجديد الذي يقوم أول ما يقوم على التفسير الحرى للنصوص فنراه يقول « ولذا وجب علينا اتباع انصر لأنه كاف بنفسه واضح ظاهر » ، ويقول : « وحمل الكلام على ظاهره الذى وضع له فى اللغة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع ، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها ، والشرائع كلها ، والمعتول كله » (١٤) . ولكنه يجيز التأويل حين يكون هناك نص آخر محيل لهذه الدلالة ، أو إجماع متيقن أو ضرورة حس فحينئذ يعمل : بالتأويل المخالف للظاهر على مقتضى البلاغة العربية (١٥) .

وكتيجة حتمية للتبسك بالنصوص يرفض ابن حزم القياس والتقليد والراى والاستحسان لأن هذه فى نظره هى التى فتحت باب الخلاف والنزاع على مصراعيه . فنراه يقول : « لجميع أهل القياس مختلفون فى قياساتهم ، وهم كلهم مقرون على أن كل قياس ليس صحيحاً ، ولا كل رأى حقاً » (١٦) .

ولم يقتصر ابن حزم فى منهجه الظاهري على ميدان الفقه وأصول الفقه فقط وإنما حاول تطبيقه على العقائد والمذاهب الكلامية . ويعتبر تطبيقه لهذا المنهج فى هذا المجال من الابتكارات التى انفرد بها (١٧) . وقد أصبح ابن حزم صاحب مذهب نسب إليه شمل كثيراً من الأتباع الذين سموا بالحزمية ، وهو فى كتابه المطبوع يدعى إلى مذهبه

(١٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ١١٦ ، ج ٣ ص ٣ .

(١٥) صلاح رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٦ .

(١٦) المطبوع ج ١ ص ٥٨ . القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ .

(١٧) ديلاس أوليري : الفكر العربى ومكانته ص ٢٤٠ ، د . طه الحاجرى :

صور اندلسية ص ٨٢٩ .

هذا دعوة صريحة ، تراها واضحة في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب (١٨) .

ومن أشهر أتباعه : ابن عبد البر القرطبي ، والحميدى صاحب جذوة المقتبس ، كما أخذ بلون منه محيى الدين بن عربى الصوفى المشهور الذى أخذ بمنهج الظاهرية فى العبادة والفروع ، والفيلسوف الكبير ابن رشد وابن تومرت زعيم الموحدين ، والمنصور الموحدى الذى جعل مذهبه المذهب الرسمى لحولهم (١٩) .

ولكن لم يجد مذهب ابن حزم قبولا لدى الكثير من الأندلسيين فى العصر الأيوى حيث كثروا على المذهب المالكي الذى كان بمثابة دين لهم ، وجزءا لا يتجزأ من شخصيتهم .

وقد ثارت بينه وبين الفقهاء - وخاصة المالكية - مساجلات عديدة ومناظرات عنيفة وذلك فقد عاش شطرا كبيرا من حياته فى منى وأدى ومضايقات فئامة من أرائه . ودارت بينه وبين معاصريه من العلماء والفقهاء مناظرات شديدة وخاصة بينه وبين أبى الوليد الباجي الفقيه الأشعرى المعروف .

يقول المقرئ « إنه لما قدم الأندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجا عن المذهب (يقصد المذهب المالكي) ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت السنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه ، وأتبعه على رأيه جماعة من أهل الجبل وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها ، وتبعه أهلها ، فلما قدم أبو الوليد تكلموا في ذلك فدخل إليه وناظره ، وشهر باطله ، ولله معه مجالس كثيرة » (٢٠) .

(١٨) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٥ .
(١٩) الشيخ أبو زهرة : ابن حزم ص ٥١٧ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٢ .
(٢٠) نفع الطيب ج ٦ ص ١٧٦ تحقيق د. فريد رفاعي ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٩ وبمدها .

وكان من اشهر الذين تصدوا للرد على آرائه ونقدوه نقدا لاذما بعد وفاته (٤٥٦هـ) القاضي المالكي أبو بكر بن العربي في كتاب سماه (الدواهي والنواهي) يصف فيه الظاهرية بانهم : « أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تنهه ، تعلقوه من إخوانهم الخوارج حين حكم على رضى الله عنه يوم صفين فقالوا : لا حكم إلا لله وكان أول بدعة لقيت في رحلتى القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخياف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم ، نشأ وتعلق بالمذهب الشافعى ، ثم انتسب إلى داود ، ثم خلع النكل ، واستقل بنفسه وزعم انه إمام الأمة بإسح ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفييرا للقلوب منهم ... الخ » (٢١) .

وقد اضطهد ابن حزم وشدد عليه وشرد من وطنه وأحرقت كتبه علنا في إشبيلية في عهد المعتضد بن عباد . ويصف ابن حزم شيئا من ذلك فيقول « ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحننا بالاعتقال والتفريب ، والإغرام الفادح ، وأرذمت الفتنة — الفتنة البربرية — وعمت الناس وخصتنا إلى أن توهم أبى الوزير رحمه الله ، ثم ضرب الدهر ضرياته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر وخرجت عن قرطبة سنة ٤٠٤هـ وتظبت في الأمور » (٢٢) .

ويقول الذهبي « وقد امتحن هذا الرجل ، وشدد عليه ، وشرد عن وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه ، واستخفافه بالكبار ، ووقوعه

(٢١) الأخلاق والسيلسة عند ابن حزم ص ٥٩ .

(٢٢) لحد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٥ .

فى ائمة الاجتهاد ، باقبح عبارة وانظ. محاولة ولمنع رد « (٢٣) » .

لقد كان ابن حزم ضيق الصدر ، متقلب المزاج ، حاد اللسان
ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ - مرض الكبد والطحال الذى أصيب به فى صباه وهو يشير إلى
ذلك فيقول : « لقد أصابتنى علة شديدة ولدت وفى ريو فى الطحال
شديد ، فولد ذلك على من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر أمرا
جاشت نفسى فيه ، إذا أنكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى
لطبعى ووضح عندى أن الطحال موضع الفرح ، وإذا غسد تولد ضده » .
وهذا تحليل دقيق ينم عن ثقافة طبية واسعة .

٢ - ما عاينه من جمود الاندلسيين على مذهب مالك وحده وتعصبهم
له ، ورفضهم لى مذهب آخر سواء ، مما ألجأه إلى هذا الأسلوب
العنيف لنشر مذهبه خاصة وأنه لقى صدا وهجوما عنيفا ببلده بطله .

٣ - الظروف السياسية المتقلبة التى عاش فى ظلها ، واكتوى
بنارها هو وأسرته مما أدى به إلى التنقل المستمر وهو يشير إلى ذلك فيقول
« أنت تعلم أن ذهنى متقلب وبالى مضطرب مما نحن فيه من نبو الديار ،
والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير
الإخوان ، وفساد الأحوال وتبدل الأيام » (٢٤) .

ويشير ابن حزم فى تصديده له إلى مذهبه وما لقيه بسببه فيقول :

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت

أقوالهم وأقوالهم العسدى محن

(٢٣) سعيد الأنصافى : ابن حزم ص ١٢١ ، ١٣٠ وصفه اليمض بقوله
« كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين » . (الأخلاق
والسياسة عند ابن حزم ص ٤٥) .
(٢٤) طوق الحماية ص ١٥٤ .

فقلت هل عيهم في غير انى لا
تقول بالراى إذ فى رليهم فتن
واننى مولع بالقص لست إلى
سواه اتحو ولا فى نصره اهن
لا اتنى: نحو آراء يقال بها
فى الدين بل حسبى القرآن والسنة
ويقول فى قصيدة أخرى بعد أن أحرقتوا كتبه ساخرا :
وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائلى
وينزل إن أنزل وينفخ فى قبرى
دمونى من إحراقى كاشف وقولوا
بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعسودوا فى المكاتب بداة
فكم دون ما يقعون لله بن بستر(٢٥)

وأخيرا ننهى حديثنا عن ابن حزم بقول عبد الواحد المراكشى — الذى
كان قريبا من عصره — عنه « وهو أشهر علماء الأندلس اليوم ، وأكثرهم
ذكرا فى مجالس الرؤساء ، وعلى السنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب
ملك ، واستبداده بعلم الظاهر . ولم يشتهر به أحد قبله من علمنا ،
وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا اليوم بالأندلس » (٢٦) .

(٢٥) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ طبعة فريد رفاعى .

(٢٦) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٤٦ وبمدها .

ثانيًا - المذاهب الدينية (الكلامية)

مذهب الشيعة

كان الفاطميون بعد تأسيس دولتهم في المغرب يهدفون إلى نشر مذهبهم الشيعي في الأندلس ، وإلى غزو هذه البلاد لجعلها مع المغرب وحدة واحدة تخضع لسلطانهم ولذهبهم ، وبهذا ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين :

قسم شرقي تابع للخلافة العباسية ، وقسم غربي تابع للخلافة الفاطمية . ولهذا أخذ الفاطميون في إرسال عيونهم إلى الأندلس للتعرف على أحوالها مثل أبو اليسر الرياضى ، وابن هارون البغدادي ، وابن حوقل النصيبى .

وقد لعب هؤلاء العيون « الجواسيس » دورا مهما في الدعاية للفاطميين والمذهب الشيعي بالأندلس ، بالاضافة إلى جمعهم للمعلومات من أحوالها وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت حكم الأمويين .»

وقد دخل هؤلاء مستترين إما بغرض العلم كابن هارون البغدادي أو بغرض الرحلة والتجارة كابن حوقل النصيبى ، ولكنهم في الحقيقة كانوا يتجسسون للفاطميين (١) .

يقول ابن الفريسي عن ابن هارون « أدخل بعض كتب أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ رواية ، وانصرف إلى المشرق بعد ما تردد في الأندلس أحوالها وأخبرني سليمان

(١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأئثارهم في الأندلس ص ٢٨٧ .

ابن أيوب أن أبا جعفر البغدادي - وهذه كنيته - إنما دخل الأندلس
مجتسسا « (٢) » .

وقد قدم ابن حوقل تقريراً مفصلاً للفاطميين من الأندلس يفرى
بالحرف عليها جاء فيه أنها بلاد غنية طيبة للهواء ، كثيرة الماء ، وإن
حكومتها ضعيفة لا تقوى على المقاومة .

ومما قاله في تقريره « ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها
على من هي في يده ، مع سفر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص
مقولهم ، وبمدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة » (٣) .

وقد بدأ الفاطميون لذلك يرسلون دعواتهم مخفين إلى الأندلس ،
ونجحوا في اجتذاب بعض أنصار لهم فيها مثل ابن أبي المنصور الذي رحل
إلى المغرب وتولى القضاء للخليفة المنصور الفاطمي ، وابن هاني ،
الأندلسي الشاعر المشهور الذي التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله (٤) .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦ ترجمة ٢٠١ ، ٤ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ ، د . أحمد شلبي ، موسوعة
التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٦٠ ، د . مصطفى الشهابي : الجغرافيون
العرب ص ٥٥ .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدی ، أصله من بني المهلب الأزدیین
بإفريقية ، وانتقل أبوه إلى الأندلس وسكن البيرة فولد له محمد الذي
برع في الشعر واشتهر . يذكر أنه قصد جعفر بن علي الأندلسي ملك
الزاب من المغرب الأوسط فوجد باباه عابراً بالشعراء ، فتزياً بزي
بربري وكتب على كتف ثيابه بيتين من الشعر هما :

الليل قيل والتهار نهار

والبغل بفل والحرار حرار

والديك نيك والاجلحة زوجة

وكلاهما طير له منقار

وادخلهما إلى وزيره فأراد أن يضحك الملك فأبلغه بذلك فأمر بدخوله.
فأتشده تصيدة مدح رائعة منها :

كان لواء الشمس غيرة جعفر

راى القرن فإزدادت هلافته ضعفا

فقام إليه جعفر وعانقه بعد أن عرفه ، وخلع عليه وظل عنده
حتى كتب له المعز الفاطمى ليتوجه إليه ، فأتصل به فى المغرب ،
ولما توجه إلى مصر تبعه ابن هانىء ، ثم عاد لأخذ أولاده ولكنه
قتل برقة سنة ٣٦٢ هـ. وكان المعز يؤمل عليه آمالا كبارا وأسف لوفاته
لسفا شديدا وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شمراء
المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

وله قصائد كثيرة فى مدح الفاطميين وخاصة المعز ، وكان شيعيا
متحمسا ، وبلغ من حمسه أن وصف سيفه بالتشيع كذلك حيث يقول :

لى صارم وهو شيعى كصاحبه

يكاد يسبق كراتى إلى البطل

إذا المعز معز الدين سلطه

لم يرتقب بالنيا مدة الاجل

وقد بالغ ابن هانىء فى وصف المعز حتى جعله فى مرتبة الانبياء.
بل نسب إليه بعض صفات الالهوية والقدرة على الإتيان
بالمعجزات ومن أجل ذلك اتهم بالكفر . مثل قوله :

ما شئت لا ما شاعت الاقصاد

فاحكم فكت الواحد القهار

ويذكر المستشرق ليفي بروفنسال : أن الدعوة للمذهب الشيعي قد بدأت في الأندلس خلال حكم عبد الرحمن الناصر ، ولكنه لا يعرفنا على وجه التفصيل كيف بدأت ؟ ولكننا نعتقد أنها بدأت قبل ذلك منذ أن استطاع الفاطميون تأسيس دولتهم في المغرب فمدوا أبصارهم إلى الأندلس التي كون الأمويون لهم فيها دولة .

ويبدو أن عددا من عيون الفاطميين ودعاتهم المتخفين قد تولوا أمر هذه الدعوة في الأقاليم الأندلسية القريبة من المغرب ، والمطلة على البحر المتوسط لسهولة الوصول إليها والخروج منها بسبب موقعها الجغرافي ، ويعدها النسبي عن العاصمة الأندلسية (قرطبة) .

وقد أشار ابن حزم في القرن الخامس الهجري إلى وجود نواة

==

وكانها اتت النبي محمد

وكانها اتصارك الاتصار

انظر : ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٩٧ — ٩٨ ترجمة (٤٠٩) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤ — ٥ ، ديوان ابن هانيء ص ٣٤ ، ٣٦ ، ١٦٤ ، ١٨٢ طبعة بيروت سنة ١٣٢٦ هـ . وإن ذهب البعض إلى أنه تشيع لا عن عقيدة ، ولكن طبعاً ذهب المعز وعطياه .

وقد فسر البعض أمثال هذه الأقوال حسب نظرية المثل والمثول التي آمن بها الشيعة حيث جعلوا الإمام مثل العقل الكلى الذي يعتبر في نظرهم أول ما خلق الله ، ولذلك فالإمام عندهم متصل بالله لأن مثوله وهو العقل الكلى متصل بالله . ولذلك فإنها في نظرهم لا تعد كفرا (انظر : د. محمد كامل حسن : نظرية المثل والمثول القاهرة سنة ١٩٤٨م دار الفكر العربي) .

للشيعة بين مسكن إيليس المرية ، وبلدق ، ولكننا لا نعرف عنهم المزيد من الأخبار (٥) .

وقد استطاع القاسم بن حمود — الذى ينتمى إلى الادارسة العلويين — أن يعلى عرش الخلافة الأموية مرتين فى الأندلس ٤٠٨ هـ ، ٤١٣ هـ لعدة شهور قبل سقوطها ، وجاهر بأرائه الشيعية ، وقدم نفسه كمثل لها ، وهى بلا شك نفس آراء الادارسة الذين حاصر الأمويون نشاطهم المصادى لهم فى شمال المغرب (٧) .

ونذكر المراكشى والضبى : أن القاسم كان يذكر منه أنه تشيع . ولكنه لم يظهر ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهباً (٨) ، وعلى أى الأحوال فإنه بعد من الشيعة بالأندلس سواء جاهر أو لم يجاهر ، كما كان من الشعراء المتشيعين بالأندلس الشاعر والمؤرخ أبو بكر عبادة بن ماء السباء الذى تشتم من كتبه وأشعاره رائحة التشيع والتعصب ضد بنى أمية وهو ينتسب إلى قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى ، واشتهر بالموشحات ،

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٦) بنو حمود : أسرة يتصل نسبها بأدارسة شمال إفريقيا ، وكانت تقيم فى سبتة ، ثم دخلت قرطبة ، وتبضعت على زمام الأمور ، وأخذت تعبت بالخلفاء الأمويين مرة تضع خليفة دون أن يكون له من الأمر شيء ، ومرة يتولى أفراد منها الحكم ويدعون أنهم خلفاء . ولم يستطيع بنو حمود أو الأمويين الذين وضعوهم على عرش الخلافة أن يحافظوا على وحدة الأندلس فسقطت الخلافة سنة ٤٢٢ هـ وبدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف .

(٧) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٨) المعجب فى تلخيص أخبار العرب ص ٣٣ ؛ بغرة المتوسم فى تاريخ رجال أهل الأندلس ص ٢٨ .

«واتصل ببني جهور بعد انهيار الخلافة الأموية ، واختص ببني حبود النملويين ، ولذلك كله اتهم بالتشيع»^(٩) .

ومن فكرتهم المصادر الأندلسية على أنهم من المتشيعين الشاعر أبو ميد الله محمد بن إبراهيم بن حيون ، وكان من وادى الحجارة ، ورحل إلى المشرق نحو خمسة عشر عاما فسمع بصنعاء ومكة وبغداد ومصر ، ولقى جماعة من أصحاب الإمام أحمد وكان كما ذكر المقرئ « إماما فى الحديث ، حائضا للعلل ، بصيرا بالطرق ، ولم يكن بالأندلس تبسه أبصر بالحديث منه ، لم يذهب مذهب مالك ، وكان يظن به التشيع لشيء كان يظهر منه فى حق معاوية » وقد توفي بقرطبة سنة ٣٠٥هـ (١٠١) .

ونظرا لشدة الخصومة بين الفاطميين الشيعة بالمغرب وبين الأمويين السنة بالأندلس فقد أخذ الأمويون وبخاصة منذ عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مجلة الفاطميين بعدة وسائل وأساليب منها :

١ - الطَّيْب بِالقَب الخليفة حيث تلقب الناصر بالقاب الخليفة سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م لتوطيد مركزه ، وتثبيت دعائم دولته فى الداخل والخارج ، وإظهار أنه لا يقل عن الخليفة العباسى أو الفاطمى . وأن دولته لا تقل عن الدولة العباسية أو الفاطمية بل تتفهمها .

٢ - بث بذور الفتنة والخلافات والفتائل بين القبائل البربرية فى بلاد المغرب لإزعاج الفاطميين ، واجتذاب بعض زعماء هذه القبائل .
ومد الخارجين على الفاطميين بما يحتاجونه .

٣ - الحرص على تقوية الأسطول الأندلسى لمنافسة أسطول

(٩) ابن حبان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ص ٣٤٥ - ٣٤٦ تحقيق د. محمود مكى .

(١٠) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٦ .

الفاطيين في البحر المتوسط ورد هجماته والسيطرة على مضيق جبل طارق بعد الاستيلاء على طنجة وسبتة وهما معبري الأندلس من المغرب .

٤ — توطيد العلاقة ببعض الدويلات المغربية بالرغم من مخالفتها في المذهب مثل دولة بني رستم الخارجية في تاهرت (١١٦) .

٥ — عقد المعاهدات مع أعداء الفاطيين من الدول الأجنبية مثل ملك إيطاليا هوجو البروفانس (هوجو دي بروفانس) الذي كان يحق على الفاطيين لمهاجرتهم ميناء جنوه وتدميره ، وإمبراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى استرجاع جزيرة صقلية من أيدي الفاطيين ، والاختشيديين في مصر لجباية محاولات الفاطيين المتكررة لغزوها .

٦ — محاربة المذهب الشيعي فكريا في الداخل والخارج : وحظر التأليف في مسائل الفكر الشيعي والمعتزلي . حتى استقر في أذهان الأندلسيين أن تناول هذه المسائل يعتبر خروجاً عن الدين الإسلامي القويم الذي يمثل المذهب المالكي . ولذلك ذكر المقدسي عنهم قولهم « لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك » (١٢) .

٧ — تأليف الكتب في الرد على هذا المذهب الذي كان يخشى من تسريه إلى الأندلس ، ومن تمسدد الفرق المذهبية فتصاب البلاد بالتزق والانقسام مرة أخرى بعد أن بذلت جهود مضيئة في توحيدها بالقوة سياسيا وبالمذهب المالكي دينية .

كما نرى الناصر يرسل مجموعة من الفقهاء المالكية إلى مصر في

(١١) انظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ،

د. محمود مكي : التشيع في الأندلس ص ١٢١ .

(١٢) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، بروندسفال : الحضارة العربية ص ١٦٢

عهد الإخشيديين لجباية مذهب الشيعة في الخارج . مثل محمد بن القاسم
ابن شعبان المعروف بلقب القرطبي (١٣) .

٨ — استقبال العلماء والأدباء المناوئين للفاطيين والفايرين منهم مثل
الخشني صاحب كتاب (قضاة قرطبة) . الذي فر من بطشهم ، واتصل
بالحكم وحبب إليه العلم وفرس فيه هواية جيع الكتب . ومثل حكم بن محمد
ابن هشام القيرواني القرني الذي فر منهم إلى الأندلس فأكرمه المستنصر
وأجرى عليه العطاء حتى تولى سنة ٣٧٠هـ (١٤) .

وقد أثرت هذه السياسة التي اتبعها الناصر تجسأه الفاطيين
فأنت إلى فشلهم في النيل من الأندلس ، والتوجه ناحية مصر لفتحها .

كما أهتم الخليفة الحكم المستنصر بمحاربة الفاطيين ومذهبهم
الشيخي مثل أبيه وسار على سياسته تجاههم قبل رحيلهم إلى مصر .
وبالغ في ذلك حيث رأى في محاربتهم نوعا من الجهاد ضد خصوم
سياسيين ودينيين في آن واحد . وكان حماسه للنقمة السنن على مذهب
مالك مما جعله ينظر إليهم على أنهم زنادقة يجب محاربتهم خشية انتقال
مذهبهم إلى الأندلس (١٥) .

هذا فضلا عن أنه — مثل بقية بني أمية — كانوا ينظرون إليهم
على أنهم مدعين للنسب الفاطمي ، وتبيل ذلك تلك الرسائل المتبادلة
بينه وبين العزيز بالله الفاطمي فقد ذكر ابن خلكن : أن العزيز كتب إلى
الحكم رسالة يسبه فيها ويهجوّه فرد عليه الحكم قائلا « أما بعد

(١٣) د. محمود مكي : التشيع في الأندلس ص ١٢٤ . ويذكر أن الناصر
أرسل إليه عشرة آلاف دينار ليفرقها في شيوخ الملة بمصر ، فأخرج
الإخشيديين منها لشمس شاهدة . انظر : خولان ردا : الفريسة
الإسلامية في الأندلس ص ١٩٤) .

(١٤) د. محمد زغروت : مكتبة الأئمة الإسلاميين مجلة البحوث الإسلامية
عدد ١٧ ص ٣٥٢ ، تاريخ علماء الأندلس ص ١٢١ .

(١٥) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

نقد عرفتنا نهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبتك « (١٦) .
كما ذكر العيني : أن الحكم كتب إلى العزيز كتابا هجاء فيه وذكر
أنه دعى في نسبه وأن جده ميمون القداح ينتسب إلى الباطنية (١٧) .

ويبدو أنه بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، وزوال خطرهم عن
الأندلس نهج المستنصر نهجا آخر حيث كان محبا للعلم والثقافة -
مثل المأمون العباسي - فانتسعت حركة التأليف والترجمة في عهد
لتشمل ألوان الفكر المختلفة بما فيها الفكر الشيعي حيث لم يعد هناك
ما يخشى منه من تهديد أمن البلاد . وأصبح لدى الأندلسيين من الوعي
الديني ، والتعصب الشديد للمذهب المالكي ما يضمن عدم تحولهم عنه
أو انحرافهم لمذهب آخر . فنراه يطلب من بعض العلماء التصنيف في
أخبار الفاطميين وأنسابهم ، فيؤلف له معاوية بن محمد بن هشام
أماروني المعروف بالشبانسي أو ابن الشبانسي (ت . ٥٩٠ هـ) كتابا في
نسب العلويين سماه (التاج السني في نسب آل علي) ويحتوي على
أخبار الشيعة في المغرب والأندلس (١٨) .

والخلاصة أن الفاطميين لم يتمكنوا من نشر مذهبهم الشيعي في
الأندلس ، كما فعلوا في المغرب ، ولم يسجل هذا المذهب إلا نتائج
محدودة وغير ذات أثر كبير تمثلت في تلك الأقليات الشيعية التي عاشت
في بعض البلاد الأندلسية وخاصة بعد عصر الخلافة الأموية كما
أشار إلى ذلك ابن حزم في القول الذي ذكرناه آنفا .

(١٦) عقد الجمان ج ١٩ ص ٣٩٦ ، تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٣٠ .
(١٧) د . محمد زغروت : مجلة البحوث الإسلامية ص ٣٥٢ .

(١٨) التنشيع في الأندلس : ج ٢ ص ١٢٦ مجلة معهد الدراسات الإسلامية
في مدريد مجلد سنة ١٩٥٤م ، الحلة السيرة : ه ١ ص ٤٠ هاشم
٢ ، د . محمد زغروت : مكتبة الأمويين الإسلامية مجلة البحوث
الإسلامية عدد ١٧ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

مذهب المعتزلة

وجدد دعاة المعتزلة كغيرهم من دعاة المذاهب الأخرى — كالأشعية والخوارج — متفلسفا لهم في بلاد المغرب ، واستطاعوا نشر آرائهم وأفكارهم في أوساط البربر بصفة خاصة . ويرجع نشاط المعتزلة إلى أوائل القرن الثاني الهجري حيث أرسل واصل بن عطاء الذي ينسب إليه تأسيس المذهب مجموعة من الدعاة لنشره في كثير من الأقطار كما يتضح من شعر صفوان الأنصاري أحد شعراء المعتزلة حيث يقول عن واصل :

له خلف شعب الصين في كل ثغرة

إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر

رجال دعاة لا يقل عزيمهم

تهكم جبار . ولا كيد ماطر (١)

وكان من هؤلاء الدعاة الذين أرسلهم إلى بلاد المغرب لنشر المذهب عبد الله بن الحارث (٢) ويبدو أن نشاطه قد لقي رواجاً في أوساط البربر حيث تشير بعض المصادر إلى اعتناق بعض قبائل البربر لمذهب الاعتزال (٣) .

وإذا كان مذهب الشيعة قد وجد مقاومة شديدة من الأمويين في الأندلس ولذلك لم ينتشر ولم يحرز إلا نتاج محدوداً ، فإن مذهب المعتزلة

(١) انظر : الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨ بيروت سنة ١٩٦٨ م .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٩٢ .

(٣) انظر : د. حسن علي حسن : الحياة الدينية في المغرب في القرن

الثالث الهجري ص ١٤١ .

قد وجد مجالا أوسع وعددا أكبر من المؤيدين ربما يفوق بكثير ما أورده لنا المؤرخون الأندلسيون الذين ترجموا لعلماء وطنهم .

ولعل السبب المهم في ذلك يعود إلى أن الأمويين كانوا ينظرون إلى المذهب الشيعي على أنه مذهب يريد به أصحابه أن يصلوا إلى أهداف سياسية ، بخلاف مذهب المعتزلة الذين لا يبنون من ورائه إقامة دولة مثل الشيعة والخوارج ، ولكن ليس معنى ذلك أن الأمويين قد رحبوا بهذا المذهب بل إنهم قاوموه أيضا ولكن لم تكن مقاومتهم له مثل مقاومتهم للذهب الشيعي وبخاصة أولئك الأمراء والخلفاء الذين اهتموا بالعلم والتعلم ، وحاولوا مقاومة نفوذ وتسلط الفقهاء المالكية على مقاليد الحياة الفكرية والدينية في الأندلس .

وما لا شك فيه أن تعصب جمهور الأندلسيين للمذهب المالكي قد جعلهم ينظرون إلى غيره من المذاهب الفقهية والدينية (الكلائية) نظرة تشدد واضطهاد . كما يستدل على ذلك من قول المشدسي السابق . « وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظهروا على شافعي أو حنفي نفوه ، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي رباقتوه » (٤) . وقد واجه فقهاء المالكية هذا المذهب باستنكار شديد ، والذي كان يكشف أمره وأنه يدعو لهذا المذهب كان يتم إبعاده من أولى الأمر بواسطة تأثيرهم وتدخلهم كما حدث عندما وصل إلى قرطبة أبو الطيب ابن أبي بردة سنة ٣٦١ هـ ، في عهد الخليفة المستنصر فاحسن استقباله على أنه من كبار الشافعية ، ولما اكتشف أنه من المعتزلة أبعده على الفور سنة ٣٧٣ هـ (٥) .

(٤) الحسن التتاسيم ص ٢٣٦ ، ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٢ .

(٥) ابن رومنسال : الحضارة العربية ص ١٧٠ .

ورغم ذلك فقد وجد من يعتنق مذهب المعتزلة ، ويدعو إليه ،
ويبدو أن سبب ذلك هو أن المعتزلة ألزموا بالعمل سرا أكثر من الشيعة ،
واستطاع بعضهم أن يثبت آراءهم خفية دون أن يلحظهم أحد ، أو يثيروا
غضب المتشددين من فقهاء المالكية الحريصين على الاتجاه السنن
المحافظ . ودليل ذلك ما يذكره ابن حزم « من أن وادي بنى توبة كان
كله معتزليا » (١٦) .

ومن الصعب تحديد الوقت الذى بدأت فيه آراء المعتزلة تتسلل
تدرجيا بين أكثر عناصر الشعب الأندلسى ثقافة — نظرا لطبيعة هذا
المذهب الذى يعتمد على العقل كثيرا — وإن كنا نعتقد أن ذلك لم يحدث
قبل حكم الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ)
الذى سمح للكثير من الآراء والأكابر بالدخول إلى الأندلس فدخلت كثير من
كتب المعتزلة إلى الأندلس وطلقتها الكثير من المفتين وخاصة القضاة (١٧) .

ومن القائلين بهذا المذهب فى الأندلس : أحمد بن موسى
ابن حدير الذى كان يقول : إن الله مائل وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس .
كما كان منذر بن سعيد الباطنى يتهم بالميل إلى هذا المذهب أيضا . أما ابنه
الحكم فقد كان رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم كما يقول
ابن حزم (٨) ، ومنهم أيضا عبد الأعلى بن وهب القرطوبى ت ٢٦٢ هـ (٩)

(٦) المرجع السابق ص ١٧١ ، دراسات عن ابن حزم ص ٦٠ .

(٧) الفصل فى المل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٨) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٧٢ ، تاريخ علماء الأندلس : ترجمة
١٥٤ ، و ترجمة ١٤٥ .

(٩) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٨٣٧ .

(م ١٢) — المجتمع الأندلسى

وكان من المفتهاء المشهورين الذين آمنوا بحرية الاختيار ونفى خلود الروح (١٠) .

وكذلك خليل بن عبد الملك بن كليب القرطبي الذى اشتهر باسم خليل الغفلة (١١) وكان معاصرا لبقى بن مخد ، وقد رحل إلى المشرق ، ودرس على الكثيرين واخذ يتحدث بعد موته إلى الأندلس عن استقلال الإرادة ، وحرية الإنسان في أفعاله ورفض مبدأ الجبرية القائل بأن الإنسان مجبور في أفعاله (١٢) .

وقد اشتهر خليل بالمجاهرة بأرائه دون تستر ، وكان في أول أمره صديقا لحمد بن وضاح فلما تبين له أمره هجره وكان يؤول كثيرا من الأشياء . ويذكر أنه جاء إلى بقى بن مخد فسأله بقى عن أربعة أشياء . قال : ما تقول في الميزان ؟ قال عدل الله ونفى أن تكون له كفتان . فقال : ما تقول في الصراط ؟ قال : الطريق (يريد الإسلام) فمن استقام عليه نجسا ؟ قال لما تقول في القرآن ؟ فجلجج ولم يقل شيئا وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق . فقال : ما تقول في القدر ؟ قال : أقول إن الخير من عند الله والشر من عند الرجل . فقال بقى : لولا حالك لأشرت بسنك دمك ، قسم فلا أراك في مجلسي بعد هذا الوقت (١٣) .

ويظهر أنه لم يتعرض لأذى في حياته ، وإن تعرض للهجر والمقاطعة من أصدقائه نظرا لأرائه ، ولكنه بعد وفاته جاء جماعة من الفقهاء المالكية ومنهم أبو مروان بن أبى عيسى وأخرجوا كتبه من بيته وأحرقوها إلا ما كان فيها من كتب المسائل (الفقهية) (١٤) .

(١٠) الحضارة العربية ص ١٧١ .

(١١) انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس رقم ٤١٩ ج ١ ص ١٣٩ وبعدها .

(١٢) الحضارة العربية ص ١٧٢ .

(١٣) انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٣٩ .

(١٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وكان لخليل مؤيد قوى فى مذهبه وهو تلميذه أبو بكر يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينه (ت ٢١٥هـ) وكان كما يقول ابن الفرضى « متصرفا فى ضروب من العلم ، متفتنا فى الآداب ورواية الأخبار ، مشاركا فى الفقه والرواية وعبد الشروط ، بصيرا بالاحتجاج وعلم الكلام ، نافذا فى معانى الشعر وعلم العروض والتنجيم والطب » .

وكان قد رحل إلى المشرق ومال إلى كتب الحجة ومذاهب المتكلمين ، ثم عاد إلى الأندلس وأصيب بمرض النقرس ، وظل ملازما لداره يقصده فيها الكثيرون ، وكان يعلن بالاستطاعة لأخذ ذلك عن استاذة خليل ابن عبد الملك (١٥) .

ويبدو أن مذهب الاعتزال قد أخذ يشق طريقه رويدا رويدا بين المتقنين والعامة أيضا حيث يصف ابن حزم سكان وادى بنى توية بأنهم من المعتزلة (١٦) كما ذكر أيضا : أنه كان فى الأندلس قوم يذهبون إلى الاعتزال ويؤلفون فيه (١٧) .

وبعد ذلك وخلال عصر الخلافة الأموية طوى الصب مذهب المعتزلة الكلامى ألججت وظهر مذهب جديد على يد ابن مسرة الابن (ولد سنة ٢٦٩هـ وتولى سنة ٣١٩هـ (١٨) .

(١٥) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٨٨ ترجمة (١٥٨٠) .

(١٦) لبني بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٤ .

(١٧) أنظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٩ .

(١٨) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيع الجبلى القرطبى ، كان أبوه مولى لرجل من البربر من أهل غاس ، وقيل لبني هاشم ، وقيل لبني أمية ، رحل الأب إلى المشرق وسبح بالبصرة عن كثيرين . والمعروف أنها كتبت مقر المعتزلة الأول ، ولذلك كان مقبلا صديقا له ، وكان خليل الغفلة صديقا له ، وكان ورعا غاضلا طويل الصلاة ، رحل فى آخر عمره إلى المشرق

وقد تطلب على يد أبيه الذى اعتنق المذهب ، كما تطلب على يد محمد بن وضاح الخشنى وخرج إلى المشرق فى أواخر أيام الأمير عبد الله حيث اتهم بالزندقة (١٩٧) . ودخل القيروان ولبث فيها مدة ، وهناك رآه الخشنى فى مجلس أستاذه أبى جعفر أحمد بن نصر أحد تلاميذ سحنون ، ثم ذهب بعد ذلك إلى الحجاز فحج وزار قبر الرسول وظل بالمدينة مدة يتتبع آثاره عدل على دار زوجه مارية القبطية وكانت دارا بسيطة ، وفى أعلاها مقبنة ، فمضى بها ، وحدنا مساحتها ، ولم يعاد إلى الأندلس بنى مثلها لسكناه فى جبل قرطبة (٢٠) .

وقد صحبه فى هذه الرحلة اثنان من معتقى مذهبه وهما محمد ابن حزم بن بكر التنوخى ويعرف بابن المرىنى وكان من أهل طليطلة ، وأيوب بن فتح ، واثنان آخران هما أحمد بن عثمان ، ومحمد ابن وهب المعروف بابن الصيقل (٢١) .

=

ونزل بمكة وتولى بها فى ذى الحجة سنة ٢٨٦هـ ويقال : إن خروجه كان بسبب دين عليه ، ولكن يبدو أنه اتهم بالاعتزال وطورد فكان ذلك سببا لخروجه (انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٨) .

(١٩) انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ترجمة رقم ١٢٠٤ ، حدد د. إحسان عباس مولده بأنه سنة ٢٩٩هـ (تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٥٢) وربما كان خطأ مطبعيا ، والصحيح أنه ولد سنة ٢٦٩هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى فى ترجمته له (تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ترجمة ١٢٠٤) . كما حدد خروجه فى سنة ٣١١هـ فى أواخر عهد الأمير عبد الله وربما كان هذا خطأ مطبعيا أيضا لأن عبد الرحمن الناصر قد ولى الحكم سنة ٣٠٠هـ ، ولذلك ذهب البعض إلى أنه خرج فى عهد الناصر سنة ٣٠١هـ (د. محمود حياطة ابن حزم ومنهجه ص ٢٨) .

(٢٠) ابن الأثير : التكملة لكتاب الصلاة ص ٣٦٥ .

(٢١) التكملة ص ١١ ، ص ١٩٩ ، ص ٣٢١ .

ويذكر ابن الفريسي : ان ابن مسرة اشتغل في الشرق بملازمة اهل
الجدل واصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد إلى الأندلس فأنظر لنفسك
والبورع ، واختلف الناس إليه وسمعوا منه ، ثم انقسموا في موقفهم
منه إلى فريقين : فريق رآه إلهما في العلم والزهدي ، وفريق آخر طعن
عليه ووصف مذهبه بالفساد وسوء المعتد والابتداع والخروج من العلوم
المعلومة بالأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم (٢٢) .

ويبدو من الأخبار القليلة التي وردت عنه في كتب التراجم والتاريخ
ان مذهبه كان يجمع بين التصوف والاعتزال فلم يكن معتزليا خالصا
ولا باطنيا خالصا (٢٣) .

فأما مبادئ الاعتزال التي كان يقول بها فهي القول بالاستقامة ،
وانفاذ الوعيد والتأويل في كثير من القرآن (٢٤) . يقول ابن حزم « إن
ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر ، وكان يقول : إن علم الله
وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان ، وإن الله تعالى علمين أحدهما : أحده
جبلته وهو علم الكتاب أو علم الغيب ، والثاني : علم الجزئيات وهو علم
الشهادة فإنه لا يعلم منه شيئا حتى يكون واستشهد على ذلك بقوله
تعالى (عالم الغيب والشهادة) (٢٥) .

(٢٢) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٩ .

(٢٣) ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أنه كان معتزليا كاتبه ، وأسر مذهبه
مثله ، ولذلك اعتزل الناس ، ولم يستطع المحافظة على ذلك طويلا
فاتهم بالإلحاد ، وفر من الأندلس وأظهر التقية وأخذ يثبت تعاليمه
(ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٩ - ٧٠) .

(٢٤) ابن الفريسي : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ، د- إحسان
مياس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٤ .

(٢٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٨ مصر سنة ١٣١٧ هـ .

وقد ذكر ابن الفريسي : انه كان يحرف التأويل في كثير من آيات القرآن ، وكان مع ذلك يدعى التكلم على تصحيح الأعمال ، ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق في نحو من كلام ذي النون الإخيمى المصرى ، وأبى يعقوب النهرجورى ، وأنه كان له لسان يصل به إلى تأليف الكلام وتمويه الألفاظ وإخفاء المعاني وأنه وفد عليه جماعة من أهل المشرق منهم ابن زياد الأعرابى وابن سلام التستري (٢٦) .

وأما المبادئ الباطنية في مذهبه فإنه بناها على آراء نسبت لانيبذوتليس الفيلسوف اليونانى الذى يعد أول الحكماء اليونانيين السبعة ونسبت إليه كراهات كالمصوفية ، والحقيقة أنها بعض آراء فيلون الاسكندري وأفلوطين .

ومن هذه الآراء المنسوبة إليه الجمع بين معاني صفت الله ، وأنه كلها تؤدي إلى شيء واحد ، وأنه إذا وصف بالعلم والوجود والتقدير الخ فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة ، بل هو الواحد بالحقيقة الذى لا يتكرر بوجه . وتزعم الفرقة الباطنية أن له رموزاً قلما يوقف عليها (٢٧) .

وقد يستنتج مما جاء في كتب ابن مسرة أن النبوة من الممكن اكتسابها وأنه قد يصل إليها من بلغ الغاية في الصلاح وطهارة النفس وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول إليه (٢٨) .

وقد أبرز مذهب ابن مسرة نظرية ثانوية كانت موجودة عند أفلوطين

(٢٦) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٠ ترجمة سنة ١٢٠٤ .

(٢٧) القفطى : أخبار الحكماء ج ١ ص ١٣ .

أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٩ - ٧٠ ، د. إحسان عباس :

تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢٨) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ١٩٩ .

وهى القول بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية . واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلى الذى يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . ويذكر المستشرق الإسبائى بالنفيا : أن ابن مسرة قد دافع عن هذا المذهب تحت ستار إسلامى من آراء المعتزلة والباطنية(٢٩) .

وينكر لبنى بروفنسال : أنه أراد بناء منهج فلسفى يقوم على مبدأ وحدة الوجود ، وأن أمثلة فلسفة ابن مسرة تكمن فى الاستفادة من هذه الفكرة ، وأنه بنى على هذا المذهب فكرته من كوثية العالم ، وعقيدته فى الإرادة الحرة ، والعلم الإلهى السابق وعدم تطهر الروح إلا بعد عودتها للعالم الروحانى(٣٠) .

ويرى جولد زهر : أنه تأثر بنظرية الأفلاطونية الحديثة التى كانت منتشرة بالشرق فى ذلك الوقت وكون مدرسة تدعو إلى حرية الفكر(٣١) . وقد انتهى المستشرق الإسبائى آسين بلاسيوس إلى نتائج تختلف بعض الشيء عن نتائج لبنى بروفنسال وجولد زهر فهو يرى وجوب الفصل عند دراسة أفكار ابن مسرة بين المنهج اللاهوتى والمنهج الفلسفى . وحاول أن يبين خصائص كل منهما معتقدا على آراء اثنين من الأندلسيين وهما ابن حزم وصاعد الطليطلى ، واثنين من المشارقة وهما الشهرزورى والشهرستانى(٣٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد استطاع ابن مسرة أن يجتنب إليه تلامذة

(٢٩) تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٨٠ ترجمة د. حسين مؤنس .

(٣٠) الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٨٠ ترجمة د. الطاهر بكى .

(٣١) المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٣٢) الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٨٠ .

كثيرين عاش معهم في عزلة بجبل قرطبة ، وكان كما تصوره الروايات
ذا قدرة ساحرة مؤثرة في النفوس ، ولف بعض الكتب في مذهبه
ومنها كتاب الحروف وكتاب التيمرة ، ويذكر ابن الأبار : أنه لم يكن يخرج
كتابا إلا بعد أن يتعقبه حولا كلها (٣٣) . وكانت بعض كتبه معروفة
في الأندلس ورأى ابن حزم عددا منها (٣٤) .

وقد أثارت آراء ابن مسرة خصومات جنلية في الأندلس والمشرق ،
وتصدى للرد عليها علماء من الأندلسيين والمشارقة فمن تصدى للرد عليه
من المشارقة أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي ، وأحمد بن محمد بن سالم
التستري .

ومن تصدى للرد عليه من الأندلسيين ابن أبيض الذي ألف كتابا
كبيرا في ذلك أكثر فيه من الحديث والشواهد (٣٥) ، وكذلك الزبيدي
العالم اللغوي المشهور الذي ألف كتابا في الرد عليه أيضا (٣٦) ،
والقاضي ابن زرب (محمد بن يقي) الذي كان يعارض آراء ابن مسرة
معارضة شديدة وألف كتابا أخذ عنه عدة مرات بقرطبة (٣٧) . وقد
منحه الخليفة عبد الرحمن الناصر سلطات واسعة ومعه الزبيدي لمحاصرة

(٣٣) التكملة ص ٢٨٤ - ٢٨٥ . يذكر أنه كان حريصا على عدم اطلاع
أحد على كتبه حتى المقربين إليه من تلاميذه وبقال : إنه لما
ألف كتاب التيمرة احتال صاحبه يحيى بن عبد الملك الذي كان
يسكن معه في خلوته بالجبل فاستخرج هذا الكتاب ونسخ منه نسخة
لنفسه ثم أراها له فلما تصفحها قال : لا تفعلك الله به ولم يخرج
هذا الكتاب بعد ذلك لأحد (التكملة ص ٢٨٥) .

(٣٤) احسان عباس : مرجع سابق ص ٥٥ .

(٣٥) ابن شكراة : الصلة ص ٢٤٤ .

(٣٦) الصلة ص ٤٦٥ .

(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٤ .

آراء ابن مسرة ، فلم باعتقال تلاميذه وطلب منهم التبرؤ من انكارهم علنا ، وأحرق كتبهم التي نسخوها من كتبه خارج مسجد قرطبة .

ثم جاء عهد الخليفة الحكم المستنصر فخفت حدة ملاحقتهم بعض الشيء نظرا لاهتمام هذا الخليفة بالعلوم العقلية ومنها الفلسفة إلى جانب العلوم الدينية . ولكن لما إن جاءت خلافة ابنه هشام المؤيد الذي تولى حجابته المنصور بن أبي عامر حتى عادت ملاحقتهم من جديد — حيث كان المنصور شديدا على المشتغلين بالفلسفة — وتم تعيين ابن زرب قاضيا للجماعة ، فاهتم بالكثف عنهم وتبعهم واستتابتهم فتاب على يديه عدد منهم وأحرق ما وجدته من كتبهم وكان ذلك في حدود سنة ٣٧٠ هـ (٢٨) .

وفي سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٩م اكتشفت مؤامرة ضد الخلافة الاموية وكان من بين المتهمين فيها عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي القاضي المشهور في عهد الناصر والمستنصر وقد حكم على عبد الملك بالقتل والصليب حيث اتهم بأنه معتزلي وأنه ضم ثلاثة من إخوته وهم سعيد وعبد الوهاب والحكم إلى مذهب ابن مسرة ، وأخذوا يبتونه في قرطبة ، وساعدتهم في ذلك نظام الخلوة التي اقلعها ابن مسرة بعيدا عن العاصمة في جبل قرطبة . وتكوين مقر أكثر لأتباع المذهب في مدينة بجاية (٣٩) .

وكان هناك أناس انضموا إلى مذهب ابن مسرة دون أن يلتقوا به أو يتلذذوا على يديه ومنهم طريف الروطي ، وأضحى بن سعيد وكانا من

(٢٨) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ ، د. محمود حمادة : ابن حزم ومنهجه ص ٣٩ ، د. إحسان عباس : مرجع سابق ص ٥٨ .

(٣٩) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ — ١٨٢ .

أهل الزهد والخير وقد ألف بعضهم كتابا فى أخبار ابن مسرة وإصحاحه
نقل عنه ابن الأبار فى التكملة (٤٠) .

ومن أشهر أتباع ابن مسرة وتلاميذه أيضا : إلياس بن يوسف
الطليطلى ت ٣٢١ هـ ، ولخوه عون بن يوسف الطليطلى ، وخليـل
ابن عبد الملك (ت ٣٢٣ هـ) الذى تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها وكان
يـجـاـهـر بالقول بالاستطاعة والقدر والتاويلات التى تفسر لنا شيئا من
تاويلات ابن مسرة كقوله إن الصراط هو الطريق أى الإسلام ، والميزان
هو عدل الله (٤١) .

وأيوب بن سليمان بن اسماعيل الطليطلى ت ٣٤٣ هـ وكان قديم
الجوار لابن مسرة طويل الملازمة له (٤٢) ، ومحمد بن مفرج المعافرى
(ت ٣٧١ هـ) الذى لم يقف عند حد الاعتقاد بالمذهب وإنما كان يدمو
إليه (٤٣) ، ومحمد بن فضل الله بن سعيد الذى تفقه بكتب ابن مسرة ،
وأحمد بن وليد (ت ٣٧٦ هـ) وهو من أهل بجانة وكان من الذين استتابهم
القاضى محمد بن يـقـى (٤٤) ، ورشيد بن فتح الدجاج من أهل قرطبة
(ت ٣٧٦ هـ) وكان يتهم بمذهب ابن مسرة ولمّا توفى صل عليه القاضى
محمد بن يـقـى ودفن بمقبرة قریش ويظهر أنه استتابه (٤٥) .
وأبان بن عثمان (ت ٣٧٧ هـ) من أهل شنونة وكان نحويا لغويا ،

(٤٠) التكملة ص ١٢ ، ٣٤٦ .

(٤١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٣٩ .

(٤٢) ابن الأبار : التكملة ص ١٩٩ .

(٤٣) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٨١ - ٨٢ ترجمة رقم (١٣٣١) .

(٤٤) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٥٣ ترجمة (١٨١) .

(٤٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٤٧ - ١٤٨ ترجمة

(٤٣٩) .

لطيف النظر . جيد الاستنباط ، بصيرا بالحجة متصرفا في دقيق العلوم ،
حسن الشعر ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة (٤٦) .

وعبد العزيز بن حكم الأموي (ت ٣٧٨ هـ) وكان مثالا إلى الكلام
والنظر وقد غص منه انتحال له لذهب ابن مسرة كما يقول
ابن الفريسي (٤٧) ومحمد بن أحمد بن حمدون القرطبي المعروف بابن الإمام
(ت ٣٨٠ هـ) وكان مشهورا باعتقاد مذهب ابن مسرة يجاهر به ولا يتستر ،
وكان مولعا بالتشريق في صلاته (٤٨) .

ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي القرطبي (ت ٣٨٢ هـ)
وأصله من جيلان وكان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة ويبدو أنه تابع
منه (٤٩) .

وأقصر من عرف من أصحاب ابن مسرة اسماعيل بن عبد الله الرميئي
وهو متأخر من الجيل الثاني من أتباعه ، وقد أدركه ابن حزم ولكنه لم يلقيه
وقال عنه « وكان من المجتهدين في العبادة المنقطعين في الزهد » (٥٠) .
وقد أحدث في المذهب اتوا لا نفرت سائر من بقى من أتباعه منه وكفروه
لذلك إلا القليل منهم ومنها قوله : إن الأجساد لا تبعث أبدا وإنما تبعث
الأرواح ، وأن الإنسان حين يموت تلقى روحه الحساب ، ويمير إما إلى
الجنة وإما إلى النار ، وأنها لا تبعث إلا على هذا الوجه أبدا .
وقوله : إن العالم لا يفنى أبدا ، وكان لا ينسب الفعل إلى الله

-
- (٤٦) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٢ ترجمة (٥٤) .
(٤٧) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٩ ترجمة (٨٣٦) .
(٤٨) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٣ ترجمة (١٣٦١) .
(٤٩) المرجع السابق ج ٢ ص ٩٦ ترجمة (١٣٦٦) .
(٥٠) الفصل في المال والأموال والنحل ج ٤ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

وينزله عن ذلك ، ويرى ان العرش هو الذى يدبر العالم وينسب قوله هذا إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال فى كتبه .

ولكن ابن حزم يدافع عن ابن مسرة فى ذلك قائلا : « ليس فيها لعمري دليل على هذا القول » ويذكر انه عرض هذه الأقوال على ابن إسماعيل فانكرها ، ولما برىء منه اتباع ابن مسرة بقيت ابنته له تتبعه وكلفت متكلمة ناسكة مجتهدة (٥١) .

ويذكر ابن حزم أيضا انه رأى من أصحاب إسماعيل من يصله بهم منطق الطير ، وبانه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون .

ويبدو ان إسماعيل قد حاول تكوين مذهب جديد يكون إلهاما له ، ونادى بهيادى جديدة وانه اتبعه اتاس على هذا المذهب ويستشف ذلك من قول ابن حزم : « وهناك أمور لا شك فيها وهى انه كان عند غرقه إلهاما واجبة طاعته ، يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عم الأرض ، وانه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صيانة أو تجارة أو ميراث وبين ما يكتسبه من الرفاق ، وأن الذى يجلب للمسلم من كل ذلك قوته كينما أخذه هذا أمر صحيح عندنا عنه يقينا ، وأخبرنا عنه بعض من عرف بأطن أمورهم انه كان يرى الدار دار كثر مباحة بهاؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط ، وصح انه كان يقول بنكاح المتعة » (٥٢) .

وبالرغم من كل المحاولات التى بذلت فى سبيل القضاء على هذا المذهب سواء من الخلفاء أو الفقهاء المالكية إلا أن ذلك لم يؤد إلى منع بعض مبادئه إن لم يكن كلها من البقاء لتأخذ فى الانتشار بعد ذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجرى لتحصد بدقة ووضوح ملامح الحياة الصوفية الجماعية فى الأندلس وتطورها (٥٣) .

(٥١) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٨ .

(٥٢) انظر الفصل ج ٤ ص ٢٠٠ ، إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٨ .

(٥٣) بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨٢ .

مذهب الخوارج

إذا كان مذهب المعتزلة قد لقي معارضة شديدة في الأندلس ، فليكن مذهب الخوارج بلا شك قد لقي معارضة ومقاومة أشد .
ومن المعروف أن مذهب الخوارج وخاصة الإباضية والصفوية (١) .

(١) الإباضية : تسمية أطلقت عليهم من قبل خصومهم وهي نسبة إلى عبد الله بن إمام الذي اشتهر بالدفاع عن المذهب . ومؤسسه الحقيقي هو الإمام جابر بن زيد استاذ عبد الله ، وقد استخدم أسلوب التقية الدينية في البصرة ، وعرف بأنه أحد التابعين المحدثين الثقات ومن فقهاء البصرة وعلمائها . (الحياة الدينية في المغرب في القرن الثالث الهجري ص ١٩٧) ، وهم لا يعتبرون أنفسهم من الخوارج وإنما هم الجماعة المؤمنة ولذلك يتبرأون من فرق الخوارج الأخرى التي حكمت على مرتكبي الكبائر بالشرك واحلت حرامهم وأموالهم . وقد بين الشهرستاني وغيره من كتّاب الفرق آرائهم حيث قالوا : « إن مخالفتنا من أهل القبلة غير مشركين ، ومناكرتهم جائزة وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال وما سواه حرام ، وحرام قتلهم ، وسبهم في السر غيلة إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة ، وقالوا إن دار مخالفتهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى ، وإجازوا شهادة مخالفتهم على أوليائهم وقتلوا في مرتكبي الكبائر إنهم موحدون لا مؤمنون » (المال والنحل ص ١٣٤ ، مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٧١) .

وفي هذه الآراء نلمس مدى المسألة والاعتدال الذي اتسم به الإباضية بالقياس إلى الفرق الأخرى من الخوارج التي كثرت المسلمين واستباحت حرامهم وأموالهم وأعراضهم (انظر د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٠١) .

قد وجد له مجالا وصدى في بلاد المغرب ، ووجد أتباعه فيها مجالا .
خصبا لبث أفكارهم وتشريعاتهم بعيدا عن قبضة الخلافة ، وأقبل عليه
الكثير من البربر لأنه كان يتلائم مع نزعتهم وعقلياتهم وطريقتهم بما فيه
من بساطة ووضوح من ناحية ، وصلابة وتشدد وقوة مراس من ناحية
أخرى .

الصفرية : أصحاب زياد بن الأصفر ، وقيل سموا بذلك نظرا
لاصفر وجوههم نتيجة لكثرة العبادة . ومبادئهم في الجملة
كبادئ الأزارقة في أن يرتكبي الكبائر مشركون ، غير أنهم لا يرون
قتل مخلفيهم مثل الأزارقة ، وهم يقولون بموالة عبد الله بن وهب
الراسبي وخرقوص بن زهير السعدي واتباعها من المحكية الأولى
ويقولون بملامة أبي بلال مرداس الخارجي وعمران بن حطان
السدوسي بعده (الفرق بين الفرق ص ٧٠ - ٧١ ط ٢ بيروت سنة
١٩٧٩م) .

وقد أشار الشهرستاني إلى الخلاف بين الصفرية من ناحية
والأزارقة والنجدات والإباضية من جهة أخرى فقال « إنهم
لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين في الدين والاعتقاد
ولم يسقطوا الرجم ، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم
وتخليدهم في النار ، وتلاوا التوبة جائزة في القول دون العمل .
وأما قضية الإيمان والشرك والبراءة عند الصفرية
فيخلصها قول نسب لزياد « نحن مؤمنون عند أنفسنا »
ولا ندري لعننا خرجنا من الإيمان عند الله . والشرك شركان :
شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران :
كفر بانكار النعمة ، وكفر بانكار الربوبية والبراءة براءة من أهل
الحدود سنة وبراءة من أهل الجحود فريضة » (الملل والنحل
ص ٢٥٠ - ٢٥١ تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م) .

ويشير ابن خلدون إلى شيء من ذلك فيقول : « ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها ولقنوها من العرب الفائلة من مسمعا بالعراق ، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية ... الخ » (٢) .

وقد ساهمت الظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية التي كان يمر بها المغرب في تمهيد السبيل لانتشار مذاهب الخوارج فيه ، والمتصفح لأسماء القبائل التي انضمت للمذاهب الخارجية يجد أنها شملت البربر والبرانس أصل البربر . فقد اعتنقت زنة المذهب الإباضى ، وساندت الدولة الرستمية الإباضية ، مما دفع أحد ولاتها إلى القول « بأن هذا الدين إنما قام بسيوف نفوسة وأموال زنقة » (٣) .

وكذلك قبيلة نفوسة التي تعد من أكبر قبائل البربر ، وقد اعتنقت المذهب الإباضى ، وقبيلة لمابة التي اعتنقت المذهب الإباضى أيضا . وقبيلة هواره التي تنتمى للبرانس التي اعتنق أغلبها المذهب الإباضى (٤) .

والى جانب المذهب الإباضى الذى انتشر فى مناطق كثيرة من بلاد المغرب فقد وجد المذهب الصفرى الذى انتشر أيضا واعتنقه العديد من البربر وخاصة قبائل مكناسة ومطفرة وبرغواطية وكانت أول ثورة خارجية تندلع على أرض المغرب سنة ١٢٢ هـ بقيادة ميسرة المدغرى (المطغرى) ويعرف بالحقير بلّح الماء بسوق القروان (٥) .

وقد استطاع ميسرة أن يقود جموع أتباعه من الخوارج الصفرية وغيرهم ليقضى على ولاية طنجة وإقليم السوس واتبعه هؤلاء ويأيعوه بالخلافة وخطبوه بأبهر المؤمنين وغشت دموته فى سائر القبائل بإفريقية (٦) . ويذكر أن أتباعه كانوا

(٢) المغرب ج ١ ص ١١٠ ط بيروت سنة ١٩٧١ م .

(٣) الحياة الدينية فى المغرب ص ١٥٤ - ١٢٥ .

(٤) المغرب ج ٦ ص ٥٨٦ .

(٥) الكلل ج ٥ ص ١٩١ - ١٩٢ ، المغرب ج ٤ ص ١٨٩ ، تاريخ افئاسح الاندلس ص ١٤ .

(٦) عن هذه الثورة انظر السهد مسلم : تاريخ المسلمين ص ١٥٤ - ١٥٥ .

يحلّقون رموسهم تشبها بالخوارج من الأزارقة وأهل النهروان من اتباع
عبد الله بن وهب الراسبي (٧) .

وقد استطاع المذهب الخارجي بشقيه الإباضي والصفري أن يحقق
نجاحا سياسيا بإقامة دولتين خارجيتين إحداها دولة صفرية في سجلماسة
في المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ والأخرى لباضية في المغرب الأوسط وهي
الدولة الرستمية سنة ١٦٠هـ (٨) .

وقد ذكر ابن خلدون أسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش
طارق الذي دخل الأندلس وهي مطفرة ومديونة ومكناسة وهوارة وكلها
متفرعة من زناتة (٩) . ومن المعروف أن قبيلة مطفرة كانت تعتنق المذهب
الصفري ومنها ميسرة المدغرى الذي قام بأول ثورة خارجية في المغرب
وامتد صدها إلى الأندلس .

ولا شك أنه كان من بين البربر الذين دخلوا الأندلس من كان يعتنق
المذاهب الخارجية وإن كانت المصادر لم تورد لنا كثيرا من ذلك . والدليل
على ذلك أن هناك ثورات بربرية رفعت شعار الخوارج وتشبهت بهم
ومن أخطرها ثورة ابن هدين أو زقطرق سنة ١٢٥هـ التي حلق فيها البربر
رموسهم اقتداء بميسرة « ولكي لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يستغلطوا » .
وقد ذكر ابن حزم : أن النكارمة كانوا هم الفلبين على خوارج
الأندلس (١٠) .

ويذكر دوزي : أن رجح ثورة البربر بقيادة ميسرة في إفريقية كان
شحيذا في إسبانيا حيث رحب بربرها ببيعوثي الخوارج الوافدين من
إفريقية لدموتهم إلى حمل السلاح لاستئصال شأفة العرب فنشبت فتنة
سياسية دينية كفتنة إفريقية (١١) .

(٧) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٣٢ ، د. السيد سالم : تاريخ :
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٥٤ .

(٨) الحياة الدينية في المغرب ص ١٢٧ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٨ .

(٩) القيروان المبتدأ والخبر ج ٦ ص ١٠٦ وبعدها .

(١٠) أخبار مجموعة ص ٣٩ — ٤٠ ، الفصل : ج ٤ ص ٢٠٢ .

(١١) تاريخ مسلمي إسبانيا ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ ترجمة د. حسن.
حبشي دار المعارف بصر سنة ١٩٦٢ م .

التصوف

هناك ناحية جديدة بالبحث في الحالة الدينية وهي ناحية التصوف ، وكما نشأ التصوف في المشرق في القرن الثاني ، كذلك نشأ في الأندلس في نفس القرن بعد الفتح غير أن التصوف في المشرق كان مزيجاً من التعاليم الإسلامية وتعاليم الفرس واليونان والهنود وتصوف الأندلس كان مزيجاً من تعاليم الإسلام والأفلاطونية الجديدة والتعاليم اليونانية والرومانية وما جاء من قبل المشرق من تعاليم فارسية وهندية ، حيث كانت الأندلس تجاور هذه البلاد .

يضاف إلى ذلك أن الأندلس قد كثر فيها العنصر البربري ، وقد اشتهر بهذا العنصر من قديم فإن أهله أصحاج خيال واعتقاد بالمغيبات وسرعة تصديق أصحاب الدعاوى الغبية ولا ننسى ما لقيه العرب عند فتحهم للمغرب من شدة مقاومة هذا العنصر وخاصة على يد امرأة تدعى (الكاهنة) حيث التف حولها الكثيرون ، وقاوموا العرب مقاومة شديدة . وحتى الآن في كثير من بلاد المغرب لا زال للبربر شهرة قوية في فتح الكنفاء وكشف الكنوز وقراءة الكف والتنجيم وإدعاء معرفة المستقبل وهي أشياء من قبيل التصوف بعد أن يتدلى ولذلك كله اتسعت عند الأندلسيين حركة التصوف (١) .

ولول من عرف تصوفه في الأندلس ابن مسرة محمد بن عبد الله المولود سنة ٢٩٦ هـ وقد عرف أبوه بالاعتزال وكان ذلك المذهب قليلاً وغير مرغوب له فاضطر أن يخفى ذلك . وأورث هذا المذهب لابنه فاعتزل الناس قبل الثلاثين في خلوة بجبل قرطبة وتعبد فيه وبيت هذا المذهب لاتباعه . وساعدته عزلته على سعة الخيال وعمق التفكير والصفاء ولكن ما لبث أن انكشف أمره فاتهم بالزندقة فخرج من الأندلس مظهراً أنه يريد الحج

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩ ، إحسان عيسى : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٤ .

(م ١٣ - المجتمع الانجليزى)

حتى كانت خلافة عبد الرحمن الناصر فعاد مرة أخرى وأخذ في نشر مذهبه فازداد أتباعه ، ويبدو أنه اتخذ التقية وسيلة لاختفاء حقيقة مذهبه الذي يجمع بين الاعتزال والتصوف (٢) .

ويبدو أن تطور مذهب الاعتزال وانتشاره في الأندلس قد ارتبط بحياة الزهد والتصوف (٣) .

وهنا يصح لنا أن نتساءل هل بلغ تصوف الشرق ابن مسرة فتصوف ، أو أن ميله الطبيعي ومزاجه وتعاليم التنصلي الإسبان والفلاسفة اليونان هي التي أنتجت ذلك ؟ فيكون التصوف الأندلسي مستقلا عن التصوف في الشرق . ليس بين أيدينا ما يقطع بالإجابة خصوصا وقد كان في الأندلس قبل الإسلام زهاد من الرهبان المسيحيين انقطعوا للعبادة . ولا مانع من أن يكون التصوف الأندلسي قد أخذ من هذا وذاك . وعلى أية حال فقد كان ابن مسرة أول من عرفنا في الأندلس من المتصوفة وكان من تلاميذه أبو بكر محمد الهاشمي الذي أخذ عنه محيي الدين ابن عربي وكان متقشفا زاهدا ولم نعرف له كتباً ، وعصره صوفي آخر يدعى أبو عبد الله القرشي الهاشمي الذي نسبت إليه أقوال صوفية كثيرة منها « من لم يدخل في الأمور بلطف الأنب لم يدرك مطلوبه فيها » ، « من لم يراع حقوق الإخوان يترك حقوقه حرم بركة الصحبة » وقد توفى ببيت المقدس سنة ٥٥٩هـ وكان الناس يثبركون بضريحه هناك (٤) .

ويرى أسين بلاسيوس أن حياة الزهد كانت هي الطريقة الوحيدة المثلى والممكنة في عصر الخلافة لن يريدون الفرار من سيادة رجال

(٢) ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٩ .

(٣) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٥ .

(٤) ظهر الاسلام ج ٣ ص ٧٠ .

الذين الماتية في الأندلس ، وأن يشوا تعليلهم في دائرة ضيقة من الاتباع والمريدون دون أن يتعرضوا لخطر جسم .

واستطاع هؤلاء الزهاد بورعهم أن يكتسبوا مكانة عند السultan والنفهاء والعلامة ، واستعلنوا بالتفسيرات الرمزية للترغيب بين النصوص وبين الأفكار الباطنة المترتبة (٥) .

وكان هؤلاء يشكون على نحو ما رواد الحركة الصوفية فاعتزلوا الحسنة في الدنيا ، واعتكفوا في الجبال والغابات ، واجتهدوا في العبادة والطاعة وحرمان النفس من الشهوات والملاذات ، وآثروا الفقر على الغنى وكانوا يقطعون الليل في تلاوة القرآن ، والنهار في الصيام ولا يأكلون إلا القليل ، ويصبرون على المرض ويفضلون حياة العزوبية ، ويخرجون عما بأيديهم للفقراء ، يفتدون الأسرى ، ويقطعون حياتهم في العزلة والتأمل والفكر والعبادة ، أو يرابطون في الثغور لمحاربة الإنصاري طلبا للشهادة .

وكان المؤرخون وكتاب التراجم يطلقون عليهم العباد والنسك والزهاد والصوفية وكان الكثيرون منهم قد قطعوا كل صلة لهم بالحياة العملية في مجتمعاتهم بينما أبقى البعض منهم على صلاته بالأوساط الشعبية والدنيوية . وتميزوا بلباسهم الغريبة الخشن ، وحياتهم القاسية ، وممارسة الأعمال اليدوية للتعيش منها ، ومن حين لآخر يشاركون في الحملات الحربية الموجهة ضد النصاري .

وقد قدم لنا الضبي في كتابه بقية المتيسر، ونجا جباؤا واحد من هؤلاء الزهاد وبدعى محمد بن طاهر القيسي فيقول عنه « ورع فاضل من أهل بيت جلاله وصلاح برع بخصاله المحبودة فكان في نفسه فقها عالما زاهدا خيرا ناسكا متبلا في طلب العلم ، ورحل في التماسه إلى

قرطبة فروى الحديث بها وتفق به أهل الشورى المفتين وناظرهم
وأخذ بحظ وافر من العلم ، ثم ارتحل إلى المشرق عند إتمام الثلاثين
نسكن الحرمين ثمانية أعوام بتعيش من عمل يده بالنسخ ، ورحل إلى
بيت المقدس ثم إلى العراق ، ودخل مدينة واسط ، واستكثر من لقاء
العُلماء والفتهاء ، وصحب الأخيار والنسك وتآلفهم واقتدى بهم ولبس
الصوف وقنع بالقرص وتورع جدا وأعرض عن شهوات الدنيا فأصبح
مالما علما منقطع القرين ، قد جريت منه دعوات مجلبة ، وحفظت
له كرامات ظاهرة ، يطول القول في تعدادها حبلها عنه رواة
صدق .

ثم قدم تدمير سنة ست أو سبع وثلاثمائة ولم يزل بمدينة مرسية
قاعدة تدمير وطنه ، ونزل خارجا عنها في القرية المنسوبة إلى بني طاهر ،
وابتنى لنفسه بيتا سقفه بحطب الشعر أو الطراف (٦) آوى إليه وكانت
له هناك جنية يعمرها بيده ويقنات بها يزرعه فيها من البقل
والثمر . وكان لا بدع في خلال ذلك الجهاد مع محمد بن أبي عامر وقواده
وشهد معه فتح مدينة سمورة ، وقلورية من توامد مملكة جليقية المسيحية
ثم ترك قريته ورحل إلى الثغر . وواصل الرباط بفروجه المخوفة .

وكان ذا بأس وشجاعة ونقافة تحدث بها أهل الثغر في حكايات
مجبية وظل مرباطا بطليبة حتى استشهد سنة ٢٧٩هـ (٧) .

وثمة نموذج آخر وهو عثمان بن محمّد ت ٢٥٦هـ / ٩٦٦م قال عنه
الضبي « زاهد عالم مشهور بالمزوف عن الدنيا من أهل استجة

(٦) ورد في نفح الطيب بحطب السدر ، وفي هامشه بحطب الشعراء
، والسدر شجر النبق ، والشعر والشعراء شجرة ليس لها ورق ولها
أهداب تحمص عليها الأبل أشد الحرص (بغية اللتس ص ٨٤
هامش ٢) .

(٧) الضبي : بغية اللتس ترجمة رقم (١٥٤) ، (ص ٨٢ — ٨٤) .

كتب على باب داره (يا عثملن لا تطمع) « (٨)

ويقول عنه ابن الفرضي « كان حافظا للتفسير ، عالما بلغة بشار-
الدهور ، وله في ذلك كتاب نقل أكثره عن ظهر قلب وتوفى رحمه الله
سنة ست وخمسين وثلاثمائة » (٩) .

وخلال عصر الخلافة بدأت الأندلس تستقبل أعدادا من هؤلاء
النسك الجوالين الذين أخذوا يزدادوا في القرون التالية وبخاصة في
شرق الأندلس ومكة غرناطة ومن هؤلاء ابراهيم بن علي الديلمي
الخراساني ، وأحمد بن محمد بن صالح الأنطاكي (١٠) .

ونجد في هذه الفترة نزعة زهد واضحة عند بعض الشعراء
مثل ابن أبي زمنين والغزالي وابن عبد زيه وأبي بكر الزبيدي وغيرهم (١١)
ونحس فيها بانكار شاعر الزهد أبي العتاهية ونظرتة إلى الحياة والموت .
ومن التفسير أن نصكم هؤلاء الشعراء الأندلسيين قد استعاروا هذه
الموضوعات من أبي العتاهية أو اقتبسوها من شعره لأن الزهد نزعة لها
أصولها الاجتماعية ولا تجيء كلها لقتيلا ، فموضوع الحياة والموت مشترك
بين الناس جميعا . ولكن أثر أبي العتاهية في تقوية هذه النزعة الزاهدة
في الشعر الأندلسي لا يمكن إنكاره فعندما تنظر إلى الزبيدي في قوله :

تفكر في الجهات فعن قريب	ينادي بالرحيل إلى الحساب
وقدم ما ترجى النفع منه	أواء الضلاد وأعمل بالكتاب
ولا تفتر بالفتيا فعما	قريب سوف تؤذن بالضراب

(٨) الضبي : بغية الملتبس ترجمة ١١٩٤ ص ٤١٣ .

(٩) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ص ٣٠٥ ترجمة ٩٠١ .

(١٠) أنظر ترجمتهما في تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٠ ص ٢٠ ، ورقم ٢٠٤
ص ٦٢ - ٦٣ .

(١١) راجع عن أشعار الزهد عند الغزالي وكذلك ابن عبد زيه ظهر الإسلام
ج ٣ ص ١٠٩ - ١٢٣ .

فإننا نجده قد اتفق في الشكل والموضوع بل والثافية مع قول
أبي المتاهية :

لدوا الموت وابنو للخراب فلكم يصير إلى تباب

وإذا نظرنا إلى قول ابن أبي زعنن :

أيها المرء إن دنياك يحرق طامح بوجه فلا تأمنها
وسبيل النجاة فيها مبين وهو أخذ الكفاف والقوت منها (١٢)

وإلى قول أبي المتاهية :

كل أهل الدنيا نعوم على الغفلة
منها في عمر بحر عتيق
يقارون في السباح فهم ما
بين ناج منهم وبين غريق

فلما نجد الموضوع واحدا بينما وإن اختلفت الصورة فالصورة
معد أبي المتاهية عبر تلك التي يرسمها ابن زعنن وهي أقرب إلى أن تكون
انطسية أصيلة من تلك الصورة التي رسمها لنا الزبيدي في أبيات
السابقة (١٣) .

ويذكر د. إحسان عباس : أن شعر الزهد في الأندلس قد ولد في
أحضان ثورة الرض التي قامت ضد الحكم بن هشام ، حيث كان
المقهاء والأتقاء ينظمون اشعار الزهد ، ويتفنون بها ليلا ، ويعرضون
فيها بالحكم ، ثم أخذ هذا النوع يتقوى ردا على الحياة اللاهية ،
وانقيادا لدواعي التقى إليم الشيخوخة ، كما نرى في زهديات الغزال
ومحطات ابن عبد ربه — وهي قصائد نظمها بعد أن تقدمت به السن .

(١٢) الثعالبى : يتيمة الدهرجا ص ٤١٠ .

(١٣) إحسان عباس : الأديب الأندلسي ص ٩٤ — ٩٥ .

تلتقي بها تصائد اللهب التي قالها أيام شبابه (١٤) ووجد من الانتقاء
من تخصص في هذا النوع من الشعر مثل ابن أبي زمنين صاحب ديوان
(النملح) ، وقاسم بن نصير الذي ألف كتابا في شعر الفقهاء تكله لهذا
الاتجاه الذي كان قد انتهجه في شعره (١٥) .

ولكننا نعتقد أن شعر الزهد كان موجودا قبل ثورة الرضا لأن الزهد
ليس من الأمور التي تحدث فجأة في المجتمع ، فأى مجتمع من المجتمعات
يجتمع فيه الجانبان جانب الترف واللغو وجانب الزهد والتصوف ، وقد
يتغلب أى منهما على الآخر في بعض الفترات لكن لا يخلو الأمر من وجود
أحدهما إلى جانب الآخر ولكن بدرجات مختلفة حسب ظروف كل مجتمع
من المجتمعات ودرجة تدنيه .

ودليل ذلك أننا نجد في كتب التراجم الاندلسية أسماء لزهاد
وجدوا حتى منذ بداية دخول المسلمين إلى الأندلس وقال البعوض
منهم أشعارا في الزهد والحكمة (١٦) .

وقد كان تيار الزهد في الأندلس ثم التصوف بمد ذلك رد فعل
شديد لتيار الإسراف في الترف واللغو الذي جذب الكثيرين فكان من
الطبعي أن يعلو صوت هذا التيار الذي يهون من شأن الدنيا ويهصر
بحقيقتها ويدعو إلى الآخرة في مقابل صوت الفريق الذي ينادي باللذة
والتمسمة .

ويبدو أن عدد الزهاد في الأندلس كان من الكثرة بمكان حتى إن

(١٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢٢ .

(١٥) تاريخ الأديب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص ٧٢ - ٧٤ .
(١٦) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرغى ، بغية المتيسر في تاريخ
رجال أهل الأندلس للضبي ، جنوة المتيسر في فكر ولاية الأندلس
للحبيدي ، د. مصطفى الشكعة : الأديب الأندلسي ص ٥٧
وبعدها .

ابن بشكوال - حسب ما ذكر ابن الأبار - صنف كتابا بعنوان (زهد الأندلس والشمس) ولكنه لم يصل إلينا (١٧٧) .

وإذا كان الأدب هو ظل الحياة في المجتمع وهو المرأة التي تنعكس عليها فإننا نستطيع من خلال الكثير من النصوص أن نقين بوضوح

جانب الزهد في المجتمع الأندلسي

ومن مثا فإن اشعار الزهد فيه تكاد تكون أضعاف مثيلاتها في الشرق ولا غرابة في ذلك حيث كثر المجتمع مليئا بوسائل الترف وأسباب الفسق ومن هنا كان رد الفعل قويا ، وإغلازا كان الخليفة الناصر مثلا محبا للجوارح والبشاعة ، فمثلا في مظاهر الإبهنت والترف نجبا لاقتناء الجوارى والقيان ، فإن ابنه عبد الله كان شديد الزهد مبتعدا عن ترف الحيلة ومتمعا مستنكرا لإسراف أبيه في الترف (١٨) .

يقول ابنه الحبيد والضمير ، وكان فيها شافعا سامرا إخباريا متسكا (١٩) .

(١٧) انظر التكملة لكتاب الصلة ص ٧١٨ .

(١٨) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٥٧ دار العلم للملايين بيروت . وقد ذكر الدكتور الشكعة أن استنكاره لإسراف أبيه وإغراقه نظام في الإقبال على الدنيا دفع به إلى التمسك عليه للنظم منه ولكن مؤامره باعت بالفشل فقبض عليه وقتله أبوه بيديه يوم عيد الأضحى . والحقيقة أن هذه المؤامرة كانت بسبب حسده لأخيه الحكم على العهد إليه بالخلافة ، حيث سول له بعض خاصته وبنيهم الفقيه أحمد بن عبد البر وأحمد بن العطار وياسر الفتي وغيرهم قتل أبيه قبل أن يسلم الحكم لأخيه فكتشف أمر هذه المؤامرة وقتل . محمد الشومون شارك معه في ذي الحجة ٣٢٨ هـ (انظر : ابن الأبار : الحجة للمميراء ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨) ، تحقيق د. حسين مؤنس ص ١٩٨ طبع سنة ١٩٨٥ دار المعارف بمصر ، محمد دياب : تاريخ العرب في إسبانيا ج ١ ص ٣٥٣ - ٣٥٩ مصر سنة ١٨١٦ م) . (١٩) جنوة القيس ص ٢٦٢ - ترجمة (٥٥٥) ، بقية المتيسر ص ٢٤٧ ترجمة (٩٣٢) .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

مظاهر الحياة الاجتماعية

المعمارة

أولاً - المعمارة الدينية

المساجد

اقتصر عصر الفتوحات الإسلامية للبلاد الأجنبية خارج شبه الجزيرة العربية بإنشاء مراكز عمران إسلامية (أمصار) كان الغرض منها أن تكون قواعد حربية ومراكز لجيوش المسلمين الفاتحة من ناحية ، ولصليح البلاد المفتوحة بالصيغة العربية الإسلامية من ناحية أخرى .

وقد كانت المساجد هي الأسس التي اعتمد عليها المسلمون في صلب المدن المفتوحة بالصيغة الإسلامية ، حيث يصبح المسجد الجامع بمرور الزمن هو مركز المدينة وقلبها النابض . فهذه تتوزع الأزقة والطرق المؤدية إلى أبوابها ، وحول ساحته أو قريبا منه تقام الأسواق والمناقص والقياسر والحصانات وغيرها ، وهو مركز الاجتماعات السياسية ، ومقر توزيع الجيوش ، ومكان عقد الطلقات العلنية ، والفصل في الخصومات وغير ذلك ، فضلا عن كونه مكان إقامة شمامسة الإسلام . فليس قريبا أن يسيطر المسجد في المدن الإسلامية في تلك العصور على مناحي الحياة . وهكذا كان بناء المسجد الجامع في الإسلام أساس الحركة العمرانية في المدن الإسلامية .

وعندما فتح المسلمون الأندلس شاطروا الأسبان في تكائسهم في قرطبة وغيرها حيث أقاموا في جزء من كنيسة (شنت بنجنت) الكبرى بقرطبة مسجدا بسيطا متواضع البناء ، وقام حنث الصنمائي وأبو عبد الرحمن الحلي التابعيان بوضع قبلته بأيديهما ، وترك القسم الآخر للأسبان يقيمون فيه شعائرهم .

فيذكر القرى نقلا عن الرازي : (انه لما افتتح المسلمون الانطلس .
امتثلوا ما فعله ابو عبدة علي بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر
من مشاطرة الروم بالشلم . فمن كتفيلهم مثل كنفة دمشق وغيرها مما اخذ
صلحا ، فشاطر المسلمون في الانطلس اعاجم قرطبة كنيستهم العظمى وكناتوا
يسمونها (شنت بنجنت) (سانت فيسنت Sant Vencent) — وكانت
في الاصل معبدا رومانيا — وابتنوا في ذلك الشطر مسجدا جليما ،
وبقى الشطر الثاني بيد النصارى الخ (١)

كما اقام المسلمون جليما بالجزيرة الخضراء على انتفاض كنيسة
قديمة على يد عبد الله بن خالد ، وكذلك جليما في طليطة .
ولذا تحدثنا عن المساجد التي بناها الأمويون في الانطلس فإتينا
شخصا كبيرا (٢) وسوف نقتصر على ذكر أشهرها

١ — مسجد قرطبة : يعتبر المسجد الجامع بقرطبة من أروع أمثلة
العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء في العصر الإسلامي . قال عنه
الخميري : (إنه الجامع المشهور لمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع
الديانة كبر لمناحة ، وإحكام صنعة ، وجبال هيفة ، وإتقان بنية .
فهم بنو الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة جملة ، وبنوا
تتبعهم حتى بلغ النهاية في الإتقان . فصار يحل فيه الطرف ، ويعجز عن

(١) نفخ الطنبلي : ج ١ ص ٢٥٦ ط الأثرية ، وانظر البيان المغرب ج ٢
ص ٢٢٩ . وكان له عدة تسميات كالمسجد الجامع ، والجامع الأعظم
والجامع المبارك والجامع الكرم .
(٢) — يتذكر أن عبد المساجد في عهد عبد الرحمن الداخل بلغ ٤٩١ مسجدا
ولا شك أن معظمها كان مساجد صغيرة . وصليت في عهد المنصور
ابن أبي علي بن ١٦٠٠ مسجدا في رواية ، ٢٨٣٧ في رواية
أخرى ، (انظر : الحميري : الأرض المعطاة ص ١٥٧ ،
المتحدي : تسع الخاب ج ٢ ص ٧٨ — ٧٩ ، وذكر ابن غالب
نقلا عن ابن حبان أن مساجد قرطبة بلغت عند انتهاء اكتمالها
١٨٦٦ مسجدا ، (انظر غرقة الأنفس ص ٢٧) .

حسنه الوصف ، فليس في مساجد المسلمين مثله تنبيها وطولا
ومرضا « (٣) » .

ولذا أصبح يضرب به المثل في العظمة والفخلة والاتساع والزخرفة .
وقد وصفه الكثير من المؤرخين وصفا ضلعا كالمقري وابن بشكوال وابن
الخطيب وابن عذارى وغيرهم . وكان يعد مفخرة من مناخر قرطبة وفي
ذلك يقول القاضي أبو محمد بن عطية :

باربع فاقبت الأوصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهاء ثالثة والعلم أكبر شيء وهو رابعها (٤)

وقد بدأ بنيام هذا المسجد الأمير عبد الرحمن الداخل (صقر
تريش) ، وذلك بعد أن ضيق المسجد القديم — الذي كان جزءا من
الكنيسة — بالمصلين بعد تكثر عدد المسلمين الوافدين على الأندلس
وخاصة العاصمة قرطبة ، وشاهد عبد الرحمن ما يعانيه من زحام
ومتاعب بسبب تقارب السقف من الأرض حتى لا يستطيع الواحد منهم
أن يقوم في امتدال وبخاصة في المؤخرة حيث كان مستوى الأرض
يرتفع كلما اتجهنا شمالا لأن أرضية الجزء القبلي من المسجد كانت
منحدرة نحو النهر ، ولما كان المسجد يشغل الجزء الشمالي من
الكنيسة فقد كان طبيعيه أن يكون تعليق السقائف من الجهة الشمالية
وليس القبليّة حيث المحراب . وعلى هذا فقد سبب انخفاض السقائف
مضايقات شديدة للمصلين . ومن هنا فقد عزم عبد الرحمن الداخل على
حل هذه المشكلة ، وذلك بضم ما بقي من الكنيسة للمسجد ، وإعادة
بنائه من جديد ليتسع لجميع المصلين ، وليناسب مع عظمة وفخلة
الدولة الجديدة .

(٣) الروض المعمار في خبر الأمطار ص ١٥٣ .

(٤) المقري : ضلع الخطيب ج ١ ص ١٤٦ ، ج ٢ ص ١٤٦ .

ولذا فقد سألوم نصارى قرطبة في بيع نصيبهم ، وأوسع لهم ،
معرضوا في البداية ، فظل بهم حتى وافقوا أخيرا بشرط أن يسمح لهم
ببناء كنيسة لهم خارج الأسوار وشرع في هدم الكنيسة والمسجد القديم
وبناء جامع قرطبة بأسلوب جديد في سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ، وتم
بناؤه وأكملت أسواره في سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) . ويذكر أنه أنفق
على بنائه ثمانين ألف دينار ، واشترى نصيب النصارى بمائة ألف (٥)
وفي ذلك يقول الشاعر دحية بن محمد البلوي ملحا له :

وانفق في ذات الإله وجهه

ثمانين ألفا من لجين ومسجد

توزعها في مسجد أسبه التقى

وبنهجه دين النبي بمسجد

تري المذهب التاري فوق سيوكه

يلوح كبرق المارص المتوقد(٦)

وكان المسجد الجديد الذي بناه الداخل على قسمين : قسم
مسقوف وهو بيت الصلاة وقسم مكشوف وهو المصحن ، وكان بيت
الصلاة يشتمل على تسع بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة ممتدة
على اثني عشر عقد (قوس) في كل بلاطة ، وتقوم هذه العقود على
عمد من الرخام جلبت من الكنائس الخربة (٧) .
وكان المصحن مغروسا بالأشجار حيث عهد عبد الرحمن الداخل إلى

(٥) أقرى : نفح الطيب ج١ ص ٢٥٦ ، ٢٦٢ .

(٦) ابن مغازي : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٢ ، نفح الطيب : ج ٢
ص ٢٦٢ .

(٧) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٨٤
والبلاط أو البلاطة : المساحة المربعة ما بين أربعة أعمدة .

مصممة بن سلام الشامي (ت ١٩٢ هـ) صاحب الصلاة بالمسجد -
وكلن على مذهب الإمام الأوزاعي - أن يغرس في صحنه الأشجار ،
واتبع امرأه الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك في بقية مساجد
الأندلس . ولذلك يقال : إن الأثر الباقي من مذهب الأوزاعي في الأندلس بعد
انتشار مذهب الإمام مالك يتمثل في هذا .

وتوفي الأمير عبد الرحمن سنة ١٧٣ هـ قبل أن يتم بناء المسجد فلم
يكن له مؤنفة أو سقائف لصلاة النساء . فجاء ابنه هشام من بعده فأقام
لله مؤنفة من خمس غي . (أريونة) ، وبلغ ارتفاعها إلى موضع الأذان
نحو عشرين مترا ، كما أقام في نهايته ما يلي الجوف (الصحن) سقائف
للنساء ، كما أمر ببناء مiazza على شرقه (٨) .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام زينت بلاطات
المسجد من تسع إلى أحد عشر بلاطا ليتسع المسجد وذلك سنة ٢١٨ هـ
٨٣٣ م ، وجعل هذين البلاطين الجديدين في سقيفتين ، ووصلها
بالسقائف التي كانت معدة لصلاة النساء . وبنى في مؤخرة الصحن
سقيفة أخرى ، كما زاد في سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م في بيت الصلاة فأتسع
المسجد من جهة القبلة ، وبلغ طول هذه الزيادة نحو خمسين ذراعا
وعرضها نحو مائة وخمسين ، وعدد سواربها ثمانين سارية (٩) . ونقل

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٣ ، ابن عذاري : البيان
المغرب ج ٢ ص ٣٤٢ .

ثم يقدر لهذه المؤنفة أن تعيش طويلا حيث تصدعت في آخر
عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فهدمها الخليفة عبد الرحمن
الثامن وأقام أخرى بدلا منها ، وقد تمكن أحد المهندسين الأتريين
الأسبان من الاهتمام إلى أساسها وكان طول قاعدتها يبلغ ستة أمتار
(انظر : تاريخ المسلمين وأثارهم ص ٢٨٧) .

(٩) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .

المحراب القدير إلى جدار القبلة الجديد ، وفتح في بيت الصلاة
بليين في جنتي المسجد الشرقي والغربي ، بالإضافة إلى البابين القديسين ،
فأصبح له أربعة أبواب اثنين في الجهة الشرقية ، وآخران في الجهة
الغربية

وتوفي عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، ف جاء
ابنه محمد فأمّر في سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) « بيلتان طرز الجامع وتزيين
نقوشه » ثم أمر سنة ٢٥٠ هـ بفتح مقصورة خشبية حول المحراب
لها ثلاثة أبواب ، ولما تم ذلك صلى فيه فقال في ذلك موسى
ابن سعيد :

لمرى لقد أبدى الإمام القواضعا

فأصبح للدينيا ولالدين جامعا

بنى مسجدا لم يبن في الأرض مثله

وصلى به شكرا لذى العرش راكما

مطوي لأن كان الأمير محمد .

له إذ دعا فيه إلى الله شاقعا (١٠)

وفي عهد الأمير المنذر بن محمد أقيم في صحن المسجد بيت المال
على غرار بيوت المال في جامع مبرو بالنسباط والجامع الأموي بدمشق ،
كما أمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف (١١) .

وفي عهد أخيه الأمير عبد الله بن محمد أنشأ سلابا (طريقا
مغطى) معقودا على حنايا يصل ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ،
وفتح إلى المقصورة بابا كان يخرج منه إلى الصلاة ، وهو أول من اتخذ
ذلك من أمراء بني أمية ، وتابعه في ذلك من جاء بعده (١٢) .

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .

(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .

(١٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين
ص ٣٨٩ ، عون شك : الفن العربي في إسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر هكّمت المكتبة القسطنطينية التي
أقيمت في سنة ١٠٢٨م أن تصدعت ، وكانت مكانها مكتبة جديدة سنة ١٠٤٠م
(١٠٥٠م) كانت تنسب على اسمها على مبنى قريظة ، وبورها القناديون
على جبل كاتانيا . المتصل على جبال القنفذ الهلالية بالميناء ، عظم بقاياها في
الآن . عثر فيها بقايا من الحضارة الكلاسيكية ، وبجانبها من بقايا الحضارة
بعضها بناء من كانت مكتبة هكّمت ، فابتدع على ولحيته . لكن بطلع
صالة وسبع درجعت ، ولا يلتقي إلى راقون فيها . إلا بأعلاها ، وبلغ ارتفاعها
ثمانين ذراعا حتى كان المؤذن أي ضعيف ارتفاع المكتبة الأولى ، ومن
كان المؤذن إلى أعلاها عشرين ذراعا ، ونسب أعلاها مسنود بارز
يركب لمثلث من الحجارة بين الذهب والنص (١٢) . وبني إلى جانب هذه
المنارة حجرة للمؤذنين (١٣)

كما قام الناصر بتهيئة واجهة بيت للصلاة المظلة على الفصح بعد
تصدعها ، وأصلح الباب المواجه للقصر من الجانب الغربي وكان يعرف
بقلب الوزراء (باب سان اسبطين) وأقيم على الصحن ظلة لوقاية الناس
من حر الشمس تستند على كوابيل على نطرتك التي تقوم عليها واجهة
بيت للصلاة .

وقد سجل أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل في البلاط
الأوسط ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمير عبد الله عبد الرحمن
أمير المؤمنين الناصر لدين الله — أطال الله بقاءه — بينان هذا الوجه ،
ولحكم إيقانه ، تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التي أذن
أن ترفع ، ويذكر فيها اسمه ؛ ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ،

(١٣) الحميري : الروض المعطار من ١٥٥ ، ابن عذاري : البيان
المغرب ج ٢ ص ٣٤٤ .

(١٤) الفن العربي في إسبانيا وصقلية ص ٢٤ .
(م ١٤ - المجتبى للأندلس)

وجزيل النخرا مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر . ثم ذلك بمعون الله في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب بليقيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب . (١٥) .

وقد اتفق الناصر في بناء المئذنة وغير ذلك مما قام به في المسجد سبعة أمداد وكيلين ونصف من الدراهم القسمية كما ذكر ابن عذاري (١٦).

أما أعظم زيادة في مسجد قرطبة فقد تمت في عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد تضاعف عدد سكان قرطبة بحيث لم يعد المسجد يستوعب لجمهورهم الوفيرة . وقد عهد الحكم إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلي بذلك ، فجلبت الأحجار من جبل قرطبة ، وأشرف الحكم بنفسه على تقدير الزيادة وتوصيل بنائها وأحضر لذلك الأسياس والمهندسين فرسموا بأن تكون بمد بلاطات المسجد جنوباً على اتقى عشر عقداً ، واستمر البناء فيها أربع سنوات اتفق فيها مائتان وواحد وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون ديناراً (١٧) .

ويصف ابن سعيد هذه الزيادة بقوله « وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار في حد يقصر الوصف عنه » (١٨) .

وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٤ هـ أتم بناء قبة المحراب وأحاطها بقبتين جانبيتين وقبة أخرى على مدخل زيادته بالجامع تجاه قبة المحراب ، وهناك نقش يدور بمقد المحراب ومنه « أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ونفعه الله مولاه وحاجبه جعفر

(١٥) المرقى : نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٠ . انظر د. السيد سالم : تاريخ ص ٣٩١ ، المرقى : نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

(١٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .

(١٧) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٥٩ ، نفع الطيب ج ٢ ص ٨٤ .

(١٨) نفع الطيب ج ٢ ص ٩٧ .

ابن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تليخ ، واحمد بن نصر ، وخالد بن هاشم اصحاب شرطه ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب (١٩) .

كما شرع في تزيين المسجد بالفسيساء الذي كان ملك الروم تبدى بعث إليه به مع مسامح يتقن ذلك ، ومنه تعلم بعض الصناع المسلمين حتى حفظوا ذلك وتفاوتوا في الصنعة . ويوجد في أعلى عقد المحراب نقش بالخط الكوفي جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ، بعمل هذه الفسيساء في البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلاثمائة » (٢٠) .

كما أمر الحكم بوضع المنبر التحميم إلى جانب المحراب سنة ٣٥٥هـ ، ونصب في قبة الزيادة التي زادها مقصورة من الخشب منقوشة من الظاهر والباطن مشرفة الذروة بلغ طولها خمسة وسبعون ذراعاً ، وعرضها اثنان وعشرون ، وارتفاعها ثمانية أذرع وجعل لها ثلاثة أبواب بديمة الصنعة عجيبية النقش (٢١) .

كما أمر بصنع منبر جديد « ليس على معبور الأرض اتقن منه ، ولا مثله في حسن صنعه وخشبه ساج وأبنوس ويقم وعود قتلى » .

(١٩) السيد مظالم : تاريخ المسلمين ص ٣٩٢ .

(٢٠) نفس المرجع ص ٣٩٣ .

(٢١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ويذكر ابن غالب الأتلسي : أن باب هذه المقصورة كان من الذهب المشروب ، وأن عشايفته كلفتها من الأبنوس ، بينما كان طولها وأوصالها من الفضة (انظر نص اتلسي جديد من فرحة الأتلسي مجلة معهد المخطوطات العربية ج ١ ص ٢٨ تحقيق د. لطفي عبد البديع) .

ويذكر أنه كان يعمل فيه ثمانية صناع ، واستغرق العمل فيه سبع سنوات ، وأن عدد درجته سبع درجات ، وعدد حشواته ست وثلاثون ألف حشوة سميت بمسامير من الذهب والفضة ورصعت بهما ، وكان هذا الثور يسير على عجل ، ويوضع بعد صلاة الجمعة في غرفة خلف المحراب ، وقد اتبعت هذه الطريقة بعد ذلك في المغرب (٢٢) .
وفي سنة ٣٥٦ هـ هدم الحكم الميضاة القديمة التي كانت تقع بفناء المسجد ويجب لها الماء من بئر الساتية ، والتي أنشأها هشام ، وبني بدلا منها أربع ميضات في الجانبين الشرقي والغربي للفناء ، وأجرى إليها الماء من عين بجبل قرطبة في قناة حجرية بمقتضى البناء جعل في جوفها أنابيب من الرصاص لحفظ الماء من الفسح والأوساخ وكانت تصب في أحواض من الرخام ، كما أجرى الماء إلى سقليات من الرخام أيضا اتخذها على أبواب الجامع في الجهات الثلاث الشرقية والغربية والشمالية ، ولغى ذلك يقول الشاعر محمد ابن شخيص :

وقد خرقت ببلون الأرض عن نطف

من أعذب المناء نحو البيت تجريها

طهر الجسم إذا زالت طهارتها

رى القلوب إذا حرت صواربها

قرنت فخرا بأجر قل ما اقترنا

في لمة أنت راميها وحاميها (٢٣)

(٢٢) الحميري : الروض المغطار ص ١٥٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦١
ذكر ابن عذاري أن المذير كان من مود الصندل الأحمر والاصفر
والأبنوس والعاج والعود الهندي وبثقت تكلفته ٣٥٧٠٥ دينار
وكان تملحه في خمسة أعوام (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٠) .
(٢٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٠ .

وأخيراً فقد افتمت الحكم ببناء المسجد بإتالة دار المسبقة فى
قرية لتكون مكاناً لتوزيع صدقاته ، كما أقام فى مساحته وحوله مكاتب
للتعليم أولاد الأيتام والمسلكين وفى ذلك يقول ابن شفيص :

وساحة المسجد الأعلى مكانة مكتبة لتيلى من نواحيها
أو مكتبة سور القرآن من كلم ناصتة يا خير ناصتة وراحيها (٢٤)

وتعتبر زيادة الحكم أعظم زيادة فى جامع قرطبة من حيث البناء
والزخرفة حيث جعلته متناسقا متعادلا الأجزاء ، وأهم ما فيها تلك الأبناب
التي تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابهة فى أشكال هندسية رائعة
وقد كان لهذه القباب أثرها فى أوربا حيث أوحى للفنانيين الفرنسيين
بالتقنيات القوطية الشهيرة (٢٥) .

أما المحراب الجديد فيعتبر أجمل عنصر معمارى فى المسجد أصله
الحكم ، حيث عنى به المهندسون مناية كبيرة ، فاقاموا القباب على
بلاطه الأوسط ورواقه الأعلى ونقشوه من الداخل والخارج بالنقوشات ،
وزينوا عضادتيه بلوحات من الرخام عليها حفر غائر على هيئة زخارف
نباتية وتوريقات تتشبه مع الأسلوب البيزنطى .

وقد فتح الحكم إلى يمين المحراب بابا يؤدي إلى السباط الجديد
الذى يصل بين القصر والمتصورة ، ويفصل هذا الباب بين حيز
الأدوات والعدد والطبوت والحسك الخاص بإيقاد الشموع فى ليلة
السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) وذكر انه كان يحفظ

(٢٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٠ - ٣٤١ ويذكر ابن عذارى أن عدد
المكتب التي أنشأها الحكم بلغ سبعة وعشرين مكتبا منها ثلاثة حول
المسجد والباقي فى الأرياض (أحياء قرطبة) .
(٢٥) د. السيد سالم : المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٤ - ٣٦ ،
تاريخ المسلمين وأثارهم ص ٣٩٤ .

بهذا الخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان الذى كان يقرأ فيه يوم قتل وفيه تقسط من دمه (٢٦) . وكان يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ، وله غشاه ببيع الصنع ، وكربسى يوضع عليه ، ويقوم الإمام بقراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى مكانه .

ويذكر أن هذا المصحف ظل بالمنجد حتى آل الأمر إلى الموحدين . فى الأندلس فأخرج فى ١١ شوال سنة ٥٥٢هـ أيام عبد المؤمن بن على فاعتنى به وتبركوا به ، ثم إلى بنى مرين ، وكان السلطان أبو الحسين المرىنى يحمله معه فى أسفاره دائماً ، حتى هزم فى موقعة طريف فوثب المصحف فى يد البرتغاليين ، وتحاليل المسلمون فى استرداده حتى جاء به إلى فاس أحد تجار ازموار سنة ٧٤٥هـ ، وحفظ بالخزانة السلطانية (٢٧) .

ثم كانت الزيادة الأخيرة فى مسجد قرطبة على يد المنصور ابن أبى عامر التى امتدت طولاً من أول المسجد إلى آخره . وبدأت فى سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م حيث أضاف ثمانية أروقة على المسجد من الجهة الشرقية ، وذلك نظراً لاتصال الجانب الغربى منه بقصر الخلافة فوصلت جملة البلاطات تسع عشرة بلاطة . وذلك لما زاد الناس بقرطبة ، وخاصة من البربر الذين استكثر المنصور منهم واعتمد عليهم ، وقد كان قصد المنصور إقناع البناء ، والمبالغة فى إحكام البنية دون الزخرفة .

(٢٦) الإدريسى : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ٨ - ١٠ . وقد شك المرقى فى نسبة هذا المصحف وما فيه من أوراق لعثمان حيث قال « وما توهبوه من أنه خطه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخط عثمان واحدا منها ، وإنما جمع عليها بعضا من الصحابة » (نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٥) .

(٢٧) نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ .

وبالرغم من ذلك فإن الزخارف لم تكن تقل عن سابقتها روعة وجمالا (٢٨) .
وقد قام المنصور بنزع ملكية الاراضى والدور الواقعة فى شرق
الجامع ، وتمويش اصحابها بما يرضيهم من مال أو عقار وبلغ عدد
سوارى المسجد بعد هذه الزيادة ١٤١٧ سارية ، وعدد ثوابته ٢٨٨٠
سرية . وبلغ عدد الائمة والمقرئين الاكفاء والمؤذنين والخدم والمؤقتين
وغيرهم ١٥٩ شخصا (٢٩)

وظل العمل فى هذه الزيادة مدة عشرين ونصف كان المنصور فيها
يعمل بنفسه فى احسان كثيرة ، واستخدم مجموعة من أسرى الصلابة فى
ذلك . واصبح المسجد مؤلفا من تسع عشرة بلاطة ، ففقد المسجد تفاسقه .
ويتعادل اجزائه واصبح المحراب مقنطرة عن وسط جدار القبة بمقدار
كلين يقع فى محور الجامع ، وهدم ابواب الجامع من الجهة الشرقية همل
الشروع فى الزيادة ، وفتح فى الجدار الشرقى بيت الصلاة التكميم ثغرات
واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم ، كما فتح فى
الجدار الشرقى الجديد ثمانية ابواب فاصبح عدد الابواب المؤدية إلى بيت
الصلاة ١٦ بابا يضاف إليها خمسة ابواب تفتح على جوانب المحن فيكون
عدد ابواب المسجد ٢١ بابا كانت ملبسة بالنحاس الاصفر ونخمة تخريما
رائعا (٣٠) .

-
- (٢٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .
(٢٩) ذكر ابن بشكوال : ان المنصور كان يطلب من صاحب الأرض أو الدار
ان يطلب ما يشاء ثمنا لها ثم يضاعفه له ، حتى ان امرأة كان لها
دار بهما نخلة ، فتأملت لا تقبل عوضه إلا مثل ذلك فامر بان تشتري
لها دار بنخلة حتى ولو ذهب فيها مال بيت المال . (المقرئ
فتح الطيب ج ٢ ص ٨٤) .
(٣٠) تاريخ المسلمين ص ٣٩٧ ، الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ص ٢٦ .

وقد احتفظ المسجد بصورته تلك دون أن يطرأ عليه تغيير فى نظام بنيته حيث لم تضاف إليه أى إضافات فيما عدا أعمال الترميم اللازمة وخاصة فى عصرى المرابطين والواحدىن وظل كذلك حتى سقطت قرطبة فى يد نوريانو الثالث ملك قشتالة سنة ١٢٣٦م فتحول إلى كنيسة عرفت باسم كنيسة سانتا ماريا العظمى أو الكبرى (٣١) .

ويعكس المسجد الجامع بقرطبة التأثيرات المصورية سواء فى زخارفه المعمارية أو فى نظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه ، أو فى وضع المذبة ، أو فى تصميم المنيبات حول الصحن كما تذكرنا عقوده المتعابدة على جدار القبلة بنظائرها فى المسجد الأقصى .

ولا شك أن عبد الرحمن الداخل قد استعان بعرفاء ومهندسين شاميين فى بناء هذا المسجد ، كما فعل حفيده الأمير عبد الرحمن بن هشام عندما استعان بأحد الموالى الشاميين ويدعى (عبد الله بن سنان) فى بناء سور إشبيلية سنة ٢٣٠هـ بمعد غزو النورمان لها (٣٢) .

وهكذا كان لعبد الرحمن الداخل فضل كبير فى تطعيم حضارة الأندلس بالتأثيرات المشرقية وعلى رأسها التقاليد السورية .

وقد كان لهذا المسجد تأثيرات كبيرة فى العمارة الإسلامية والمسيحية على حد سواء . ففى العمارة الإسلامية كان نموذجاً يحتذى فى كثير من المساجد التى أقيمت فى الأندلس بعد ذلك فى نواحي شتى مثل نظام القباب ذات الفلوع ، ونظام البلاطات المتجهة عمودياً على جدار القبلة ويتضح ذلك جلياً فى جامع الباب المردوم بطليطلة ، ومثل اتساع الصحن

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٨ ،

انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٨ .

(٣٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٥ ، د. السيد سالم :

قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ .

ونظام العقود واسلوب الزخارف كما يتضح في جامع إشبيلية الذى انشئ في عصر الموحدين . كما امتد تأثيره الفنى إلى بعض بلاد العالم الإسلامى بالمغرب ومصر والشام فمئذنة جامع ابن طولون تجلو عتينا عقودا من النوع الشائع في جامع قرطبة ، والقنطرة التى تصل بين الجامع تستند على عقدين متجاورين على الطراز القرطبى وبأسفلها كوابيل من نفس النظام . كوابيل مسجد قرطبة (٢٣) .

وأما عن تأثيراته في العمارة المسيحية فتتضح في إسبانيا حيث ترى واضحة في بعض الكنائس مثل كنيسة الأزان بقشتالة ، وقبوة مصلى تورييس ديل ، وكنيسة سانتيا جو دى بينالبا ، وسان مارتينو بجلبقة ، وكنيسة سان ميان ، وسان ثيريان في مملكة ليون وغيرها (٢٤) .

٢ - جامع إشبيلية : وقد انشئ في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين أمر قاضيه عمر بن عبدس بنشيدده سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩ - ٨٣٠م ولذلك نسب إليه . وقد سجل تاريخ إنشائه على بدن عمود من الرخام لا زال محفوظا في متحف الآثار الأهلئ بإشبيلية بخط كوفى ونصه « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدى الأمر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عبدس قاضئ إشبيلية في سنة أربع عشرة ومئتين ، وكتبه عبد البر بن حرون » (٢٥) .

وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة في نظامه العام وفي عدد بلاطاته حيث كان يشتمل على أحد عشر بلاطا متجهة عموديا على جدار القبلة الذى بلغ طوله ما بين ٤٨ - ٥٠ مترا ، وكان البلاط الأوسط أكثر البلاطات اتساعا وارتفاعا . وأقيمت له مئذنة في منتصف الجدار

(٢٣) انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٧٢ . تاريخ المسلمين .

وأثارهم في الأندلس ص ٣٨٩ - ٤٠٠ .

(٢٤) انظر : تاريخ المسلمين وأثارهم ص ٤٠٠ هاش ٢ .

(٢٥) تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .

الشمالي تشبه نظام المآذن القرطبية التي ترجع إلى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت مربعة من الخارج مستديرة من الداخل بلغ طول كل جانب من جوانبها الأربعة ٨٨ م .

وقد غرس في صحنه أشجار النارنج والبرتقال ، وكانت تتوسطه قطعة من الرخام تنبثق منها نافورة على شكل محارة (٣٦) .

ويصفه المستشرق الألماني (فون شك) « بأنه جاء عملاً رائعا وفهيرا ولكنه لم يكمله على ما أراد له » . كما يذكر أن المؤرخين العرب يقولون : أن عبد الرحمن رأى في نومه عند تلمه أنه دخله فوجد النبي عليه الصلاة والسلام مينا ومسجى في قبلته فاقبته مغموما وسأل أهل العبارة عن ذلك فقالوا : هذا موضع يموت فيه دينه . فحدث على أثر ذلك غلبة الجوس (النورمان) على المدينة (إشبيلية) واستيلائهم عليها ، وتحقق معنى الحلم عندما حاولوا هدم المسجد ، وقذفوا سقفه بالسهم الملتهية الحمية ، وجبعوا كثيرا من الوثود ، وكوموه في إحدى البلاطات لإحراقه ، وعندها هربوا بذلك ظهر من جانب المحراب ملك في صورة غلام نادر الجمال فطردهم من المسجد (٣٧) .

ولا ندري من أين جاء هذا المستشرق بهذه القصة ففي المصادر الأندلسية التي رجعنا إليها وهي كثيرة ومتعددة لم نجد أية إشارة ولو من بعيد لمثل ذلك ، ويبدو أن خيال هذا المستشرق هو الذي صور له تلك القصة ، أو خيال المستشرق دوزي الذي نقل عنه ذلك ، ومعلية ظهور الملك والتصديق به شيء موجود لدى هؤلاء فأرادوا أن يطبقوه على تاريخنا الإسلامي ، وللأسف فإن مترجم الكتاب لم يعلق على هذه القصة الزعومة بالرغم من تعليقاته الضافية في مواضع كثيرة .

-
- (٣٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .
(٣٧) الفن العربي في إسبانيا وصقلية ص ٦٢ ترجمة د. الطاهر مكي .

وقد أصيب المسجد ببعض الأضرار نتيجة لفسارة الثورمان على
إشبيلية سنة ٨٢٣هـ/٨٤٤م وقد ظل يحتفظ بنظم بنائه ومساحته دون
أن تدخل عليه زيادات لمدة ثلاثة قرون حتى ضلّق بالمصلين في عصر
الموحدين فأنشئ إلى جنبه جامع القصب الكبير بإشبيلية . وحدث
في سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) أن هدم الجزء الأعلى من مؤذنته على أثر
زلزال شديد مجددها المعتمد بن عباد في شهر واحد فقط ، كما تصدعت
جدرانه الغربية ومالت بعد مدة بتأثير هذا الزلزال ، كما تاكلت جوائز
سقفه وظل كذلك حتى أمر أبو يوسف يعقوب النصور الموحدى سنة ٥٩٢هـ
بترميمه وإقامة ركائز قوية تسند هذه الجدران وأعاد إليه الصلاة بعد
أن كانت متوقفة فيه منذ سنة ٥٧٠هـ (٣٨) .

وبعد سقوط إشبيلية في يد الإسبان سنة ١٢٤٦م حول إلى
كنيسة سميت (سان سلفادور) ثم أصيبت المئذنة بأضرار بالغة سنة ١٢٥٦م .
نتيجة زلزال عنيف هدم الجزء العلوى منها فأنقذ الأسبان مكانها برج
النوابيس ، ثم قاموا بهدم المسجد بأكمله سنة ١٦٧١م باستثناء ما بقى من
المئذنة والبهو لبناء الكنيسة الجديدة مكانه وتم بناؤها سنة ١٧٢١م
ولم يبق من المسجد في الوقت الحالى سوى جزء من الصحن وجزء من
المئذنة يبلغ ارتفاعه ٩ م في داخله درج حلزوني عرضه ٨٠ سم يدور
حوله دعامة اسطوانية ضخمة . وهو يعطينا صورة من المآذن الأندلسية
في هذا العصر (٣٩) .

٢ — مسجد الباب المردوم بطليطلة : وقد قام بتأسيسه قاضى طليطلة
أحمد بن حنيدى من ماله الخاص . فقد تولى الوزارة أيام اسماعيل بن دى

(٣٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ص ١٣٤ .
(٣٩) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين وآثارهم
ص ٤٠١ .

الفون ملك طليطلة . وتملؤ واجهته كتابة تاريخية نصها « بسم الله الرحمن الرحيم . أقام هذا المسجد أحمد بن حديدى من ماله ابتغاء ثواب الله ، فتم بعون الله على يدى موسى بن على البناء وسعادة ، فتم فى المحرم سنة تسعين وثلاثمائة » (٤٠) .

وهو مسجد صغير المساحة ولكنه يعتبر من أهم مساجد الأندلس بعد مسجد قرطبة . نظرا لاحتفاظه بتسعة قباب قائمة على الضلوع المتقاطعة تمثل أول مراحل التطور التى مرت بها قباب جامع قرطبة (٤١) . وقد شيد من الحجر الجرانيتى والأجر وفقا للأسلوب الذى اقتصرت به طليطلة . وهو على شكل مربع لا يتجاوز طول الجانِب منه ثمانية أمتار . ويتألف من ثلاثة أروقة طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، بحيث يحدث ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منها اثنا عشر قوسا على شكل حدود الفرس ، ويملأ كل اسطوان من هذه الأساطين زينة تتقاطع فيها الأقواس على نحو ما رأيناه فى قباب قرطبة ، والقبة الوسطى أكثر ارتفاعا من القباب الأخرى .

أما واجهة المسجد الرئيسية — وهى الجنوبية الغربية — فتطل على الطريق المؤدى إلى الباب المردوم بثلاثة عقود ، ويوجد فى أعلاها نمن التأسيس السابق . ويملأ هذه العقود الثلاثة بالزينة صماء من أقواس متقاطعة . ويتوج هذه البائكة إفريز بداخله شبكات مخرمة على شكل معينات . أما الواجهة التى تطل على صحن المسجد فتتألف من ثلاثة عقود متجاورة تعتبر بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاورة صماء يتناول

(٤٠) عرف هذا المسجد بذلك الاسم نسبة إلى باب مجاور له ما زال قريبا ويعرف بالباب المردوم .
(٤١) ابن بسام : النخبة ج ١ ق ٤ ص ١١٨ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٠٧ .

فيها اللونان الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب توابل الحجر والحجر على نظام أقواس جامع قرطبة (٤٢) .

وقد تحول هذا المسجد إلى كنيسة بعد استيلاء الفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة سنة ١٠٨٥م أطلق عشرين مساننا كروز ، وأضيفت إليه في الجانب الشرقي حنية من الطراز المذبح في القرن الثالث عشر الميلادي ، ووجهه الملك الفونسو الثامن لإحدى الجمعيات الدينية ويعرف اليوم باسم كنيسة (الكريستو دى لاوث *El Cristo de la Luz*) (٤٣) .

٤ - **المسجد الجامع بالمرية** : يعتمد المعالم الأثرى الإسباني (تورييس بلباس) أن هذا المسجد قد شيد في عهد الحكم المستمر بعد زلزاله في جامع قرطبة بسنوات قليلة ، وانتهى بعد دراسة ما تبقى منه من آثار ضئيلة داخل كنيسة سان خوان وبهذه لا تعدو المحراب وجزء من جداره - أنه كان يتألف من خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وأن البلاط الأوسط منها كان أكثر الألباط استغناء ، وأن المحراب كانت تعلوه قبة مبنية بمسمة ما زالت قائمة حتى اليوم

وإن نظام البناء - كما يتجلى من خلال ما بقي من جدار المحراب - كان على نمط النظام القرطبي القائم على تنويع حجرتين عرضاً مع حجر طولاً وهو ما يعرف في مصرنا باسم (أدبة شتاري) . وقد أضيفت إلى هذا المسجد زيادات من جوانبه الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي بواسطة زهير العاصري الصقلي كما يتجلى من قول ابن الخطيب « وهو الذي بنى هذا المسجد وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة » (٤٤) .

وكان صحن هذا المسجد مغروساً بأشجار الزيتون والبرتقال ، ومغروساً بالرخام وتتوسطه نافورة للوضوء ، شأن نظماً بمساجد الاندلس .

(٤٢) المرجع السابق ص ٤٠٣ - ٤٠٤

(٤٣) تاريخ المسلمين ص ٤٠٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٢ .

(٤٤) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٢ .

وقد تحول إلى كنيسة سنة ١٤٩٠م وشيدت بداخله كاتدرائية مسنة. ١٤٩٢م وسميت بكنيسة (سان خوان) ، وقد حولت هذه بدورها إلى مخزن للمدافع والمؤنات العسكرية سنة ١٨٤٥م . ثم سُميت إلى جمامة الآباء فرنسكان تحفظت بقاياها وبقيتها أنجاء . وقد عثر في أرضية هذا المسجد على بضعة كوابيل حجرية تشبه كوابيل جامع قرطبة إلا أنها تختلف عنها في كثرة زخارفها القائمة على التزيينات وتبدو فيها أوراق مبسطة مقسمة على أصابع ، وتتشابه مع زخارف قصر الجعفرية بقرطبة وقصبة ملقة مما يرجع أنها من عصر المعتصم بن صامح (٤٥) .

٥ - مسجد الزهراء : كما أقام الخليفة عبد الرحمن الناصر في مدينة الزهراء التي أقامها إلى جليتها قرطبة مسجداً كان يعمل في بنائه كل يوم ألف رجل منهم ثلاثمائة بناء ، ومائتي نجار ، وخمسمائة من الصناع والأجراء وتم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً سنة ٣٢٩هـ ، وكان يتكون من خمس بلاطات ، كان البلاط الأوسط منها أكثر اتساعاً ، وكان محن المسجد مفروشا بالرخام الخمرى اللون وتتوسطه فوارة يجري فيها الماء ، وكان ارتفاع مؤنثته أربعين ذراعاً وهي شبيهة بالمئذنة الأولى لجامع قرطبة التي أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل . أما منبره فقد جاء في غاية الحسن والبهاء وجعلت حوله مقصورة من الخشب . بديعة الصنع . وقد بلغ طوله من القبلة إلى الجوف (الصحن) سوى المحراب سبعة وثلاثون ذراعاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً (٤٦) .

(٤٥) المرجع السابق ص ١١٤ .

(٤٦) القرى : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٤ ، أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٢ . هذا وقد ذكره حسن إبراهيم : أن الذي بناه هو الحكم ابن الناصر وأنه قد تم بناؤه في سبعين سنة ٣٢٩هـ وهذا خطأ واضح حيث أن الحكم لم يل الخلافة إلا بعد وفاة أبيه . سنة ٣٥٠هـ ، إلا إذا كان المقصود أنه هو الذي أشرف على بنائه . (انظر تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٤٧٢) .

يقول ابن حوقل الرحالة المشيخي في وصفها ، وقد زارها في القرن الرابع الهجري في عهد الخليفة الناصر : « وهي أعظم مدينة بالاندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة اسواق ، ونظافة بحال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حملات وفنادق » (٢) .

ويرجع الفضل في تمصير قرطبة وتجهيلها ، وتنظيم شؤون الحكم والإدارة فيها إلى الأمير عبد الرحمن الداخل ، فقد كان عصر الولاة مضمطربا سادت فيه المنازعات والفتائل نتيجة للعصبية القبلية بين البينية والمضرية . فلما استقر الأمر لعبد الرحمن الداخل بدأ في تأسيس قواعد الحكم والإدارة التي كانت سائدة في الدولة الأموية بالمهرق ، وسرعان ما ارتقت بالاندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الأموية إلى مضاف الدول الكبرى المستقلة . ويشير ابن حيان إلى هذا التطور الكبير فيقول « لما فتح الداخل الاندلس فغزا قاضيا ، فغلا من حلية الملك عطلا ، ارفع أهلها بالطاعة السلطانية ، وحكمهم بالسيرة الملوكية ، واخذهم بالآداب ، فأكسبهم مما قليل المروءة ، وأهلهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، وزرع الأواوين ، وفرض الاعطية ، وعقد الاتية ، وجند الأجناد ، ورأس العباد في الوثق الأتاد ، فقام للملك هيته ، واخذ للسلطان عتته ، فاعترف له بذلك اكابر الملوك ، وحذروا جانبته ، وتحابوا

وترفع من سطح البحر بمائتا راوح بين ١٠٠ - ١٢٢ م ، وهي تعتمد في ثروتها على الزراعة خاصة في سهلها الجنوبي الذي يعرف بالكنتانية وأهم محاصيلها الحبوب والزيتون ، كما تشتهر بالكثير من المصايد ، والأجبار كنبضية والزيتون وججر الشاندة الذي يستعمل في التذهيب . كما تكثر بها مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمري .

(٢) القرى : فتح الطيب ج ٢ ص ٨ .

حوزته ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها « (٣) .
وقد عمل عبد الرحمن الداخل على إحاطة ملكه بهالة من الأبهة
والنفخاة يعيد به ملك آبائه وأجداده ، فزود خضرته بالكثير من المنشآت
والعمائر ، فقامت فيها حركة عمرانية لم تشهد لها نظيراً من قبل ،
واتخذت مظهر المدن والمعاصم للكبرى فيذكر المقرئ : أنه لما تمهد ملكه
شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مفتيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ،
وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد
الكور (٤) ، ثم ابنتى مدينة الرصافة متنزهاً له ، واتخذ بها قصراً حسناً
وجناناً واسعة ، نقل إليها غرائب الفراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام
وغيرها من الأقطار .

ويقول في موضع آخر « لأن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره
وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع ، وأتفق عليه ثلثين ألف
دينار ، وبنى قرطبة الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام « (٥) .
ويبدو الطابع السورى في تلك المنشآت التى أقامها عبد الرحمن
الداخل بقرطبة فقد حاول أن يعيد ما طمس لأبائه وأجداده من معالم
الخلافة ، وما درس من أثارها ، ويطعم الحضارة الأندلسية بالتقاليد
السورية حتى تكون استمراراً للحضارة الأموية في بلاد الشام .

-
- (انظر : د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس
ص ١٥ وبمدها ، تاريخ المسلمين وأثارهم ص ٢٩٣ وبمدها ، دائرة
معارف الشعب (٦١) ص ١٥ - ١٦) .
(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .
(٤) ذكر المقرئ أن عدد مساجد قرطبة في عهد عبد الرحمن الداخل بلغ
٤٩٠ مسجداً (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨) .
(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٨٣ .
(م ١٥ - المجتمع الأندلسي)

قصر الإمارة (الخلافة) فى قرطبة :

عندما فتح المسلمون الأندلس نزل قادتهم ورؤسائهم بالقصور التى كانت موجودة فى المدن المفتوحة ، وعندما فتح مغيب الرومى قرطبة أقام فى قصر أميرها القوطى والمعروف ببلاط قرطبة . ورأى موسى بن نصير أن هذا القصر أنسب لأن يكون مقرا للوالى فأعطى مغيب « دارا شريفة ذات مسقى وزيتون وثمار يقال لها اليسانة كانت للملك الذى أسره وسميت بلاط مغيب » (٦) .

وتتابع ولاة الأندلس فأقاموا فى قصر الإمارة بقرطبة ، ونزل به عبد الرحمن الداخل وصار مقرا له ولأبنائه ، ودخلت عليه الكثير من الإضاعات والزيادات ، وأصبح يعرف بالقصر الخلفى بعد ذلك . ويقول عنه ابن بشكوال « هو قصر أولى تداولته ملوك الأمم وفيه من المباني الأولية ، والآثار العجيبة — لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السابقة — ما يعجز عن الوصف . ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بها فيها — البدائع الحصان ، وآثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتوئوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منها إلى المصانع (الأبنية المختلفة) مسور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والنفضة الخالصة والنحاس الموه ... إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصحاريح القريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » ويشيف ابن بشكوال قائلا : « وفى هذا القصر القصاب العالية سمو ، المنيفة العلو التى لم ير الراعون

مثلا في مشارق الأرض ومغاربها» (٧) .

وقد وصف المقرئ قصر قرطبة بقوله « ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بها فيها — في قصرها البدائع الحسان ، وآثروا الآثار العجيبة ، والرياض الآنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمننوا المأوى الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤذيها منها إلى المصانع صور مخفية لأشكال من الذهب الإبريز ، والنقش الخلصة ، وأثمنوا الموهب إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصحاريح الغريبة ، في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة ، وفي القصر القباب العالية المسبو ، المنبسة العلو ، التي لم ير الراعون مثله في مشارق الأرض ومغاربها» (٨) .

ويبدو أن هذا القصر كانت له مناظر تطل على نهر الوادي الكبير والريش الجنوبي من قرطبة ، وأنه قد أضيف إليه في عهد عبد الرحمن الأوسط « الذي أخذ القصور والمتنزهات ، وجاب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعا اتخذه الناس شريعة» (٩) ولعله بنى القصر المسمى بالكامل أيضا (١٠) .

ويذكر ابن خلدون أن الحكيم الرضوي وعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد قد اهتموا بتشييد المجالس (شبيهة بالاستراحات) في هذا القصر ومنها المجلس المزاهر والبهو والكامل والمنيف . كما أضاف إليه الأمير عبد الله

(٧) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦ ، ج ٢ ص ١٠٢ .

(٨) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٩ .

(٩) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥ .

(١٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ .

ابن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) غفغ فيه بابا عند الركن القبلى سماه باب العدل كان يجلس فيه يوما فى الاسبوع مباشرة احوال المتظلمين بنفسه ، كما اقام سابطا (طريقا مسقوفة) يصل بين القصر وجامع قرطبة المواجه له ، كما ان الناصر اضاف إليه اضافات كثيرة . حيث يذكر ابن عذارى انه « لم يترك فى قصر الإمارة بنية إلا وترك فيها اثرا محدثا إما بتجديد أو بتزييد ، ومن هذه الاضافات بناء عرف بدار الروضة (١٢) بجوار المجلس الزاهر - الذى استقبل فيه سفير بيزنطة سنة ٢٢٨ هـ - كما اسى الدار المعروفة باسم دار الرخام (١٣) .

ويقلب على الظن ان هذه المجالس أو القصور التى اقامها هؤلاء الامراء فى قصر قرطبة القديم كانت ابنية جديدة على اجزاء من انقاض القصر القديم .

وكان هذا القصر يضم قصورا أو مجالس داخلية منها - بالاضافة إلى ما مر ذكره - المجدد ، والحائر ، وقصر الوزراء ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيقي ، والسرور ، والتاج ، والبديع ، والبستان (١٤) .

وكان لهذا القصر عدة ابواب منها باب المدرة وهو الباب انتريسى فى الناحية الغربية ، وباب قورية ، وباب الصناعة فى الناحية

(١١) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١١٢ .

(١٢) لعلها سميت بذلك لانها كانت تطل على تربة الخلفاء داخل القصر والمعروفة بالروضة . (انظر ابن حيسان : المقتبس ص ٣ نشر ملثور انطونيه) .

(١٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٣ نشر د. عبد الرحمن الحجى . ويبدو ان السبب فى تسميتها بذلك هو استخدام الرخام فيها بكثرة .

(١٤) المقتبس ص ٢٣٠ نشر الحجى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١١٢ ، ج ٢ ص ١٥٢ .

الشمالية ، وباب الجبلع فى الفاحية الشرقية وكان يدخل منه الامراء يوم
النجعة . اما الجهة الغربية من القصر فلم يكن فيها ابواب حيث كانت كلها
بساتين وروضات (١٥) . وقد تعرض هذا القصر للتخريب عقب دخول
البربر قرطبة سنة ٤٠٣ هـ فيما يسمى بالفتنة البربرية (١٦) .

وبعد سقوط قرطبة فى يد الاسبان سنة ١٢٣٦م سعى بالقصر الاسفنى

بدلا من القصر الخلالى ، ثم حوله الاسقف (دون سانشورى روكس)
فى القرن الخامس عشر إلى قصر من الطراز القوطى ، وتهدمت واجهته
الجنوبية فى اوائل القرن السابع عشر ، ثم احرق سنة ١٧٤٥م ولم يبق
منه اليوم سوى الجدار المقابل لجدار جامع قرطبة ، وجزء من الجدار
الشمالى ، ويحتفظان بنظام جدران جامع قرطبة بما فى ذلك الركائز التى
تدعمها (١٧) .

قصر الرصافة :

كان عبد الرحمن يحن إلى قصور آبله واجداده وخاصة رصافة
جده هشام (١٨) فقام المنية المعروفة بالرصافة — على بعد ٢ كم —

(١٥) عنها بالتفصيل انظر : السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة

ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(١٦) فتح الطيب : ج ٢ ص ١٣ .

(١٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٣٦ .

(١٨) الرصافة : كان بعض الخلفاء الامويين يتخذون تصورا لهم فى بادية

الشام بعيدا عن العاصمة لغضاض بعض اوقاتهم فيها ومنها تصير

مرة الذى بناه الوليد بن عبد الملك ، وقصر المشتى الذى ينسب

للوليد بن يزيد ، وقصر الحير الغربى الذى يقع على بعد اربعين

ميلا جنوب غربى تدبر ، وقصر الحير الشرقى الواقع على بعد ستين

شمال غربي قرطبة وبنى بها قصرا للفنزه والسكنى فيه في بعض الأوقات ،
وسماها بذلك نسبة إلى رصفاته جده هشام (١٩) .

يقول المقرئ « فخذ بها قصرا حسنا ، ودحا جنانا واسعة ، ونقل
إليها غرائب الخروس واكرام الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه
سفر بن زيد مولاه إلى الشام من النوى المختارة ، والحبرب الغريبة حتى
نمت بين الجذ وحسن التربة في المدة القريبة أشجارا معتمة اثمرت بفرائب
من الفواكه ، انتشرت مما قليل بأرض الأندلس فاعترف بفضلها على
أنواعها » (٢٠) .

وقد كان من أشهر الفواكه التي غرست في منية الرصافة (الرمان
الفسفري) الذي وصفه ابن حيان بأنه « الموصوف بالفضيلة ، المقدم على

=

ميلا إلى الشمال الشرقي منها وأربعين ميلا من الرصافة . وقد أشار
الطبري إلى نزول هشام بها وابنتاه قصرين فيها ولعلها هذان
القصران (قرطبة حاضرة الخلافة) (تاريخ الحضارة الإسلامية
العربية ص ٥٠٢) . وأشار السيوطي إلى أن هشام قد بنى قصر
الرصفاة بفسفريين ليخلو فيه (تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨) .

(١٩) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ١٤ ، كما أتم ابنه عبد الله المعروف
بالبلنسي ريفضا ببلنسية سباه بالرصفاة . ولعل هذه الرصفاة
التي أتمها عبد الله هي الولجة التي ذكرها ابن الأبار في الحلة
السرياء (انظر ج ٢ ص ١٢٧) وقد كان موضع منية الرصفاة
التي أنشأها الدخيل بستانا يعرف باسم (ريناليس) ولا زال هذا
الاسم يطلق على ضاحية سكنية على بعد ٥ كم شمال شرق
قرطبة .

(٢٠) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٤ .

الجناس ، الرمان بمعنوية الطعم ، ورقة الحجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة » .

ويذكر أن أم الأصبغ أخت عبد الرحمن الداخل قد أحضرت نوعاً من الرمان من رصافة هشام بن عبد الملك بالشام ، وأرسلته إلى أخيه عبد الرحمن الداخل مع رسول له ، فعرضه عبد الرحمن على خواصه مزهوا به ، وكان من الحاضرين سفيان بن زياد الكلابي من جند الأردن الذين قدموا الأندلس ، فأعطاه منه « فراقه حسنه وخبره ، فسار به إلى قرية بكورة ربة ، فعالج عجه ، واحتل لغرسه وغذائه وتنقيله ، حتى طلع شجراً أثمر وأبنت ، فنزع إلى عرقه ، وأغرب في حسنه » ، ثم حمل بعض ثماره إلى عبد الرحمن ، فلما سأله عن مصدره ، أخبره بطريقته في استنباطه ، فأعجب الأمير ببراعته وغرس منه في منيته وغيرها ، فآدى ذلك إلى انتشار زراعته ، وفدا يعرف (بالرمان السفري) نسبة إلى سفيان الكلابي (٢١) .

كما أرسلت أم الأصبغ إلى أخيه أشجرات من أشجار النخل فغرسها في منيته بالرصافة . ويذكر أنه عندما نزل بها لأول مرة شاهد نخلة أهلبت أشجراته ، وذكرته بموطنه الذي تركه فآرا منه ، فقال مرتجلاً :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

فأنت بارض القرب عن بلد النخل

فأنت شبيه في القرب والنوى

وطول التلالي عن بني وعن أهلى

(٢١) نفع الطيب ج ١ ص ٢١٧ . ولا يزال هذا النوع من الرمان يعرف بهذا الاسم إلى اليوم في إسبانيا (السفري . Azifri) . (انظر دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص ٢٨٤) .

نشأت بلرض أنت فيها غريبة
فملاك فى الإقصاء والمتهى مثلى.
سقتك فوانى الزن من صوبها الذى
يسح ويستهرى السملكن بالويل (٢٢).

وبقول أيضا فيها :

يا نخل أنت غريبة مثلى
فى الغرب نائية عن الأصل.
فابكى وهل تبكى مكسة
عجاء لم تطبع على خبل ؟
لو أنها تبكى إذا أبكت
ماء الفرات ومببتا النخل
لكنها ذهبت وانتهت

بغضى بنى العباس عن اهلى (٢٣)
وكان عبد الرحمن يؤثر الجلوس فى علية بالرصافة لمشاهدة الجنان.
المحيطة بالقصر الذى انشاه بها ، وكان يحيط به سور له عدة ابواب
منها : باب الجبل الذى صرف بذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن
الأوسط (٢٤) .

(٢٢) ابن الأبار : الحلة السبراء ج ١ ص ٣٧ . وقد ذكر ابن الأبار : انه
قيل إن هذه الأبيات لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان
قالها عند دخوله الأندلس فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن الداخل
والمشهور أنها لعبد الرحمن كما فى الكثير من المصادر .
(٢٣) الحلة السبراء ج ١ ص ٣٧ وقد ذكر أيضا أن هذه الأبيات
لعبد الملك بن عمر بن الحكم ولكن نسبتها إلى عبد الرحمن الداخل
أقوى كما ذكر ابن بشكوال أيضا (الحلة السبراء ج ١ ص ٣٧ -
٣٨) .

(٢٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٤ ، مؤلف مجهول : أخبار
مجموعة فى فتح الأندلس : ص ١١٥ .

ويمكن أن نستنتج مما ذكره صاحب أخبار مجموعة : أن عبد الرحمن
كلن يلجأ إلى هذا القصر أيضا عندما كانت تواجهه مشكلة كبيرة ،
وبخاصة من النصارى والمتمردين ، ففيه أمر بقتل وهب بن ميمون ، وابن سليمان
الأعرابي ، وهذيل بن الصميل ، ومغيرة بن الوليد ابن أخته الذى ثار عليه
وساعده هذيل ، كما حبس فى هذا القصر أيضا جماعة منهم كبحيى
ابن يزيد بن هشام ، ومبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام وأعوانهما ،
ثم أمر بقتلهم فيه ، وسحبت جثثهم إلى نهر قرطبة حيث صلبت أسام
القصر (٢٥) .

وقد ظلت الرصافة من الأماكن الأثيرة لدى أمراء بنى أمية ، فزادوا
فى عمارتها ، ونزلوا بها ، كما نزل بقصرها بعض ملوك الدول الأجنبية
الذين قدموا إلى الأندلس ، مثل الملك أردون الرابع ملك قشتالة المخلوع
الذى استعان بالخليفة الحكم المستنصر لاستعادة عرشه فوعده
بذلك (٢٦) .

وقد وصف هذه الرصافة الكثير من الشعراء ، وظلت بعد سقوط
الخلافة الأموية منتدى للأدباء ، وملتقى للشعراء ، يتبادلون فيها الأشعار .
ومن أمثلة ذلك قول قاسم بن عبيد الريلحي :

أسقينا إزاء قصر الرصافة

واعتبر قليلا فى مال الخلافة

وانظر الأفق كيف بدل أرضا

كى يطيل الغيب فيه اعتراقه (٢٧)

(٢٥) أخبار مجموعة ص ١١٠ - ١١٥ .

(٢٦) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢٧) نفح الطيب ج ٢ ص ١٥ - ١٦ .

وبعد سقوط قرطبة في يد الأسبان سنة ١٢٣٦م ، أصبحت منية الرصافة ، مقرا لجاعة الآباء الفرنسيين . وقد بقي منها إلى اليوم: بعض آثار جدران وقاعات ، وفي جوف هذه الاطلال باب يؤدي إلى نفق في باطن الأرض يقال : إن عبد الرحمن كان يرتاده كلما أراد أن يخلو بنفسه ، ويصل ما بين الرصافة وقرطبة ، وهناك آثار نخلة قديمة هربة قد تآكلت أجزاء كثيرة منها ، وتداخلت فيها قطع الحجارة ، وبقيت أبنية قديمة يقال إنها نخلة عبد الرحمن الداخل ويطلق عليها نخلة عبد الرحمن (٢٨) .

قصر الدمشق :

ولم يكن قصر الرصافة هو الوحيد الذي اتماه عبد الرحمن الداخل بقرطبة ، واتضحت فيه التأثيرات الشلمية (السورية) فهناك قصر آخر ذكره بعض المؤرخين ويعرف بقصر الدمشق ، ويغلب على الظن أنه من بناء عبد الرحمن أيضا ، وقد ذكر المقرئ : أن هذا القصر شيد « بالصفاح والعمد ، وأبدع في بنائه ، وثيقت ساحاته ، وكسبت سقفه بالزخارف المذهبة والمنفضضة ، وأحيطت ريلضه وجداوله في ساحاته وأنفته بأرضيات مرخمة » .

وقد أضاف إليه أمراء بني أمية بعد ذلك وزخرفوه ، واتخذوه « يردان مراحهم ومضمار أمراحهم » ، وقتلوا به تصور أجدادهم في المشرق (٢٩) .

وقد ظلت اطلال هذا القصر قلعة في عصر ملوك الطوائف ، وقد زاره الوزير الشاعر أبو بكر بن عمار وقال فيه :

-
- (٢٨) د. السند سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٢ ، دائرة معارفه الشعب (٦١) ص ١١٩ ، (٦٤) ص ١٢٧ .
(٢٩) المقرئ : فتح الطبيب ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩٢ .

كل قصر بعد النمشق يذم
فيه طرب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي
غير أشهب ومك أهم (٣٠)

قصر ابن الشالية :

ومن القصور التي تعود إلى العصر الأموي أيضا ، وأقيم خارج قرطبة
قصر عبد الله بن أمية المعروف بابن الشالية وعنه يقول الشاعر عبيد بن
ابن محمود وكان كاتباً له :

قصر الأمير أبي مروان منسوخ
من حنة الضلج بالسراد معمر
فيه مجالس قد شيعت بلا عمد
بنياتها مرمر بالتبر مطهور (٣١)

وكان عبيد الله من كبار الثوار في عهد الأمير عبد الله بن محمد ،
واستطاع أن يسيطر على جبل شمتان وما يليه من كورة جيان ، وقد نفوذه
إلى حصن قسطلونة وغيره . وبنى المباني الفخمة ، واتصل بعمر
ابن حفصون زعيم ثورة المولدين في بيشتر ، وصاهره بتزويج ابنته من

(٣٠) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ ، دائرة معارف الشعب (٦٤)
ص ١٢٧ .

(٣١) ابن حيان : المقتبس القسم الثالث ص ١١ تحقيق ملثور انطونية ،
دوزي : تاريخ مسلمي أسبانيا ج ٢ ص ٢٦٣ ، قون شك : الفن
العربي في أسبانيا وصقلية ص ٦١ .

جمعتر ولد ابن حفصون . حتى تم القضاء على ثورته في عهد الخليفة .
الناصر (٣٢) .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بدأت معالم الحضارة الأندلسية .
تتضح شيئا فشيئا ، وشهدت قرطبة العاصمة سيلا من التأثيرات .
المشرقية في الفنون والآداب والعلوم . وكان عبد الرحمن « أول من فخم
السلطنة بالأندلس ، فنظم الشرطة ، وميز ولاية المدينة عن ولاية الأسواق ،
وأحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ
دخل المسلمون الأندلس ، وأول من اتخذ للوزراء بيتا للوزارة في
قصره واتخذ القصور والمتزهات ، وأحدث الطرز ، وكسا الإمارة
ابهة الجلالة » (٣٣) .

وقد تشبه عبد الرحمن بجده الداخل ، بل ونائه في بناء القصور ،
وأُسرف في الإنفاق عليها ومنها : البهو والكايل والمنيف ، ويصف عباس
ابن فرنس ما رآه فيها من فحلة وترف فيقول :

حنيا كائنة الأهلة ركب

على عهد تعتد في جوهر البدر

كان من الياقوت قيس رعويسها

على كل مسنون مقيض من الحسدر

تري الجاسقات الناضرات فروعها

موائس فيها من مداولة الوقسر

(٣٢) انظر : ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ترجمة
رقم ٨٩ .

(٣٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٢ ، ابن سميذ : المغرب
في حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢
ص ١٣٦ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٠ .

كلن صناما صاغ بين غصونها
من الذهب البلدى عراجين من نمر
نشئت لؤلؤا ثم استحالت زهدا
يؤول إلى المقيان قبل جنى البسر
وهذا شاعر آخر يصف أحد هذه القصور فيقول :
ومن عهد تزهى بماء مجلس
يصوب عنه كل طرف مصعد
حكى حبرها اليقوت والدر بيضا
ومن خضرها اشتق اخضرار الزبرجد
يجول السنا فيها مجال للشعاع فى
صفحة سيف الصيقل المتقلد
عشيق ومعشوق وبهو زاهر
إلى كامل فى حصنه ومجدد (٢٤)

أما فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر فقد وصلت قرطبة إلى
الزروة ، حيث كثرت حركة التشييد والبناء بها ، وبلغت مستوى من
التقدم والازدهار لم تبلغه أى حاضرة أخرى فى الأندلس من قبل ، بل
إننا لا نبالغ عندما نقول : إنها صارت أعظم مدن العالم بعد القسطنطينية
عاصمة الدولة البيزنطية ، وقد شهد لها الرحالة الشيعى ابن حوقل —
برغم ما عرف عنه من عداة للأمويين — فقال : « هى أعظم مدينة بالأندلس ،
وليس بجيبع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة اهل ، وسعة محل ،
وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، ومهارة مساجد ، وكثرة حمامات
وفنادق » (٣٥) .

(٣٤) الكتانى : التشبيهات ص ٧٠ — ٧٨ .
(٣٥) القرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٨ ، دائرة معارف الشعب (٦١)
ص ١٨ .

وقد شهدت قرطبة فى عهد الناصر عصرا من الرضاء والازدهار
والعمران لم تشهده حاضرة من قبل . وقد كان الناصر شغوفا بالبناء
والعمران ، وساعده فى ذلك ما وصلت إليه جباية الاندلس وخراجها فى
عهده من كثرة واتساع ، فجعل ثلثها للبناء والعمران (٣٦) . وينسب إليه
انه قال :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
مالك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تماظم قدره
أضحي يدل على عظم الشأن (٣٧)

ولذلك يقول ابن عذارى عنه إنه « أسس الاسوس ، وغرس
الكفروس ، واتخذ المصانع والتصور ، ولم يبق له فى القصر الذى هو
من مصانع اجداده ، ومعالم أوليته بنية إلا وله فيها اثر محدث إما بتجديد
أو بتزييد » (٣٨) .

ويقول ابن خلدون : « ولما استنحل الملك للناصر صرف نظره إلى
تشبيد القصور والمباني » (٣٩) .

« (٣٦) يذكر القرى أن جباية الاندلس بلغت فى عهد الناصر خمسة آلاف
ألف دينار ، وأربعمائة ألف ألف وثمانين ألف دينار ، ومن
الستوق المستخلصة سبعة آلاف دينار وخمسة وستون ألفا
(نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥) .

(٣٧) القرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣٩) العبر ج ٤ ص ١٤٤ ، وانظر القرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

مدينة الزهراء :

يمكن أن نقسم المدن الإسلامية في الاندلس إلى نوعين

الأول : المدن السابقة على الفتح والتي نزل بها المسلمون مثل قرطبة وإشبيلية وغيرها .

والثاني : المدن التي أسسها المسلمون بعد الفتح ، واستقروا بها وصبغوها بالصبغة العربية والإسلامية ، وهذه المدن تنقسم إلى قسمين أيضا :

- ١ - مدن حربية أو عسكرية : مثل مدينة قلعة رباح ، وقلعة أيوب ، وحصن القصر ، وحصن الفرج ، ومدينة القلعة ، ومدينة القليعة وغيرها .
 - ٢ - مدن أميرية بينها الأبراء والخلفاء للراحة والاستجمام وأحيانا للإقامة مثل مدينة الزهراء التي بناها الناصر ، ومدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر (٤٠) .
- ويهمنا في هذا المقام الحديث عن هذا النوع الأخير ونخص بالذكر مدينتي الزهراء والزاهرة .

أما الزهراء فإن تاريخ بنائها يحيط به نوع من القصص التي تسرب إلى الأساطير بحيث ذكر المؤرخون في سبب بنائها : أن الناصر قد مات له جارية نركت مالا كثيرا ، فأمر بأن يقتدى بذلك المال أسرى المسلمين لدى الفرنج فلم يوجد لديهم أسرى . فطلبت منه جارية له تدعى الزهراء - وكان مغرما بها - أن يبني لها بهذا المال مدينة ويسمونها باسمها ، فاستجاب لذلك وأخذ في بناء المدينة سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٦م تحت جبل العروس شمال قرطبة على بعد ثلاثة أميال أو نحو ذلك (٤١) .

(٤٠) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٦ .

(٤١) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

والواقع ان الناصر كان محبا للبناء والعمران بطبعه ، ويرى ان البناء إذا تعظم قدره أضفى يدل على عظيم الشأن كما قال ، وأنه احد اسباب تخليد ذكرى الإنسان . فرأى ان يؤسس ضاحية خلافية يقيم فيها قصرا يليق بجلال الخلافة وبهاتها ، خاصة وأنه قد ثلث بقلب الخلافة منذ وقت قصير سنة ٣١٧هـ (٤٢) .

ويبدو ان قصة الجارية إنما هي محض خيال من ابتكار المؤرخين العرب الذين يريدون ان يجعلوا لكل تسببة أصلا ، ويجعلون القصة حتى تبدو حقيقية ، فيذكرون أنه نقش صورة هذه الجارية في تمثال وضعه على باب المدينة بالغة في حبه لها ، وحقيقة الأمر ان هذا التمثال لا يعدو أن يكون أحد التماثيل الرومانية التي نصبت على أحد أبواب المدينة تقليدا لتمثال على هيئة امرأة وضع على باب القنطرة بقرطبة ، والذي صرف بيساب الصورة أو باب العذراء (٤٣) .

لما اسم المدينة فإنه نسبة إلى القصور الزاهرة التي أسسها الخليفة في هذه المدينة ، أو نسبة إلى الأزهار حيث غرس الأشجار والأزهار

(٤٢) يذكر د. حسن إبراهيم : ان عبد الرحمن الناصر لما وطد دعائم ملكه ، ووحد بلاد الأندلس وأصبح خليفة فكر في بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتنيا في ذلك بابي جعفر المنصور عندما بنى بغداد سنة ١٤٥هـ ، وعبيد الله المهدي حين بنى المهدية سنة ٣٠٣هـ ، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة فيها بعد . وإذا كان الناصر ان يتخذ بالمنصور والمهدي ، فكيف يتأتى له أن يقتدى بالمعز ، والقاهرة لم تنشأ إلا سنة ٣٥٨هـ ؟ وهو قد بدأ بناء الأزهار سنة ٣٢٥هـ ! (انظر تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٤٧٠) .

على جبل قرطبة التى تقع المدينة على سفحه ، وخاصة اشجار التين
واللوز (٤٤) .

وقد بدأ الناصر فى بناء هذه المدينة فى المحرم سنة ٣٢٥ هـ ،
على بعد خمسة اميال تقريبا إلى الشمال الغربى من قرطبة (٤٥) .

وقد كلف الناصر عبد الله بن يونس عريف البنائين ، وحسن القرطبي ،
وعلى بن جعفر الاسكندراني بجلب الاعمدة والرخام إليها . وكان يصلهم
على كل رخامة بثلاثة دنائير ، وعلى كل سارية بثمانية دنائير سجلباسية
كما ذكر ابن عذارى ، او بمشرة دنائير على كل رخامة كبيرة او صغيرة
كما ذكر المقرئ ، فجلبوا لها الرخام الأبيض من المرية ، والرخام المجزع
من رية ، والوردى والأخضر من قرطاجنة وإصفهس . وكان يورد إليها
من الجير والجص ألف ومائة حبل كل ثلاثة أيام .

وقد ذكر ابن عذارى : أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر
المنجور ستة آلاف صخرة ، سوى التلبيط فى الأساس ، وأن عدد
السوارى التى جلبت لها بلغ (٤٣١٣) سارية ، جلب منها (١٠١٣)
سارية من إفريقية ، وأهدى ملك الروم للناصر (١٤٠) سارية ،
والباقى من رخام الأندلس من طركونة وغيرها .

وذكر أنه كان يعمل فيها كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف
رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان المشرف على البناء
الحكم ابن الناصر . واستمر العمل فى بنائها بقية عهد الناصر وعهد

(٤٣) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٦١ .

(٤٤) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٤٥) ذكر المقرئ أن المسافة بين الزهراء وقرطبة أربعة اميال وثلاث
وطولها من الشرق إلى الغرب (٢٧٠٠) ذراع ، وعرضها (١٥٠٠)
ذراع ، وعدد سوارىها (٤٣٠٠) سارية ، وأبوها تزود على
١٥ ألف باب (فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٥) .

(م ١٦ - المجتمع الأندلسى)

ابنه الحكم إلى سنة ٣٦٥هـ أى نحو أربعين سنة (٤٦) .

وقد بنيت الزهراء على سفح جبل العروس (جبل قرطبة) ، وكانت تشتمل على ثلاث مستويات متدرجة فى البناء كما يتبين من وصف الإدريسي لها حيث قال « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى الجزء الأوسط ، و سطح الثلث الأوسط ، يوازى الثلث الأسفل ، وكل ثلث منها سور . فكان الجزء الأعلى منها قصورا يعجز الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط للبساتين والروضات ، والجزء الثالث للديار والجوامع » (٤٧) .

وقد جلب الناصر من القسطنطينية حوزا من الرخام منقوشا بالذهب ، وعليه رسوم بارزة ، ونصبه فى بيت النمام بالقرى الشرقية بالمدينة ، الذى عرف بقصر المؤنس ، وأقام عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس المصنوع بدار الصناعة بقرطبة (٤٨) .

كما أقام الناصر فى المدينة القصر الخلائى والذى عرف بالمجلس الزاهر ، وكان آية فى الترف . فقد ذكر أنه اتخذ فيه قبة قراميدها من الذهب والفضة انفق فيها مالا كثيرا ، وجعل فى وسطه صهريجاً عظيماً مملوفاً بالزئبق ، إذا سلطت عليه أشعة الشمس احدثت نورا وبرقاً يخطف الأبصار ، ويأخذ بجامع القلوب حتى ليخيل للناظر أن المجلس يتحرك ، وقيل إن الناصر كان إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أوياً إلى أحد الصقالية ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس لمعان

(٤٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .

(٤٧) صفة المغرب والاندلس (من كتاب نزهة المشتاق) ص ٢١٢ .

(٤٨) انظر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ، ابن مغازى : البيان المغرب ج ٥ ص ٢٣١ .

كالبريق . وتيل إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس أينما دارت ،
وهذا من قبيل مبالغات المؤرخين .

وكان في كل جانب من جوانب هذا القصر ثمانية أبواب قد انعدقت
على حنايا تقمة على أعمدة من الرخام اللون والبثور الصافي ، وقد رصعت
هذه الحنايا بالذهب واصنلف الجواهر . إلى غير ذلك من الأوصاف
التي تحمل في طياتها كثيرا من المبالغة (٤٩) .

كما بنى إلى جانب المجلس الزاهر قصرا سباه (دار الروضة) .
كما أخذ في بناء المتزهات ، فاتخذ عنية الناعورة خارج القصور ،
وساق إلى هذه القصور والنبات الماء من أعلى الجبل على مسافة
بعيدة . ويصف ابن خلدون ما أنشأه الناصر في مدينة الزاهرة فيقول :
« وأنشأ في مدينة الزاهرة من المبانى والقصور والبساتين ما عفا على
مبانى من سبقه ، واتخذ فيها دورا فسيحة للوحوش متباعدة السياج ،

(٤٩) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ . ويذكر النباهي : أن الناصر
لما بنى هذه القبة جلس فيها وقال لمن حوله « هل رأيتم أو سمعتم
ملكا فعل مثل هذا ، أو قدر عليه ؟ فقتلوا : لا يا أمير المؤمنين »
وبينما هو كذلك في قبلة وسرور دخل عليه القاضي منذر بن سعيد
البلوطي فقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان
يبلغ منك هذا المبلغ ؟ فقال الناصر غاضبا : انظر ما تقول . قال :
ليس الله يقول (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر
بالرحمن لجيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولجيوتهم
أبوابا وسرا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة
الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) .

فوجم الناصر وأطرق مليا ثم بكى ، ودعا للقاضي بخمر ،
وقام عن مجلسه وأمر بنقض سقف هذه القبة ، وجعل ترامدها
من التراب (نفع الطيب ج ٢ ص ١٠٨ — ١١٠) .

ومسارح للطيور مظاللة بالشباك » ، كما بنى الناصر بها أيضا نورا
لصناعة الآلات من السلاح والحلى وغير ذلك (٥٠) .

وكانت هناك بحيرة بالقصر تربي فيها الحيتان ، وكان طعمها في
كل يوم ثمانمائة خبزة ، وقيل اثني عشر ألف خبزة ، وينتفع لها من الحبص .
الأسود ستة أفضة في كل يوم (٥١) .

قصر منية الناعورة :

كما أنشأ الناصر في منية الناعورة (٥٢) فريي قرطبة قصرا له نسب .

(٥٠) العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥١) نفع الطبيب ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ، بينما يذكر ابن عذارى أنه كان
يخبز كل يوم برسم حيتان البحيرات ١٨ ألف خبزة ويعلق على ذلك
تأثلا « وهذا من أعظم الأشياء » (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١) .
(٥٢) سميت بذلك نسبة للناعورة (الساقية) التي كانت ترمع المياه .

إلى بساطينها (قرطبة حاضرة الخلافة الأيوبية ص ٢٠٣) ، وكانت
منية الناعورة في بداية الأمر أرضا تقع على شاطئ نهر قرطبة
بجوار مصلى فحس المصارة المتيق ، اشتراها الأمير عبد الله
أيام والده محمد بن عبد الرحمن الأوسط بها حولها من المزارع من
رجل يسمى خليل البيطار سنة ٥٢٥٣ هـ « فأنشأها منية عجيبة ،
واسعة الخطة ، أرادها للفرجة ، وأوسع خططها ، وأكثر
غراستها ، واتتمد مع ذلك في الاتساق عليها » وكانت بساطينها
تستقى من نهر قرطبة بواسطة الناعورة ولذلك سميت بها ثم انتقلت
ملكيتها لعبد الرحمن الناصر ، فاقام بها هذا القصر ، وأجرى
له الماء العذب من جبل قرطبة في جسر أو قناة على حناليا
معمودة استغرق بناؤها أربعة عشر شهرا ، وكان اثريا لديه
يقصده للراحة والنزهة ، وخاصة بعد موته من الغزوات ،

إليها في سنة ٣٢٩هـ « وأجرى له الماء العذب من جبل قرطبة في قناة
يجرى ماؤها بتدبير عجيب ، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد
مظيم الصورة بدیع الصنعة ، يجوز الماء إلى عجزه فيمجه بفيه في تلك
البركة فيسقى جنان القصر على سمعتها » كما ذكر المقرئ (٥٣) .

وتد ذكر ابن عذارى : أن عدد الدور التي كانت تضمها مدينة الزهراء
١١٣ ألف دار للرمية ، بخلاف دور الوزراء والكبراء . وهذا دليل على
انتقال الكثير من الناس إليها من قرطبة ، وخاصة بعد أن اتخذها المنصور
مقرا جديدا للخلافة . هذا بخلاف عدد دور القصر الخلافي وتبلغ
أربعمائة دار لسكنى الخليفة وحاشيته وأهل بيته ، وذكر أن عدد الفتيان
الصقالية في القصر بلغ ٣٧٥٠ فتى ، وعدد النساء من الجوارى والخدم
بلغ ٦٣٠٠ امرأة ، وأنه كان يصرف لهم من اللحم في كل يوم ١٣ ألف رطل.
سوى الطيور والأسماك (٥٤) .

وتد بلغ المؤرخون والرحالة في وصف قصور الزهراء ، وما احتوته
من مظاهر الثراء والتسرف بأوصاف لا يصدقها العقل في كثير من
الأحيان .

غير أن ما أسفرت عنه الحفائر الأثرية التي أجريت في موضع هذه

وفيه نزل الملك اردون الرابع ملك قشتالة لما قدم يستنجد
بالمستنصر لردّه إلى عرشه سنة ٣٥١هـ (انظر : المقتبس ص ٣٨
تحقيق مئثور انطونيه ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، نفع الطبيب
ج ١ ص ٢٦٤) .

(٥٤). البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ هذا بنينا يذكر المقرئ أن عدد
الفتيان الصقالية بالزهراء ١٣٧٥٠ ، وعدد النساء ٦٣١٤ ،
وقيل عدد الصبيان الصقالية ٣٧٥٠ أو ٣٧٨٧ أو ٦٠٨٧ (انظر
نفع الطبيب ج ١ ص ٢٦٥) .

المدينة قد أثبت صدق كثير من هذه الأوصاف إلى حد كبير (٥٥) .

وما كاد عبد الرحمن الناصر ينتهى من بناء قصور الزهراء ، حتى شرع فى إقامة الأسواق والحمامات والخانات والمتنزهات بها ، وشجع الناس على السكنى فيها . ويذكر أنه أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس أن من يبنى بها داراً ، أو يتخذ بها مسكناً فله أربعمئة درهم معونة « ففسارع الناس إلى العمارة ، وتكثفت الإبنية ، وتزايدت فيها الرمية » (٥٦) .

وقد أدى ذلك إلى هجرة الكثيرين إليها حتى ازدحمت بالسكان ، وامتد العمران خارجها فى الطريق الممتد بينها وبين قرطبة حتى كانت الإبنية تتصل بينها . وتوهمى الناصر قبل أن يتم بناء المدينة بأكملها ، مأخذ ابنه الحكم المستنصر فى إكمالها . ولكن لم يتح لهذه المدينة الفخمة أن تنعم بالحياة والازدهار طويلاً ، حيث شرع المنصور بن أبى عامر فى بناء مدينته الزاهرة سنة ٣٦٨ هـ لمنافسة الزهراء فسلب منها الكثير من مظاهر النشاط والازدهار ونقل منها الدواوين ، وبيت المال ، والخزائن ، وغير ذلك ، حتى جاءت الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس لتعصف بحياتها مع الزاهرة ، ولم يتجاوز عمرها نحو ثلاثة أرباع قرن - وقد نهبها الكثير من الشعراء ومنهم السييسر الألبيرى الذى يقول :

وقفت بالزهراء مستعبداً معتبراً انحب استنانياً

(٥٥) انظر عن هذه الحفائر : الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ملحق رقم ٣ ص ٢٠٨ وبمعدله ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤١٠ - ٤١١ .
(٥٦) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٧ ، المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ١١٢ .

فقلت يا زهرا الا فارجمي قالت وهل يرجع من ملتا ؟

فلم ازل ابكي وابكى بها هيهات يغنى الجمع هيهاتها

وأبو الحزم بن جهور الذى زارها بيما ووقف على اطلالها فقال :

قلت يوما لدار قوم تفاتوا

أين سكاتك المرازز علينا

فاجبت هنا قاموا قليلا

ثم ساروا ولست أعلم أيننا (٥٧)

مدينة الزاهرة :

بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر ، وتولى ابنه هشام مقاليد الخلافة وكان لا يزال غلاما فى العاشرة من عمره ، تولى محمد بن أبى عابر اللقب بالنصور الحجابة له ، واخذ نفوذه فى الازدياد ، وسبطر على مقاليد الأمور فى الأندلس ، وحجر على الخليفة الصغير بعد أن تخلف من منافسيه .

وأراد أن يسجل ما وصل إليه من نفوذ وسلطان فأقام على نهر الوادى الكبير بالقرب من قرطبة قسرا له كان نواة لمدينة التى سميت بالزاهرة ، وغدت منافسة لمدينة الزهراء التى بدأها الناصر وأكملها المستنصر .

ويعبر الفتح ابن خاقان عن ذلك بقوله « عندما استنحل أبره ، واتقد جمره ، وظهر استبداده ، سما إلى ما سميت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ، ويحل به أهله وذويه ، وضم إليه رياسته ، ويتم به تدبيره وسياسته ، وجمع فيه مقبلاؤه وغلباته » .

(٥٧) المترى : نفخ الطيب ج ٢ ص ٦٦ ، تاريخ المسلمين وآثارهم

كما يذكر المقرئ أيضا انه « بنى على طريق المباحاة والمضامة
مدينة العامرية ذات القصور والمتنزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها
من مخترعاته العجيبة » (٥٨) .

وهناك عامل آخر فى بناء المنصور للزهراء واتخاذها مقرا له وهو
خشيتة على نفسه من دخول قصر الخليفة هشام بعد أن حجر عليه ،
واستبد بالامر من دونه ، وكثر حساده ومثاقصوه وخصومه (٥٩) .

وقد شرع المنصور فى بناء هذه المدينة سنة ٣٦٨ هـ ، فحشد
لها العمال والفعلة ، وجلب لها ما تحتاج إليه من مواد البناء ، وبدأ
العمال فى تسوية ارضها تمهيدا للبناء . وقد وسع المنصور فى تخطيطها ،
فابتدت رقعته امتدادا كبيرا ، وسورها بأسوار عالية ، وفتح فيه عدة
ابواب منها باب الفتح ، وباب السباع ، وباب الجنان .

وقد استغرق البناء فيها مدة عشرين سنة حيث انتقل إليها المنصور سنة
وامتعه ، واتخذ فيها الدواوين ، وعمل داخلها الاهراء (مخازن الفلال) ،
واطلق بساحتها الأرحاء ، ثم اقتطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقواده
وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور ، وجليات القصور واتخذوا خلالها
المستغلات الغيدة ، والمناسة المشيدة ، وقامت بها الاسواق وكثرت
فيها الأرفاق ، وتنافس الناس فى النزول بكتفها ، والطول باطرافها للدنو
من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو فى البناء حولها ، حتى اتصلت أرباضها

(٥٨) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب
ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٥٩) د . السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأيوبية ص ٢٥٨ .

بارباض قرطبة « (٦٠) » .

وقد أدى إنشاء الزاهرة إلى فقدان الزهراء لمكانتها ، فقد أخذ الكثيرون من أهلها في الرحيل عنها إلى الزاهرة ، ليكونوا بالقرب من صاحب النفوذ والسلطان .

وكان المنصور قد رتب جلوس الوزراء والكبراء والشيوخ بها ، وندب إليها أرباب الخطط ، وجعلها مقرا للشرطة ، وعين عليها واليا على نحو ما كان معمولا به في الزهراء وقرطبة ، كما أقام بها مسجدا جليعا لتكامل جميع مرافقها ، وتصبح مدينة مستقلة بذاتها ، وهكذا حلت محل الزهراء وأصبحت قاعدة الحكم ومركز السلطنة بالرغم من وجود الخليفة في الزهراء . فقد كانت تصل إليها الضرائب والجياليت ، ويقصدها الولاة والحكام وطلاب الحاجات ، وغدت مركزا للاحتفالات السياسية الكبرى ، ومكانا لاستقبال الملوك والأمراء الأجانب . فقد استقبل فيها المنصور سنة ٢٨٢هـ شاذجة (سانشو) ملك بنبلونة — الذي أهدى للمنصور ابنته فتزوجها وولدت منه عبد الرحمن المعروف بشنجل — استقبالا حافلا .

كما استقبله عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٤هـ ، واستقبل عبد الملك أيضا الخليفة هشام المؤيد فيها سنة ٣٩٨هـ بعد أن أمد له نزهة فيها (٦١) . وقد اتسع عمران الزاهرة شيئا فشيئا وتزايد فيها البناء واقترنت فيها المنيات والمنزهات ، والبساتين والرياض إلى جانب القصور .

(٦٠) ابن مغازي : البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٠ ، المقري : نفع الطيب

ج ٢ ص ١١٣ .

(٦١) المقري : نفع الطيب ج ٢ ص ١٤٦ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام

ص ٧٣ ، ٨٨ .

ومنها قصر تلمصح ، وقصر الزاهى الذى كسيت جدرانه بالمرمر ،
وأجريت فيه المياه والغدران التى تحف بها الأشجار والأزهار ، وقصر
الحاجبية الذى أقامه المظفر إلى جانب المدينة خارج السور (٦٢) .

ومن منياتها : منية السرور ذات الحسن النضير ، وهى جامعة بين
روضة وغدير (٦٣) وذات الواديين ، ومنية أرطائية ومنية
اللولؤة (٦٤) .

ومن أشهر المنيات منية العامرية أو منية المنصور (٦٥) التى كان يقضى
بها الكثير من أوقاته مع خاصته . وقد احتفى بها الكثير من الشعراء ،
بسبب سحر حدائقها ومنهم ابن أبى الحلب الشاعر ، الذى دخل على
المنصور فى منيته « والروض قد فتحت أنواره ، وتوشحت أنجادها
وأغوارها ، وتصرف فيها الدهر متواضعا ، ووقف بها السعد خاضعا » .
ووقف على روضة فيها ثلاث سوسنات تفتحت اثنتان منها دون الثالثة
فقال :

(٦٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٢ .

(٦٣) نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٦٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، ص ٣٠٠ .

(٦٥) أسسها المنصور سنة ٣٦٩ إلى جانب مدينة الزهراء وحاطها
بالرياض والجنان وأجرى فيها قناة تنساب ملتوية كالشعبان بين
بساتينها وعلى ضفتيها تكثر الأشجار ، وتنوع آثارها اليوم على
بعد ثلاثة كم من مدينة الزهراء وتسعة كم غربى قرطبة (انظر
البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٤ ، نفع الطيب ج ٢ ص ١١٥ ، قرطبة
حاضرة الخلافة ص ٢١٣) .

لا يوم كالليوم في أيامنا الأول
بالمعارية ذات الماء والظل.
هواؤها في جميع الدهر معتدل
طيبا وإن حل فصل غير معتدل
ما إن ييالى الذى يحتل ساحتها
بالسعد إلا تحل الشمس في الحبل
كأنما غرست في ساعة وبدا السوسان من حينه فيها على عجل
أبدت ثلاثا من السوسان مائلة
أعناقهم من الإعياء والكسل
فبعض نوارها للبعض منفتح
والبعض مغلق عنهن في شغل
كانها راحة ضمت أناملها
من بعد ما ملكت من جودك الخضل
واختها بسطت منها أناملها
ترجو نذاك كما عوفتها فصل(٦٦)

ويذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بها
وعنده صاعدا البغدادي فقال منشدا :

فالمعارية تزهى على جميع الباني
وانت فيها كسيف قد حل في غمدان(٦٧)
فقام صاعد وكان منافسا له فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الاجل ،
ويمكن سلطانه . هذا الشعر الذى قاله قد أعده وروى عنه ، أسعد

(٦٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٦٧) غمدان : قصر سيف بن ذى يزن باليمن .

ان أقول أحسن منه أرتجالا فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دع- ولك
مقال :

يا أيها الحالب المعتلى على كيوان
ومن به قد تنهى فخل كل يمان
المأبرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

ثم قال في وصفها :

انظر إلى النهر ينساب كالنعمان
والقضب تلف سكرًا على نرا الأغصان
والطير يخطب شكرًا بهيس القضبان
والروض يفت زهواً من مبسم الاقحوان
والفرجس الغض يرنو بوجهة النعمان
وراحة الريح تمتا ر نفحة الريحان
فدم الدهر فيها في غبطة وامان(٦٨)

وفي منيات الزاهرة وقصورها يقول صاعد البغدادي اللقوى :

أما ترى العين تجرى فوق مرمرها
زهوا فتجري على أحفائها الطربا
أجريتها فطمأ الزاهي بجريتها
كما طهوت فسدت العرب والمجبا
تخال فيه جنود الماء رائقة
مستلزمات تريك الدرع والتعبا

تحضها من فنون الأيك زاهرة
قد لورقت فضة إذ لورقت ذهباً
بنعمة الملك ما ينفك ناظرها
يتلو على السبع منها آية عجباً
لا يحسن الدهر أن ينشئ لها مثلاً
ولو تمت فيها نفسه طلياً (٦٩)

وكان يكثر فيها النرجس والياسمين والبنفسج وقد وصف الوزير
الجزيري مجلداً للمنصور فيها فقال :

وتوسطتها لجة في قصرها
بنيت السلاحف ما تزال تتقنق
تنساب من فكي هزير إن يكن
ثبت الجنان فإن فاه أخرق
صافوه من ندى وخلق صفقى
هادية محض الدر فهو مخلق
للياسمين تطلع في عرشه
مثل الملك عراه زهو مطرق
ونفاد من نرجس وبنفسج
وجنى خيبرى وورد يمسق
ترنو بسحر عيونها وتكاد من
طرب إليك بلا لسان تطسق
وعلى يمينك سوسنات اطلعت
زهر الربيع فهن حسنا تشرق

كما انشد الشاعر الجزيري على لسان النرجس فيها مخاطبا المنصور :

حيثك يا قمر العلاء والجلوس

أزكى تحيتها هيون النرجس

زهر تريك بحسنها وبلونها

زهر النجوم الجارية الكس (٧٠)

وإذا كانت حياة الزهراء قد امتدت نحو سبعين عاما ، فإن حياة الزاهرة لم تبلغ نصف هذه المدة ، حيث ثار العاصفة على عبد الرحمن شنجل سنة ٣٩٩ هـ وهاجموها ونهبوها وهدبوا مبانيها ومحووا رسومها ، فخرّبت وتلاشى أمرها وصارت كاهن الدابر ، وكانت كارتتها أعظم من الزهراء ، حيث أن موجة التخريب ضدها كانت أشد وأعنى نكبة في العاصميين .

وذكر أن بعض ما نهب منها بيع في العراق وغيرها من بلاد الشرق . ويروى ابن عذاري : أن العاصفة نهبوا ما كان فيها من الأموال والسلاح والخزائن والأمتعة والآلات السلطانية ، حتى اقتلعت الأبواب الضخمة وغيرها مما حوته القصور ، وصارت تباع بكل جهة .

ثم أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي بهدمها ، وقطع أبوابها ، وتحطيم أسوارها ، وتشيعت قصورها ، واضرمت النيران فيها حتى طهرت معالمها ، وأعد العاصمة إلى قرطبة (٧١) .

(٧٠) المقري : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٠ ، ٧١ .

(٧١) ابن عذاري : الببان المغرب ج ٣ ص ٦٤ ، وقد وجد في بهو الجص بقصر إشبيلية - الذي بنى في عهد بني مباد (ملوك إشبيلية ، وأضيف إليه في عصر الموحدين - أعده تيجانها متخذة من أطلال الزاهرة والزهراء . (دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٨) .

ويبدو أن المنصور قد كان يتوقع خراب الزاهرة وفسياح معالمها
فقد ذكر ابن حزم : انه كان مع المنصور وجباعة فى نزهة بالزورق فى
نهر الوادى الكبير الذى تقع عليه المدينة فقال : « وبها لك يا زاهرة الحسن
لقد حسن مراك ، وعبق ثراك ، وراق منظررك ، وناق مخبرك ، وطلب
تروك ، وعذب شريك . فليت شعري من المريد الذى يعدك ، ويوهن
ركبك ويهدبك ، ويخلى ميدانك ، وبضوى قصبك وأفنائك . فيؤسا له
إذ لا يودنه حسنك . فكيف عن تغييرك ؟ . الا تسببه بهجة منظررك فكيف
من محو اثررك ؟ » قال ابن حزم : فاستعظنا ذلك وانكرنا ما صدر منه
. وقلنا ان الراح قد غلبت عليه ، وخيلت ذلك إليه فقال : « والله كأنكم
لا تعلمون ذلك ، نعم سيظهر علينا عدونا فى اقرب مدة فبههم هذا كله
. ويعدبه ، وكأني بحجارتها فى هذا النهر » (٧٢) . وقد حدث ما كان
يخش به المنصور بعد أن فرط فى حق الكثيرين ووصل إلى النفوذ
والسلطان بكل حيطة ووسيلة ممكنة .

وذكر ابن سعيد : انه كان فى بلنسية كثير من المنزهات والمسارح ،
ومن ابدعها واشهرها الرصافة ومنية ابن أبى عامر ، تحيط بها الجنان
والأنهار من كل جانب (٧٣) .

كما كانت هناك مبنيات أخرى اتبعت بها بالطبع مجالس أو قصور
للإقامة أو النزول فيها ومن أشهرها :

منية نصر الفتى فى الربض : وكان مولى للأبى عبد الرحمن الأوسط ،
ومن اكبر الفتبان الخصيان فى بلاطه ، وقد وكل إليه عبد الرحمن القيام
ببناء الزبادة التى زادها فى جامع قرطبة (٧٤) . وقد اتخذ نصر هذه المنية

(٧٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٤) المقتبس ص ٢٤٤ تحقيق الحجى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٦ .

فى سدوة الرىض التى تشرف على نهـر الوادى الكـبير بجـوار مقبرة
الريـض (٧٥) . وكان موضعها بيتا للرجا فى أيام أبى الخطار الكلبى فى
عصر الولاة . ويبدو أنه أقيم مكانها فندق « كان متقبله من أهل الإضرار
والفسق » (٧٦) فأمر عبد الرحمن بهدمه بعد مبايعته بالإمارة سنة
٢٠٦ هـ .

ويظهر أن الأمير قد أقطع فتاه — وكان أثرا لديه — هذه الأرض
فأقام عليها منيته ، وظلت بحوزته حتى مات مسموما سنة ٢٣٦ هـ على يد
الأمير نظرا لثأره عليه مع جاريته عجب (٧٧) ، ثم آلت إلى زرياب المغنى
المشهور ، ثم آلت بعده إلى الأمير عبد الله بن محمد حفيد عبد الرحمن
« فشبذ ببنائها وأتقن مصانعها » وكان يوزع أوقاته بينها وبين منية الناعورة
السلفاء الذكر . وفى عهد الخليفة الناصر آلت إلى ابنه الحكم ولـى عهده ،
وفىها نزل سفراء الإمبراطور البيينطى قنسطنطين السابع فى صفر سنة
٣٣٨ هـ عند قدومهم إلى قرطبة (٧٨) .

منية عجب : كما أقامت عجب جارية الحكم الرىضى منية لها
فى الرىض القبلى فى مواجهة رصيف قرطبة الكبير — وهو الطريق المرصوف
بالحجارة الذى كان يمتد من شرق قرطبة حتى الناحية الغربية للقصر ، ويقع
ما بين الضفة اليمنى للنهر وبين القصر ، ويفتح عليه الباب القبلى
للـقصر المؤدى مباشرة إلى القنطرة المقامة على النهر . وكانت هذه المنية
تـشـمـل على عدة مساكن موقومة على المـرضى (٧٩) .

(٧٥) المتنبس ص ٣٨ تحقيق ملثور لـطـونـيه .

(٧٦) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ .

(٧٧) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١
ص ٤٩ .

(٧٨) المتنبس ص ٣٨ تحقيق لـطـونـية .

(٧٩) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٠١ ، ٢١٩ .

قصر الفارسي : وكان من القصور المتصودة للنزهة والفرجة شمال قرطبة . وقد ورد اسم هذا القصر بين معاهد بنى أمية التي شهدت أول إشراقة عشق ابن زيدون الوزير الشاعر لولادة بنت المستكفي . وفيه يقول أحد الشعراء :

ويحتاج قصر الفارس صبا

لقاى لا ياك زناد الاسى قدحا (٨٠)

منية ابن أبي الحكم بن القرشية : وكانت تقع على نهر قرطبة الاعظم (نهر الوادي الكبير) بمنطقة تعرف باسم (الشامت) (٨١) ، وكانت منيعة محصنة مرتفعة الأسوار ، بها عمارات ومسرات ، وقد نزل بها أبناء علي بن الأندلسي صاحب المسيلة ، وعيال أخيه جعفر عند قدومهم إلى قرطبة سنة ٣٦٠هـ في عهد الحكم المستنصر بمخالفة من الحكم في إكراهها بعد خروجها على المهدي الفاطمي .

منية ابن عبد العزيز : وكانت تقع في الصحراء المبتدة ما بين قرطبة والزهراء وكان قاصدها يصل إليها بعد مروره على السدة والمصاراة ويسجد الحاجب ابن أبي عبدة - الذي أنشئ في عهد عبد الرحمن الأوسط - ثم ريش بمسجد الشفاء ، وريش حمام الإيبيري أو السدي (٨٢) . وقد نزل فيها يحيى بن علي المعروف بابن الأندلسي وأخوه جعفر في ٢٧ ذي القعدة سنة ٣٦٠هـ .

منية جعفر بن المهدي : أقامها الحاجب جعفر بن عثمان المصفي في خلافة الحكم المستنصر . وقد ذكر ابن عذاري أنها كانت في منطقة تسمى

(٨٠) نزع الطباق ج ٢ ص ٥٥ .

(٨١) المنتبى : ص ٤٣ ، ٢٢٨ نشر الحجى .

(٨٢) نفسه ص ٤٦ .

الشي غربي قرطبة . وذكر ان السبب في بنائها : ان الخليفة الحكم كان متخوفا على ابنه هشام من ابن ابي عامر ، وكان لشدة نظره في الحداث متيقنا من انه سينزع السلطان من ولده ، ويؤسس لنفسه مدينة في موضع يسمى الشي (بفتح اللام) فامر حاجبه بالمسارعة إليها والشرع في البناء عليها وأنفق فيها مالا عظيما ، ولكنه اكتشف بعد بنائها ان هناك موضعا آخر يقع في شرقها بنفس التسمية ولكن بضم اللام عند منزل رجل يسمى ابو بدر . وقد كان هذا الموضع فعلا هو الذي اختاره المنصور ابن ابي عامر لبناء مدينة الزاهرة التي جعلها مقرا له (٨٣) . وقد آلت هذه المنية بعد نكبة جعفر المصحفي إلى المنصور . وفيها يقول أبو بكر ابن جعفر :

مصف بالمصحفية وانديب مقلة أصبحت بلا إنسان
واسألها عن جعفر وسطاه ونداء في سالف الأزمان (٨٤)



(٨٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤ - ٣٨٥ .

(٨٤) تنقيح الطيب ج ٢ ص ١٧ .

السردور

وإذا كثرت قصور الأمراء والخلفاء والوزراء قد كثرت في الأندلس في العصر الأموي ، فإن دور الخاصة والكبراء قد زادت أيضا (١) . حيث حاولوا التشبه بهذه الطبقة في البناء والعمارة والزخرفة والتأثير كل على قدر إمكاناته .

وليس من السهل تحديد مواقع دور الخاصة في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، أو وصفها حيث لم تزودنا المصادر بالكثير في هذا الصدد فيها عدا الإشارة إلى بعض دور المشاهير من القضاة والفقهاء والعلماء . بينها أضافت في وصف القصور . ويمكن تقسيم الدور في الأندلس إلى قسمين : دور رسمية تابعة للدولة ، ودور خاصة بالأناس . أما الدور الرسمية فكان منها بقرطبة :

دار الوزراء : ويبدو أنها أنشئت في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط لأنه كان « أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القمر » وذلك للتشاور معهم في أمور الدولة (٢) وعلى هذا فإن هذه الدار كانت تقع بجانب قصر الإمارة ، أو أنها كانت من ملحقاته . وقد ذكرها ابن القوطية وابن حيان (٣) .

(١) ذكر المقرئ : أن عدد دور الخاصة والكبراء وصل في عهد المنصور ابن أبي عامر في قرطبة وحدها (٦٠٣٠٠) دار ، وأن عدد دور العلوية فيها وصل إلى (٢١٣٠٧٧) دار ، سوى الدور التي أعدت للكراء ، وهو ما نطلق عليه في العصر الحاضر مساكن الإيجار (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٢) ابن القوطية : تاريخ انفتاح الأندلس ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧ ، المقتبس ص ٢٥ تحقيق الحجى .

دار القوة : ويبدو أنها أنشئت في عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد الزيادة التي أضافها للمسجد الجامع بقرطبة ، وكانت خاصة بسكنى قومه هذا المسجد ، وكانت تقع بداخله في الجهة الشمالية . ويذكر أنها تعرضت لحريق « أتى على غرفها ، ودبر سقفها ، وأدى إلى تشيعتها » في ليلة الجمعة لخمس خلون من شهر رجب سنة ٣٦٢هـ (٤) .

دار الرهائن : وكانت تجاور باب المنطرة ، وفيها كان يتم حبس بعض الرهائن حتى يتم الفصل في أمرهم ، فقد حبس فيها صالح وعلى ابننا رافع صاحب حصن (حجة) ومفر من بني عمها (٥) .

دار الصدقة : وقد أنشأها الخليفة المستنصر غرب المسجد الجامع بقرطبة بعد الانتهاء من الزيادة التي أضافها للمسجد وكانت مزودة بعلية وكان يتم من خلالها توزيع الصدقات (٦) .

بيت العمال : وكانت دويرة من ملحقات القصر الخلافي ، اتخذت في الأصل لعمال القصر ، ثم تحولت إلى سجن ، وكان موضعها بفصل باب الجنان المطل على النهر ، ولعلها كانت نفس سجن قرطبة القديم في عهد الإمارة (٧) .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الدور الرسمية بعض الدواوين والمصالح الحكومية مثل :

دار الصناعة : وكانت تقع بجوار مسجد أبي عثمان بقرطبة (وهو عبيد الله بن عثمان زعيم موالى الأمويين قبل دخول عبد الرحمن

(٤) المتنبى ص ١٠٤ تحقيق الحجى .

(٥) نفسه ص ١٧٦ .

(٦) نفسه ص ١٩ .

(٧) المتنبى ص ٢٠٢ تحقيق الحجى .

(إلى الأندلس) ، وكان هذا المسجد يقع شمال القصر الخلافي حيث كان هناك باب للقصر يعرف (بباب الصناعة) ، لأنه كان يشرف عليها .
ويظهر أن هذه الدار أنشئت في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد غزو النورمان لإشبيلية سنة ٢٢٩هـ ، وكانت تصنع فيها المراكب والسفن ، ولكنها اقتصر منذ زمن الناصر على صناعة الآلات والحلى والتهليل فيها يبدو ، وذلك نظرا لكثرة دور الصناعة التي أنشئت لبناء السفن في سواحل الأندلس ، وفيها تمت صناعة الأتني عشر تمثالا من البرونز المرصع بالدر النفيس والتي وضعت في مجلس المؤنس بمدينة الزهراء (٨) .

دار الطراز والبرد : ويذكر أنها أنشئت في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، نحو الذي أحدثها واستقطب عليها كما ذكر ابن عذاري ، وإن كان ابن حبان يذكر أنها من بناء عبد الرحمن الداخل (٩) .
ويبدو أن الداخل هو الذي أنشأها وتخصصت بصناعة البرود البحرية . ولذلك عرفت بالدار البردية ، ثم تطورت في عهد عبد الرحمن الأوسط ، واتسعت مرافقها ومهامها وما يصنع فيها . فقد ذكر ابن الخطيب « أنه اتخذ الطراز الذي كان يحدث الرقاق وطرفة أهل الأملق » (١٠) .

ومعنى هذا أنه أنشأ دار للطراز لنسج الثياب الأميرية له ولاهله وحاشيته ويبدو أنها أنشئت إلى جانب الدار البردية التي أعلمها الداخل .
وفي عصر الخليفة الناصر اتسعت وأصبح ينسج فيها ما يحتاج إليه من الخلع والكسوات وملابس الحريم وغير ذلك . ويذكر ابن الخطيب معقبا على ذلك « ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ،

(٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ ، فتح الطيب ج ٢ ص ١٠٤ .

(٩) المقتبس من ٦٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ .

(١٠) أعمال الأعلام ص ٢٠ .

وينافسون به الشرق من بضائعهم ، ومقدار جريائتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب» (١١) . وقد أشار ابن حوقل إلى شهرة قرطبة في زمن الناصر في صناعة الجيد من النياب والكسوة من الكتان والخز والقز (١٢) .

وقد ذكر ابن حيان : أن هذه الدار نقلت من موضعها الأول سنة ٣٦١هـ . في عهد المستنصر من غرب القصر إلى دار الزوامل بالمصارة في غرب قرطبة ، وأما دار الزوامل فقد نقلت من موضعها إلى دار تقع بالقرب من الحبس عند قصر الناعورة . وأما دار البرد القديمة فقد أمر الحكم بإقامة حوانيت للبخازين مكانها (١٣) .

وكان لها قيم يشرف عليها حيث تولاهما في عهد الأمير عبد الله زيان الفتى ، وفي زمن الناصر خلف الفتى الكبير ، وفي زمن المستنصر فائق الفتى المعروف بالنظامي (١٤) .

دار المسكة : وكان أول من أنشأها في قرطبة الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حيث لم تكن هناك دار مسكة للمسلمين بعد فتح الأندلس ، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون بالعملة الأموية والعباسية وبعض العملات المغربية ، وكذلك بعض العملات التي كانت موجودة بالأندلس كالرومانية والقوطية ، وكانت تسك دراهم وفلوسا يتعامل بها الناس كل ستمين فلسا بدرهم ، وفي سنة ٣١٦هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بإقامة دار جديدة للمسكة داخل قرطبة بدل الدار القديمة التي كانت تقع بجوار

(١١) أعمال الأعلام ص ٤٠ .

(١٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٨ .

(١٣) المقتبس ص ٦٦ نشر الحجى .

(١٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٣ ، ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٧ ، المقتبس ص ٦٦ ، ٣١٧ وأغلب الظن أنها كانت تقع بجوار قصر الإمارة في قرطبة من الجهة الغربية استنادا إلى ما ذكره ابن حيان وابن الخطيب . (انظر المقتبس ص ٦٦ ، أعمال الأعلام ص ٤٠) .

باب المطارين خارج قرطبة (١٥) لضرب الخنقير والدراهم الأندلسية ،
تولى خطتها أحمد بن موسى بن حدير ، ثم نقلها بعد ذلك إلى مدينة
الزهراء التي أسسها (١٦) .

أما دور الخاصة فكان من أشهرها : دار الأمير عبد الله بن عبد الرحمن
وكانت قريبة من باب القنطرة .

ودار القاضي منذر بن سعيد الجالوتي : وكانت تقع بجوار مسجد
السيدة الكبرى بالقرب من مقبرة قريش بالريش الغربي من قرطبة .

ودار بقي بن مخلد : وكانت تقع بظاهر المدينة في محص الطرف على
تسارع المبطلة الممتد من باب عبد الجبار .

ودار الأمير عبد الله بن محمد : وكانت تقع بجوار باب قرطبة الغربي ،
ولها علية تشرف على الطريق .

ودار الفقيه المشاور أبي إبراهيم : وكانت تقوم بجوار مسجد
أبي عثمان تجاه باب الصناعة من أبواب قصر قرطبة الشمالية .

ودار محمد بن سعيد الأموي : وكانت تقع بنية عبد الله بالناحية
الشرقية من قرطبة .

ودار ريان الوصيف : وكانت تقع بجوار منار الجبلع بقرطبة .
وفيها (١٧) .

وقد كانت الدور في الأندلس بصفة عامة تقوم حول مراغ مركزي
هو الصحن الذي تتوزع حوله الغرف ، وتتألف من جزئين أساسيين :
الواجهة الخارجية ، ودأخل البيت . وبينما كانت الواجهة الخارجية بسيطة

(١٥) الهذاني : مختصر كتاب البلدان ص ٨٨ تحقيق دي غويه ، لندن
سنة ١٨٥٥م .

(١٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ ، ٣٢١ .

(١٧) انظر : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

فى الغالب تكاد تخلو من الزخرفة ، كانت الغرف تزخر بالكثير من الخزارف .
الرائعة .

ويمكن تفسير ذلك بأن حياة الأسرة الاندلسية كانت تتركز فى داخل الدار حيث تقضى المرأة جل وقتها ، فكان من الطبيعى أن يتائق الناس فى تزيينها من الداخل ، وكسوتها بنوع من الزجاج المفضض ، المعروف فى الشرق بالفسيساء ، وكان يعرف عندهم (بالزليجى) ، وهو ذو ألوان مجيبة ، ويقوم عندهم مقام الرخام اللون المتخذ فى الشرق للزخرفة .

وكان له تأثير كبير فى ترطيب الأبهاء والقاعات فى فصل الصيف . هذا بالإضافة إلى ما لاثوانه المتعددة ، وخطوطه الهندسية الرائعة من آثار طيبة فى النفس . وكان المدخل فى دور الأثرياء عادة ما يفضى إلى ردهة تؤدي إلى البهو ، أما فى دور العمامة فكان يفصل بهمر منكسر على شكل زاوية قائمة حتى لا يرى المارة من فى الداخل .

وقد كانت المرأة الاندلسية تجد فى ذلك تعويضا عن العزلة التى تعانيها فى البيت . ولعل هذا هو السبب فى أن أغلب الدور فى مدن الاندلس كانت تحتوى على عليات أو غرف علوية ، أو مصارى (جبع مصرية) وهى غرف بارزة عن جدران البيت ، مزودة بشبكات من عيدان الخشب المتقاطعة وتسمى (بالشرابج) . وهى لا تختلف كثيرا عن المشربيات فى المنازل المصرية . وهكذا كان يتاح للمرأة الاندلسية التمتع بمشاهدة الخارج دون أن يراها أحد .

وكان صحن البيت أو فناءه عنصرا هاما باعتباراه المكان الذى تقضى فيه المرأة معظم وقتها ، ومنه ينفذ الضوء والشمس والهواء إلى غرف الدار ، ولذلك فقد اهتموا بتزيينه ، وفرشه بالحجر أو الرخام أو غير ذلك ، وعرسه بالأشجار كالبرتقال والليمون ، ومده بالمياه الجارية

• مما يزيده روعة وجالا ، ويخفف في نفس الوقت من حرارة الشمس (١٨) .
ولقد وصف ابن سعيد المغربي دور الأندلس بأنها « في غلية الجبال
لبالغة أهلها في أوضاعها وتبييضها لثلا تنبوا العيون عنها » وأضاف
• مقارنا بينها وبين الدور المصرية « إننى تعجبت لما دخلت الديار المصرية
• من أوضاع قراها التى تكرر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق
أوضاعها » . وهو يشير بذلك إلى استخدام الطوب اللبن في بنائها ،
• واستخدام الطين في تجصيصها ، وهو ما كان سائدا في الريف المصرى
إلى وقت قريب ، ويوجد منه أمثلة حتى الآن كما أثنى الشقندى في رسالته
على المباني الأندلسية فقال « أما مبانيها فقد سمعت عن إبتنائها ،
• واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجارى ،
• والأشجار المتكاثرة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك » (١٩) .



(١٨) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٤ .

(١٩) عن دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢١ .

مجالس الموسيقى والغناء

ازدهر من الغناء والموسيقى في الأندلس ، وساعد على هذا
الازدهار عدة عوامل نستطيع أن نجعلها فيما يأتي :

١ - طبيعة بلاد الأندلس الجيلة التي تدعو إلى البهجة والسرور
واللهو والطرب .

٢ - ميل أهل الأندلس بصفة عامة للموسيقى والغناء ، وبملا
يدل على ذلك تلك النقوش المحفورة على علب العاج الأندلسية التي عثر
عليها ، وفيها مجالس طرب وموسيقى وشراب ، وقد أمسك فيها بعض
الأشخاص بالآلات موسيقية .

٣ - ولع كثير من الأمويين بالأندلس بالغناء والموسيقى ، وإجزالهم
المعطاء لأهلها . كما يتجلى من خلال الروايات التاريخية ، ومن خلال
بعض النقوش المحفورة على بعض التحف التي عثر عليها ، ومنها علب
العاج الأندلسية (١) .

٤ - قدوم كثير من مشاهير الفنانين والمغنيين من المشرق إلى

(١) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ ، د. عبد العزيز عتيق :
الادب العربي في الأندلس ص ١٤٧ ، د. الشكعة : الادب الأندلسي
ص ٨٦ - ٨٧ . ويروي أن المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط
كان شاعرا مقلدا عالميا بالغناء (ألفة السيرة ج ١ ص ١٢٨) ،
وكذلك اثنان من إخوته أيضا (د. إحسان عباس : تاريخ الادب
الأندلسي ص ٣٩) . كما يروي أن أبا الأصمغ عبد العزيز
ابن عبد الرحمن الناصر كان مغنما بالغناء ، محبا للشراب ،
ولما انتقطع عن الشرب سر أخوه المستنصر بذلك ، وتمنى أن يترك الغناء
أيضا ، فلما سمع ذلك عبد العزيز قال : والله لا تركته حتى تشرك

الاندلس - وخاصة من الحجاز والعراق اللذين انتشر بهما الغناء -
وعلى رأسهم زرياب .

هـ - اختراع الموشحات والأزجال في الأندلس ، واستجابة الكثير
من الأندلسيين لها ، لأنهم رأوها اقرب إلى التعبير عما في أنفسهم ، وأسهل
في التلحين والغناء ، وانسب للمغنيين المتجولين الذين يتكسبون
بغنائهم (٢) .

الطبور تغريدها . (دائرة معارف الشعب ص ١٠٠ هـ لـ ١) .
وما يدل على أن الغناء والموسيقى قد أصبحا جزءا من كيان
معظم أهل الأندلس من مختلف طبقاتهم ما ذكره أبو بكر الطرطوشي
(٥٠٢ هـ) من أنهم في أوساطهم الشعبية كانوا يقرأون القرآن
بالالحن والرقص بالأرجل ، والتصفيق بالأيدي ، وهي عادات
اخترعوها على حد قوله .

يقول : « وجعلوا لكل لحن من الحانهم في القرآن اسما مخترعا ،
نقلوا : اللحن المقلبي ، فإذا قرأوا قوله تعالى (وإذا قيل إن وعد
الله حق) يرقصون في هذه الآية كرقص الصقابة بأرجلهم وفيها
الخلاخل ، ويصفقون بأيديهم على نمط متوازنة ، ومن ذلك الرهب
(الرهبان) أن نظروا إلى كل موضع فيه ذكر المسيح تبثوا
أصواتهم فيه بأصوات النصراني والرهبان والأساقفة في
الكنائس » . (الحوادث والبده ص ٧٧ - ٧٨ تحقيق محمد الطائبي) .
ولا نعتقد أن ذلك قد حدث إلا في عصر ملوك الطوائف الذي
وصل فيه الترف واللهو والتبرق إلى درجة كبيرة ، فانصرف الكثيرون
إلى الدنيا ، ويمكن أن يكون في قول الطرطوشي بعض المبالغة حيث
نظر إلى تسليط البعض وإظهار إعجابه بالقراءة هذه النظرة ،
كما هو حادث في بعض سرانقات العزاء حتى وقتنا الحاضر .

(٢) انظر احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٧ ، د. حسن إبراهيم :
تاريخ الإسلام ج ٢ ص ١٤ - ١٥ .

٦ - قيام بعض الأندلسيين بتأليف الرسائل والكتب فى الموسيقى والغناء ، ومنهم ميلس بن فرناس (ت ٢٧٤ هـ) الذى كان إلى جانب محاولاته فى الاختراع والابتكار (٣) « قد حنق الموسيقي ، وعانى ضرب العود وصوغ الألحان ، وهو أول من فك بالأندلس كتاب العروض للخليل ، وأول من فك الموسيقى » (٤) ، وكذلك بحى الخدج المرسى الذى ينسب إليه كتاب (الأغاني الأندلسية) على غرار كتاب الأغاني للأصمغاني (٥) .

ويذكر التيفاكسى (ت ٦٥١ هـ) : أن أهل الأندلس فى القديم كان غنائهم إما بطريقة النصارى - يعنى ألوان الغناء الشعبى التى كانت منتشرة فى اسبانيا قبل الفتح - أو بطريقة حداء العرب (فن الحداء)

(٣) من هذه المحاولات محاولته الطيران التى تعتبر أول محاولة إسلامية للطيران فى الهواء ويذكر أن رجلاً يونانيا يدعى إيكاروس سبقه فى هذه المحاولة . فقد صنع لنفسه كساء من الريش له جناحان وضع فيهما ذراعيه ، وقفز من أعلى تل قرب بلنسية يسمى (مونت أجودو) قطار بضعة أمتار ، ثم سقط نظراً لأنه لم يجعل لهذا الكساء ذيلاً لحفظ توازنه .

ومن هذه المحاولات كذلك التى كالت بالنجاح صنعه آلة عرفت (باليقظة) لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، واختراعه طريقة لصناعة الزجاج من طحين الأحجار .

(انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٤ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣) .

(٤) ابن حبان : المتبصص ص ٢٧ تحقيق د. محمود مكى ، المقرئ : نفع المطيب ج ٣ ص ٣٧٤ .

(٥) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

الذي كان من الطبيعي ان ينتقل مع العرب الفاتحين . كما انتقل الفناء
الحجازي والعراقي ايضا مع القادمين إلى الأندلس من المشرق من مغنيين
ومغنيات .

ويقول « ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن تأسست الدولة
الأيوبية ، وكانت مدة الحكم الرضى ، فوجد عليه من المشرق ومن إفريقية
من يحسن غناء الأتلاحين المدنية فأخذ الناس عنهم ، إلى أن وفد الإمام
المقدم في هذا الشأن على بن نافع الملقب بوزياف غلام إسحاق الموصلى
على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فجاء بما لم تمهده الأسماع واتخذت
طريقته مسلكا ونسى غيرها » (٦) .

ويذكر أنه كان بقرطبة في عهد عبد الرحمن الداخل ثبنة تسمى
العجفاء (٧) ، كانت جارية لمسلم بن يحيى مولى بنى زهرة ، فاشتراها من
الأمير وضما إليه (٨) . وهذا يدل على ميل الكثير من الأيوبيين للفناء
منذ بداية عهدهم في الأندلس بالرغم مما صلبهم من صعوبات في سبيل
تأسيس دولتهم ، وتوطيد أركانها ، والقضاء على المخالفين .

ويبدو أن (علون وزرقون) كانا أول مغنيين حضلا الأندلس من
المشرق ، وكان ذلك في عصر الحكم الرضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذي

(٦) مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ١ ص ٢٠ (حضارة الأندلس) .

(٧) لم تذكر لنا المصادر أسماءها ، ويبدو أنها اشتهرت بذلك اللقب لأنها
كانت نحيلة ، وكلفت تسكن مع مولاهما في بيت صغير متواضع
بمساحته اثنا عشر ذراعا في مثلها ، وليس به الكثير من الفرش
والاثاث سوى نرقتين ومقعدين مفككين من تدبهما كما يذكر القرى
من رواية الأرقمى (نفتح الطب ج ٤ ص ١٣٨ ، د. مصطفى
الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٨٦) .

(٨) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ١١٩ .

وصفه الكثيرون بالميل إلى الترف واللغو وخاصة في مرحلة شبابه
برغم قضاائه على الكثير من الثورات التي قامت ضده وأشهرها ثورة
النريض . كما اشتهر بالفناء في مصره رجل يسمى (منصور اليهودي) .
ولكن غناء هؤلاء ذهب لظلة غناء زرياب عليهم بعد قدومه إلى
الاندلس (٩) .

ويعتبر الكثيرون عصر عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ هـ - ٢٣٨ هـ)
عصر ازدهار لفن الغناء والموسيقى بالاندلس ، حيث كان أديبا شاعرا
يمجد الهمة والفسايت كما وصف . ويعتبر أول من اتخذ رسوم الخلافة
وابتهتها . وكان كما ذكره المقرئ « مولعا بالفناء مؤثرا له على جميع
لذاته » (١٠) . ولذلك فقد رفسد إلى الاندلس في عهده بعض القيان
المغنيات من المدينة ، فأورد لهن دارا ملحقة بقصره سميت (دار
المدينيات) (١١) .

ومن أشهر هؤلاء القينات (فضل المدينة) التي كانت جارية لإحدى
بنات الخليفة هارون الرشيد ، ثم ذهبت إلى المدينة لتعلم الغناء ،
فاشتريت للأمير عبد الرحمن ومعها جارية أخرى تسمى (علم) ، وكان
يؤثرهما لظرفهما وأببهما وحسن غنائهما ، كما كانت هناك جارية أخرى
تسمى (ظم) ، وكانت في الأصل من سبي البشكنس ، ثم أرسلت إلى

(٩) نفع الطيب ج ٣ ص ١٣٠ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .
(١٠) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٣ .

(١١) نفع الطيب ج ٢ ص ١١٨ ، وقد ذكر د. أحمد هيك (في تاريخ
الأدب الاندلسي ص ٧٣) أن الذي فعل ذلك هو عبد الرحمن
الداخل وهو خطأ وربما كان سهوا أو نسيانا فجعل الداخل مكان
الأوسط .

المشرق ، فتعلبت الادب والفنماء ، وروت الشعر ، وحفظت الكثير من
الاخبار (١٢) .

كما كان من القبان الوافدات من المشرق ايضا غير هؤلاء جلرية
بغدادية ذات فصاحة وبيان ومعرفة بالالحن تسمى (ثمر) ويصفها
المقرئ بانها « جمعت ادبا وظرفا ، ورواية وحفظا ، مع فهم بارع وجمال
رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل ادبها » (١٣) .

وقد كانت جلرية لإبراهيم بن الحجاج اللخمي (ت ٢٨٨ هـ) الذي
نار على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واستقل بإشبيلية . ومن شعرها في
مدح إبراهيم :

ما في المغارب من كريم يرتجى
إلا حليف الجود إبراهيم
إني خلقت عليه منزل نعمة
كل الملوك ما عداه سقيم
ومن شعرها في الحنين إلى موطنها :

أها على بغدادها وعراقها
وظبائها والسحر في أهدائها
ومجالها عند الفرات بلوجه
تبدو أهلها على أطواقها
متبخرات في النعيم كتما
خلق الهوى العذرى من أخلاقها

(١٢) د. مصطفى الشكعة : الأدب الاندلسي ص ٤٤ ، دائرة معارف

الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٣) نفع الطيب ج ٤ ص ١٣٦ .

نفسى الفداء لها فائ محاسن

فى الدهر تشرق من سنا إشراقها (١٤)

كما كان للمنصور بن أبى عامر جارية شاعرة مغنية تسمى (أنس
القلوب)، شغف بها وزيره أبو المغيرة بن حزم (١٥) .

كما كان من المغنيين الذين قدموا إلى الأندلس أيضا مغن من مصر
يدعى عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني الذى قدم حدثا متظرفا يشدو
بشيء من الفناء ، واتصل بالحاجب عيسى بن شهيد ، فلما رأى نجابته
نصحه بالإتلاع عن الفناء ، والاكتفاء بأدبه وفضله ، ففعل واتصل
بالأمير عبد الرحمن ، فاعجب به وقرره وصيره واليا ، ثم ترقى بعد ذلك
إلى مرتبة الوزارة . وقد توفى سنة ٢٣٧هـ من نيف وثلاثين سنة (١٦) .
على أن أهم واشهر مغن دخل الأندلس هو أبو الحسن على بن نافع
الملقب بزرياب (١٧) تلميذ إسحاق الموصلى أشهر المغنين فى بغداد فى
عصر الرشيد .

ويذكر أن الرشيد طلب من اسحاق ان يأتيه بمغن مجرد للصنعة
فجاءه بزرياب ومعه عوده الخاص بدلا من عود أستاذه ، ولما سألته
عن السبب قال : « عودى وإن كان فى قدر جسم عوده ، ومن جنس

(١٤) نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٧ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى
ص ١٣٠ ، ١٣٢ .

(١٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٩ ، الأدب الأندلسى ص ٨٨ — ٨٩ .

(١٦) ابن حيان : المقتبس ص ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن عذارى : البيان
المغرب ج ٢ ص ٦٤ — ٨٦ .

(١٧) أطلق عليه هذا اللقب تشبيها له بطائر أسود اللون حسن التغريد
وذلك لسواد بشرته وحسن غنائه (انظر : تاريخ الحضارة
الإسلامية العربية ص ٤٢٧) .

خشبه ، فهو يتع من وزنه في الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حشيرة لم يغزل بباء ساخن يكسبها انافة ورخاوة ، وببها ومثلها اتخفتها من حمران شبل أسد ، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والجدة اضعاف ما لغيرها من سائر الحيوانات ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعارة بها ما ليس لغيرها « (١٨) . ثم غنى أمام الرشيد :

يا ايها الملك الميعون طائره هارون راح إليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد ، وعاتب إسحاق على أنه لم يخبره به ، وطلب إليه العناية به حتى ينظر في شأنه ، فحب الصد في قلب إسحاق ، وخشى أن يحتل تلميذه مكانه ، فهدده بالقتل أو مغادرة بغداد ، فرحل إلى المغرب حيث قضى وقتا قصيرا في بلاط زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير القيروان ، وكتب إلى أمير الأندلس الحكم الرضى يسأله الإذن في الوصول إليه ، ويعلمه بمكانه في الغناء ، فآذن له في دخول الأندلس (١٩) .

وأرسل إليه منصور المغني اليهودي لاستقباله ، ونزل بالجزيرة الخضراء مدة ثم جاءته الأخبار بوفاة الحكم فهم بالعودة ، ولكن منصور ثناه عن ذلك ورغبه في قصد من سيحل محل الحكم في الملك ، ولما تولى عبد الرحمن الأوسط كتب إليه منصور يخبره بخبر زرياب ،

(١٨) فتح الطيب ج ٣ ص ١٢٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠١ .
وغنى أمام الرشيد :

(١٩) يذكر ابن عبد ربه : أن سبب مغادرة زرياب المغرب أنه غنى زيادة أبياتا لم تعجبه فأمر بصنع قفاه وطرده . (العقد الفريد ج ٧ ص ٣١ مطبعة الاستقامة القاهرة سنة ١٩٥٣) . ولكننا نميل إلى أن سبب خروجه من المغرب دعوة الحكم له ، وأنه توقع أن ينال في الأندلس ما لم ينله في بغداد وتحقق له ما كان يتوقعه .
(م ١٨ - المجتبع للأندلسي)

فكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويوصلوه إلى قرطبة وإبرأ نخصيا
من أكبر خصيائه بتلقيه (٢٠) . ولما وصل أنزل في دار غمضة ، واستقبله
الأمير ويبلغ في إكرامه ، وجعل له رزقا شهريا قدره مائة دينار ، ولكل
ولد من أولاده الأربعة عشرين دينارا ، كما جعل له ثلاثة آلاف دينار
في كل عام ، ألفا في كل من عيدي الفطر والأضحى ، وخمسمائة في كل
من عيدي النيروز والمهرجان ، عدا ما خصص له من القمح والشعير ،
وما وهب له من الضياع والبساتين التي قدرت بأربعين ألف دينار (٢١) .

وقد أعجب عبد الرحمن بمواهبه فقربه إليه ، حتى قيل إنه جعل له
بابا خاصا في قصره يدخل منه كلما استدعاه (٢٢) . وقد أدت هذه
المكانة إلى حسد البعض له فيذكر ابن سميد : أن زرياب غنى يوما أسام
عبد الرحمن وأطربه فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، فاحتوشه جواربه وولسده
فنفثها عليهم ، فكتب أحد السعاة إلى عبد الرحمن بذلك قائلا : إنه فعل.
ذلك لأن ذلك المال لم يعظم في عينيه وفرقه في ساعة واحدة ، فوقع
عبد الرحمن على هذه الرسالة :

(٢٠) يذكر ابن خلدون والمقري : أن عبد الرحمن خرج لاستقباله بنفسه
(العبر ج ٤ ص ١٧٤) ، (نفع الطيب ج ١ ص ١٦١) .

(٢١) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٦ ، ليفي برونفستال :
الحضارة العربية ص ٦٧ - ٦٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب
الاندلسي ص ٣٨ - ٣٩ ، محمد ديب : تاريخ العرب في أسبانيا
ج ١ ص ١٦٥ - ١٦٦ ، وينكر الأخير أن راتبه الشهري كان
مئتي دينار .

(٢٢) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤١٦ .

خولبان ربيرا : التربية الإسلامية في الاندلس ص ٩٤ .

« قد رأينا انه لم يفعل ذلك إلا ليحبينا إلى اهل داره ، ويفهرهم
بنعمنا وقد شكرناه ، وأذا له بالمال المتقدم ليسكه لنفسه ، فإن كانت
مذك مضره أخرى فى حقه فارفعها إلينا » (٢٣) وهذا يدل على مدى
حب عبد الرحمن لزرياب ، وعدم استماعه إلى وشاة الراشدين فيه .

وقد أبدع زرياب فى تنسيق الألحان ، وأظهر براعة فائقة فى
الموسيقى والغناء حتى ادعى أن الجن هى التى تعلمه الاصوات ، ويبدو
انه قد ورث هذا الثصور عن استاذة اسحاق الموصلى الذى ورثه عن
أبيه ابراهيم . وكان يهب من نومه سريعاً ، فيدعو جاريتيه غزلان وهيندة ،
فتصك كل واحدة بعود ، وبمسك هو بعوده ، ويطارحها الغناء ليلته ،
ثم يكتب الشعر ويعود إلى مضجعه (٢٤) .

وقد كانت له ابتكارات فى مجال تطوير الآلات الموسيقية وعلى رأسها
العود ، فقد اضاف إليه وترًا خابسا بعد أن كانت أوتاره أربعة ،
واتخذ مضربه من قوائم النسر بدلا من الخشب . وقد اثر عنه أنه كان
يحفظ عشرة آلاف بيت مقطوعة من الأغاني بالحناء (٢٥) . وبذلك يعتبر

(٢٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٥١ .

(٢٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٧ .

(٢٥) لين بول : العرب فى اسبانيا ص ٧٨ ، تاريخ الإسلام السياسى
ج ٢ ص ٤١٨ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى اسبانيا
ص ٦٩ . ويذكر ليفى بروفنسال أن الأوتار كانت ثلاثة ، ومعظم
البلحطين أن الأوتار أربعة وهى : الزير والبلم والمثنى والمثلث ، وكل
منها يرمز إلى طبع من طباع النفس البشرية . وكان الوتر الخامس
الذى زاده زرياب ولازال إلى اليوم وسطا بين الهادىء والحاد
ويسمى صول رمز له بالروح وهو أحد درجات السلم الموسيقى
المعروف اليوم (انظر تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧ ،
دائرة معارف للشعب (٦١) ص ١٠٥) .

زرباب هو المؤسس الحقيقي لدرسة الموسيقى والغناء فى الأندلس ، حيث أورث فيها صناعة الغناء كما يقول ابن خلدون (٢٦) .

وقد تخرج على يديه الكثير من التلاميذ . ويذكر أنه كانت له طريقة فريدة مع تلاميذه المبتدئين ، فكان يبدأ بالنشيد أول شذوه بأى نقر كان ، ويأتى إثره بالبسيط ، ويختم بالحركات والإهزاج .

وكان إذا أراد تعلم أحدهم أمره بالتعود على الوسادة المخورة ، وأن يشد صوته إذا كان قوى الصوت ، وإن كان لين الصوت أمره أن يشد على بطنه عصابة لأن ذلك مما يقوى الصوت فلا يجد متسعا فى الجوف عند خروجه من الفم فإن كان الصق الأضراس لا يقدر على فتح فمه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق راضيه بأن يدخل فيه قطعة من الخشب عرضها ثلاثة أصابع يجعلها فى فمه عدة ليال حتى ينسرج فكاه ، وإذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت من تلاميذه من غير المطبوع أمره أن يصبح بأقوى صوته (ياحجام) أو يقول آه ، ويهد صوته ، فإن سمع صوته صانها ندبا قويا لا تعثره غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، أشار بتعليمه وإلا أبعد (٢٧) .

ويذكر حسين مؤنس : أن زرباب ابتكر طريقة لكتابة موسيقاه . ولكننا لا نعرف إلى الآن كيف كان يكتبها ؟ وما هى نوتها الموسيقية ؟ وأنه ابتكر أيضا الفرقة الموسيقية التى تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن الصوت تلحيننا يجمع بين العزف والإنشاد الجامى والفردى ، وأنه يعتبر أول من أنشأ فى الأندلس القنت (المسرح الصغير) الذى تجلس

(٢٦) المقدمة ص ٣٠٠ المطبعة البهية .

(٢٧) لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٨ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عمر سبادة قرطبة) ص ٣٩ .

مليه الفرقة الموسيقية ، وكان يسمى بـ"استارة" ، وأن موسيقاه التي أدخلها أصبحت تمثل الموسيقى الراقصة في الأندلس ، ونسبت إليه فرغمت (بالموسيقى الزريليبة) ، وأصبح الحداء بمثابة الغناء العمالي أو الشعبي (٢٨) .

وقد علم زريب أولاده الغناء والموسيقى ، وكانوا عند قدومه إلى الأندلس أربعة فأصبحوا ثمانية ذكور وبنتين هما عليّة وحمدونة ، غنّموه ومارسوا صناعته ، وكان أشهرهم به عبد الرحمن الذي صار منسله في الصنعة والحظوة (٢٩) ، كما علم جارية له تدعى (منعمة) أحسن أغانيه ، وأهداها للأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكذلك (مصابيح) جارية الكلب أبي حفص عمر بن قهليل (٣٠) .

وإلى جانب هؤلاء الفنانين والمغنيات فقد تعلم بعض رجال الأندلس، أصول فن الغناء مثل عباس بن فرناس ، وعقيل بن نصر الشاعر لذي كانت له أغان يجرى فيها مجرى إسحاق الموصلي . وقد أصبح لزريب طرائق خاصة في الغناء يتناقلها الناس وقد ألف فيها البعض ، مثل أسلم ابن أحمد بن سعيد الذي ألف كتابا في أغانيه (٣١) .

وصفوة القول : أن زريب كان أشهر مغن في الأندلس ووصل إلى مكانة مرموقة حسده عليها الكثيرون في الأندلس والمشرق لدرجة أنه كان يركب في مئة غلام (٣٢) .

(٢٨) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٩ .

(٢٩) نفع الطيب ج ١ ص ١٦١ .

(٣٠) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٩ .

(٣١) تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٩ .

(٣٢) لدفي برونفيسال : الحضارة العربية ص ٦٨ - ٦٩ .

بهذا عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس يقول مخاطبا عبد الرحمن :

قد طاح امرى والذى ابتغى
هين على الرحمن فى قدرته
الف من الحبر واقتل بها
لالم اربى على بفتقه
زريب قد اعطيا جملة
وحرفتى اشرف من حرفته (٣٣)

وهذا علوية الاعمر المغنى البغدادي يشكو للمهدى العباسى
ويقارن بين ما هو فيه وما غدا فيه زريب (٣٤) .

والى جانب قرطبة فقد اشتهرت الشبيلية بالهلو والفناء ايضا —
وخاصة فى عصر ملوك الطوائف — فيذكر ابن خلدون « انه طما من صناعة
الفناء بالشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب فضارتها الى بلاد
العدوة الإفريقية والمغرب ، وبها الآن منه صبابة على تراجع عمرائها
وتناقص دولها » (٣٥) .

ويقول صاحب منهاج الفكر « وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة ،
وانتهاز مرض الزمان الساعة بعد الساعة » (٣٦) وكان يقال « إذا مات

(٣٣) نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣٤) الحضارة العربية ص ٦٩ .

(٣٥) المقدمة ص ٣٠٠ وقد اشتهر بالفناء فى الشبيلية أبو بكر
الإشبيلية والسوسى وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية موجودة
إلى اليوم بالمغرب وتعرف بموسيقى الأندلس (دائرة معارف الشعب
(٦١) ص ١٠٢ هامش ١) .

(٣٦) الأندلس : نفع الطيب ج ١ ص ٧٦ .

عالم بأشيبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة لتباع فيها ، وإذا مات من
بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى أشيبيلية لتباع فيها » (٣٧) .

ولما ابتكرت الموشحات والأزجال أعجب بها أهل الأندلس أيما
إعجاب ، وأخذت تغنى مثل القصائد الشعرية ، وازدهر فن الموشحات
بصفة خاصة في عصر ملوك الطوائف (٣٨) .

والى جانب المقتنين كانت هناك شخصية الزاهر الذى لا يستغنى عنه
فى الحفلات والأعراس . ومن أشهرهم النكورى زاهر عبد الرحمن الناصر
الذى كان أنيقا بلبس القننسوة من الوشى والثوب من الخز ويتوسط
الناس فى الحفل . ومنهم ابن مقيم وكان طيب المجلس صاحب نواذر .
ومن أصحاب الطنابير زربوط الطنبورى الذى قتل هو وتنبوط الملهى فى
موقعة قنطيش زمن فتنه البربر مع سليمان المستعين (٣٩) .

هذا وقد أهدى أثر الغناء الأندلسى إلى الممالك المسيحية فى إسبانيا
ومما يدل على ذلك ما رواه ابن الكثنانى المتطبب قال : « شهدت يوما مجلس
العلجة بنت شاذجة ملك البشكنس زوج الطاغية شاذجة بن غرسية
ابن مردئند لبعض تردئنه من لغنا إليه فى الفتنة (الفنة
البربرية) وفى المجلس عدة قينات مسلمات من اللواتى وهبن له سليمان
ابن عبد الحكم (المستعين) أيام إمارته بقرطبة فأهدت العلجة إلى
جارية مئة مأخذت العود وغنت :

(٣٧) نفع الطب ج ١ ص ١٩٣ ، ص ٢٢١ ، نهاية الأرب ج ٢٣ ص ١٣١٧
هلبش ١ د. الشكعة : الأديب الأندلسى ص ٨٩ ، دائرة معارف
الشعب (٦١) ص ١٠٤ .

(٣٨) عن الموشحات : انظر د. محمد عناني : الموشحات الأندلسية
سلسلة عالم المعرفة (٣١) سنة ١٩٨٠ م .

(٣٩) د. إحسان عباس : تاريخ الأديب الأندلسى ص ٣٩ — ٤٠ .

خيلنى ما للريح تاتى كاتما
يخالطها عند الهبوب خلوق
ام الريح جاءت من بلاط اجبى
فاحسبها ربح الحبيب تسوق
سقى الله ارضا حلها الافيد الذى
تذكاره بين الضلوع حريق
اصار قواذى فرقتين فعنده
فريق وعندى للسياق فريق

باحسنت وجودت ، وعلى رأس الملحجة جاريات من القوامات أسيرات
كانهن فلقات مهر « (٤٠) » .

وقد كانت هناك مجالس غناء تعقد فى قصور الأشراف والخلفاء

(٤٠) ابن بسلم : النخبة ق ٣ مجلد ١ ص ٣١٨ .

وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية باقية حتى اليوم فى اسبانيا
فيما يعرف بغناء (المسجيريا) الذى يغنيه النور وهو غناء شعبي
أشبه بالموال ، وفيما يسمى بالمسوليرس أيضا ، وهو نوع من الغناء
الشعبي كذلك . ويذكر بعض الباحثين أنه كان من عادة المغنين
والمغنيات فى الأندلس أن يبدأوا الغناء بجس اللحن فيكررون جملة
منه وهو ما يفعله الأسبان اليوم حين يبدأون بالمقطع التالى :
Ay, Ay, Ay, Ojio mio ومعناه : آه ، آه ، آه يا حبيبي ، ويؤكد
المستشرقان الأسبانيان أنطونيو أرفالو وخولبان ربيرا أن الغناء
الاسباني المشهور (بالفلانجو) ليس إلا أثرًا من آثار الغناء
الاسباني . (انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥) ، كما
كان لهذا الغناء أثره فى فرنسا وخاصة فى إقليم بروفانس عند
شعراء التروبادور (تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٩) .

والاغنياء ، وكانت القيان المغنيتان يغنين فبما يبدو من وراء ستارة (٤١) .
ومن امثلة هذه المجالس التى ورد ذكرها : مجلس فناء لسعيد
الخير أبى عثمان أخى عبد الرحمن الأوسط . فقد بنى دارا جديدة ، وأقام
احتفالا ومجلس فناء دما إليه الكثيرين ، وحدث أن سقط المجلس
على من كان فيه ، ونجا سعيد بفضل عموه من الأعمدة التى كان يقوم
عليها ، ومعه جاريتيه (منتهى المني) أم ولده مروان ، وماتت أربع عشرة
جارية من جواريه ، فارتجت قرطبة بالخبر ، ووصل إلى عبد الرحمن
فسر بنجاته وموضه عما أصابه ، وأعطاه بكل جارية مائت جاريتين ،
وأعطاه مالا كثيرا ليعيد بناء ما تهدم من مجلسه (٤٢) . ومجلس غشاء
للمنصور بن أبى عامر فى منزله السرور بمدينة الزاهرة ، كانت تغنى فيه
جاريتيه أنس اقلوب وكان معه الوزير الكاتب أبو المغبر بن حزم ففنت
شعرا منه :

يا لقموى تعجروا من غزال جائر فى محبى وهو جارى
ليت لو كان لى إليه سبيل فاقضى من الهوى أوطارى
قال أبو المنيرة : فلما أكلت الغناء أحسست بالمعنى فقلت :
كيف كيف الوصول للأمة
بين سمر القفا وبين الشفافر

-
- (٤١) انظر : ابن حبان : المتنبس ص ٣٤٥ تحقيق د. مكى ، جذوة
المتنبس ص ٧١ ، ويبدو أن لفظ الستارة كان يطلق فى البداية
على المكان الذى تستقر فيه الجوارى والقيان فى قصور الأمراء
والوجهاء ، ثم استخدم بعد ذلك للدلالة على هؤلاء القيان
أنفسهم حيث كن يغنين من وراء ستارة ، ثم استخدم للدلالة على
المكان الذى تقام فيه مجالس الغناء .
- (٤٢) المتنبس ص ٢٢٥ تحقيق د. مكى ، بروفنسل : الحضارة العربية
فى إسبانيا ص ٦٣ .

لو علمنا بان حبك حقيق
لطلبنا الحياة منك بشارة
وإذا ما الكرام هموا بشيء
خاطروا بالنفوس فى الاخطار

وعند ذلك احس المنصور بان فى الأمر شيئاً فاعلظ فى القول
للجارية وقال لها لمن تشيرين بهذا ؟ فبكت وانشدت :

انفبت ذنباً عظيماً فكيف منه اعتذارى
والله قدر هذا ولم يكن باختيارى
والعمو احسن شيء يكون عند اقتدار

فوهب الجارية لآبى الخير ، فامصرف بها فى الصباح إلى
منزله (٤٣) .

وقد كان البعض يتبسط فى مجالسه إلى درجة كبيرة ، فيظهر المازحة
والهجاء ، ويستقط مئونة التحفظ (٤٤) . فقد ذكر ابن عذارى : أن الناصر
طلب من وزيره أبى القاسم لب أن يهجو الوزير عبد الملك بن جهور ،
فابتنع خشية من لسانه ، فطلب من ابن جهور أن يهجو أبى القاسم ،
فامتنع أيضاً ، فقال الناصر انا أهجوه :

لب أبو القاسم ذو لحية طويلة فى طولها ميل
وعرضها ميلان إن كسرت
والعقل ماقون ومقبول
لو أنه احتاج إلى غسلها
لم يكفه فى غسلها التليل

(٤٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٤٤) انظر الحميدى : جذوة المتنبس ترجمة ٥٦٠ ص ٢٦٤ .

وضحك الناصر ثم قال للب إنه هجك فاعجه فقال :

قال أمين الله في خلقه

لى لحيه أزرى بها الطول

وابن عبير قال قول الذى

ملكوه القرضيل والفول

لولا حيلتى من إمام الهدى

نخست بالأنخس شوقول

وكان عندما بلغ إلى قوله (شو) قد سكت ، فقال له أنناصر (قول) فاتم له البيت على نحو ما كان أخبر ، وقال : أنت هجوته يا مولاي . فضحك الناصر وأمر له بمسلة (٥) . كما كان البعض يظهر غضبه أيضا . فقد ذكر ابن عذارى أيضا أن محمد بن سعيد المكنى بابن السليم — وكان قد تولى عدة ولايت للناصر واحتج بالأكثرا — حضر بعض مجالس الناصر الخاصة وشرب فآخذ منه الشراب ، فشق الناصر تفاحة بسكين وقال معرضا به « وددت أن أشق هكذا رأس من اعرف له مالا كثيرا فله دوننا ، ولم يسهم ببيت المال منه » (٤٦) .

وقد وصل الأمر ببعض إلى حد خلع ثوب الوتر والرئص في المجلس فقد ذكر القرى : أن الوزير عبد الملك بن أحمد بن شهيد كان من وزراء المنصور بن أبى طاهر ومن أخص نبياته ، وكان يجتهد في مرضاته ، ويحاول أن يدخل عليه السرور والمرح . وحدث أن قام وحاول أن

(٤٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، والقرضيل : أو القرض هو البرسيم ، وشوقول : لفظتان إسبانيتان باللهجة الرومانسية الأولى تدل على ضمير الغائب والثانية تعنى الريف أى نخست بالأنخس ردفه أى إليته (د . أحمد هيكل : الأندلسى ص ٢٢٧) .

(٤٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٦ .

يرقص في مجلس له متحابلا على أصحابه ، رغم مكانته وكبر سنه ، وذلك ليهيج المنصور (٤٧) .

كما ذكر ابن عذارى أيضا أن المنصور دعاه جعفر بن علي ابن حمدون المعروف بالاندلسي إلى مجلسه ليتخلص منه بالحيلة سنة ٣٧٢ هـ ، فقدم إليه سلقى المجلس كأسا فطلب منه أن يعطيها لجعفر ، فاستخفه الطرب ، وقام برقص ، فلم يبق أحد في المجلس إلا نمل مثله ، وشرب كثيرا حتى ثقل وانصرف مع غلمانه ، فخرج إليه البعض ، وقتلته وحمل رأسه إلى المنصور فأنظره الحزن عليه (٤٨) .

موقف الناس من الغناء بالاندلس :

وجد الغناء والموسيقى بالاندلس قبولا يكاد يكون عاما ، ولم يترجح من مساعه الكتبة ، بينما تورع عنه بعض الفقهاء والعلماء (٤٩) . وقد تناول ابن حزم الاندلس الغناء من الناحية الفقهية في رسالته (الغناء الملهى وهو مباح أو محظور) ، ورد الأحاديث التي تقول بحظره (٥٠) .

إلا أنه وجد من بين علماء وفقهاء الاندلس من أنكر مذهب ابن حزم ، ورد عليه . وعندما أراد ابن حيان أن ينتقد أحد الفقهاء الذين يبيحون الغناء قال فيه « إنه رجل مرخص للسمع ، صلب بإنشاد الأغاني

(٤٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٠ .

(٤٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٤٩) عن موضوع الغناء وموقف العلماء منه انظر : ابن الجوزي :

تبيين إلهيس ص ٢٢٣ - ٢٥٠ ، الشيخ محمد الفزالي : السنة

بين الفقه والتشريع ، ملقة سؤال عن الإسلام ج ١ ص ١٧٥

وبعدها .

(٥٠) رسائل ابن حزم ص ٩٣ وبعدها .

الفاتنة « (٥١) فجعل ذلك من معاليه . والحقيقة أنه كان في الأندلس كغيرها من المجتمعات الإسلامية دائما رابان أو غلستان : فلسفة تقوم على التشديد والتحرّم في كثير من الأشياء ، وفلسفة تقوم على التوسط والاعتدال والمرونة وعدم التضييق ، والحكم على الأشياء من منطلق أن الأصل فيها هو الإباحة ما لم يرد نص قاطع بتحريمها .

وقد تغلبت هذه الفلسفة في كثير من الأوتامات ، وكانت وجهة نظرها في الغناء أنه كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استبح إلى غناء شريف المعنى ، طيب اللحن ، غير مثير للفرائض ، أو مله من الفرائض ، أو مؤد إلى الوقوع في المحرمات فلا حرج في ذلك ، أما الدرج فيأتى من الغناء الهابط المعنى واللحن ، المثير للفرائض ، الملهى عن الفرائض ، المؤدى للوقوع في المحظور . ويرى أصحاب هذه الفلسفة ومنهم ابن حزم أنه لم يرد حديث صحيح في تحريم الغناء (٥٢) .

ومن العسير أن نثبت أن كل رجال الدين في الأندلس كانوا يكرهون الغناء ، أو يشهدون المنكير على أهله ، بل كان منهم من يستمع إلى الغناء الجيد ويعجب به ولا يجد حرجا في ذلك . ومن أمثلة ذلك قصة قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن أبي عيسى ، وكان عند رجل من بني حدير — وكانوا من بدو قرطبة — وجارية له تغنى بترك الأبيات :

طابت بطيب لسانك الأقحاح

وزهت بحمرة خدك التفاح

وإذا الربيع تنسجت أرواحه

طابت بطيب نسيمك الأرواح

(٥١) ابن بسام : الذخيرة ٢/١ ص ١٠٠ .

(٥٢) د. محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية

ص ١٧٠ — ١٧١ .

وإذا الحنايس البست ظلالها

فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتب القاضى هذه الأبيات على يده ، وخرج للصلاة على جنازة وهى مكتوبة على باطن كفه لم يغسلها (٥٣) .

ويذكر ابن عبد ربه صاحب العقد - وكان محلظا - مر ببعض الأحياء ، فسمع بمصاييح جارية الكتيب أبى حفص مهر بن قهليل تغنى ، فاعجبه غناؤها ، فوقف تحت الروشن منصتا حتى فرغت ، ثم ذهب إلى أحد المساجد فآخذ لوحا لبعض الصبية اللذين كانوا يتعلمون وكتب عليه :

يا من يضمن بصوت الطائر الفرد

ما كنت أحسب هذا الخفل من أحد

لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة

أصفت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلما قرأ سيدها هذه الأبيات ، خرج مسرعا ولحق به ، وأدخله بيته ورحب به (٥٤) .

ويصف لنا ابن حزم فى كتابه (طوق الحمامة) كثيرا من مجالس الغناء ، وما كان يغنى فيها من شعر ، ويصور لنا شدة تأثره ومن معه بما كان يسمع فيها من غناء .

ويذكر أن حنفى العامرية إحدى بنات المظفر عبد الملك ابن المنصور كلفته بصنع أبيات تلحنها ففعل ، وذكر أنها كانت تجيد

(٥٣) جذوة المقتبس ترجمة ١٠٧ ص ٧٥ ، بغية اللئيمس ترجمة ٢١٨

ص ١١١ .

(٥٤) جذوة المقتبس ص ٩٥ .

الفناء ولها صنعة رائعة في الإنشاد (٥٥) .

ويمف لنا التجيبي (شارح المختار من شعر بشار) مدى حبه
للفناء وهو مريض بمدينة ملقة سنة ٤٠٦ هـ فيقول « وكنت إذا جننى الليل
اشتد سهري ، وخفتت حولى أوتار العيدان ، والطنابير ، والمعازف
من كل ناحية » (٥٦) .



(٥٥) طسوق الحماة ص ٣١ ، ١١٠ ، ١١٤ .

(٥٦) د. إحصان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤١ ، ٤٢ .

الطعام والشراب

لما فتح المسلمون من عرب وبربر الاندلس ، كانوا يعتقدون غالبا على الاطعمة التى عرفوها فى بلادهم ، حتى عرفوا الكثير من ألوان الاطعمة التى كانت موجودة فى هذه البلاد شيئا فشيئا ، باستقرارهم واختلاطهم بالسكان ، فأخذت أطعمتهم تتغير وتتعدد ألوانها .

وقد كان من أطعمة العرب المعروفة : الثريد ، والخريزة ، والعصيدة والريبكة ، والجشيشة ، والسخينة وفيها (١) .

وبمضى الزمن وبمزيد من الاختلاط والتزاوج بين المسلمين والاسبان اخذت انواع من الاطعمة الاسبانية تعرف طريقها إلى موائد المسلمين . وبدأت ألوان من الترف والبذخ تتسرب إلى اطعمة الامراء والخلفاء والخاصة ، حتى كان بعضهم إذا جلس إلى الطعام يقف الأطباء بين يديه ومعهم (الجوارشنت) أو الادوية الهاضمة ، إلى جانب انواع الشراب الأخرى ، كما أن البعض كان يستشير الأطباء غيبا يأكل ويشرب (٢) . ولم تجدنا المصادر الاندلسية إلا بالتفصيل النادر فى هذا المجال .

(١) انظر د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٥٧٧ ، ج ٢ ص ٤٢٧ . الخريزة : اللحم بقطع صغيرا على الماء فإذا نضج نر عليه الدقيق ، والعصيدة : ماء ودقيق وسمن . والريبكة : من البر والتبر المعجون بالسمن ثم يسوى ، والجشيشة : دق مجروش خشن يوضع فى قدر ويلقى عليه لحم أو تبر وبطبخ ، والسخينة : طعام من الدقيق والسمن كان العرب يكترون من أكله فى احوال الشدة . (انظر : الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى ص ٢٠٤ — ٢٠٥) .

(٢) انظر : د. طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠١ .

ولكننا نستطيع من خلال الأمثلة القليلة التي عثرنا عليها من أخبار
البراء والخلفاء الأمويين أن نتبين مقدار الترف والبذخ في طعامهم .

فقد ذكر المقرئ : أن عدد الفتان الصقلية بمدينة الزهراء بلغ
ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتى نخاعهم من اللحم كل يوم بخلاف
الطير والحوت (السمك) ثلاثة عشر ألف رطل . أى بمعدل نحو رطل
للغرد الواحد أو أقل قليلا ، وأن المرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء
١٢ ألف خبزة (رغيف) كل يوم ، وأنه كان ينقع لها من الحمص الأسود
سنة أفخرة كل يوم (٣) .

كما ذكر أيضا أن المنصور بن أبى عامر كان له كل يوم اثنا عشر
ألف رطل من اللحم عدا الصيد والطير والحيتان ، وهذا لطعامه ومن
في قصره بمدينة الزاهرة من الخدم والحشم والجواري (٤) .

ومما يدل على مدى التقدم والازدهار في هذا العصر أنه كانت هناك
أفران عجلة — كما يبدو — يجهز فيها الناس طعامهم كما في عصرنا الحاضر .
فقد ذكر ابن حيان : أن سعيد بن سليمان القاضي صلى صلاة الجمعة
في المسجد الجامع بقرطبة ، ثم خرج متوجها إلى داره ، فلما انتهى إلى
باب الفرن الذي كان يطبخ فيه قال لإصاحبه : أطبخت خبزتي ؟ قال :
نعم ، فأخذها تحت إبطه ، وسار إلى منزله ومعه جماعة أخذوا دوابهم
إجلالا له حتى أوصلوه (٥) .

وعندما قدم زرياب إلى الأندلس جاء معه بالكثير من ألوان الطعام
السفادى ، وأخذ منه الأندلسيون طسوق طهيه ، وايتدع ألوانا أخرى

(٣) فتح الطيب ج ١ ص ٢٦٥

(٤) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٢٧٢

(٥) ابن حيان : المتقبس ص ١٩٠ تحقيق د. محمود مكى .

(م ١٩ - المجتمع الأندلسى)

من الأطعمة المطيبة بالتوابل والأعاليه ، كما أدخل لونا أطلقوا عليه اسم (النفايا) يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، وابتكر نوعا من (الثقيلة) نسبت إليه فأصبحت تعرف بثقلية زريباب ، ويطبخ فيها الدجاج والأرانب فى ماء كثير الأماوية والطيب .

ولعل الحلوى التى تعرف (بالزلابيا) حتى عصرنا تنسب إليه أيضا بعد التحريف عن زريبابيا (٦) .

كما أنه نظم طريقة إعداد المائدة ، وتقديم الطعام عليها ، حيث بدأ بالحساء ثم اللحوم والطيور ، ثم الفلكمة والحلوى من النطاير المصنوعة بالجوز واللوز والعسل ، والمعائن المحشوة بالبندق والفستق ، والمعقودة بالقواكه . كما أنه فضل تقديم الماء والشراب فى أكواب زجاجية شفافة على آنية الذهب والفضة والاكواب المعدنية ، وجعل غطاء المائدة من الأديم أو الجلد الرقيق لسهولة تنظيفه بدلا من الغطاء المصنوع من القطن أو الكتان .

وقد شاعت تقاليد زريباب ومبتكراته فى مجال الطعام والشراب ، وآداب المائدة وبخاصة فى أوساط الطبقة العليا وعلى رأسها الأمراء والخلفاء (٧) .

أما عن الشراب : فقد كان هناك من يشرب الخمر ، وقد كانت زراعة الكروم منتشرة فى الأندلس قبل الفتح ، ويعسده أيضا ، وكان يزرعها بدون شك كثير من الأسبان غير المسلمين لصناعة الخمر ، لدرجة

(٦) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ ، أحمد أمين :
ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٣ .

(٧) انظر : لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٩ ، ليفى بروفنسال :
الحضارة العربية ص ٧١ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢
ص ٤٢٧ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١١٤ ،
ص ١١٥ ، محمد ديباب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ١٦٦ —
١٦٧ .

ان النخيلة المستنصر عزم على قطع اشجارها في جميع انحاء الاندلس ، حين يقضى على صفاة الخمر ، وشاور في ذلك فقيل له : انهم يملونها من الخمر وغره من الفلكة فتوقف عن ذلك ، ولكنه امر بإقامة الموجود من الخمر وتشدت في ذلك (٨) .

ويذكر ابن سعيد المغربي أن الأمير عبد الرحمن الأوسط استفتح دياره بدم غندق الخمر ، ويبدو أنه غلستق اشتهر بتقديم الخمر فسمى بهذا الاسم (٩) . ويذكر ابن عذارى : أن الأمير عبد الله بن حميد ابن عبد الزمخدر « كانت اللذات في ايلمه مهيورة ، ولم يشرب قط نبذا ولا مسكرا (١٠) . كما كان هناك أيضا من شرب النبيذ على مذهب اهل العراق ، بل : أحد بن ابراهيم بن عروة النخعي ، وكان من اهل قرطبة ، وقد وصفه ابن الأفرصى بأنه « كثر مقفلا ، وكان يذهب في شرب النبيذ الصليب مذهب اهل العراق » ثم توفي سنة ٢٩٠ هـ زمن الأمير عبد الله (١١) ، ومثل : صهيب بن منيع القرطبي (ت ٣٠٨ هـ) ، الذي شوى النساء بقرطبة ، ويذكر الحميدي : أنه شرب مرة مع موسى بن حدير الحاجب وكان من عظماء الدولة ، فلما غفل أمر موسى باختلاس خاتمه ، وكان نقشه (يا عليها كل عيب كن رعوفا بصهيب) ، وحضر نقاشا فزاد عنه (وأستر العيب غلبي إن فيه كل عيب) ثم رده ، فظل يفتسم به زمنا حتى غفل لذلك فغيره (١٢) .

(٨) ابن الأبار : الحيلة السيرة ج ١ ص ٢٠٣ ، الحميدي : جنة

المقدس ص ١٣ ، الضبي : بغية القبس ص ١٨ ، المقرئ : نفع

الناب ج ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٩) المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ .

(١٠) البيان المغرب ج ١ ص ١٥٤ .

(١١) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٣ ترجمة (٥٧) . انظر ما ذكرناه عن مسألة شرب النبيذ في الفصل الثالث .

(١٢) جنة القبس ص ٢٤٥ ترجمة ٥١٣ .

الملابس والأزياء والزينة

تميز الأندلسيون بعدة خصائص وصفات مميزة . وصفهم بها ابن سعيد المغربي : من أهمها حبهم الشديد للنظافة ، ويظهر الواضح للناظر في ملابسهم ، وانفرادهم بتقليد في الزي تختلف عن أهل الأماص الأخرى ، وحسن تدبيرهم في شؤون حياتهم ، وحبهم للعمل وكرهيتهم للبطالة والفسول ، ورغبتهم الشديدة في العلم والتعلم ، وتدينهم ومحافظة على قواعد ديانتهم والمحافظة على إثبات حدودها ، وإنكار التهاون في تعطيلها وقيامهم بذلك إذا ما أحسوا تهلونا من السلطان في إقامتها .

وحبهم الشديد للفناء وشغفهم بسماعه حتى إنهم ليفضلون الضروري من العيش مع سماعه على العيش المترف دونه . وهذا يدل على صفة بارزة فيهم وهي رقة عواطفهم ورهافة أحاسيسهم ، هذا بالإضافة إلى ظاهرة القلق والتناقض في حياتهم أو التطرف في الأمور ، وتدبير المعاش والاحتياط فيه حتى ينسبون إلى البخل .

يقول ابن سعيد « وهم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ملابسهم وقرشهم وغير ذلك ، وفيهم من لا يكون عنده إلا قوت يومه فيصوم ويتناع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » (١٣) .

وقد أشار ابن سعيد أيضا إلى زي أهل الأندلس في عصره — ونعتقد أنه لا يختلف كثيرا عما كان عليه الحال في العصر الأموي فقال : « وأما زي أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك المعائم لاسيما في شرق الأندلس ، وأما أهل غربها فلا تكاد ترى فيهم قاضيا أو فقيها مشارا إليه إلا وهو بعملة ، وأما الأجناد والعمامة فقليل من تراه بعمامة في الشرق

أو الغرب ، وكثيرا ما تريا السلاطين والجناد بزي النصارى المجاورين ،
ولكر عوامهم من يمشى دون طيلسان ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم
إلا الأسيان والمعظون ، وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا أو خضرا ،
ولما الصفر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودى أن يتعمم الدتة
والذوابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الاكتاف ، وإنما يسدلونها
من تحت الأذن اليسرى . وإذا راوا فى رأس مشرقى داخل إلى بلادهم
شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها
لانهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك فى تفصيل
الثياب (١٤) .

ومن هذا النص يتضح أن الاندلسيين وخاصة فى شرق الاندلس
كانوا يتميزون بكشف رعوسهم ، وعدم لبس العمائم ونحوها كما كان يفعل
المشاركة . وأما الذين يلبسون العمائم وخاصة فى غرب الاندلس فبحكم
مناصبهم مثل القضاة والفقهاء ، ويتخذون عمائم مقايمة من عمائم أهل
المشرق . ولذلك كانت ملابسهم تتميز بتفصيلات وهيئات وأشكال خاصة
بهم لا تكاد تعرف فى المشرق . وربما كان من أهم مظاهر تلك المفايزة
اتخاذهم البياض بدلا من السواد فى الحداد . وما يشير إلى تلك العادة
قول الشاعر أبى الحسن الحمصرى :

إذا كان البياض لباس خزنى

باندلس فذاك من الصواب

ألم ترنى لبست بياضا شيبى

لأنى قد حزنت على شيبى (١٥)

(١٤) نفع الطيب ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٤ .

(١٥) نفع الطيب ج ١ ص ١١١ - ١١٢ ، د. أحمد هيكى : الأدب

الاندلسى ص ٤٥ - ٤٦ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ .

وقد كانت الملابس ذات الألوان الزاهية أو (المصبغات) محبوبة في الاندلس ، واحبها الكثيرون حتى أولئك الذين كانت تقتضى مناصبهم شيئاً من الحشمة والوقار والاقتصاد في الزينة واللباس . فالتقاضي محمد ابن بشير قاضى قرطبة في عهد الحكم الربضى — والذي اتصف بالبطم والورع — كان يعقد جلساته احياناً في جامع قرطبة في ازار مورد ورداء معصر وشعر مصبوغ .

حيث يذكر الخنسي : انه اتاه رجل لا يعرفه فلما نظر إلى زيه من الجبة المفرقة والرداء المعصر ، والكحل والخضاب ، والحناء في يديه ، اعتقد انه ليس القاضي ، فطلب من بعض الحاضرين أن يبلوه عليه ، فاشساروا إليه فقال لهم : إني أراكم تستهزئون بي أسألكم عن القاضي وتدلونني على زامر ، فزجروه من كل ناحية فناداه ابن بشير وقال : اذكر حاجتك فذكرها ووجد من العذل والانصاف فوق ما كان يظن (١٦) .

وكان الفقيه يحيى بن يحيى اللبثي — زعيم الفقهاء في عهد الحكم ابن هشام ومجد الزحجج الأوسط — من أشد الناس تعظيماً لهذا القاضي وتفاء عايه في حباته وبعد مجاته . وقد سأل عن لباسه فقال هو لباس الناس في المشرق ، وعليه كان أبوه في القدين ، فقيل له لو لبستها لاتبعتك الناس في لباسها . فقال : لقد لبس ابن بشير الخزر

(١٦) قضاة قرطبة ص ٣٢ ، البيان المغرب ج ١ ص ٧٩ ، ٨١ ، تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢٢٤ ويقول لسان الدين ابن الخطيب عن اهل غرناطة في زمنه ونعتقد أن فيه شيئاً من العصر الاموي : « ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاسي بينهم الملف المصبوغ شتاء ... فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهر المفتحة في البطائح الكريمة » . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣

لم يتبعه الناس ، وكان اهلا لأن يقتدى به فالعلى لو لبست العمالة
لتركى الناس ، ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير(١٧) .

وكان القاضي سعيد بن سليمان الذى ولى القضاء فى عهد الامير
عبد الرحمن الاوسط يجلس للحكم فى المسجد وعليه جبة صوف
بيضاء ، ولى رأسه اقروف ابيض وقفارة بيضاء من نفس
القماش(١٨) .

وهذا مما يدل على عدم تقييد جميع افراد كل طائفة أو طبقة
بلباس أو زى معين ، وهدى حرية كل شخص فى اختيار ما يناسبه
من الملابس . بيد ان اللباس العلم الذى كان يلبسه الناس هو
الطيلسان الموصول به غطاء الرأس — مثل لباس المخارية الآن —
أو الطيلسان مع العمامة بالنسبة للقضاة والفقهاء فى غرب الاندلس .

وكان الشيوخ والمعلمون يغطون رؤوسهم بغطاء الطيلسان إذا
لبسوه ، أما العامة فيتركونه متدليا خلف رقبتهم . كما صنع البعض
القلائس من الخبز وكان يغطى بها رأسه كـ محمد بن بشير الذى كان

(١٧) الخشنى : قضاة قرطبة ص ٣٦ .

(١٨) قضاة قرطبة ص ٦٢ — ٦٣ ، المقتبس : ص ١٨٩ تحقيق
د. محمود مكى . يبدو ان الاقروف كان غطاء للرأس على شكل
مخروط . وأحيانا كانت كلمة الغفارة تطلق على البرنس أو نوع من
الطيلسانات (الأدب الاندلسى ص ٣٥) . وكانوا يطلقون على
القلائس اسم القلائس (القلائس) وكان يلبسها الفقهاء ، وكان
الفقيه المخلص مندهم هو الذى يحفظ الموطن أو عشرة آلاف حديث
والمدونة . (د. إحصان عيسى : تاريخ الأدب الاندلسى
ص ٦٥ — ٦٦) .

يُصلى الجمعة بالناس في جامع قرطبة وعلبه قلنسوة خز (١٩) وكانت القلائس غطاء للرأس عند أكثر الصلاة .

وكان الكثيرون يستعملون غفائر الصوف الد مرء أو الخضراء ، ويضعونها تحت القلائس ، ويتدلى جزء منها على القفا ، وكان اليهود لا يلبسون إلا الغفائر الصفراء تمييزاً لهم .

وكان كثيرون من العلماء يرخون ثوابات عمائمهم إذا ما تعمموا ، ولم يكونوا يجمعونها بين الأكفاف ، وإنما يسلطونها تحت أذنهم اليسرى (٢٠) . كما عرف البرنس وخاصة بين البربر البرانس الذين تعودوا عليه في بلادهم ، ويبدو أنهم نقلوه إلى الأندلس وانتشر بها (٢١) .

ويشير المقرئ إلى أن المنصور بن أبي عامر حجر على الخليفة هشام المؤيد بحيث لم يكن يراه أحد في الغالب حتى لا يلتف الناس حوله ، وكان إذا أركبه للنزهة جعل عليه برنسا ، وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن (٢٢) .

كما كان الأندلسيون يطلقون على الثوب اسم الحلة وتتكون من قطعتين الرداء والإزار ، وكانت تصنع من الكتان أو القطن أو الديباج أو من الحرير الموشى بخيوط ذهبية . وكانت هناك أنواع من الملابس الفاخرة مثل الفوشى اليوسفى والفوشى الهشامى يلبسها الخلفاء والأمراء وبعض القضاة والعلماء . فقد ذكر ابن حيان : أن الأمير عبد الرحمن الأوسط أراد أن يركب للنزهة مع بعض كرائمه على المعادة ، فطلب من

(١٩) الخشبني : قضاة قرطبة ص ١٨ ، ٢٠ .

(٢٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢ ص ٨ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٨٤ .

(٢١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٩ .

(٢٢) نفع الطيب ج ١ ص ٥١١ .

الراشدة العائمة على رأسه أن تدخل إلى خزانة الكسوة لتأتى برداء
يوسفى من افخر. انواع الوشى ، وترسل به إلى عريف الخياطين بال قصر
ليصنعه ثوبا بلبسه فى المنزهه فدا (٢٣) .

وورد ذكر الوشى الهشامى فى قول الشاعر سعيد بن مؤمن فى وصف
منية قنتيش (كنتيش) التى بناها عبد الرحمن الأوسط وما فيها من مبان
فاخرة :

ولابسة وشيا كان رقيقه رقيق الهشامى العتيق المتضد (٢٤)

وقد كان لتقدم صناعة النسيج فى الاندلس اثر كبير فى اهتمام اهلىها
بالزى واللباس ، حيث كانت هناك عدة مدن تشتهر بصناعة المنسوجات
المتنوعة ، وخاصة مدينة المرية التى كانت تعتبر مركز صناعة المنسوجات
الفاخرة من الدياج والسقلاطون والاصبهانى والجرجانى والمغلبى وغير
ذلك .

وكانت هذه المنسوجات — برغم أن بعضها يحمل مسببات مشرقية
— تصنع فى الاندلس وتصدر للشرق وأوربا التى شغف كثير من أمرائها
وملوكها بها حتى أن بعضهم طلب أن يكن فى ثياب اندلسية من صنع
هذه المدينة مثل الأمير دون فيليب وزوجته ، ودون رودريجو خيمنت
دى دارا (٢٥) .

وقد كان الاندلسيون يتخذون الخفاف ، ولبسوا الجباب والقباب
القطنية والسراويل ، وكانوا يطلقون كلمة الغفارة على البرنس ، أو نوع

(٢٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٦١ — ١٦٢ تحقيق د. مكى .

(٢٤) المقتبس : ص ٣٢٦ — ٣٤٩ . تحقيق د. مكى .

(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٦٠ ، د. مصطفى
الشكعة : الادب الاندلسى ص ٨٤ .

من الطيبات ذات الخطاء . وكلمة الأرجوان على الصوف الأحمر فقط رغم شمولها للأحمر من الصوف وغيره . وكلمة الخمار على ما تغطي به المرأة رأسها من شتق الحرير فقط رغم شموله لكل ما تغطي به المرأة رأسها من ثياب . كما كانوا يطلقون كلمة الجصافة على ما يجفنون به الماء أو غيره من قطع الثعالب ، وكلمة البيطير على قطعة الثعالب التي توضع حول عنق الطفل لنصون ثيابه من اللعب والأطعم (٢٦) .

وكان من زينتهم الخضاب بالحناء والكتم والكحل والتطيب بالعنبر والغالية وغيرها .

أما عن ملابس النساء فكان ملابهن الأناقة والذخالة والترف وخلاصة نساء الطبقة الراقية . حيث كن يفتن في لبس المصنوعات والمذهبات والديجيات من الثياب ، ويبلغن في زينتهن من التحلى بالذهب والجوهر بالإضافة إلى التطيب بأنواع الطيب المعروفة في ذلك الوقت (٢٧) .

يقول لسان الدين ابن الخطيب في وصف أهل قرطبة - وهو وصف يمكن أن نعممه على أهل الأندلس إلى حد ما حيث لا تتغير العادات والثقافة بين يوم وليلة - « صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير خادة ، وشعورهم مرسلة ، وقودودهم متوسطة معتدلة إلى القمر ، وألوانهم زهر مشربة بحمرة ، وأسنتهم فصيحة يتخللها إعراب كثير وتغلب عليهم الإمالة ،

(٢٦) د. لطفي عبد البريج : الإسلام في إسبانيا ص ١١٦ ، د. أحمد هكل : الأندلس ص ٣٥ .

(٢٧) انظر المقرئ : نفع الطبيب ج ١ ص ٧٠ حيث يذكر من أنواع الطيب العنبر الجيد المقدم على اجناسه في الطيب ، ومن أنواع البخور عود الانجوج الذي يضارع العود الهندي نكاه وعطر رائحة . ويذكر الزعفران أيضا ، وانظر البيان المغرب ج ٢ ص ٨١ ، ٩٢ ، ص ١١٣ ، ١٢٠ ، والخلة للسيرة ج ١ ص ٤٥ - ٤٦ .

، ويلبسهم الغالب على طرقاتهم الفاتسي بينهم اللث المصبوغ شتاء ، فتبصرهم
فى المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة ، وزى
جندهم فى القديم زى أقبالهم وأصدادهم من جيرانهم الإفرنج . وحريرهم
حريم جبيل موصوف بالحصن ونعومة الجسم ، واسترسال الشعر ، ونقباء
الثغر ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، وتبل الكلام ، وحسن المصاروة ،
يندر فيهن الطول ، ويبلغن فى التفنن فى الزينة والمظاهرة بين المصبلات ،
والنفايس ، بلذهيبت والتعيلجيات ، والتماجن فى أشكال الحلى إلى غاية
. نسأل الله أن يفض عنهن فيها من الدهر « (٢٨) » .

هذا وقد كان لقوم زرباب اثر كبير فى تطور الزى فى الأندلس
حيث أدخل كثيرا من التكاليد فى هذه الناحية ، ومنها أنه جعل لكل فصل
من فصول السنة ملابس مناسبة ، وجعل هناك جواعيد لللبسها فملابس
الربيع خفيفة ملونة من الخرز والدراريع التى لا بطانة لها ، وملابس
الخريف قريبة منها إلا أنها مبطنة ، أما ملابس الصيف فجعلها خفيفة
بيضاء ، وملابس الشتاء ثقيلة داكنة ، وإذا اشتد البرد لبسوا الفراء ،
ووجد عدل فى هبات الثياب وتفصيلها بقصرها ، وضيق أكابها بعد
أن كانت واسعة ، وأعطاهم هيئة جميلة (٢٩) .

كما ابتكر زرباب الملبأ جديدة لترتيب الشعر وتصنيفه فقد كان

(٢٨) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٣٥ القاهرة سنة ١٣١٩ هـ .

أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣ - ٤ ، ومن المعروف أن سكان
غرناطة كانوا خليطا من سكان الأندلس الذين التجأوا إليها بعد
سقوط الأندلس شيئا فشيئا ومن هنا يمكن التعميم .

(٢٩) انظر د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٥ - ٨٦ ، د. حسن
ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، د. حسين مؤنس : معالم
تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .

اهل الاندلس رجالا ونساء يرسلون الجبة مفروقة من وسط الجبين فينسدل شعرهم علما على الصدغين والحليبين ، فلها راوا زرياب واولاده ونساءه مقصرين شعورهم دون جباههم ، وقد سوهوا مع حواجبهم ، واداروها (٣٠) وراء اذانهم ، واسخلوها على اصدافهم هوت نفوسهم إلى ذلك واستحسنوه فآخذوا في تقصير شعورهم من الجانبين وإرسالها وراء اذانهم ، كما ابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه ومنها (تصفيفة الجبهة) وهى إزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازاة الحواجب كما يفعل بعض النساء اليوم .

كما ابتكر انواعا من العطور فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والذهن ومال إلى الى العطور المستخرجة من الزهور (٣١) .
وهكذا تحكم زرياب فى كثير من العادات الاجتماعية فى الاندلس من ناحية اللبس والازياء والزينة ، كما تحكم فى كثير من العادات من الطعام والشراب ، وآداب المجالس ، والموسيقى والغناء .
يقول لين بول « وتحكم زرياب فى الازياء والعادات كما كان يتحكم برونيس وبروميل الموسيم » (٣٢) .

-
- (٣٠) محمد ديلب : تاريخ العرب فى اسبانيا ج ١ ص ١٦٦ .
(٣١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٩٠ .
(٣٢) العرب فى اسبانيا ص ٧٩ ، بروفنسال : الحضارة الغريية فى اسبانيا ص ٧٠-٧٢ ، وبيرونيس او برون كان قصاصا يونانيا اشتهر بكتاباتة الساخرة واعجب به فيرون وضمه إلى حاشيته .
وبروميل انجلى ولد فى لندن سنة ١٧٧٨م وكان مشهورا بالاناقة ابتكر كثيرا من الازياء حتى لقب بملك الاناقة فى عصره وتوفى سنة ١٨٠٤م (انظر تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، الحضارة العربية فى اسبانيا ص ٧٠ هامش) .

ويقول المستشرق الإسباني بالفسيا : « لم يستهو زرياب أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بأدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته في إرسال شعره ، وولاته البديعة التي كان يفتن في ترتيبها فأخذ الناس عنه كل ذلك ، وأصبح ذوقه مقياساً لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذي يحتذ به القرطبيون في إعداد ملابسهم » (٣٣) .

ونستطيع أن نقول : إنه لم يستهو أفئدة أهل قرطبة فقط بل الأندلسيين بصفة عامة ، وإن ذوقه لم يكن مقياساً لأهل قرطبة فقط بل للأندلسيين على وجه العموم .



الأعياد والمواسم والخصلات

لم تمدنا المصادر بالكثير من الأخبار في هذا الصدد ، وإن كنا نستطيع من خلال الإشارات والروايات النثرية التي وردت أن نقول :
أنه كانت هناك أعياد دينية إسلامية شارك الأنطلسيون إخوانهم المسلمين في بقية العالم الإسلامي الاحتفال بها وعلى رأسها عيدي الفطر والأضحى .

وقد كان الأبراء والخلفاء يخرجون فيها لحضور الصلاة في موكب حافل إلى المصلى (١) ، ثم يعودون إلى قصورهم حيث يتوافد عليهم كبار رجال الدولة للتهنئة ، وما يتبع ذلك من ولاءم تقدم لهم ، وأعطيات وهبات تمنح لهم .

ويبدو أنهم أخذوا يحتفلون أيضا بالمولد النبوي بعد أن عرف الاحتفال به في المشرق وخاصة في مصر زمن الفاطميين (٢) ، ولعل ذلك

(١) كان من أشهر المصليات في قرطبة مصلى المصارة ومصلى الريض . وكان مصلى المصارة يقع على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير ، ولفظ (مصارة) انتقل إلى المغرب من الأندلس ، ويعني الفضاء السحيق الواقع خارج المدينة ، ويعد من متزهاتها ، ولم تكن المدن الأندلسية تخلو من مصارة يخرج إليها الناس للزخرفة في أيام الأعياد ، وما زالت هناك مواضع في أسبانيا تحمل نفس الاسم AL Muzara وكذلك في المدن المغربية أيضا .

أما مصلى الريض : فكان يقع على الضفة اليسرى من النهر جنوب قرطبة ، على مقربة من مصلى الريض ، وكان مصلى المصارة أقرب من الريض ، ولذلك كان الأمويين يملون به غالبا صلوات الأعياد والاستسقاء (انظر المقتبس ص ٢٩٣ — ٢٨٤) تحقيق د. محمود مكي .

(٢) السندوبي : تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي ص ٦٢ مطبعة الاستقامة بلقاهرة سنة ١٩٤٨ م .

برجع إلى تعظيمهم للنبي ﷺ بالاحتفال بمولده ودراسة سيرته الشريفة ،
وإلى الشعور الدينى القوى لديهم الذى أدى بهم إلى التحدى لإثبات وجودهم
فى هذه البلاد البعيدة التى تقع فى أوربا المسيحية ، وهذا يفسر لنا
تلك الظاهرة الواضحة التى تميزت بها الأندلس كدولة إسلامية فى
أوربا ، وهى ما يطلق عليه البعض ظاهرة (المشاركة والتحدى) .

وقد حرص الأندلسيون والمغاربية على الاحتفال به فى العصور
المتأخرة احتفالا كبيرا لإيقاظ الشعور الدينى وخاصة بعد تساقط
التواعد الإسلامية فى الأندلس واحدة إثر الأخرى وذلك على المستويين
الرسمى والشعبى بدواكب الشموخ التى لازلت موجودة حتى اليوم ببعض
مدن المغرب وخاصة مدينة سلا (٣) .

كما يذكر أنهم كانوا يحتفلون كذلك بهم عاشوراء بالصيام والتوسعة
على أنفسهم ولولادهم فى هذا اليوم . فقد ذكر ابن حبان وابن مغازى
والقرطبى : أن الفقيه عبد الملك بن حبيب كتب إلى الأمير عبد الرحمن
الأوسط فى يوم عاشوراء :

لا تنسى لا ينسك الرحمن عاشوراء

والذكره لا زنت فى الأحياء مذكورا

قل الرسول صلاة الله تسجده

قولا رجنا عليه الحق والتورا

فارغب فديتك فيما فيه رغبتنا

خير الورى كلهم حيا ومقبورا (٤)

(٤) د. أحمد العبادى : المسلمون فى ارض الأندلس : مجلة المختار من

عالم الفكر عدد (١) ص ١٤١ . الكويت سنة ١٩٨٤م .

(٤) المقتبس ص ١٨٤ - ١٨٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ ، البيان
المغرب ج ٢ ص ٢١١ . وقد ذكر القرطبى البيت الثالث بصيغة مختلفة ،
وأرجع ذلك إلى أنه قد نسى لفظه تطول المهد به فكتبه بالوزن .
والمعنى هكذا :

فمن يوسع فى إتفاق موسمه أن لا يزال بذاك العام ميسورا

ومن هذا نستشف أن الخلفاء والأمراء كانت لهم عطايا وهبات في هذا اليوم يوزعونها على بعض الناس .
وإلى جانب الأعياد الإسلامية فقد كانت هناك أعياد مسيحية شارك الأندلسيون الأسبان في الاحتفال بها مثل عيد الميلاد ، وعيد العنصره وخميس العهد او خميس إربيل الذى يسبق عيد الفصح بثلاثة أيام (٥) .
وقد أشار الطرطوشى إلى أن الأندلسيين كانوا في هذه الأعياد يتعاونون الفواكه والطوى من المجينات والاسفنج كالعجم تسلمها واعتبر هذا من البدع (٦) .

وكانت مشاركة المسلمين لأهل الذمة في هذه الاحتفالات على أساس من نظرة الاحترام والتسامح الدينى ، والحياة المشتركة التى عاشها المسلمون والمسيحيون هناك جنباً إلى جنب في المجتمع الأندلسى سنين طويلة .
وهناك أعياد قومية او شعبية ، مثل عيد العصير *Ata adr* الذى كان يحتفل به عند جنى محصول العنب ، وكان محصولاً رئيسياً ، فكانوا يقيمون في الحقول في جو يسوده المرح والفناء والرقص ، وهى عادة لازلت موجودة في إسبانيا إلى اليوم (٧) .

وقد كان هناك من النساء من يشارك الرجال في الاحتفال بهذه الأعياد ، حيث يشير كثير من المؤرخين إلى خروج المرأة للفرجة في أيام الأعياد ، وكن يذهبن إلى ساحة المصلى ، حيث يقمن الخيام للتفرج لا للصلاة كما يقول الطرطوشى (٨) : وقد ازدادت هذه الظاهرة وضوحاً في أواخر العصر الإسلامى بالأندلس .

-
- (٥) مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .
 - (٦) الحوادث والبدع ص ١٤٠ - ١٤١ .
 - (٧) المختار من عالم الفكر ص ١٤١ .
 - (٨) الحوادث والبدع ص ١٤١ .

فيقول لسان الدين بن الخطيب في وصف استقبال سلطان غرناطة
أبي الحجاج يوسف : « واختلط النساء بالرجال ، والتقى أرباب الحجا
بربات الحجال ، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح ، ولا بين حبر البنود
وحمر الخدود » .

ويقول في وصف نساء بحينة رندة « يلبس نسائها الموق (الخف) ،
على الألسد المرقوق ، ويسفرن من الخد المشقوق ، وينعشن قلب
المشوق ، بالطيب المنشوق » (٩) .

وبتضح من خلال هذه النصوص وأمثلة أن تحرر المرأة في
الآنديس وخاصة في العصور المتأخرة ، كان أكثر من بقية العالم
الإسلامي ، وذلك بحكم تأثير الجوار مع المسيحيين بعد سقوط قواصد
المسلمين في أيديهم . وبحكم إرغام الأسبان لهم على التنصر ، وممارسة
المعادات والتقاليد المسيحية ، فتنصر منهم من تنصر .

وبالإضافة إلى ذلك فقد احتفل في الآنلس بمعبدى النيروز
والمهرجان (١٠) .

(٩) د. أحمد المبادي : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب
والآنلس ص ٩٦ ، ١٠٠ .

(١٠) النيروز : من أعياد الفرس القديمة ، وهو بداية السنة عندهم
في فصل الربيع ، ويذكر البيروني أن أول من احتفل به الملك
جمشيد الفارسي ، حيث يقال : إنه لما فقد خاتمه ذهب عنه
ملكه ، ثم لما رد إليه بعد أربعين يوما عاد إليه الملك ، فقال
الفرس مهنتين (نوروز آمد) أي اليوم الجديد ، فسمى بذلك (الأتار
=)
(م ٢٠ - المجتمع الآنديسي)

البلقية عن القرون الخالية ص ٢١٧) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال
بهذين العيدين بمسد فتح بلاد فارس ، ثم عاد الاحتفال بهما شيئا
فشيئا ، حتى أصبحا من الأعياد الرسمية في العصر العباسي .
وفي صدر الإسلام لم يكن للأعياد الفارسية شأن عند المسلمين .
فيروى أن بعض الدهاقين من الفرس احتفلوا في خلافة علي
رضى الله عنه بهذا العيد ، وبعثوا إليه بهدية من الطوى على
عائتهم ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : إنه يوم نوروز قال : نوروزنا
كل يوم . (تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٣٦) .

أما عيد المهرجان : فقد كان الفرس يحتفلون به في آخر العام
ويسمونه (رز ، ير) أي محبة الروح ، وكان من أكبر أعيادهم ،
وكانوا يتخذونه ذبيحة على نهاية العام في فصل الشتاء ، كما
يتخذون النبروز ذبيحة على بدايته في فصل الربيع .

وقد نسبوا إلى سلمان الفارسي أنه قال : كنا على عهد الفرس
نقول : إن الله أخرج لعباده زينة من الساقوت في النوروز ، ومن
الزبرجد في المهرجان ، ففضلها على غيرها كفضل الباقوت
والزبرجد على سائر الجواهر . وهم بذلك يحاولون أن يجعلوا
له أصلا ، وهو قول مظهر فيه الوضع جليا .

وقد زعموا أن تعظيمهم لهذا اليوم يرجع إلى انتصار ملكهم
إفريدون على أزد هاك (الضحاك) بفضل نزول الملائكة لمساعدته ،
وكانوا يتهاونون فيه مثل النيروز وبدن فيه الملوك إلى الجند
كسوة الخريف والشتاء . (انظر : الآثار الباقية ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ،
التاج في أخلاق الملوك ص ١٥٥ ، د. طه ندا : فصول من
تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٦) .

ومما يدل على ذلك ما ذكره المأري : من أن عبد الرحمن الأوسط لما قدم زرياب إلى الأندلس بالغ في إكرامه ، وقرر له راتباً شهرياً ألفاً لكل من عيدي الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدي النيروز والفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدي النيروز والمهرجان . هذا المصنف والتبع والضياغ والبساتين التي وهبها له وقد رت بترعين ألف دينار (١١) .

ويصف عبد الرحمن بن عثمان الأصم وهو من شعراء عصر الناصر يوم المهرجان بقوله :

أرى المهرجان قد استقرا
فداة بكى المزن واستعبرا
وسرىك الأرض أفواها
وجلت السندس الأخضر
وهز الرياح سنابرها
فضوحت المسك والمنيرا
تهادى به الناس الطاهر
وسلمى القل به الكفرا (١٢)

وهذا يدل على أن الناس كانوا يتهادون فيه ، ويتنافسون في ذلك . ومن قول أبي جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد في وصف يوم المهرجان :

(١١) فتح الطيب ج ١ ص ١٦١ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٧ .
(١٢) جنوة المتنبس. ص ٢٧٦ .

يا حسن يوم المهرجان وطيه
يوم كما تهوى اغر محجل
سرح لحاظك حيث شئت فإنه
فى كل موقع لحظة فتابل (١٣)

والى جانب الاعياد فقد كان هناك فى الأندلس ما يمكن أن نطلق
عليه اسم اجازة رسمية ، فقد كان يوم الأحد من كل أسبوع بمثابة
عطلة للموظفين . فقد ذكر ابن حبان (٤٦٩ هـ) فى ترجمته لقومس
ابن أنتيان كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان نصرانياً فأسلم فى
آخر حياته « أنه كان أول من سن لكاتب السلطان وأهل الخدمة تعطيل
الخدمة فى يوم واحد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره ، وكان
أول من دعا الى ذلك لنفسه فيه ، فقتبعه جميع الكتاب طلباً للراحة
والنظر فى أمورهم ، فانتخبوا ذلك ومضوا إلى اليوم عليه » (١٤) .

ويشير ابن سينا العللى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن
الثامن الهجرى إلى ذلك فى كتابه (الزهرات المنورة فى نكت الأخبار
الماثورة) حيث يقول عن المنصور بن أبى عامر « أصبح المنصور صبيحة
أحد وكان يوم راحة أهل الخدمة الذين أعفوا فيه من الخدمة فى مطر
وابل » (١٥) .

ويبدو أن هذا اليوم كان مادة مسيحية انتقلت بعد ذلك إلى

(١٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(١٤) المتنبس ص ١٢٨ وحاشية رقم ٢٦٨ تحقيق د. محمود مكى بيروت
سنة ١٩٧٣ م .

(١٥) انظر نفع الطيب ج ١ ص ٤١٧ ، المختار من ملام الفكر ص ١٤٠ .

الأتلسيين كما نراه اليوم حيث يتخذ الكثيرون وخاصة في مصر من يوم
الاحد يوم عطلة لهم .

وهذا يدل على أن التقليد الذي سنة (تومس بن انتينان) في
اتخاذ يوم الاحد عطلة رسمية للكتاب وأهل الخدمة قد ظل معمولاً
به في عصر المنصور وحتى أيام ابن حيان الذي توفي سنة ٤٦٩ هـ ، ويبدو
أنه ظل معمولاً به بعد ذلك .

ولقد جرت عادة الأتلسيين على الاحتفال بأعيادهم ومواسمهم
وحفلاتهم بوسائل شتى مثل البغناء والموسيقى والرقص ، وألعاب الفروسية
وسباق الخيل ، فضلاً عن الاحتفالات الدينية التي تقام في المساجد
والأربطة والزوايا ، وكذلك القصور والبيوت حيث يتلى القرآن الكريم ،
وتلقى القصائد الشعرية المناسبة ، إلى جانب الأناشيد والموشحات
الدينية ، وطغيات الذكر التي قد يصاحبها العزف على بعض الآلات
مثل الشبابة والبراعة ، والضرب على الدفوف ، وتوزع فيها الأطعمة .
وهذه الاحتفالات في مجوعها تتشابه في مظهرها العام مع الاحتفالات في
المشرق إلا أنها تختلف في بعض التفاصيل التي تتفق مع البيئة
المطيلة (١٦) .



الحفلات

وإلى جانب الاحتفال بالأعياد والمواسم فقد وجدت هناك الحفلات المتنوعة مثل حفلات الزواج والولاد والختان وغيرها . ولم تمدنا المصادر إلا بإشارات بسيطة لا نستطيع من خلالها أن نجلى هذا الموضوع أو نؤميه حقه . وكل ما ورد مجرد جمل أو سطور معدودة لا تشبع نهما .

نفى عنلات الزواج مثلا : لم تثر المصادر التي رجعنا إليها — بالرغم من كثرتها — إلا إلى زواج المنصور بن أبي عامر من أسماء بنت غالب الناصري صاحب مدينة سالم في عهد المستنصر حيث يقول المقري « وكان أعظم مرس بالأندلس » (١) . ومن هذه العبارة يتضح لنا مبلغ الترف والبلذخ الذي كان في هذا العرس بالرغم من عدم ورود تفاصيل عنه . وفي حفلات الختان ، عثرنا على إشارات بسيطة . حيث ذكر ابن عذاري أنه في سنة ٣٢٠هـ صنع الناصر صنيعا كبيرا بمناسبة فتح طليطلة ، ووافق ذلك تطهيره لبعض أولاده (٢) .

ونذكر المقري : أن المنصور بن أبي عامر قد احتفل بختان ولده عبد الرحمن شنجول (٣) . ولا شك أنه كان يقوم بذلك (أزين) أو المطهر، وقد يجلب في الاحتفال بعض المغنين وأصحاب اللعب والفكاهة . وتقدم

(١) فتح الطب ج ١ ص ١٨٧ ، بنيت هذه المدينة في الثغر الأوسط سنة ٢٣٥هـ في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان يشرف على بنائها غالب الناصري ، وتزينها الكثير من المسلمين (البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٤) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) فتح الطب ج ١ ص ٢٤٨ .

فيه الهدايا لوالد الطفل ، وتتسام فيه الولائم ، وتوزع الأطعمة ابتهاجا
بهذه المناسبة .

وفي حفلات الميلاد : روى أن الحكم المستنصر لم يرزق بولاد نكور
قبل تقلده الخلافة ، وكاد أن يياس من ذلك حتى رزق سنة ٣٥٤ هـ بولد
من جزيرته صبح البشكنسية نسـم بذلك سرورا عظيما ، وإقام احتفالا
كبيرا حضره كبار رجال الدولة يهتفون وبلقرن القصائد الشعرية . ومن
ذلك قول جعفر المصنى الحاجب :

أطلع البدر من هجابه

وأطرد السيف من سرايه

وجاننا وارث الممالي

ليثبت الملك في نصيبه

بثنا سيد السرايا

ونعمة الله في كتابه

لو كنت أعطى أنيسر نفسي

لم ألقن حقا لى به (٤)

وسائل الفهر والتسليفة

لا شك في أن الحياة المترفة التي عاشها الكثيرون في الأندلس ،
وخاصة في الطبقات العليا ، قد اقترن بها فراغ كبير كان لابد
من شغله . فمنهم من شغله بالعبـل الجاد والعلم النافع والعبادة ،
ومنهم من شغله باللوان مختلفة من ضروب اللهو والتسليفة واللعـب .
وقد كان الغناء والموسيقى على رأس هذه الوسائل حيث شغف
به معظم الأندلسيين كما قدما ، وكنت له مجالسه التي تعد في القصور
والمنى والمنزهات ، ويتجمع فيها الكثيرون لسماع المذنين والمغنيات .

(٤) د. خالد الصوى : تاريخ العرب في إسبانيا ص ١٧ .

كما كان الصيد والقتل من هذه الوسائل أيضا ، وقد كان كثير من الأمويين يخرجون في رحلات للصيد ، ومنهم عبد الرحمن الداخل الذي كان كلما به في أوقات فراغه . فقد ذكر ابن الأثير نقلا عن أبي الفرج الجبائي صاحب كتاب (الحداثي) : أنه أثناء في بعض غزواته أت من كان يعرف كلفه بالصيد فأخبره أن هناك مجموعة من الغرائق (٥) واقعة في جيب من معسكره وحته على الخروج لصيدها مرفض قتلها :

دعني وصيد وقع الغرائق
فإن هني في اصطيد المارق
في نفق إن كان أو في حلق
إذا التفت لأفاح الضوايق
كان لقامى ظل بفد خفاق
فنيث عن روض وقصر شاهق (٦)

ومنهم أيضا الحكم بن هشام المتعب بالريض الذي كان شغوفا بالصيد واللهو والقتل أيضا . وكان هذا من الأسباب التي اتخذها الفقهاء لإثارة الناس ضده وإسماعهم ثورة الريض (٧) . وكذلك ابنه عبد الرحمن الأوسط الذي يقول منه ابن حبان : « وكان

(٥) الغرائق : جيع غرنوق وهو طائر مائي أسود أو أبيض ، وقيل الكركي ، وقيل يشبهه .

(٦) الحلة السيرة ج ١ ص ١١ والنفاع والنفسة ما يتلف به من رداء أو قناع أو غيره .

(٧) ابن الأثير : الكابل ج ٦ ص ٢٩٨ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٧٣ .

يخرج للصيد ، ويقعد للأنس مع جواريه ، ويستمتع للأغاني «(٨) .
وقد ذكر الرازي أن عبد الرحمن الأوسط خرج مرة لصيد الغرائيق ،
التي كان مولعا بها فابعد ، وكان ذلك في فصل الشتاء ، ومعه ابن الشمر
الشاعر فقال :

ليت شعري أم حديد خلقنا
أم نضنا من صخرة صماء
كل عام في الصيف نحن غزاة
والغرائيق غزونا في الشتاء
إذ نرى الأرض والجلبد عليها
واقع مثل شقة بيضاء(٩)

ويذكر ليهي بروفنسال : أنه كان يخرج في رحلات مع حاشيته
للصيد بالصقور ، وخاصة في سهل الوادي الكبير الذي تطل عليه
قرطبة ، وأنه كان يحب صيد الغرائيق ، ويجب ملاحظة طائر البركي بصفة
خاصة لأنه كان أكثر الطرائد طلبا(١٠) .

كما كانت هناك رحلات صيد للأمير عبد الله بن محمد في جهة
عدوة النهر الأعظم بقرطبة(١١) .

وهذا يدل على مبلغ حب الأمراء للصيد ، وخروجهم إليه في رحلات
منتظمة .

وإلى جانب رحلات الصيد فقد كانت هناك رحلات للنزهة

(٨) المقتبس من ٢٢٤ تحقيق د. مكي .

(٩) ابن سعيد المغربي : المغرب في جلي المغرب ج ١ ص ١٢٥ .

(١٠) الحضرة العربية في أسبانيا ص ٦٣ .

(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٦ .

يخرج فيها الأمراء ومعهم بعض أهلهم مع الحاشية . ومن أمثلة ذلك ما يذكره 'ابن حيان : من أن الأمر عبد الرحمن الأوسط طلبت منه بعض كرائمه النزهة على مقتضى العادة ، فأمر حاجبه عيسى بن شهيد بالنظر فيما تحتاج إليه هذه النزهة على أن تم رسمها ، والتعجيل بذلك للتحرك في صبيحة اليوم التالي ، وطلب من الرائدة أن تأتيه من خزانة الكسوة برداء يوسف من الوشي ليصنع منه عريف الخباطين بأقمصر ثوبا يليسه في هذه النزهة ، ولكنه لم يقدر له ذلك حيث توفي بعد صلاة المغرب ، فصار كفننا له (١٢) ،

ويذكر أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط خرج إلى الرصافة يوما للنزهة ومعه هاشم بن عبد العزيز الوزير ، فكان بها صدر نهاره على لذته ، فلما حل الظلام انصرف إلى القصر وبه اختلاط ، فقال له هاشم : يا ابن الخلائف ما أطيب الدنيا لولا الموت فقال له : يا ابن اللغناء لحننت في كلامك ، وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا بالموت ، فلولا الموت ما ملكناه أبدا (١٣) .

كما كانت هناك ألعاب للرياضة والفروسية مثل اللعب بالصولجان وسباق الخيل فقد ذكر ابن عذارى : أن الحكم الرضى كان يلعب بالصولجان في القصر ، فجاءه الخبر بأن جابر بن لبيد محاصر لمدينة جيان ، وكان أحد الخارجين عليه (١٤) .

ويذكر ابن عذارى أيضا : أنه في سنة ٣٤٧هـ في عهد الناصر خرج القائد أحمد بن يعلى صاحب الشرطة غازيا بالأسطول إلى المغرب لقتال

(١٢) المقتبس من ١٦١ - ١٦٣ .

(١٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ من ١١١ .

(١٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ من ٨١ .

الفاطيين ، وكان خروجاً فخياً ، فخرج الكثيرون من أهل قرطبة رجالاً ونساء وأطفالاً لمشاهدة العسكر وهم يهرون من الرض ، وأخذ العوام والغوغاء يتقاذفون بالحجارة محلكين صفى القتال ، فدخل بينهم قوم من الطنجيين من جند السلطان وحرشوهم ، فحصى الرمليس والناس يشاهدون ذلك ، فتغلب فريق على الآخر ، فمال الطنجيون على المنهزمين ، فنهبواهم ومن حولهم من المتخرجين ، وسلبوا النساء ذابهم ، فلبخن يتوارين فى الجبول حياء وخجلا حتى يمين وقت الفتر (١٥) .

وهذا شبيه بما يحدث فى عصرنا من تجهج الكثيرين لمشاهدة مرور مركب من المواكب الرسمية ، أو عرض عسكري أو رياضى ، وما قد يحدث نتيجة للتزاحم والاختلاط من مآلث وأحداث .

كما يبدو أنه وجدت فى الأندلس لعبة الشطرنج وإن كنا لم نعتز على أمثلة لها فى العصر الأموى إلا أنه قد وجدت مخطوطة لألفونسو الحكيم (١٦) . فيها رسم للعبة شطرنج معقدة . ومن المدهف أن العرب قد اقتبسوا الفرد والشطرنج من الفرس ،

(١٥) ابن المخرّب ج ٢ ص ٢٢٢ .

(١٦) ألفونسو العاشر ابن فرناندو الثالث ملك قشتالة تولى الحكم فى مايو سنة ١٢٥٢م ولقب بالحكيم أو السلام لشغفه بالعلوم والآداب ، له المدونة الكبرى فى تاريخ إسبانيا أو تاريخ إسبانيا العام وقد اعتد عليه على مصادر مرمية كثيرة . وكانت له صلات بكثير من علماء الأندلس وتلقى منهم الكثير . (انظر عنان : نهاية الأندلس ص ١٠٤ ، ص ١٦٩) . (د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ١٦٩) .

وأنخلوا عليهما إضافات وتحسينات ، ثم انتقلت هاتان اللبعتان إلى أوروبا واحتفظت ببعض الأسماء العربية (١٧) . وإذا كان الشطرنج قد عرف في المشرق فلا شك وأن يكون قد انتقل إلى الأندلس أيضا ، كما عرف في أوروبا .

أما عن مصارعة الفيران : فالواقع أن العصر الأموي لم يشهد هذه الرياضة العنيفة حيث لم ترد إلينا نصوص تفيد ذلك ، وأول إشارة وردت إليها تعود إلى عصر الموحدين ، حيث ذكر أن الخليفة أبو يعقوب يوسف كان يروض الإبقار ، وأن حبسه انتهت بطعنة من قرن بقرة في صدره فقتل سنة ١٢٣٠هـ/١٢٣٢م ، ثم وردت إشارات كثيرة بمد ذلك من لسان الدين ابن الخطيب مؤرخ غرناطة وابن زمرك شاعر الحمراء في القرن الثامن تعطينا معلومات مفيدة عن هذه الرياضة (١٨) .

كما كان هناك ما يشبه حدائق الحيوان في عصرنا . حيث يروى أن الخليفة الناصر عندما بنى مدينة الزهراء اتخذ فيها محلات للوحوش فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومساح للطيور مظلة بالشباك (١٩) . وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أماكن يقصدها أرباب اللهو والسوق . حيث يذكر ابن عذاري أن الحكم الربضي أمر بهدم فندق كان بالرياض ، وكان مقبله من أهل الإضرار والفسق ، ونستطيع أن نستشف منه أن هذا الفندق كان مكانا يجتمع فيه أهل اللهو والفساد لممارسة متعهم الدنيوية . وبصف ابن عذاري هشام بن عبد الجبار فيقول إنه أظهر من الخلافة

(١٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(١٨) انظر المختار من عالم الفكر ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(١٩) المقري : نفع الطبيب ج ١ ص ٢٧٠ .

والمجون ما لم يظهره احد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابية ،
ومائة بوق للزهر ، ومائة عود لضرب ، وكلن له غلام صقلبي يتعشقه
عند ابن الزيت العطار ، ويبحث إلى نساء كان يصلحين منهن جارية تسمى
بستان كانت لأبى القاسم المصرى الخيلى ، وامرأة أبى الشرح وتسمى
واجد ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله امر لا يظهر إلا من أهل
الدعارة المنتهكين فيها . ولم يزل طول مدته مشغرا بالفسق مظهرا للخلاعة ،
لا يفيق من سكر ، ولا يرموى عن منكر بالنساء والصقلبة واللاهى حتى قال
بعضهم فيه :

امير الناس سخرة كل عين
بييت الليل بسين مضنين
يجثم ذا ويثم خد هذا
ويسكر كل يوم سكرتين
قد ولوا خلافتهم سفيها
ضعيف العقل شيئا غير زين

وقد هجاه كثير من الشعراء . يقول ابن عذارى « وقيل فيه كثير
من هذا يطول الكتاب به » (٢٠) .

ومن الواضح ان مجالس اللهو والشراب كانت من الظواهر الموجودة
فى المجتمع الاندلسى وخاصة فى وادى إشبيلية ، فشير الشقندى فى
رسالته فى تفضيل الاندلس على المغرب إلى ان هذا الوادى لا يخلو
من مسرة ، وأن جميع ادوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكرة ، لا ناه
عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤد السكر إلى شر وعريضة (٢١) .

(٢٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ ، ج ٢ ص ٧٦ - ٨٠ .

(٢١). القرى : تنح الطبيب ج ٤ ص ١٩٩ .

ويذكر القرى : أن أهل الانطلس كان لهم فى الترف والنعيم والمجون ومداورة الشعراء خوف المجهل محل وثير المهاد (٢٢) .

والحقبة أن المجتمع الانطلسى قد اتسم بالحدة والتطرف فى نظريته للأشياء . فقد وجدت : ثبات كلها علم وزهد وتقى ، كما وجدت إلى جانبها بيئلت أخرى مالت إلى التحرر ، البلى والزلف والمجون ، وعاشت حياة صالحة لاهية . وانساقى الكثيرين مع هذا التيار العاكث الذى بينهم .

ونحن إذا قرأنا ما نظمته الشعراء الانطلسيون من شعر الضمير والفزل لخبل إلينا أن المجتمع الانطلسى لم يعرف غير ذلك ، ونرى المجهل إذا قرأنا ما نظموه فى شعر الزهد والتصوف وما ألفه العلماء من ذلك نلت لقلنا إن هذا المجتمع كان كله مجتمع زهد وتقوى وصلاح وعلم .

ولكن هذا المجتمع جمع بين هذين الجانبين شأن أى مجتمع آخر مع الاختلاف النسبى بين مجتمع وآخر فى ناحية من النواحي .



المرأة ونورها

لعبت المرأة في المجتمع الأندلسي دورا لا بأس به ، وبرزت بعض النساء في مجالات شتى سياسية واجتماعية وثقافية ودينية .

وتدل الكثير من الشواهد على أن المرأة في الأندلس كانت تتمتع بقدر من حرية الحركة ، والمشاركة في الحياة العلمية أكثر من قريبها في المشرق (١) .

وقد كانت نساء الأندلس على وجه العموم أشبه شيء بنساء المشرق من ناحية التعليم والحجاب ، فمن ناحية التعليم كان أكثرهن أميات ، ومن ناحية الحجاب فقد غلب على الحرائر منهن ، أما الإماء والسراري فكان يسهرن من وجوههن غالبا ، ولذلك يذكر أن ولادة بنت المستكفي لما جالست الرجال ، وشاركهم في الشعر والأدب قبل ذلك منها بشيء من الاستهجان والاستغراب (٢) .

ولم تمدنا المصادر بالكثير عن المرأة في المجتمع الأندلسي وخاصة الحرائر ، وسنحاول من خلال الأخبار القليلة التي عثرنا عليها أن نتبين كيف كان وضع المرأة في هذا المجتمع .

لقد كثرت الجوارى في المجتمع الأندلسي نتيجة لكثرة الحروب والمعارك التي خاضها المسلمون ضد الممالك المسيحية في أسبانيا وبلاد الفرنجة ، وكذلك عن طريق تجار الرقيق الذين كانوا يأتون بهم من أماكن شتى في أوروبا وغيرها . ويقول المراكشي عن المنصور بن أبي عامر : « وملا الأندلس غنائم وسببا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم »

(١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٤٦ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠ .

... الخ « (٣) . ويذكر ابن الأبار أنه في إحدى غزواته لمملكة جليقية سنة ٣٧١ هـ عاد بأربعة آلاف سبية (٤) .

وامتلات بيوت المسلمين في الأندلس بالأسبانيات وغيرهن ، حيث تزوجهن الكثير من العرب والبربر ، وكان لبعضهم تأثير كبير على أزواجهن وأولادهم من النسل المولد من ناحية العادات والتقاليد واللغة وغير ذلك .

كما كان لبعض الجوارى وإمهات الأولاد تأثير ونفوذ على بعض الأمراء والخلفاء والكبراء . ويشير ابن حزم في بداية الفصل الأول من كتابه (طوق الحماة) إلى جانب من الحياة العالمية للأمراء الأندلس وخلفائهم فيقول « وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير منهم باندلسنا ، عبد الرحمن بن معاوية لدمجاء ، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتقاره بصبح أم هاشم (هشام) المؤيد بالله وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها وأما كبار رجائهم ، ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصوا .
وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كف المظفر عبد الملك بن أبي عامر بواجد بنت رجل من الجنائين (البستانيين) حتى حمله حبها أن يتزوجها ... الخ « (٥) .

ومن الأمثلة التي وردت ما ذكر من أن الحكم الرضي كان شغوفا بخمس جوار عنده قد اختصن لنفسه ، وملكهن أمره ، فذهب يوماً

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ .

(٤) الحلة السرياء ج ١ ص ٢١٦ .

(٥) طوق الحماة ص ١٩ - ٢٠ .

للدخول ملين فأعرض منه وكان لا يصبر منهن فقال :
قصب من البان ماست فوق كتيان
أعرضن عني وقد أزعمن هجراني
ناشحتهن بحقي فأعترزن علي
الهجران حتى خلا منهن هيماني
ملكنتي ملك من نلت عزيمته
للحب ذل أسير موثق عاني
من لي بمقتصات الروح من بنى
فصبتني في الهوى عزى وسلطاني
ولما مدن عليه بالوصل قال :
نلت كل الوصال بعد الجهاد
فككتي ملكت كل العباد
وتشاهى السرور إذ نلت ما لم
يفن فيهن تكاثف الأجناد (٦)
ويذكر أن من شعره فيهن قوله :
ظل من فرط حبه مساكنا
ولقد كان قبل ذاك يدعى مليكا
إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلما
وبعادا يئنن هما وثيكا
تركته جانرا القصر صبا
مستهما على الصعبد تريكا
يجمل الخد مسائلا فوق ترب
وهو لا يرتضى الحرير أريكا

(٦) الحلة المسيرة ج ١ ص ٥٧ .

(م ٢١ - المجتمع الأنجلو)

هكذا يحسن التمثيل للحمر

إذا كان في الهوى مملوكا (٧)

ومن أمثلة ذلك أيضا (طروب) جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط وأم وئده عبد الله التي وصلت إلى درجة كبيرة من النفوذ والسلطان ، نظرا لشغفه بها . بحيث ذكر أنها كانت تبرم الأمور مع نصر الخصى ، ولم يكن الأمير يرغب لها طلبا . ويقال إنها دبرت مؤامرة مع هذا الخصى لقتل عبد الرحمن حتى تصير الإمارة من بعده إلى ولدها عبد الله بدلا من محمد الذي كان من جارية أخرى تدعى بهين (٨) . وبالرغم من انكشاف هذه المؤامرة ، ومعرفة الأمير بما كانت تضمه له إلا أنه لم يعاقبها وظل على حبه لها (٩) .

ويذكر أنه بلغ من حبه لها أنها هجرته يوما ولزمت حجرتها فأراد

(٧) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠ ، ويذكر ابن الأبار هذه الأبيات بشيء من الاختلاف في بعض الالفاظ ويقول : وله في النسب ثم يذكرها ولا مانع من أن يكون النسب فيهن . (انظر الحلة السيرة ج ١ ص ٩٩) .

(٨) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

(٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٧٦ - ٧٧ ، ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ١٣٠ . ويشك د. حسين مؤنس في هذه المؤامرة مستدلا على ذلك بأن الأمير لم يغضب على طروب ولم يعاقبها . ونقول إنه لا غرابة في وقوع هذه المؤامرة فمثلها كثير في عصور التاريخ المختلفة . والسبب في عفو عنها هو حبه الشديد لها كما ذكرنا ، وعين الرضى عن كل عيب قليلة كما قال الشاعر .
(انظر الحلة السيرة ج ١ ص ١١٤ هامش ١) .

ان يرضاهما بعد ان تمنعت عليه فلما بسد باب حجرتها ببدر الدراهم
من الخارج . ولما رضيت فتحت الباب فتساقطت البدر داخل الحجرة
فاخذت في جيعها ثم اقبلت عليه واكببت على رجله تتبئها (١٠) .

كما يروى انه اعطاها عقدا قيمته عشرة آلاف دينار ، ولما استمظلم
بعض وزرائه ذلك قال : ويحك ان لابس العقد لنفس خطرا ، وارفع
تسرا ، واكرم جوهرًا ... الخ » (١١) .
ويذكر ان له فيها شعر يقول فيه :

فقدت الهوى مذ فقدت الحبيب

فما اتطع الليل إلا نحيبا

ولما بدت لي شمس النهار طالمة نكرتني طروبا

فيا طول شوقي إلى وجهها

ويا كبدا أورتها نديا

ويا احسن الخلق في مقلتي

وأوفرهم من فؤادي نصيبا

لكن حال دونك بعد المزار من بعد ان كنت مني قريبا

لقد أورت الشوق جسمي الضنى

وأضرم في القلب مني لهيبا

(١٠) القرى : نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٨ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩٢ .

ويذكر ابن عذارى ان مقدار هذه الدراهم كان مشرين الف
درهم .

(١١) ابن الأبار : الحلة للسيرة ج ١ ص ١١٦ وقد ذكر القرى انه اعطاها
حلياً قيمته مائة ألف دينار (نفع الطيب ج ١ ص ١٦٣) .

عداني عنك مزارا فعدا

وقدوى إليهم لها ما أهيأ (١٢)

وذكر ابن سعيد المغربي أنه في إحدى غزواته جاءه طينها في المنام فاشفق إليها ، فاستخلف على الجيش قائدا ، ورجع إلى قرطبة للقائها (١٣) .

ولكننا نعتقد أن أمثال هذه الروايات فيها شيء من المبالغة فلا يمكن أن تصل الأمور به إلى هذه الدرجة - مهما بلغ حبه لها - بحيث يترك جيشه ويعود إليها مجرد أنه رأى طينها في المنام .

صحيح أن عبد الرحمن كان كثير الأولاد ، حيث بلغ عدد أولاده مائة كما يقال - خمسون من الذكور وخمسون من الإناث - (١٤) ، ووصفه الكثيرون بأنه كان مولعا بالنساء شديد الميل لهن ، ولكن بالغ البعض في ذلك مبالغة شديدة لا تتفق ومقاله كحاكم أو أمير مسلم .

(١٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ وقد أورد ابن عذارى هذه الأبيات ابتداء من البيت الأخير وبعمده الثمانية أبيات الأخرى التي ذكرها ابن الأبار ولم نذكرها خشية الإطالة وقال ابن عذارى : إن عبد الرحمن قالها عندما خرج لغزو مملكة جليقية سنة ٢٣٥هـ ، ولكنه أخطأ فقال عبد الرحمن بن الشهر وصحتها ابن الحكم وربما كان هذا خطأ مطبعيا (البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ - ٨٦) .

(١٣) المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٤٧ .

(١٤) انظر : ابن حبان : المقتبس ص ١٤٩ تحقيق د. مكى ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٥١ - ٥٢ ، نفح الطيب : ج ١ ص ٢٢٤ . ابن سعيد : المغرب ج ١ ص ٤٧ . وقد ذكر ابن سعيد أنه كان لا يتخذ منهن ثيابا البتة .

، ومثال ذلك ما ذكره المقرئ من أنه بلغ من حبه للنساء أن وقع على جارية في شهر رمضان كان يحبها ، فجمع الفقهاء وسألهم عن كفارة ذلك فقال له يحيى الليثي كبير الفقهاء : تكفر بصيام شهرين متتابعين ، فسكت بقية الفقهاء ولم يقولوا شيئا حتى انصرفوا ، فسأل بعضهم يحيى لماذا لم تنفقه بهذهب مالك في التخيير ؟ قال : لو فتحنا هذا الباب له سهل عليه أن يطا كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود (١٥) .

فلا يمكن لحاكم مسلم أن يفطر عبدا في نهار رمضان من أجل جارية هي ملك يمين له في أي وقت من الأوقات في غير نهار رمضان .
ومن المبالغات أيضا قول بعض المستشرقين « إن عبد الرحمن ملك عليه ابنه طوال حياته أربعة : نقيه ومغن وجارية وعبد » (١٦) .

ويذكر أنه كان لمبعد الرحمن جوار أخريت منهن : (النساء) التي اعتقها وتزوجها ، وكانت جميلة نقيّة عاقلة خرجت معه في إحدى غزواته فمرضت فاعادها إلى قرطبة ، ماتت في الطريق ودلنت في قرية مجاورة لطليطلة . وجارية أخرى تدعى (مدثرة) اعتقها وتزوجها كذلك (١٧) .

وجارية ثالثة تسمى (فخر) وهي التي انطفئت بخبر المؤامرة التي دبرت ضده بعد أن أخبرها الحراني الطبيب الذي كلّفه نصر بوضع

(١٥) نفع الطبيب ج ١ ص ٢٥٨ .

(١٦) لين بول : قصة العرب في أسبانيا ص ٧٦ ، يقصد بالفتية يحيى الليثي كبير الفقهاء ، وبالمغنى زرياب ، وبالجارية طروب ، وبالمبعد نصر الخصى .

(١٧) نفع الطبيب ج ١ ص ١٦٢ .

السم في شرابه . بالإضافة إلى جواريه المغنيات (فضل وعلم ،
وقلم) (١٨) .

ويروى أنه كان للخليفة عبد الرحمن الناصر جارية تسمى الزهراء .
كان شغوفا بها ، وبلغ من شدة حبه لها أن بنى لها مدينة سماها
باسمها عندها طلبت منه ذلك . فقد ذكر الكثير من المؤرخين أن الناصر
ماتت له سرية وتركها مالا كثيرا فأمر بأن يفتدى به أسرى المسلمين لدى
الإفرنج ، فلم يوجد أسرى فنشكر الله ، وقالت له جاريته الزهراء :
اشتيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى فبنّاها
تحت جبل العروس شمال قرطبة (١٩) .

وهذه أيضا من مبالغات المؤرخين الشبيهة بالقصص الخيالية ،
والواقع أن الناصر كان شغوفا بالبناء فرأى أن يؤسس مدينة جديدة تليق
به ويدولته بعد أن تلقب بالقباب الخلافة . يقول ابن خلدون : « ولما
استحل ملك الناصر صرف همه إلى تشييد القصور والمباني » (٢٠) .
ومما يدل على حبه للبناء لتخليد ذكره تلك الأبيات التى تنسب إليه :

هم الملوك إذا أرادوا نكرها
من بعدهم فبالسن البنيان
أوما ترى الهرمين كم بقيا وكم
ملك محقه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تماظم قدره
اضحى يدل على عظيم الشأن

-
- (١٨) الحلة السبراء ج ١ ص ١١٤ هليش ١ ، البيان المغرب ج ٢
ص ٩٣ ، دة الشكعة : الألب الأندلسى ص ٤٤ .
(١٩) انظر المقرئ ج ١ ص ٢٤٥ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣١ .
(٢٠) فتح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

كما كانت للناصر جارية تدعى مهرجان أو مرجانة استولدها ابنه
الحكم ، واطلق عليها لقب (السيدة الكبرى) . ذكر أنها أرادت أن
تبهج الناصر يوما ، فاشتريت زرزورا وعلمته أبياتا من الشعر حتى إذا
جلس الناصر للفصد ذات يوم في بهو المجلس الكبير المشرف على مدينة
الزهراء ، وبدا الطبيب في العمل أطل الزرزور وصعد على إناء من ذهب
واخذ يردد : **أيها الفاصد رفقا بلير الزينينا**

إنما تصد عرقا فيه محيا المائنا

فسر الناصر بذلك واستظرفه ، وسأل منه فذكر أن أم ولده هي التي
فعلت ذلك ، فوهب لها ما يزيد على ثلاثين ألف دينار (٢١) .

كما كان لصبح البشكنسية (٢٢) حظية الخليفة المستنصر ، وأم
ولده هشام نفوذ كبير في حياة زوجها وبعد مائة عام على ابنها
الخلافة وهو غلام صغير في العاشرة من عمره سنة ٣٦٦هـ ، وكان
الحكم قد تقدمت به السن دون أن يرزق بولد قبل الخلافة — يذكر أنه
وصل إلى السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين — وبعد تقذه الخلافة
بأربع سنوات رزق بهشام من حظيته صبح فسر بذلك سرورا عظيما وجعلها
أم ولده وسبت مكانتها عنده (٢٣) .

(٢١) المعبر ج ٤ ص ١٣٧ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢٢) كان اسمها بالأسبانية أورورا ، ويعنى صبح بالعربية ، وكان الحكم
يناديهما بحعفر تدليلا لها (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ ، د. خالد
الصوفي : تاريخ العرب في أسبانيا (عصر المتصور الأندلسي)
ص ٣٥) .

(٢٣) يذكر البعض أن الحكم كان قد رزق بولد سماه عبد الرحمن سنة
٣٥١هـ ولكنه توفي طفلا صغيرا . (انظر ابن الأبار : الحلة
السيراء ج ١ ص ٢٠٠-٢٠٣ هامش ١) .

وقد اتخذت من محمد بن أبي عامر الذي لقب بالمنصور كاتباً لها ووكيلاً للنظر في أموالها وضياعها ، واستطاع بها لدبه من المؤهلات أن ينال إعجابها بسحر حديثه وهداياه ، حتى أن الحكم كان يقول لخواصه « إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهم به » (٢٤) . وخاصة بعد أن ولى دار السكة فكان يتفق ببذخ على حساب خزانة الدولة للوصول لأهدافه . فيروى أنه صاغ لها تمثالاً من الفضة على هيئة قصر أنفق فيه مالا كثيراً ، حتى أخذ الناس يتحدثون بشأنه زمناً طويلاً . وقد أعجبت به صبيح أيتها إعجاب ولما تحدثت السعاة إلى الحكم بذلك ، لم يجد ابن أبي عامر سبيلاً إلا رد قيمته ، فاعترضها من صديقه الوزير ابن حدير حتى ترتفع عنه الشبهة (٢٥) .

وبالرغم من ذلك فإن الشبهات أخذت تثور ، واتسع المجال للتأويل من العلاقة بين المنصور وبين صبح ، حتى قيل إنه كانت تربطها به صلة عاطفية ، وأن ذلك كان وراء ما يلغى من نفوذ ومكانة (٢٦) .

وأياً ما كانت صحة ذلك ، فقد استطاع المنصور أن يصل إلى مرتبة الحجابة — بمثابة رئاسة الوزارة — بعد أن تخلص من منافسيه بوسائل عديدة ، وسيطر على الخليفة الصغير وحجر عليه ، واستبد بالأمور في الدولة حتى استطاع أن يؤسس ما اصطلح عليه البعض باسم الدولة المأمورية التي كانت بمثابة دولة داخل الدولة الأموية (٢٧) .

ويذكر أن الحكم كان شديد الكلف بصبح ، فعندما أخرج في غزوته

(٢٤) ابن بسام : الذخيرة القسم الرابع ج ١ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢٦) د. خالد الصوفي : عصر المنصور الأتليسي ص ١٩ ويعدها .

(٢٧) د. خالد الصوفي : المرجع السابق ص ٢٤ ويعدها .

المرونة (بسنت اثنتين) سنة ٣٥٢ هـ اكرت من التلق به والمزن
للزرافه فقال منتعبرا :

عجبت وقد ودعتها كيف لم اهد
وكيف انثت عند الفراق يدى معى

فيا مقلتى المعبرى عليها اسكى دما
ويا كبدى الحرى عليها تقطعى (٢٨)

وكما تمتعت زوجت الخلفاء بشىء من النفوذ فقد كان لبعض
زوجات الطبقات الاخرى نفوذ أيضا مثل (تكلمت البربرية) زوجة
محمد بن زياد اللخمي قاضى الجاعة بقرطبة فى عهد عبد الرحمن
الأوسط ، وكانت كما يقول ابن حبان « ذات دالة عليه على ما تنفع له
الزوجات الحظيات » (٢٩) .

وقد كان الكثيرون يتنافسون فى إقتناء الجوارى مناسفة شديدة
ووصلت إلى حد الغيرة والقتل . فقد ذكر ابن الأبار : ان مروان بن محمد
ابن مروان بن عبد الرحمن الناصر كان يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها
له ، ثم استأثر بها ، فاشتدت غيظه لذلك ، وانتهل فرصة خلوا أبوه
جمعها فقتله ، فاعتقل وسجن فى عهد المنصور بن أبى عامر مست عشرة
سنة ، ثم أطلق سراحه فسمى (بالظليق) ، وكان أدبيا شاعرا مكثرأ
تشبهه ابن حزم بابن المعتز من بنى العباسى فى ملاحه شعره وحسن
تشبيبه (٣٠) .

(٢٨) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .
(٢٩) المقنيس ص ٢١٠ تحرق د. محود بكى ، وقد ذكرها الخفنى : كذات
بدون تاء فى البداية انظر (قضاة قرطبة ص ١٠٦) .
(٣٠) الحلة السيرة ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

وإلى جانب الدور الذى لعبته المرأة فى الحياة السياسية فقد لعبت دورا مهما كذلك فى الحياة الاجتماعية وخاصة الجوارى المغنيات اللاتى كان لهن اثر كبير فى مجال الغناء والموسيقى ، والملابس والأزياء والزينة ، وغير ذلك . كما كان للأسبقيات دور كبير فى إدخال الكثير من العادات والتقاليد إلى بيوت المسلمين الذين تزوجوهن . كما شاركت بعض النساء مشاركة ايجابية عن طريق إنشاء بعض المؤسسات الدينية كالمساجد وغيرها مثل محب جارية الخليفة الحكم الرضى التى اقامت مسجدا نسب لها فى غربى قرطبة ، واقامت مقبرة عرفت باسمها أيضا ، ومثل جاريته متعة التى اقامت مسجدا أيضا على نفقتها نسب إليها (٣١) . ومثل طروب جارية عبد الرحمن التى ينسب إليها إقامة مسجد بالريش الغربى فى قرطبة (٣٢) .

كما شاركت بعض النساء أيضا فى مجال الحركة العلمية . فيذكر المراكشى أنه كان فى الريش الغربى من قرطبة مائة وسبعون امرأة لئنسخ الإصحاف بالخط الكوفى (٣٣) . وكان هناك بعض النساء اللاتى تعلمن وتفقهن فى الدين وتدرس الأدب .

وكان كثير من الخاضعة يعينون مؤدبات لبناتهم . فيذكر خوليان ريبيرا : المستشرق الأسبائلى أنه كان لبنى خزم — وهم غير أسرة ابن حزم الفقيه المشهور — مدرسة من أشهر مدارس قرطبة — يقصد مكتبا — يدرس

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٢٢٧ .

(٣٢) طوق الحيلة ص ١٩ هامش ١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٣ .

(٣٣) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ٢٤٨ ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦١ .

فيها الأب للصبيان والابن للفتيان والبنت للفتيات وذلك في القرن الثالث
تقريباً (٣٤) .

كما كانت بعض النساء ترحل للتعلم خارج الاندلس مثل راضية مولاة
عبد الرحمن الناصر التي اعتنقها ابنه الحكم ، وتزوجها لييب الفتى المقلبي
وحجاً معها ولقيا جماعة من العلماء أخذوا عنهم ، ونسخا مجموعة من الكتب
وقد توفيت في حدود سنة ٤٨٣هـ (٣٥) .

ومن النساء اللاتي برزن في مجال الأدب الشاعرة حسنة التميمية
بنت أبي الحسن الشاعر وكنت من أهل البيرة ، وقد تأدبت على أبيها
ولما توفى ذهبت إلى الحكم الريفي وبحتة بأبيات منها :

إني إليك أبا العاصي موجهة

أبا الحسين سقته الواكف الدميم

قد كنت أرتع في نعيمه عاكفة

فاليوم أوى إلى نعيمك يا حكم

أنت الإمام الذي انتقاد الأنام له

وملكته مقاليد التهي الأمام

عليها وقف الحكم على شعرها استحسنة — وكان يفرض الشعر —
وأمر بإجراء راتب عليها ، وكتب إلى عامله على البيرة ، تجهزها بجهاز
حسن (٣٦) .

(٣٤) التربية الإسلامية في الاندلس من ١٦٢ -

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ١٣٥٤ طبعة الدار المصرية للتأليف
والترجمة ، التربية الإسلامية من ١٦٢ .

(٣٦) انظر نفع الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ص ٤٨٨ ، د. أحمد
هيكل : الأدب الاندلسي ص ٢٠٦ - ٢٠٧ . وانظر عن شاعرات
الاندلس د. الشكعة : الأدب الاندلسي ص ٢١٩ وبمعدا -

ومن اللاتي برزن في مجال الادب كذلك الشاعرة حفصة بنت حمدون
المجارية وكان من شواعر الانثى في المائة الرابعة ، من وادي الحجارة
ومن شعورها في الغزل :

لي حبيب لا يفتني بعتاب
وقذا ما تركته زاد فيها
قال لي هل رايت لي من شبيه
قلت ايضا وهي ترى لي شبيها (٣٧)

ومن النساء اللاتي اشتهرن بالعلم والزهد ايضا : البهاء بنت
الامير عبد الرحمن الأوسط ، وكانت من خيرات نساء بنى امية ، وقد اشتهرت
بالزهد والتبتل والعبادة ، ويذكر انها كانت تكتب المصاحف وتحبسها
على المساجد ، وينسب إليها مسجد باسمها من مساجد الرصافة وقد
توفيت سنة ٣٠٥هـ (٢٨) .

وكذلك عابدة المدينة جارية ابن حصون الوليد بن حبيب المرواني ،
وكانت جارية سوداء اهديت إليه عندها حج ، وقد اشتهرت برواية
الحديث عن الإمام مالك وغيره حتى قيل : إنها كانت تسند عشرة آلاف
حديث . أي تحفظها بسندها — وقد أعجب بها الوليد ، وقدم بها إلى
الانثى ، فتزوجها واستولدها ابنه بشر (٣٩) . الذي صرف بالحبيبي
وأصبح من المشهورين بقرطبة ، وكانت له ابنة تسمى عبدة اشتهرت
بالرواية عنه ايضا (٤٠) .

وليس من شك في أن إتاحة الفرصة للمرأة الانثى في مجال
العلم والثقافة قد سفل من شخصيتها ، ووسع من مداركها واتق
تذكرها ، وجعلها تحتل مكانة مرموقة في مجتمعا .

-
- (٣٧) ابن سعيد : المغرب في طي المغرب ج ٢ ترجمة ٣٥٧ .
(٣٨) ابن حيان : القتبس ص ٢٦٣ تحقيق د. محمود مكي ، ابن عذاري :
البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .
(٣٩) القتبس ص ٢٢٨ .
(٤٠) خوليان ريرا : التربية الإسلامية في الانثى ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

الحالة الاقتصادية

الحصالة الاقتصادية

موقع الأندلس ومناخها :

وصف كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة بلاد الأندلس بأوصاف كثيرة من نواحى شتى . فقد ذكر الرازى - وهو أحد مؤرخى الأندلس المنقذين (ت ٣٤٤ هـ) - « أن الأندلس تقع فى إقليم الرابع من الأقاليم السبعة التى هى ربع معمور الدنيا . فهى موسطة البلدان ، كريمة البقعة بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مخصبة القساعة ، منبسجة الميرون الثراء ، متجرة الأنهار الغزار ، قليلة الهوام ذوات السبوم ، معتدلة الهواء أكثر الأزمان ، لا تزيد قيطها زيادة منكرة تضر بالأبدان ، وكذا سائر فصولها فى أعم سنها تأتى على قدر من الاعتدال ، وتوسط الحال » (١) .

وأنها على شكل مثلث يعتمد على ثلاثة أركان الأول عند قادس ، والثانى ما بين أربونة وبرذيل شرقا ، والثالث ما بين الشمال والغرب من إقليم جليقية (٢) .

وقال عنها ابن حوقل الرحالة الشيعى الذى زارها فى القرن الرابع الهجرى : « وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية ، والشجر والثمار ، والرخس والبسعة فى الأحوال ، من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التهلك الفاشية فيها ، ولما هى به من أسباب رغد الميث وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة

(١) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٧٠ .

(٢) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

بثؤنتهم وصلح معاشهم ويلادهم» (٢) .

وقال أبو عبيد البكري (ت ٨٧هـ) — الذى يعتبر من أوائل الجغرافيين الذين أنجبهم بلاد الأندلس — : « الأندلس شالية فى طبيها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى مطرها وذكائها ، أهوازية فى عظيم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عذنية فى منافع سواحلها » (٤) .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « خص الله بلاد الأندلس من الربع وغدق السقيا ، ولذاذة الآتوات ، وفراة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر المبران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض الوان الإنسان ، ونبل الأذهان وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام التمدن والاعتبار بها حرمة الكثير من الاقطار » (٥) .

ونكر أبو بكر بن عبد الحكم المعروف بابن النظام : أن الأندلس منذ علماء أهلها أندلسان : فالأندلس الشرقى ما صبت أوديته إلى البحر الرومى (البحر المتوسط) ما بين مرسية إلى سرقسطة ، والأندلس الغربى ما صبت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالبحر المحيط (المحيط الأطلسى) .

ويضيف البعض إلى هذا التقسيم قسما ثالثا هو وسط الأندلس الذى يضم من المدن قرطبة وطليطلة وجيان والمرية والمقسة وغرناطة .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٩٨ .

(٤) نفسه ج ١ ص ٦٣ .

(٥) المرجع نفسه ج ١ ص ٦٤ .

أما شرق الأندلس فتقع فيه من المدن الكبرى مرسية وبلنسية
ودانية ومرقسطة ، ولما غرب الأندلس فتقع فيه اشبيلية وماردة واشبونة
(لشبونة) (٦) .

البيئة الطبيعية :

الأندلس عبارة عن شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من
أوروبا ، تحيط بها المياه من كل جوانبها ما عدا الجانب الشمالي الشرقي
حيث تفصلها جبال البرانس - أي المضايق - (الپيرينية - البرانس)
عن فرنسا .

ويبلغ طولها نحو ألف ومائة ميل ، وعرضها نحو ستمائة ميل .
وتتألف من هضبة كبرى تسمى (مسينا) تشغل جزءا كبيرا من مساحتها ،
ومجموعة من السلاسل الجبلية التي تطوقها ، ومن أشهرها في الجنوب
جبال (سيرا مورينا) أي سلسلة الجبال الحمراء ، ومن أهم جبال هذه
السلسلة جبل قرطبة المعروف عند المؤرخين العرب باسم (جبل
العروس) (٧) . وتتمثل هذه الجبال بين الهضبة الكبرى والسهل
الجنوبي الكبير المنبسط حتى أقصى الجنوب . وترتفع في السهل الجنوبي
سلسلة جبال أخرى تسمى (سيرا نيفادا) أي سلسلة الجبال الثلجية ،
وتمتد في شرق الهضبة الكبرى سلسلة جبال أخرى هي الجبال الأيبيرية ،
وتتصل هذه السلسلة بين الهضبة وبين السهل الشرقي المنبسط حتى

(٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

(٧) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزعة الشقاق
ص ٢٠٨ ، الحميري : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب
الروض المعطار ص ٥٣ ، المقرئ : نفع الطبيب من غصن الأندلس
الطبيب ج ٢ ص ٦٥ .

(م ٢٢ - المجتمع الأندلسي)

ساحل البحر المتوسط . وفى شمال الهضبة تمتد جبال أخرى هى جبال (كاتنا برسيا) أو القنطرية كما تعرف فى المصادر العربية . وتلى هذه الجبال من الشمال بعض الأقاليم السهلية الضيقة ، ثم تنحدر الهضبة ناحية الغرب حتى تنتهى إلى السهل الغربى الكبير .

وتجرى فى الأندلس عدة أنهار أهمها نهر الوادى الكبير - الذى لا يزال معروفا بهذا الاسم فى أسبانيا حتى اليوم مع شئ من التحريف حيث يسميه الأسبان : (جواد الكبير Guad al Quivir) ويروى أراضي السهل الجنوبى ويمر بقرطبة وإشبيلية ويصب غربا فى المحيط الأطلسى ، ونهر التاجة ويسميه الأسبان التاخة ، ويمر بوسط الهضبة الكبرى ، وعليه تقع مدينة طليطلة ، ونهر دويرة فى الشمال منها ويطلق عليه الأسبان اسم دور ، وينحدر نحو الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى .

وهناك أنهار أخرى تصب فى البحر المتوسط ، ومنها نهر إبرة الذى تقع عليه مدينة سرقسطة ، ونهر شقر الذى يسميه الأسبان - خوكر - وعليه تقع جزيرة شقر التى كانت مصدر إلهام للكثيرين من الشعراء .

ونهر سجورا أو شقورة الذى يخترق مدينة مرسية ، ويروى قسما كبيرا من أراضي شرق الأندلس . وهناك أنهار أخرى صغيرة ، وعيون وآبار كثيرة اعتمدت عليها الزراعة إلى جانب مياه الأمطار والثلوج التى تعتمد عليها الزراعة أساسا فى منطقة الهضبة الوسطى (٨) .

(٨) انظر : د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ للأندلس ص ٣٥ وبعدها ،

د. أحمد هيك : الأدب الأندلسى ص ٦ - ١٠ .

د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ١٥ - ١٦ .

دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ - ٤ .

وهكذا نرى أن طبيعة الأندلس ليست واحدة ، وإنما هي مكونة من سهول وهضاب وجبال وأودية ، ففيها المناطق الخصبة ، والمناطق الجبلية القاحلة ، وليس كما صورها الكثير من الشعراء على أنها جنة ليس فيها لا السهول الخضراء ، والحقول الخصبة ، والحدائق الغناء . ونظرا لأن المسلمين قد نزلوا بالمناطق الخصبة وأقبلوا عليها وتركوا المناطق الشمالية الجبلية التي تقع ضمن الهضبة الكبرى ، وأصبحت هي مركز المقاومة الإسبانية المسيحية ضد المسلمين لاسترداد البلاد شيئا فشيئا . فقد تصور الكثيرون أن الأندلس عبارة عن جنان وارفنة ومياه غزيرة وبساتين مثمرة كما يقول الشاعر الأندلسي ابن خفاجة الهواري (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) الذي عاش في عهد المرابطين : ولقب بالجنان لكثرة موصنه للرياض والبساتين :

إن للجنة بالأندلس

مجئى حسن ورياً نفس

فسنا صبحتها من شنب

ودجى ليقتها من لعل

وإذا ما هبت الريح صبا

صحت واشوقى إلى أندلس (٩)

وتوله :

يا اهل أندلس لله دركم

ماء زرع واشجار وانهار

ما جنة الخلد إلا في دياركم
ولو خيرت هذه كنت أختار
لا تصبروا بعد ذا أن تدخلوا سعرا
فليس تدخل بعد الجنة النار (١٠)
ومثل الشاعر الذي يقول :
حبذا اندلس من بلد
لم تزل تنفج لي كل سرور
طائر ثمد وظل وارف
ومياه سائحك وقصور (١١)

ومن هنا نتبين أن شبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة والمناخ
من إقليم لآخر نظرا لاتساعها الكبير ، وقد أدى هذا الاختلاف إلى التنوع
في حاصلاتها الزراعية .

الزراعة :

كان المسلمون عند فتحهم لبلاد من البلاد ملحا يتركون الأرض
بإيدي أهلها في مقابل أداء الخراج عنها ، وذلك حتى يتفرغوا لمواصلة
فتوحاتهم لنشر الإسلام ، أما إذا فتحوها عنوة وعدل القائد أو الخليفة من
تقسيمها على المحاربين ، ووقفها على مصالح المسلمين ، فيؤخذ عنها
الخراج أيضا .

أما إذا قسمت الأرض بين المحاربين المسلمين ، فإنها تعتبر أرضا

(١٠) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

(١١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٢٤ .

دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٨ .

عشرية ، ولا يوضع عليها الخراج (١٢) . وعندما فتح المسلمون الأندلس .
نضوا على النظام الذى كان مسادا فى عصر القوط حيث كلفت الاراضى
فى يد صند قليل من الاشراف والنبلاء ورجال الكنيسة ، بينما كان سائر
السكان من المزارعين بمثابة الاقنان الذين يعملون فى هذه الاراضى
لصالح تلك الفئات الغليظة .

فأخذ الفاتحون فى تجزئة الملكيات الكبيرة إلى ملكيات صغيرة ، وزعت
على الفاتحين إلى جانب سكان البلاد الآخرين الذين أصبح لهم حصة
التصرف فى هذه الأرض . وكان ذلك عللا مهما فى تحقيق فكرة التضامن
الاجتماعى بين السكان .

وأصبحت هذه الملكيات الصغيرة ركنا أساسيا فى دعم النهضة
الزراعية بالأندلس . وكان ملك الاراضى من المسلمين والمسيحيين واليهود
وغيرهم يؤدون بالتساوى ضريبة الخراج . وكان هذا أيضا من العوامل
التي ساعدت على تقدم النشاط الزراعى . ومنذ ولاية السج بن مالك
الخولانى (١٠١هـ) أصبح ملك الأرض والمزارع نفسه شريكين فيها ، وكذلك
أصبح العرب شركاء للكثير من الأسبان بعد توزيع الاراضى بين عسرب
الشام والبلديين فى ولاية أبى الخطار اليبنى سنة ١٢٥هـ على أثر توزيع
الشاميين على كور الأندلس إلى جانب البلديين (١٣) .

وقد استطاع المسلمون فى الأندلس أن يوفقوا بين بيئتهم القديمة
وبين البيئة الجديدة التى استقروا فيها ، ولم يكن تقدمهم فى مجال

(١٢) انظر : الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢١ ، د . حسن

ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٧٢ - ٧٤ .

(١٣) انظر : ابن الأبار : الحلة السجاء ج ١ ص ٦١ - ٦٢ ، د . منى

حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٧ - ٤ .

الزراعة باقتل من تقدمهم في مجال الحرب والجهاد ، ونجحوا في تحويل
أجزاء كبيرة من الأراضي المقفرة بالأنطلس إلى أراضٍ صالحة للزراعة (١٤) .
كما أدخلوا محاصيل جديدة من المشرق مثل التخييل والرمان الذي
أدخلت زراعته من الشام — وخاصة من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام
ابن عبد الملك — في عهد عبد الرحمن الداخل واستطاع سفر بن عبيد
الكلاعي وكان من جند الأردن ، تهجين نوع منه ينسب إليه يسمى بالرمان
السفري . ويصف ابن حبان هذا النوع بأنه (الموصوف بالفضيلة المقدم على
أجناس الرمان بعذوبة الطعم وغزارة المساء وحسن الصورة ، وكذلك
النارنج الذي لا زال يعرف في الأسبانية بنفس الاسم Nakangi (١٥) .
والقطن الذي انتقلت زراعته إلى الأنطلس في القرن الثالث الهجري ،
واشتهرت عدة بلاد بزراعته وعلى رأسها إشبيلية ، وكذلك التفاح الذي
تكرر زراعته في جبال سيرانيفادا ، والبطيخ السندی الذي لا زال يعرف في
الأسبانية باسم ساندبا Sandba (١٦) .
كما أدخلت زراعة قصب السكر حيث ينهم من كتابات بعض المؤرخين
الأنطلسيين مثل الرازي وعريب بن سعد القرطبي أنه كان ينتج بكميات
كبيرة بالأنطلس في القرن الرابع الهجري ، وكان من أهم مراكز زراعته
البيرة ، ومالقة ، وإشبيلية (١٧) .

-
- (١٤) د. منى حسن محمود : المسلمون في الأنطلس ص ٢٠٨ .
(١٥) عبد الحميد الشرقاوي : الحياة الاقتصادية في الأنطلس في القرن
الرابع الهجري ص ٦٠ .
(١٦) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢١٧ ، د. السيد سالم : قرطبة
حاضرة الخلافة ص ٥٠ ، محمد دياب : تاريخ العرب في أسبانيا ج ١
ص ٦٨ — ٦٩ .
(١٧) تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٣ ، ٣٨٤ .

وكذلك الأرز الذي أدخلت زراعته في شرق الأندلس وخاصة في منطقة بلنسية التي تعتبر اليوم هي المستودع الرئيسي للأرز في أسبانيا ، وتشتهر بنوع من الطعام يقوم عليه ويسمى (بائليا Paella) .
ويلاحظ ان كلمة أرز قد انتقلت إلى اللغة الأسبانية بنفس اللفظ Arroz وكذلك أدخلت بعض الخضروات التي لازالت تحتفظ بأسمائها العربية أيضا كالباذنجان والفرشوف والزيتون والزعفران ، والسلق وغير ذلك (١٨) .

وقد كانت أكثر حاصلات البلاد مما تجود زراعته في حوض البحر المتوسط مثل القمح والشعير والقمح والكتان والأرز والبقول والموالح والكروم والزيتون والموز والتين والخوخ وغيرها . يقول الرازي مؤرخ الأندلس : « وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم » (١٩) .
هذا إلى جانب الغابات الكثيرة المنتشرة في أنحاء البلاد مثل أشجار اللوط والسنديان والصنوبر وغيرها (٢٠) .

وكان مما ساعد على تقدم الزراعة بالأندلس في العصر الأموي الاهتمام بشؤون الري مثل إنشاء الترع والجسور ، وشق القنوات ، وإقامة القناطر إلى غير ذلك .

(١٨) الحبيري : الروض المعطار ص ٢١ — ٢٤ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٠ ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

(١٩) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٨٣ .
(٢١) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ ، د. مني حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٩ .

وهناك ظاهرة طبيعية أحسن المسلمون استغلالها في الأندلس في
الأندلس في مجال الزراعة ، وهي كثرة تساقط المياه من المرتفعات الجبلية
فكانوا يوسعون القيعان حتى تصبح أحواضا فسيحة تمتلئ بالمياه ، وترفع
منها بالنواعير (السواقي) لتستخدم في الري . ولا تزال إحدى هذه
القيعان (الأحواض) قائمة حتى اليوم في جنوب بلنسية بأسبانيا (٢٢) .

ومما يدل على إبداع المسلمين في مجال الري (محكمة المياه)
التي كانت تعقد ن الأهالي لتنظيم توزيع المياه على الفلاحين ، وهي
محكمة أهلية لا تدخل للحكومة بها ، وكان حكمها نافذا على الجميع ،
وما زال هذا التقليد معمولا به في بلنسية حتى اليوم حيث تعقد المحكمة
كل يوم خميس عند الظهر في نفس المكان القديم الذي كانت تعقد فيه
بجوار مسجد المدينة الذي تحول بعد الاستيلاء عليها من الإسبان إلى
كنيسة . ويلاحظ في هذا الصدد أن أسماء كثير من أدوات الري والزراعة
قد دخلت في اللغة الإسبانية ولا زالت إلى اليوم مثل الناعورة *Noria*
والمساقية *Acequia* (٢٣) . كما كانوا يستخدمون الدواليب ومنها نوع
كانوا يسمونه (الخطارة) (٢٤) .

وقد وضع الأمويون تقويما للزراعة عرف (بالتقويم القرطبي) أصبح

(٢٠) القرى : نفع الطبيب ج ١ ص ٧٠ .

(٢٢) د. حسين مؤنس : رحلة الأندلس ص ٢٧٥ ط ١ مطابع كوستا
توماس القاهرة سنة ١٩٦٤م .

(٢٣) د. سعيد عاشور وآخرون : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية
العربية ص ٣٧٧ .

(٢٤) انظر : الخشنى : قضاة قرطبة ص ٧٦ .

فليلا تحدد على أساسه مواعيد زراعة الحاصلات المختلفة ، ولخذه عنهم .
غيرهم من الأمم (٢٥) .

كما عرف الإنطسيون (نظام القرب والتخيل) لإعداد الأرض .
للزراعة ، واستخدموا الثيران في حراث الأرض ، وكانوا يسمون المحصول
باسم (الرئح) ، ويسمون المرمى باسم (المجر) (٢٦) .

وقد وجد هناك نظام إقطاع عسكري حيث يعطى جنود الجيش
أراضي تقطع لهم ليزرعوها بأنفسهم أو من طريق غيرهم ، ويتمشون
منها . وظل هذا النظام — كما يبدو — معمولاً به حتى جاء المنصور
ابن أبي عامر فاستبدله بنظام الأرزاق والرواتب في الجيش ، وقد أساد
هذا النظام الجديد في القضاء على العصبية القبلية والجنسية بين فرق
الجيش المختلفة من عرب وبربر وصقالبة ، وظل الحال على ذلك حتى جاء
المرابطون فأعادوا نظام الإقطاع العسكري من جديد في القرن الخامس .

ويتصل ذلك بالطروشى فيقول : « وسبعت بعض شيوخ الأندلس
من الأجناد وغيرهم يقولون : ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم ،
وابر العدو في ضعف وانقراض لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد ،
فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ، وبربونهم كما يربى التاجر تجارته .
وكانت الأرض ماهرة ، والأموال وافرة ، والأجناد متوافرين ، والكراع
والسلاح فوق ما يحتاج إليه ، إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر ،
فرد عذاباً الجند مشاهرة بقبض الأموال ، وقدم على الأرض حياة يجيئونها
فأكلوا الرمايا ، واجتاحوا أموالهم واستضعفهم ، فنهالت الرمايا ،
وضعفوا من العبارة ، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان ، وضعت

(٢٥) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ .
(٢٦) انظر : الخشنى : قصاة قرطبة ص ٩٣ ، المراكسى : المعجب .
ص ٢١ .

الاجناد وقوى العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ، ولم يزل
امر المسلمين فى نقص وامر العدو فى ظهور إلى أن دخلها الملتئون
(المرابطون) فردوا الإقطاعات كما كان فى الزمان القديم «(٢٧) .

وقد اشتهرت الأندلس بكثرة رياضها وبساتينها وجنانها العابة التى
كانت متاحة للجميع يتمتعون بها ، ولذلك فقد تميز الأندلسيون بنزعة
جمالية ، وميل كبير لحب النبات والورود والأزهار وزراعة الأشجار .
ونلمس ذلك بوضوح فى البيوت والدور ، فضلاً عن المعائر والقصور ،
بل حتى فى أنفحة المساجد . ودليل ذلك أن مذهب الأوزاعى الذى
اعتنقوه قبل مذهب مالك كان يبيع غرس الأشجار فى صحن المسجد ،
ورغم تحولهم إلى مذهب مالك فى الأعم الأغلب الذى لا يجيز ذلك ، إلا أنهم
ظلوا فى هذه المسألة على مذهبهم السابق . ويتضح ذلك من قول
ابى الحسن النباهى « ومن المسائل التى خالف فيها أهل الأندلس تعديها
مذهب مالك بن أنس ، هى أنهم أجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها
وهو مذهب الليث بن سعد ، ولجازوا غرس الأشجار فى المساجد وهو
مذهب الأوزاعى »(٢٨) .

ولازالت هذه العادة موجودة فى إسبانيا إلى اليوم حيث توجد
أشجار اللبىون والبرتقال فى صحن جامع قرطبة ، وفى بعض الكنائس
أيضاً(٢٩) .

(٢٧) سراج الملوك ص ٢٩٩ .

(٢٨) المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ١٢٩ . نشر لطفى
برونفسال القاهرة سنة ١٩٤٨م .

(٢٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٩٩ .

الصناعة :

أما عن الصناعة بالأندلس فقد كان للمسلمين أيضا أثر كبير في نهضتها وترقيتها وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل منها :

١ — استغلال المسلمين لثروات البلاد الطبيعية ، وبذلهم جهودا كبيرة في هذا المجال (٣٠) .

٢ — روح التسامح التي أبداهها المسلمون تجاه أهل الحرف والصنائع .

٣ — تشجيع المسلمين للصناعة والابتكار فيها لصناعة ما تحتاج إليه البلاد .

ويرى ابن خلدون : أن رسوم الصناعات في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة ، وطول أمدها ، ويتخذ من الأنديس مثالا فيقول « كالحال في الأنديس لهذا العهد . فإننا نجد فيها الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها ، كالمباني ، والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار ، وتنضيد الفرش في القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء ، وصوغ الآنية من المعادن والخزف ... وسائر الصنائع التي يدعو إليها الفرف وعوائده ... وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوم الحضارة فيها برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جـرا نبلفت الحضارة فيها مبلغا لم يبلغه في تطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضا لطول أمد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت

(٣٠) أشار المقري إلى كثير من هذه الثروات في نفح الطيب ج ١

جميع اصنافها على الاستجادة والتعظيم» (٢١) .

وهكذا احتضن المسلمون حضارة الاسبان وشملوا اهل المصنامة والفنون المختلفة برعايتهم وعنايتهم ، وظل الصنائع وارباب الحرف المختلفة يسرون في نفس الطريق الذي كانوا يسرون فيه من قبل مع بعض التغيرات الطفيفة في تكييف منتجاتهم ونقا لما يقتضيه الوضع الجديد ، ثم ما لبث اكثر هؤلاء ان وجدوا انفسهم يخالطون المسلمون ، ويشاركونهم ويتعاملون معهم ، فاقبلوا على الثقافة العربية ، ودخل الكثير منهم في الاسلام ، وتحقت بذلك النقطة الحضارية الهائلة في العصر الأموي وخاصة في عصر الخلافة ، وصيغ في ذلك العصر فن اسلامي اندلسي اخذ يتدرج في النبو والتطور (٢٢) .

وإذا أردنا ان نتحدث عن بعض الصناعات في الاندلس فإننا نجد
بها :

صناعة المنسوجات : التي انتشرت في انحاء كثيرة من البسلاد نظرا لتوافر المواد الخام اللازمة لها من القطن والكتان والحرير والصوف ، وكذلك الاصباغ اللازمة . فقد كان القماش المعروف باسم (بوتلون) يصنع في مدينة شنترين غربى الاندلس بالوانه المتغيرة (٢٣) . كما كان

(٢١) المقنبه ص ٢٨٢ فصل في ان رسوخ الصنائع في الامصار إنسا هو برسوخ الحضارة وطول امدها .

(٢٢) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٧٨ .

(٢٣) قيل : في تفسير كلمة (بوتلون) انها اسم للحرير باليونانية ، وقيل : انها اسم دابة بحرية لها وبر كانت تعيش في المحيط الاطلسي غرب الاندلس ، وكانت تحك بحجارة الشاطئ ، فيقع منها ويسر في لين الحرير ولون الذهب ، فيجمع وينسج في مدينة شنترين فيلبا تتلون بعدة الوان (المقدسى : احسن التقاسيم ص ٢٤٠ ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢٢١) .

يصنع في الأندلس أيضا النسيج الحريري المعروف باسم (المتابي)
الذي انتقلت صناعته من العراق إلى الأندلس (٣٤) .

ولقد ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية في الأندلس نظرا لكثرة
اشجار التوت . حيث يشير المؤرخ الأندلسي عريب بن سعيد القرطبي
(ت ٣٦٩ هـ) إلى قيام النساء بقرية دود القز ، ورعاية بيضه ، وانتقاء
شرائقه من شهر فبراير حتى يفتس في شهر مارس من كل سنة (٣٥) .

وكان من أهم مراكز هذه الصناعة قرطبة والرية التي يقدر القرى
عدد الأتوال فيها في عصره (ت ١٠١٤ هـ) بنحو خمسة آلاف وثلاثمائة
نول (٣٦) .

كما اشتهرت مرسية بصناعة الحلل من الحرير والديباج . وينكر
ابن سعيد المغربي من الحضرمي قوله « وكما يتجهز الفارس من ثياب سل ،
تجهز العروس من مرسية » (٣٧) .

وحينا زار الرحالة ابن حوتل الأندلس في القرن الرابع الهجري
اشاد بانسجة الديباج الأندلسية ، وبالمروج الحريرية ، وذكر انها لماقت
في صنعتها أي مكان في العالم ، وانها تزيد في كبريتها على ما ينتج في بلاد
العراق (٣٨) .

كما اشتهرت صناعة المنسوجات القطنية وخاصة في مدينة إشبيلية

(٢٤) سمي بذلك نسبة إلى محلة المتابية في غرب بغداد وهي موطن
صناعته الأصلي .

(٢٥) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٦ .

(٣٦) فتح الطيب ج ١ ص ١٦٢ .

(٣٧) المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٣٨) صورة الأرض ج ١ ص ١١٤ .

التي كان يزرع فيها القطن ، وكان يصنع بها نوع من الأقمشة بقي من
الأمطار . كما وجدت أيضا صناعة المنسوجات الكتانية البديعة ، وكانت
هناك أنواع منها لا يفرق بينها وبين الكاغد الجيد الصقل في الرقة
والبياض ، وكان من أهم مراكز صناعتها سرقسطة ولاردة وباجة (٣٩) .

كما وجدت صناعة الصوف وخاصة في سرقسطة وجنالة ، ولاتزال
اسبانيا حتى اليوم تشتهر بصناعة الأغذية (البطاطين) والسجاد ،
ولعل الصوف الأسباني المعروف باسم (مارينو) ينسب إلى قبائل بني مرين
الزناتيين الذين حكموا المغرب وجنوب الأندلس في القرنين السابع والثامن
المهجرين ، وكانت لهم مراعي كثيرة لتربية الأغنام أشار إليها لسان الدين
ابن الخطيب في كتابه (نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب) .

أما صناعة السجاد والبسط فكان من أهم مراكزها مرسية وبسطة .
وتنتال في شرق الأندلس ، ولعل كلمة (الفوميرا) الإسبانية التي تعني
سجادة قد جاءت من الكلمة العربية (الخبرة) أي الحصيرة أو من الحبرة .
لأن اللون الأحمر كان هو الغالب عليها (٤٠) .

وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة في أوروبا وحرص
الكثير من الملوك والأمراء والأغنياء فيها على اقتنائها ، ولاتزال هناك
نماذج في بعض المتاحف الأوروبية تشهد بمدى براعة الأندلسيين في هذه
الصناعة مثل متحف نيجو بقطانونيا في أسبانيا ، ومتحف الأكاديمية الملكية
بهدريد ، ومتحف الفن في بروكسل ، وكاتدرائية أوتون بفرنسا (٤١) .

(٣٩) الإنريسي : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .

(٤٠) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٤١) المرجع السابق ص ٣٣٧ .

وقد كانت هناك دور خاصة لصناعة الملابس المختلفة للأمرء والخلفاء . ورجال الدولة والجند تسمى دور الكسوة أو دور الطراز ، ويذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل كان أول من اتخذ من الأمويين دار للطراز بالأندلس . وفى ذلك يقول ابن الخطيب « وفى أيامه اتخذ الطراز الذى كان حديث الرماق ، وطرفة أهل الأماق » (٢٢) .

مسح
يقول ابن خلدون عن الطراز « من إبهة الماك والسلطان ، ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ، تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب إلحاما وسدى بخيط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكه الصناع فى تقدير ذلك ، ووضعها فى صناعة نسجهم ، فتصير الثياب اللوكية معلبة بذلك الطراز ، تمدا للتزوية بلباسها من السلطان فمن دونه ، أو التزوية بمن يختصه السلطان بلبوسه ، إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته ... الخ » (٢٣) .

· صناعة السفن والأخشاب :

كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن وساعدت على ذلك كثرة الغابات المنتشرة بها . وقد كانت صناعة السفن والمراكب من الصناعات القديمة الموجودة قبل فتح الأندلس ، وقد اعتمد المسلمون على دور الصناعة التى كانت منتشرة فى عدة أماكن مثل طرطوشة وطركونة ودانية وبجاعة

(٢٢) أعمال الأعلام ص ٢٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٠

هلبش ١ .

(٢٣) المقدمة ص ١٨٦ — ١٨٧ .

وإشبيلية والجزيرة الخضراء ، ولما قدم عبد الرحمن الداخل اتخذ سنة ١٤٤هـ دورا لصناعة السفن في المرية وقرطاجنة إلى جانب المراكز السابقة وذلك لتوفر المواد اللازمة لهذه الصناعة من الأخشاب بالإضافة إلى توفر معدن الحديد الذي تحتاج إليه وخاصة في شلطيش (٤٤) .

وقد ازدهر فن النحت على الخشب ووجدت أمثلة رائعة للتحف المصنوعة منه مثل منبر المسجد الجامع بقرطبة ، ومقصورته ، ومنبر مسجد الزهراء ومنبر جامع إشبيلية ومقصورته . وقد مر ذكر شيء من ذلك بالتفصيل عند الحديث عن بناء المساجد وتعميرها (٤٥) .

كما تهتل فن النحت الأندلسي أروع تهتل في صناعة العلب الخشبية المطعمة بالمصاج التي كانت تتخذ لحفظ قنينات المطر والمسك والمغبر والحلى ، وخاصة لزوجات الخلفاء والأمراء وجواريهم .

وقد ازدهرت هذه الصناعة بصفة خاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر وكانت هناك دار للصناعة بقرطبة أسست على ما يبدو في عهد أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر في مدينة الزهراء . ثم ما لبثت دور الصناعة أن أخذت تنتشر في أماكن أخرى . ومن أروع الأمثلة علبة صنعت بأمر الحكم لزوجته صبح بيد دري الفتى الصقلبي سنة ٣٥٣هـ ، وصندوقان آخران صنعا فيها أيضا لها سنة ٣٥٥هـ .

ويبدو أن هذه الصناعة قد توقفت أو أصابها الذبول بعد وفاة الحكم إلى أن كانت أيام عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤبد الذي أحيها من جديد ، ومن أمثلة ذلك صندوق له غطاء على شكل هرم ناقص صنع لعبد الملك سنة ٣٩٥هـ على

(٤٤) د. العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٩ .

د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٩ .

(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٠ .

يد تيمر بن محمد الفتى العامري ، وشاركه في صناعته صانعان آخران من الصقلية وهما عبيدة وخير .

وزخارفه تتألف من جاهلت مفصصة تتضمن مناظر من حياة البلاط الأموي ، وأخرى تمثل مناظر صيد ومبارزات . ومن الأمثلة المتبقية صندوق من العاج صنع بمدينة قونكة في طليطلة — وهو محفوظ في متحف برغش — عليه رسوم تمثل مناظر صيد وحيوانات تتصارع ، موزعة في ثلاثة صفوف أفقية وعلى أعلى الصندوق نقش بالخط الكوفي نصه « ... بآقية لصاحبه اطلال الله بقائه مما عمل بهدينة قونكة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، عمل محمد بن زيان عبده أمزه الله » (٤٦) .

صناعة الزجاج :

ومن الصناعات التي ازدهرت في الأندلس صناعة الزجاج التي اشتهرت بها مالقة والمرية ، وخاصة صناعة الأكواب والكؤوس التي تعلق في الثريات التي توضع في المساجد والقصور (٤٧) .

ونعتقد بأن هذه الصناعة قد أخذت تتقدم منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وخاصة بعد دخول زريب إلى الأندلس ، وتفضيله استخدام الأكواب الزجاجية الصافية في تقديم الماء والشراب ، بدلا من أكواب الذهب والفضة والمعادن الأخرى (٤٨) .

صناعة الأسلحة :

كما تقدمت صناعة الأسلحة في الأندلس ، وانتجت بكيات كبيرة ، وساعد على ذلك كثرة الحروب التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم ،

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٤٧) د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٩ .

(٤٨) انظر : د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ .
(م ٢٣ — المجتمع الأندلسي)

وكذلك التي خاضوها ضد بعضهم البعض ، هذا بالإضافة إلى الأسلحة المستوردة . وقد وجدت أنواع شتى من الأسلحة وعلى رأسها السيوف والرماح والدروع والخوذات وغيرها . وقد ذكر ابن سعيد المغربي أن من آلات الحرب في الأندلس : « الثروس والرماح والسروج والألجم والدروع والمضامر » وقال : إن السيوف البرنزيات — نسبة إلى مدينة برديل وهي بورجو الحاقية بفرنسا — مشهورة بالجودة ، والفولاذ الذي بأشبيلية إليه النهاية » (٤٩) .

وكان الفولاذ الأندلسي مشهورا بجودته ، ومن أهم مراكز صناعته طليطلة وإشبيلية ومرسية والمرية وكانت تصنع منه أنواع كثيرة من الأسلحة .

صناعة السكر :

ومن الصناعات التي وجدت في الأندلس أيضا صناعة السكر الذي كان يستخرج من القصب ، حيث كان إنتاجه وفيرا ، وخاصة في القرن الرابع الهجري ، كما أشار إلى ذلك الرازي وعريب بن سعد . وكان من أهم مراكز إنتاجه وتصنيعه البيرة ومالقة والمنكب وجليسانة وإشبيلية .

وقد استمر إنتاج السكر وفيرا في الأندلس حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م لدرجة أن الإسبان سمحوا لعدد من المدجنين (المسلمين المعاهدين) المشتغلين بزراعته بالبقاء ، ولكن كثيرا منهم رفض ذلك وغادر أسبانيا مما ترتب عليه تضائل إنتاجه (٥٠) .

(٤٩) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٤ .

(٥٠) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

صناعة الورق :

ومن الصناعات التي اشتهرت في الاندلس أيضا صناعة الورق ومن المرجح أن تكون هذه الصناعة قد وجدت في العصر الأموي ، وخاصة بعد تقدم الحركة العملية وانتقلت إليها من المشرق حيث يذكر الإدريسي في كلامه عن مدينة شاطبة : (أنه يعمل بهدنة شاطبة بالاندلس من الكافد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ، وأنه يعم المشرق والمغرب) (٥١) .

وكذلك اشتهرت بالنسبة وطرطوشة بصنعها أيضا ، ويبدو من المخطوطات المحفوظة في المكتبات الإسبانية أن الورق كان يصنع من الياف القطن والكتان ونبات الشهدانج (٥٢) .

ويعزى إلى المسلمين أنهم كانوا أول من أدخل الورق إلى أوروبا عن طريق الاندلس ، وكانوا يستخدمون الرق قبل ذلك ، ولعل شاطبة كانت أول مكان في قارة أوروبا يصنع فيه الورق (٥٣) .

وكان الورق الشاطبي مشهورا في العالم الإسلامي كله ، وبلغ من جودته أن بعض الكتاب كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه ، واشتهر إلى جانب جودته برخص ثمنه . وقد عرف الأندلسيون إلى جانب الكافد نوعا آخر من الورق المتين السميك الشبيه بالقماش وهو الرق المعروف بآبارشمان ، وكان مطلوبا في أوروبا وخاصة لكتابة الإنجيل والوثائق الكنسية . وقد قلده الإيطاليون بعد ذلك .

(٥١) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .

(٥٢) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٨ .

(٥٣) عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٢٦٦ هاشم ٢ ، ويظهر أن الصين كتبت أول من عرف صناعة الورق بنحو ثمن قبل الميلاد .

وإلى جانب صناعة الورق فقد تدهبت صناعة أدوات الكتابة وما يتصل بها من حبر وأقلام وشمع للأختام وغير ذلك . وقد برع الأندلسيون فى صناعة الأحبار من البيثة وعرفوا الممدنى والنبتاتى والطيوخ وغير الطيوخ ، والبسيط والمركب منها ، وعرفوا أقلام الغلب وكانوا يسمونها (الأتيوب) ، بل عرفوا أقلام الحبر ، وتفننوا فى صناعة الحابر من الزجاج والبلور والرخام .

وكانوا يزخرفونها ويكتبون اسم صاحبها عليها بواسطة الحفر مع بعض أبيات من الشعر ، ومنها محابر على هيئة الخنجر فى قرابه توضع فى حزام الثوب مع الأتلام (٥٤) .

صناعة التماثيل والتحف المعدنية :

كما اشتهرت فى الأندلس صناعة التماثيل المعدنية ، ونشير كتب التاريخ الأندلسى إلى تلك التماثيل التى كانت تزين قصور الزهراء ، فيذكر المقرئ : ان الخليفة الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل على صورة إنسان والذى جلب من القسطنطينية فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة على صورة اسد وبجانبه غزال وتمساح وفى المسابل صورة ثعبان وعقاب وغيل ، وفى الجانبين حماية وشاهين وطلووس ودجاجة وديك وحدادة ونسر ... كل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها « (٥٥) .

وقد مثر فى الحفائر التى أجريت بمدينة الزهراء على شمال لومل أو غزال من البرنز فقد قرنيه وهو محفوظ فى متحف قرطبة للآثار ، ولعله هو الغزال الذى اشار إليه المقرئ عند ذكره لهذه التماثيل الذهبية

(٥٤) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٤ .

(٥٥) فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .

الحرصاء ، وبلغ ارتفاعه نحو أربعين سنتيمتراً ويزدان جسمه بزخارف محزوزة من دوائر أو حلقات متصلة بداخل كل منها ورقة من أوراق الشجر . وكان الماء يجرى إلى فيه عن طريق أنبوبة تنفذ من وسط قاعدته وتصل إلى رقبته (٥٦) .

وكذلك ازدهرت صناعة الثريات البيرونية . وقد ذكر المؤرخون أن جامع قرطبة كان يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاتون (النحاس الأصفر) عدد كتوسها سبعة آلاف وأربعمائة وخمس وعشرون كأسا ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمسة كتوس ، منها أربع ثريات كبار معلقة في البلاط الأوسط . وأكبرها الثريا الضخمة المعلقة في قبة المحراب وكانت تحمل ألفا وعشرين كأسا .

كما كان جامع البيرة يحتوي على عدد كبير من هذه الثريات التي احترقت عندما اشتعلت النيران في هذا المسجد في أثناء الفتنة البربرية في بداية القرن الخامس الهجري . وقد عثر في الحفائر التي أجريت بأرض هذا الجامع على ست ثريات أكبرها على شكل طبق مستدير مخرم في شكل هندسي بدیع ، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها الكتوس التي تضاء بالزيت . وهذا المحيط مزود بحلقات صغيرة تعلق فيها السلاسل (٥٧) .

وكذلك ازدهرت صناعة التحف المصنوعة من الفضة والبرنز ، وقد وصلت إلينا تحفة فضية من عصر الخلافة ، وهي صندوق كتائريّة خبرونة ، الذي يبدو أن القطلانيين سلّبوه من قرطبة من بين ما سلّبوه بعد تخريبها في القرن الحادي عشر الميلادي . وهذا الصندوق عليه نقش كتابي يدل على أنه صنع بأمر الخليفة الحكم المستنصر لابنه هشام المؤيد ،

(٥٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٥٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٦ .

على يدى جؤذر ، ونصه « بسم الله بركة من الله وبين وسعادة وسرور دائم .
لعبد الله الحكيم أمير المؤمنين المنتصر بالله ... مما امر بعمله لآبى الوليد .
هشام ولى عهد المسلمين . تم عمله على يد جؤذر فتاه » .

وهذا الصندوق مصنوع من الخشب ، ومغطى بصفيائح من الفضة
المزدانة بزخارف مطروقة ومذهبة ، وقاعدته مستطيلة يبلغ طولها ٣٩ سم .
وعرضها ٢٣ سم ويحتفظ بمنصلتين دائريتين وقفل ومقبض رائع .
الزخرفة (٥٨) .

كما عثر على مهراس كبير (هلون) من البرنز محفوظ بمتحف
فيلانونيا ، وهو مزود بطقتين وتتوءات مثلفة على شكل مناقير طيور
تدور ببذنه ، وتزينه زخارف محفورة من التوريقات والأسود والطواويس ،
ونقش كتابى مطبوس لا تظهر منه إلا كلمة (لصاحبه) . ويمكن إرجاعه
إلى عصر الخلافة .

كما تحتفظ كنيسة سان سلفادور بإشبيلية بشبتي باب من البرنز
المذهب موضوعتين على أحد أبوابها ، ولعلهما كلتاهما معلقتين فى باب .
المسجد الذى كان قائما فى موضعها ، وتتألف كل منهما من حلقة سداسية
الشكل سمعتها ١٤ اسم معلقة فى رأس أسد مركب فوق قرص مثن الأضلاع
جوانبه مقعرة . وتكسو الجميع توريقات جبيلة ، وتشبه هاتان الشبستان
حلقتين من اللاطون ذكرهما المقرئ عند حديثه عن أحد أبواب قصر
قرطبة حيث قال : « وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد
انبتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة أنسان فتح فمه » (٥٩) .

(٥٨) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٥٩) نفس المرجع ص ١٨٧ .

العجالة :

ازدهر النشاط التجارى فى الأندلس بعد الفتح ، حيث أصبحت البلاد عامرة بالسكان ، وتقدمت الزراعة ونهضت الصناعة ، وغدت الأموال كثيرة فى أيدي الناس . ويذكر بعض الباحثين أن عدد السكان فى عصر الرومان كان يتراوح بين ثلاثين أو أربعين مليوناً ، ولكن ليس لدينا وثائق تاريخية أو إحصاءات رسمية تؤكد ذلك ، ولم نقف على عددهم بعد الفتح . وإن ذكر أن دار السكة بقرطبة كان يضرب فيها كل عام ثلاثة آلاف ألف درهم وأربعمائة ألف دينار ، وهذا المبلغ الذى كان يسك لا يتناسب مع الثلاثين أو أربعين مليوناً ولذلك نعتقد بأن فى هذا المسد شيء من المبالغة فى التقدير .

ودليل ذلك أن البعض قد قدر عدد سكان إسبانيا سنة ١٧٦٨م بنحو تسعة ملايين ومائة وستين ألفاً ، وفى أوائل القرن الثامن عشر بنحو عشرة ملايين ، وفى منتصف القرن التاسع عشر بنحو اثنين وعشرين مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً (٦٠) .

وعلى فرض أن المسلمين الذين غادروا إسبانيا بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م كانوا نحو خمسة ملايين على أكثر تقدير (٦١) . وأن من بقى منهم وتنصر كان نصف هذا العدد أو حتى مثله — وهذا غير معقول — فإن تقدير عدد سكان الأندلس بنحو ثلاثين أو أربعين مليوناً فى عصر الرومان يظل تقديراً مبالغاً فيه إلى حد كبير .

(٦٠) أحمد امين : ظهر الاسلام ج ٢ ص ١٩ — ٢٠ .

(٦١) انظر : د. أحمد شلبي : التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨١ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢ ، عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ص ٤٠٢ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

وقد تدر بعض الباحثين الأسبان (المهندس المعمرى توريس بلباس) عدد سكان قرطبة في عصر الخلافة بها يقترب من مائة ألف (٦٢) . وهذا رقم متواضع بالنسبة لسكان العاصمة الاندلسية .

وعى أية حال فقد راجت التجارة الداخلية والخارجية في الاندلس ، وكان لموقع الاندلس على البحر المتوسط ، وسيطرة المسلمين على حوضه الغربى اثر كبير في نشاط التجارة عن طريق الموانئ الاندلسية المتعددة التى تصدر منها العديد من المنتجات الزراعية والصناعية ، مثل ميناء إشبيلية الذى كان يعد اعظم موانئ الاندلس النهرية لتصدير الحاصلات الزراعية والمنتجات المعدنية والصناعية إلى أوروبا كالقطن والزيتون والارز والفضة والنحاس والحديد والمنسوجات والسكر وغير ذلك .

وكان هناك طريق برى من طرق التجارة الخارجية يبتدىء من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى الاندلس عن طريق نهر الرون وممر تطلونية ، ثم يستمر من الاندلس إلى طنجة عن طريق جبل طارق إلى بلاد المغرب ، ثم مصر ثم بلاد الشام والعراق وفارس والهند والصين (٦٣) .

وقد ذكر ابن حوقل أن من أهم المنتجات التى كانت تصدر من الاندلس : الملابس المطرزة التى تعمل في الاندلس وتحمل إلى مصر وخراسان وغيرها ، والاصواف والاصباغ والحريز واللبود الفاخرة ، والأربية الكتانية التى تصنع في بجاية ، والورق الابيض السميك من مدينة شاطبة ، والتين الجاف من ملقة ، والخزف المذهب الذى اشتهرت به أيضا ، والكبريت الاحمر من مرسية والاسلحة من طليطلة (٦٤) . كما كان يأتى من هذا الطريق

(٦٢) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ص ١٧٦ .

(٦٣) د. منى حسن محمود : المسلمون في الاندلس ص ٣١٠ .

(٦٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٥١٢ ، د. سعيد عاشور

وأخران : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٦٥ .

الطريق الأبيض من أوروبا ، وكان للتجار اليهود في ألمانيا وفرنسا والاندلس دور كبير في تجارته .

وقد كانت التجارة بين الاندلس وبلاد الفرنجة مزدهرة وخاصة في اوقات السلم وكانت هناك ثلاثة طرق : اولها : الطريق البري الذي يمر عبر جبال البرانس عن طريق عدة ممرات من أهمها : ممر باب الشزرى (البرونسال) وكانت القوافل التجارية تعبر هذه الممرات أو الأبواب إلى موانئ جنوب فرنسا وخاصة بروفانس ، وسبتمانيا ، ومارسييا ، وناربون التي كانت من أهم المراكز التجارية في بلاد الفرنجة .

وثاني هذه الطرق : الطريق البحري عبر ساحل أسبانيا الغربي المطل على بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ، وهذا الطريق لم يسلك إلا منذ عهد عبد الرحمن الأوسط بعد القضاء على خطر النورمان ، وكانت غاراتهم على هذا الساحل الغربي تشكل خطرا كبيرا .

وأما الطريق الثالث : فيمر عبر الساحل الشرقي للاندلس المطل على البحر الرومي (المتوسط) ثم تنقل البضائع عن طريق الممرات عبر جبال البرانس ، أو عن طريق الموانئ الجنوبية لفرنسا .

كما نشطت التجارة بين الاندلس وإيطاليا ، وكانت الجزائر الشرقية مثل ميورقة ، ومقورقة ، عرضة لهجمات القراصنة البحريين الذين كانوا يتعرضون للسفن التي تسيير بحملة بالسلع والبضائع . وقد جعلت هذه الغارات أهالي هذه الجزر على طلب الحماية من شارلمان ملك الفرنجة الذي طلب من امراء الاندلس عقد معاهدة بحرية للاشتراك في تأمين هذه السفن من هجوم هؤلاء واستمرت ثلاث سنوات (٦٥) .

وقد كان لأهل الأندلس دور كبير في تجارة البحر المتوسط حيث كانت لهم جاليات في كثير من الموانئ المطلة على هذا البحر ، كما كان

لليونان واليهود دور في هذه التجارة أيضا . وكانت هناك جماعات من التجار المغاربة الذين يعملون في نقل التجارة من إفريقيا إلى الأندلس وبلاد غالة (فرنسا) وتسيبهم بعض المصادر (تجار من وراء البحر) (٦٦) . . .

هذا بالإضافة إلى التجار الأندلسيين الذين قاموا ولا شك بدور كبير في هذه التجارة أيضا ، يقول ج. ب ترند « وقد ظلت أسبانيا المسيحية مدة خمسة قرون محصورة في دائرة الإسلام الاقتصادية ، فكانت التجارة احتكرا في أيدي المسلمين واليهود ، وظلت الممالك المسيحية في أسبانيا لا تستعمل إلا النقود العربية والفرنسية طوال أربعة قرون تقريبا » (٦٧) .

وقد أخذت العلاقات التجارية تنمو ملحوظا بين الأندلس وبلدان شتى ، ونشطت حركة التبادل التجاري بينها ، وكانت السفن والراكب التجارية في موانئ الأندلس المتعددة كإشبيلية وملقة ودانية وبلنسية والمرية تعمل بين كثير من مدن البحر المتوسط ، وتحمل المنتجات الأندلسية المختلفة من الأقمشة والسجاد والخزف والجلود والأسلحة والورق والتوابل وزيت الزيتون وغيرها .

وكانت هذه العلاقات متواصلة مع مصر بخامة ، وبدأت تأخذ منذ القرن الخامس شكلا قويا ونشطا ، ونجد في النقوش التي عثر عليها ما يؤكد ذلك ، فقد عثر في مدينة المرية على شاهد قبر يحمل اسم تاجر من مدينة الاسكندرية وافته المنية في هذه المدينة التي كانت

(٦٦) لويس أرشيبالد : القوى البحرية في البحر المتوسط ص ١٢٠ ، د. حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر المتوسط ص ٥٠ .
(٦٧) تراث الإسلام ص ١ ص ٥ ، ٦ لجنة الجامعيين لنشر العلم سنة ١٩٨٣م القاهرة .

تشتهر بصناعة المنسوجات سنة ٥١٩هـ / ٢١٣٥م (٦٨) .

وقد كان من عوامل نشاط التجارة في الأندلس إنشاء دار لصك العملة أو النقود في عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث يذكر أنه ضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخول المسلمين الأندلس ، وكان أهل الأندلس يستخدمون قبل ذلك النقود الرومانية والقوطية ، وعلى رأسها الصولدي الروماني Solida (٦٩) .

(٦٨) ليفي بروفنسال : الخسارة العربية في أسبانيا من ٧٣ - ٧٧ ، د. متى حسن محبوب : المسلمون في الأندلس من ٢٢٩ - ٢٣٠ . (٦٩) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من ٢٢٩ ، قرطبة حاضرة الخلافة من ٥٦ . ويذكر أن موسى بن نصير ضرب بعد دخوله طليطلة عملة ذهبية وأخرى برونزية في دار المسكة القوطية بها لصرف رواتب الجند ، وكانت هذه العملات تحمل نقوشا لاتينية على غرار العملات السابقة على الفتح في أسبانيا والمغرب ، وإلى جانبها كتابات عربية أيضا . وقد مك الدينار على أساس الدينار الروماني القديم ، وكان وزنه نحو أربع جرامات ، وتدور حول محيط وجهه عبارة (ضرب في أسبانيا سنة ٩٢ هـ) باللاتينية ، وتتوسط ظهره نجمة من ثمانية رموس ، وتدور حول محيط ظهره عبارة معناها (الله أحد ، والله عالم ، والله ليس له كوا) ، وهناك نقوش عليها نقوش كتابية تجمع بين العربية واللاتينية ووجه هذه النقائير تقرأ في وسطها عبارة (محمد رسول الله) ، وفي محيطها (بسم الله ضرب هذا الدينار بالاندلس سنة) ، أما ظهرها فعليه كتابة لاتينية تدور حول محيطه . كما كانت هناك عملات ذهبية صغيرة هي النصف دينار (١٩٨ جرام) ، والثالث دينار (١٣٠ جرام) وتتميز بأن

كما كان من عوامل نشاط التجارة في الأندلس أيضا اهتمام
بإنشاء المؤسسات ذات الصيغة الاقتصادية التي ارتبطت بالنشاط
التجاري . وتتمثل في الخانات والوكالات والفنادق والقباسر . وكان التجار
القادمون إلى الأندلس يجدون في هذه الأماكن مخازن لبضائعهم ، وحظائر
لديابهم ، ومقرا لنزولهم .

ولا شك أن الأندلس قد شهدت في العصر الأموي الكثير من هذه
المؤسسات ، وإن كانت المصادر التاريخية والأثرية لم تمنحنا بالكثير عنها ،
وإن أمعنا بشيء عنها في عصور تالية . ودليل ذلك ما يذكره الإدريسي
من أنه كان بالمرية وحدها في النصف الأول من القرن السادس الهجري
(الثاني عشر الميلادي) ما يقرب من تسعمائة وسبعين فندقا (٧٠) ،
ويبدو أنها كانت فنادق صغيرة تتألف من طابق واحد أو طابقين على
الأكثر .



أوجهها تحمل في وسطها صورا تمثل كرة قائمة على عمود منقوش
خطين ثم كتابات لاتينية على الوجهين . (د. السيد سالم : تاريخ
المسلمين وآثارهم ص ٩٩ هلمش ٤) .

وفي عهد عبد الرحمن الداخل سكنت عملة باسمه لم تكن تختلف
عن عملة الأمويين في الشام من حيث الشكل والوزن والنقش ،
وقد انتشرت دور سك العملة بعد ذلك حتى بلغت أربع عشرة
(د. منى محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٢٢) .

(٧٠) انظر دائرة معارف الشعب ص ١٤٣ - ١٤٦ . تاريخ الحضارة
الإسلامية العربية ص ٣٠٠ .

(موارد الدولة ونظامها لمالى)

لا شك فى أن للحالة الاقتصادية تأثيرها البالغ فى الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع من المجتمعات . فمن قواعد الاجتماع والعمران المقررة أنسه إذا كثرت الأموال فى أيدي الناس فإنهم يتوسعون فى الإنفاق ، وينعمون بالعيش بصسفة عامة .

وقد كثرت الأموال فى الأندلس فى العصر الأموى نتيجة لتنوع مصادر الدخل المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة وثروات طبيعية ، بالإضافة إلى الموارد الأخرى من خراج وجزوة وعشور وزكاة وغنائم .

وبالرغم من كثرة المعارك والحروب التى خاضها الأمويون ضد أعدائهم ومناوئهم فى الداخل والخارج ، وبالرغم من المصراعات التى دارت بين المسلمين وبعضهم واستهلكت جزءا كبيرا من مصادر الدخل . إلا أنه بقى الشيء الكثير الذى أدى إلى تعدد مظاهر البذخ والتصرف فى شتى مناحى الحياة الاجتماعية لدى الكثيرين وخاصة من أفراد الطبقة الخاصة كما أوضحنا ذلك فى الفصل الرابع عند الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية .

لقد كان الأمويون بعد تأسيس دولتهم فى الأندلس يريدون إثبات وجودهم ، ومناصرة خصوصهم من العباسيين والفاطميين ، وإظهار قوتهم وعظمتهم أمام أعدائهم من المسيحيين . فاضفوا كثيرا من مظاهر الأبهة والعظمة على دولتهم وخاصة عاصمتهم قرطبة . وساعدهم على ذلك كثرة الموارد والثروات المختلفة ، وإذا قد تحدثنا عن الزراعة والصناعة والتجارة فإننا نتحدث الآن بإيجاز عن أهم موارد بيت المال :

١ - الخراج : وهو مقدار معين من المال أو المحصول يفرض على الأرض التى فتحها المسلمون منوة إذا عمل عن تقسيمها على المحاربين ،

وتركت بإيدى أصحابها بعد تعويض الحاربين عنها أو استرضائهم ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأرض السواد ، كما يؤخذ على الأرض التى صولح عليها أهلها وتركت لهم لقاء خراج معلوم (١) .

ويبدو أنه كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج وهى : نظام الحاسبة وتكون نقدا أو نوما أو الاثنين معا ، ونظام المقاسمة : وتؤخذ من المحصول . ونظام المقاطعة (الإقطاع أو الالتزام) ويكون ذلك بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والمقبولين (٢) .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ . وكانت هناك أنواع من الأرض لا يفرض عليها الخراج ، وإنما يفرض عليها العشر وتسمى الأرض العشرية وهى : الأرض التى أسلم عليها أهلها بدون حرب فيدفعون عنها ضريبة العشر زكاة ولا يوضع عليها الخراج . والأرض التى ملكها المسلمون عنوة ، وقسمت بين الفاتحين غنية فيدفعون العشر من غلتها .

(٢) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٧٨ . ويرجع نظام الالتزام أو الإقطاع إلى عهد الرسول ﷺ حيث أقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضا بقصد تميرها فلم يعمروها ، فجاء آخرون وعمروها واختصموا إلى عمر بن الخطاب ، فجعلها للفریق الذى عمرها وقال « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون لهم أحق بها » (تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٧٦) .

وقد ذكر الماوردى الإقطاع فقال إنه ضربان : إقطاع استغلال وإقطاع تبليك ، والأول ينقسم إلى موات وعابر ، والثانى : ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بملك الأرض فى حق لبیت المال إذا كانت فى دار الإسلام ، فإن كانت فى دار الحرب ولم يثبت للمسلمين عليها بد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام للمقطع لملكها (الأحكام السلطانية ص ١٨١ - ١٨٢) .

ونظرا لاهمية الخراج كمورد من موارد الدولة فقد اهتم الامويون بشؤون الري والزراعة ، من حفر الترع والقنوات وإصلاح القناطر والجسور ، وغير ذلك . ومثال ذلك قنطرة قرطبة التي تهدمت في عهد عبد الرحمن الداخل بسبب السيول فقام ابنه هشام بتجديدها ، وأنفق في ذلك اموالا عظيمة وكان يشرف على البناء ، ويعطى الاجرة للعمال بنفسه (٣) .

كما اهتموا باستصلاح كثير من الاراضى المقفرة وتحويلها إلى اراض خصبة صالحة للزراعة (٤) .

ومن هنا فقد كثرت حصيلة الخراج وخاصة في غير سنوات الجذب وقلة المطر . ولم ترد إلينا قوائم تبين مقدار الخراج في الأندلس حيث تشير معظم المصادر إلى الدخل بلفظ (الجباية) في كثير من المواطن (٥) . إلا ما ورد عن الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط حيث ذكر القرى : ان الخراج كان قبله ٣٠٠ ألف دينار مائة ألف للجيش ومائة للنفقة في النواصب ومائة ألف لخيرة ووفر (احتياطي) فاتفق الوفر حين اضطررت عليه نواحي الأندلس بالثائرين وقتل الخراف (٦) . ويبدو أن المراد بالخراج هنا ليس ضريبة الأرض وإنما الجباية أيضا .

٢ - الجزية : وهي مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة بنص القرآن الكريم (حتى يعطوا الجزية من يد وهم صاغرون) . وهي تسقط بالإسلام

(٣) القرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٨ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

(٤) د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٨ .

(٥) انظر القرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،

ص ٣٦٨ - ٣٦٩ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٦) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٤ .

بخلاف الخراج . ولنظما مشتق من الجزاء على اعتبار ان اهل الذمة يدفعونها في مقابل ما يمنحون من الاستقرار في المجتمع المسلم والتمتع بما فيه من مرافق وفي مقابل الابن والحماية لهم ، وتعتبر في مقابل الزكاة التي تفرض على المسلمين حتى يكافأ الفريقتان وهما رعية لدولة واحدة .

وهي ليست ديناً يؤخذ من ورتة الذمى بعد موته ، وليست ضريبة على الرعوس كما يشيع خصوص الإسلام ، لأنها لا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء القادرين على الكسب فلا تؤخذ من الفقراء والمساكين ، أو المعاجزين عن العمل ، أو العميان أو المقعدين ، أو المجانين ، أو ذوي العاهات ، أو الرهبان إلا إذا كانوا أغنياء (٧) .

وهي كما يقول الماوردي : في مقابل استقرارهم في دار الإسلام ، وانتم لهم في مقابلها بحقين : **اولهما** : الكف عنهم ، **والثاني** : الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين (٨) .

(٧) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨١ - ٤٨٢ . وتسمى أحيانا باسم الجوالى وتعنى هذه الكلمة في الأصل جاليت أهل الذمة الذين اجلاهم عمر بن الخطاب من شبه الجزيرة العربية لمزعم هذا الاسم . ثم أصبح يطلق على الجزية التي يؤدونها ايضاً (دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ص ٣١٢ .

وقد فسر الدكتور حسن ابراهيم الجوالى بأنها : اختيار الأحسن من كل شيء سواء اكان من الممتلكات أو من النساء ، أو انها ربما كانت وظيفة العامل في الزكاة (تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٧٨ هامش ٢) . ولم يذكر مصدر ذلك التفسير ، والتفسير الأول هو الأقرب للصحة والقبول .

(٨) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٢٧ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨٢ .

وكان مقدار الجزية كما ذهب أبو حنيفة متفولنا ، حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام : ثمانية وأربعين درهما للأغنياء ، وأربعة وعشرين لتوسطى الحال ، واثنى عشر درهما للفقراء الذين يتكسبون ، أما الإمام مالك فقد تركها لتقدير الإمام . بينما ذهب الإمام الشافعي إلى أن الحد الأدنى لها اثنا عشر درهما وما بعد ذلك يترك لتقدير الإمام . وقد نهى الشرع عن جبايتها بطرق عنيفة ، وأوصى بالرفق والإنصاف في جبايتها . وتلحق القاعدة الفقهية : بأن لا يضرب أحد من أهل الذمة في استردادها ، ولا يقام في الشمس ، ولا يجعل عليه شيء من المكاره ، وإذا امتنع عند دفعها فإنه يجبس حتى يؤديها بدون إيذاء (٩) .

ونص كتاب الصلح الذي أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتقدير بن عبدوش سنة ٩٤ هـ بوضوح لنا شيئاً من ذلك فقد جاء فيه « أن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد تمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أمشاط خل ، وتسطة عمل ، وتسطة زيت وعلى العبد نصف ذلك » (١٠) .

٢ — الزكاة (الصدقة) : وهي ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ويرد على نفرائهم كما قال تعالى لرسوله « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » .

وتنقسم إلى عدة أنواع : زكاة الأموال (للتقنين) ، وزكاة السوائم وزكاة الزروع والمزارع ، وزكاة عروض التجارة ، وزكاة المعدن والركاز وقد تكفلت كتب الفقه بتفصيل ذلك .

(٩) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨٣ .
(١٠) الحميري : وصف جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار ص ٦٢ ،
الضبي : بغية المتعصب ص ٢٢٩ .
(م ٢٤ — المجتمع الأندلسي)

٤ - الموارث الحشرية : وهى مال من يموت وليس له وارث فيرد إلى بيت المال (١١) .

٥ - الفداء والغنيمة : والفداء هو ما وصل إلى المسلمين من أعدائهم بدون قتال ، بخلاف الغنيمة التى تطلق على كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم بالقتال . من الأسرى والسبى والأموال والأرضين .

وكان يعطى منها للمحاربين نصيبهم ، ويرد الباقي إلى بيت المال حسب ما وضحت كتب الفقه ونظرا لكثرة الغزوات والحروب التى خاضها

(١١) د. سعيد عاشور وآخرون : دراست فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٢ .

(١٢) كان الرسول (ﷺ) يقسم الفداء خبسة أقسام متساوية عملا بقوله تعالى « وما آفاه الله على رسوله من أهل القسرى فله وللرسول ولأذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وبعد وفاته رد نصيبه إلى بيت المال ، وكانت الأقسام الباقية تقسم بين الجند حتى دون عمر الدواوين وقدر لهم أرزاقهم .

وأما الفنائم : فالأسرى يقسمون رجالا ونساء بين الجند حتى يسلّموا أو يفتدوا أنفسهم . وأما الأموال المنقولة كالنفود والحيوانات والأسلاب فتقسم حسبما يرى الإمام . وأما الأرض فالشافعى يرى تقسيمها على المحاربين كما فعل أبو بكر ، ومالك يرى وقفها كما فعل عمر ، وأبو حنيفة يرى أن الإمام بالخيار بين قسمتها أو وقفها (انظر : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥) . ولما اختلف الصحابة فى تقسيم غنائم بدر بين القرآن الكريم طريقة قسمتها نقال : « وأعلموا أنها غنمتم من شيء ... الخ » الآية .

فكان للإمام مع من ذكر فى الآية الخمس والأربعة أخماس . الأخرى للفتحين ، (الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥ - ١٢٧) .

المسلمون في الأندلس في هذا العصر ضد الممالك المسيحية في شمال إسبانيا مثل قشتالة وليون ونافار وجليقية وقطلونية وضد الناطبيين في بلاد المغرب ، وضد بلاد الفرنجة (غالة أو فرنسا) . فقد كثرت الغنائم وخاصة في عهد الخليفة الناصر وفي عهد المنصور بن أبي عامر الذي قام بنيف وخمسين غزوة موفقة نحو الشمال لم يهزم في أي منها وعاد منها بغنائم كثيرة (١٣) .

ويندل في ذلك أيضا ما كان يفرض على بعض ملوك هذه البلاد في بعض الأحيان - عقب هزيمتهم - من تقديم الجزية للمسلمين .

٦ - العثسور : وهي الأموال التي كانت تجبي من التجار الأجانب الذين يقدمون بتجارهم ، فكانوا يدفعون عشر قيمتها مثل الضرائب الجبركية التي تقدر على الواردات في العصر الحاضر (١٤) .

(١٣) انظر من هذه الغزوات بالتفصيل . د. خالد الصوفي : تاريخ العرب في إسبانيا (عصر المنصور الأندلسي ٨ ص ١١٣ وبعدها) (١٤) يرجع نظام العثسور إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري أثناء ولايته على البصرة أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الحرب ، فيأخذون منهم العشر ، فكتب إليه قائلا : « خذ منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الزمة نصف العشر ، ومن المسلمين درهما من كل أربعين درهما ، ولا تأخذ منهم شيئا دون المساكين شيئا ، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم » .

وقد أفتى الإمام الشافعي بأن للإمام أن يزيد على العشر أو ينقص منه إلى النصف إذا رأى في ذلك مصلحة ، وأن لا يؤخذ العشر إلا مرة واحدة من كل قادم بالتجارة حتى ولو تكرر تدومه

ولا شك أن هذا المورد كان يمثل دخلا كبيرا للأندلس في العصر الأموي حيث كثرت التجارات بين الأندلس وغيرها من البلدان في أوروبا والمشرق . وإن كثرت المصادر لم توضح لنا شيئا من ذلك .

٧ - المكوس : وهي الضرائب التي نشأت نتيجة لحاجة الدولة إليها

لزيادة مواردها ، وخاصة في أوقات القحط والأزمات والشدائد ، وفي أوقات الحروب وقد شملت هذه المكوس أغلب السلع التي كانت تباع بالأسواق ، وكذلك البضائع الواردة من الخارج — وهو شبيه بما تفرضه الكثير من الدول الآن لحماية منتجاتها المحلية — ومن الطريف أن المآمر وهي السلاسل الحديدية التي كانت تشد في البحر عند مداخل الموانئ لحمايتها من غارات السفن المعادية صارت تستخدم بعد ذلك لفرض جمع المكوس من السفن القادمة قبل دخولها الميناء ، ثم أصبحت تطلق على الضريبة نفسها (١٥) .

ولا شك أن هذه المكوس قد أصبحت تمثل موردا خصباً للدولة ، ولكنها كانت تسبب إرهاباً وعناء للكثيرين ، ولهذا كثرت الشكايات منها خاصة وأن جبايتها أخذت تنقسم بشيء من العنف وسوء المعاملة والتقدير . ومثال ذلك ما حدث في عهد الحكم الرضي حين وضع عشر الأطعمة في كل سنة على أهل الأندلس من غير حرم فكروها ذلك كما يقبلون ابن الأثير (١٦) . وترك الصرية لربيع تومس للتصاري لفرض الضرائب

(١٥)

في السنة الواحدة (د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٢) .

(١٥) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٤ .

(١٦) الكلبي في التاريخ ج ٦ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

والمغياريم، وجعلتها هي، واتبعه من الصقلية بطرق عنيفة (١٧) .

وكان ذلك غريبا، من الأسباب، قتلهم بالثورة المعروفة بثورة الريش .
ويذكر ابن حيان أن الخليفة الحكم المستنصر قد استطاع من أهل
الأنطلس بسببي جميع مقرهم الجيد الأثر طول أدائه وانهض بذلك كتابا
إلى جميع الأقطار (١٨) .

ويذكر أن الرحلة الأنطلسية ابن خير، عندما قدم إلى مصر في المعمر
الأيوني، نطق بها من أعزاء المعاملة للتجار، وللخجاج القادمين والخارجين ومن
تصوبح للإجراء، ملحقين بالمرافقة . في حين أن مصر وحدها لم تكن كذلك ، فقد
كانت الأنطلس أيضا تعاني من هذه المكوس خلسة وأنها أصبحت
تعطى التزاما ، وكان ملتزموها من غير المسلمين أحيانا ، فكانوا يشتطون
في المعاملة وعرف هذا النظام باسم (القبالة) وعرف اللتم
بالمكوس باسم (المتقبل) . وقد انتقل هذا الاسم إلى اللغة الأسبانية
بلفظه ومعناه Cabala (١٩) .

٨ - الأقباس (الأوقاف) : وقد مثلت مصدرا غير مباشر من مصادر

الدولة أيضا ، حيث كانت تسد جزءا من نفقاتها على المؤسسات العلمية ،
حيث يحبس أصحاب هذه الأوقاف ريمها على جهات البر والإحسان ،

(١٧) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ص ١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ
المسلمين وآثارهم في الأنطلس ص ٢٢٣ ، د. حسين مؤنس :
شيوخ مصر في الأنطلس ص ٢١ .

(١٨) المتنبس في أخبار بلد الأنطلس ص ٢٠٨ تحقيق د. عبد الرحمن
الحجى ، خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأنطلس ص ١٩ -
٢٠ . ويبدو أن مقرم الحشد نوع من الضرائب التي كانت تفرض
للاستعداد للحملات الحربية .

(١٩) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢١٢ .

وبناء وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية ، كالمساجد والكتاب والخوانق والبيمارستانات ، ورعاية طلاب العلم والمرضى والمعوذين وغير ذلك (٢٠) .

ومثال ذلك وقف الخليفة الحكم المستنصر الذى اشار إليه ابن حيان فقال : « وفى صدر جبادى الاولى (٣٦٤ هـ) انفذ الخليفة تحببس حوائث المراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين كان قد اتخذهم لتعليم اولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة واشهد القاضى محمد بن اسحاق فى هذا التحببس يوم الجمعة لسبع خلون منه ، فعظمت به المنفعة ، وجلت المنفعة ، وورث الله به القرآن أمة لم يكن أبلاؤهم يعرضونهم لورائته » (٢١) . وقد بلغ من كثرة الأحباس أن كان لها موظف خاص يديرها يسمى صاحب الأحباس . كما يتضح من النص التالى الذى أورده ابن عذارى فى حوائث سنة ٣٥٣ هـ حيث يقول عن زيادة المستنصر فى مسجد قرطبة الجامع « فامر المستنصر بالله بتوسعته والزيادة فيه ، فأتى القاضى منذر بن سعيد (قاضى القضاة) إلى المسجد الجامع ومعه صاحب الأحباس والفقهاء والعنول بما اجتمع قبله من أموال الحبوس فنظروا فى الزيادة فيه » (٢٢) .

وهناك ضريبة أخرى فرضت فى الأندلس بعد العصر الأموى فى عهد المرابطين أطلق عليها اسم التعتيب . على يد على بن يوسف ابن تاشفين سنة ٥٠٩ هـ / ١١٢٥ م وكان الفرض منها تزييم الحصون والقلاع والأسوار حول المدن الرئيسية ، وكانت تفرض على أهل هذه المدن لحمايتهم من غارات الأعداء . ويبدو أن هذه الضريبة

(٢٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٦ .

(٢١) التعتيب ص ٢٠٧ تحقيق د. عبد الرحمن الحجى . خوليان ريبيرا :

التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ ترجمة د. الطاهر مكى .

(٢٢) البيان المغرب : ج ٢ ص ٣٥٢ .

استمرت حتى أواخر الحكم الإسلامي بالأنطلس . وقد أجازها فقهاء
الأنطلس لأن المصلحة تقتضى ذلك . يقول الحميرى « وكان خراج السور
فى بعض مواضع الأنطلس فى ذلك الوقت على أهل الموضع ، وقد أجاز
ذلك الفقيه أبو إسحاق الشافى معتبدا على تيلم المصلحة التى إن لم يتم
بها الناس غيمطون ضاعت عليهم » (٢٣) .

هذه الموارد المتعددة كانت تبال تحلا كبيرا للدولة ، ومن حصيلتها
كانت تقوم بالاتفاق فى الأوجه المختلفة مثل : إزراق الجند والموظفين ،
وإنشاء القروىات العامة ، مثل حفر الترع والقنوات وإنشاء القناطر
والجسور ، وبناء المساجد ، ونفقات الحملات العسكرية ، وشراء
الأسلحة والمعدات الحربية ، وترتيب العسس والدرايين لحراسة الأسواق
والطرق والدروب وغير ذلك .

ويروى ابن سعيد المغربى (أنه كان للأنطلس دروب تغلق ليلا ،
وتحرس بواسطة رجال الشرطة المسمون (بالدرايين) ، وإن كل واحد
كان معه سلاح وكلب وسراج) . ولا تزال عادة خلق الأبواب متبعة
فى بعض مناطق إسبانيا إلى اليوم منذ الساعة العاشرة ليلا بواسطة
رجال الشرطة (درايين) يسمون باسم (سيرنيوس) . وكان من يريد
الخروج أو الدخول إلى منزله ليلا ينادى الحارس بواسطة
التصفيق (٢٤) .

ومما يدل على ترايد هذه الموارد من عهد إلى عهد أن الجبلية فى
عهد الحكم بن هشام الملقب بالريضى كانت مائة وعشرة آلاف وعشرين
دينارا ، ومن القمح أربعة آلاف وستمائة مدى ، ومن الشعير سبعة

(٢٣) الأروض المعطار ص ٢٢٣ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية
العربية ص ٣١٣ .

(٢٤) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٥ .

آلاف وسبعمائة وسبعة وأربعون مدياً (٢٥) .

وبلغت في عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط السلف ألف دينار في السنة (٢٦) . وارتفعت في عهد عبد الرحمن الناصر إلى خمسة آلاف واربعمائة وثمانين ألف دينار من الكور والقرى ، ومن الأسواق والمستخلص (الجمارك) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، بخلاف أخماس الغنائم العظيمة التي لا يحصيها ديوان (٢٧) . ويذكر القرى نقلاً عن ابن خلدون : أن الفارس خلف في بيوت المال خمسة آلاف ألف ولا ندري هل هذا الرقم بالدينار أم الدرهم ؟ ويطلب على الظن أنه بالدرهم لأنه إذا كان بالدينار تجاوز الملايين وفي هذا كثير من المبالغة (٢٨) ، وأنه كان يقسم الجباية ثلاثة أقسام : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر . وقد ذكر ابن حوقل أن الفارس استطاع أن يدخر حتى سنة ٣٤٠هـ نحو ٢٠ مليون دينار ، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع توفير هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني (٣٥٨ — ٣٦٩هـ) (٢٩) .

ونذكر بعض الباحثين المعاصرين أن الدخل السنوي عن طريق الضرائب والكوس في عهده بلغ ٢٠ مليون دينار (٣٠) ، ونقل من بروفنسال أنهما

(٢٥) القرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٤ .

(٢٦) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ .

(٢٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٤٥ ، ص ٢٦٦ ، ابن عسار

البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢٨) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٢٩) المسالك والملك ص ٧٧ ، تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٣٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦ .

بلغت فيها بمعد ٤٠ مليون . ومهما كانت محة هذه الأرقام ، فإن
من الواضح ان موارد الدولة قد زادت زيادة كبيرة فى عصر الخلافة ،
وخاصة فى عهد الناصر وولده المستنصر .

وتدل هدية الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد للناصر سنة ٣٤٧هـ
على مدى ما وصلت إليه الدولة الأموية فى الاندلس من الضخامة واتساع
الأحوال كما ذكر ابن خلدون ، الذى قال : إنه لم يهاد أحد من ملوك
الاندلس ببئها ، وقد أعجب بها الناصر أيما إعجاب وكافأ الوزير بزيادة راتبه
إلى ٨٠ ألف دينار اندلسية ، وبلغ معروفه إليه ألف دينار ، وسماه
ذا الوزيرين ، وكان أول من تسمى بذلك فى الاندلس (٣١) .

وكذلك هدية جعفر الصقليى الحاحب للخليفة المستنصر يوم ولايته
وكانت عبارة عن « مائة ملوك من الإفرنج على خيول صلبة كاملو الشكة
والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والفراس ، والقلائس الهندية ،
وثلاثمائة ونيف وعشرون درهما مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ،
ومائة بيضة هندية وخمسون بيضة من بيضات الفرنجة يسمنونها
الطيطانة ، وثلاثمائة حربة إفريقية ومائة ترس سلطانية ، وعشرة
جواشن فضة مذهبة ، وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجلبوس » (٣٢) .
وقد ذكر البعض ان النظام المالى فى الاندلس كان يدور حول
أمور ثلاثة هى : الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة
الأمير أو الخليفة .

أما الخزانة : فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى خازن
المال ومقرها القصر ، وفيها تودع الأموال التى تجبى من الكور

(٣١) انظر تفصيلها فى فتح الطيب ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٨ ، محمد دياب :

تاريخ العرب فى إسبانيا ج ١ ص ٣٢٨ - ٣٤٠ .

(٣٢) فتح الطيب ج ١ ص ١٧٨ .

والقرى (٣٣) . ومن أهمها أموال التركت التي يموت عنها أصحابها بدون وارث (الموارث الحثرية) . والضرائب المفروضة على الأسواق ، والرسوم الجمركية على السفن والخراج والجزية والاعشار (٣٤) .

وأما بيت المال : فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف ، ومقره بجامع ترطبة ويقوم بحفظ المنشآت الدينية ، ودفع رواتب موظفي المساجد وتوزيع الصدقات في أماكن خاصة ، ويقوم بالإشراف عليها قاضي القضاة ومن ينوب عنه تحت إشراف الخليفة ، وهو يشبه من هذه الناحية وزارة الأوقاف والشئون الاجتماعية .

وأما موارد الخليفة الخاصة فكان يشرف عليها موظف يعرف بصاحب الدية ويكلف بالإشراف على أراضي الأمير أو الخليفة من ناحية زراعتها من قبل المزارعين الذين يأخذون جزءاً من محصولها في مقابل ذلك (٣٥) .



(٣٣) الكور جمع كورة وتعني المقاطعة أو الولاية ولا يعرف أصل هذه الكلمة ويرى البعض أنها يمكن أن تكون محرفة عن قرية ، أو مشتقة من الكلمة اللاتينية (خورة) بمعنى الأرض أو الريف ، أو من اللفظ اللاتيني كوربا بمعنى الحى (انظر دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٦٢ هلمش ١) .

(٣٤). تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣٥) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

الفصل السادس

الحالة العلمية والإقناعية

الحالة العلمية والثقافية

يظهر أن نشأة العلوم في المجتمعات الإسلامية المختلفة كانت متقاربة أو متشابهة حيث بدأت بذرة صغيرة ، ثم ما لبثت بفضل الرعاية والعناية والاهتمام أن نمت وازدهرت واثرت . هذا ما حدث في المشرق ، وهو بعينه أو شبيها به ما حدث للعلم والثقافة في المغرب والاندلس .

فقد جاء الإسلام فهد الأرض ، ووضع بذور العلوم الدينية والعربية ، ومضى زمن أخذت تتطور فيه هذه العلوم ، ثم كان الاتصال بالأمم الأخرى ذات الحضارة والعلم والثقافة ، فاقبض المسلمون من علومها ، وترجموا بعض كتبها إلى العربية ، وصححوا فيها ، وأضافوا إليها ، حتى أخرجوا بعد ذلك نتاجا عظيما من العلم والثقافة .

وعندما فتح المسلمون الاندلس كانت هناك في البداية حروب صرفت العقول عن الاهتمام بالعلم والثقافة إلا قليلا ، وكانت هناك خلافات بين المسلمين الفاتحين بسبب العصبيات القبلية والجنسية ، وبسبب التنافس على الرئاسة والسلطان إلى غير ذلك . حتى إذا بدأت الأمور في الهدوء والاستقرار وخلصت بعد عصر الولاة — الذي كان عصر فتن ومنازعات وحروب وثورات في معظمه — وأخذت الدولة الأموية ترسي قواعدها على يد عبد الرحمن الداخل ، بدأت الحركة العلمية المنظمة في الظهور والنمو (١) .

(١) لا ينبغي أن يفهم من هذا أن عصر الولاة كان خلوا من أي اهتمام بالعلم والثقافة ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين مثل أ. محمد عبد الله عنان (دولة الإسلام في الاندلس ج ٢ ص ٦٩١) وغيره

ونستطيع ان نقول : إنه كانت هناك عدة روايد لتفذية هذه الحركة ومنها :

١ - تقوم نفر من الصحابة والتابعين مع الجيوش الفاتحة للأندلس ، وفى عصر الولاة والعصور التالية ، وكان كثير منهم على حظ من العلم والمعرفة ، وخاصة فى أمور الدين . وكان هؤلاء هم أوائل المؤسسين للحركة العلمية بواسطة الحلقات التى كانوا يعتقدونها فى المساجد وغيرها (٢) .

وإنما شهد هذا العصر شيئا من ذلك ، وخاصة فى فترات الاستقرار أثناء حكم بعض الولاة ، ولكنها كانت بمثابة محاولات فردية ، ولم تأخذ شكلا جماعيا منظما مثل الذى حدث بعد ذلك فى العصر الأموى وهذا امر طبيعى . لأن الحركة العلمية فى كل عصر وحين تحتاج إلى الهدوء والاستقرار ، والدمع والاهتمام .

(٢) تذكر بعض المصادر واحدا من صغار الصحابة ذهب إلى إفريقية ، ثم دخل الأندلس مع موسى بن نصير ويدعى المنذر أو المنيزر الأسلمى ، وأنه حدث بحديث عن رسول الله ذكره ابن الأثير والمقرئ وهو (من قال إذا أصبح رضى بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيا ، فأننا الزعيم لأخذه بيده حتى أدخله الجنة) .

(أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٢ ص ٤١٧ ، نفع الطبيب ج ١ ص ٢٧٩ ، ج ٣ ص ٦) .

وقد اختلف المؤرخون فى جملة من دخل الأندلس من التابعين ، لكن من المؤكد أنهم كثيرون (انظر د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٥٥ - ١٥٦) . وقد وضع ابن بشكوال كتابا بعنوان (التنبيه والتعنين لمن دخل الأندلس من التابعين) أشار

٢ - قدوم كثير من العلماء والادباء من المشرق إلى الأندلس إما بأنفسهم ، أو بدعوة من بعض الأبراء والخلفاء ، مثل أبى على التتالى صاحب الأملى ، وصاعد البغدادي وغيرهما ممن نشروا كثيرا من علوم اللغة والأدب ، وتلمذ على أيديهم الكثير من أهل الأندلس ، الذين برع منهم بعد ذلك من برع مثل ابن عبد ربه وغيره ولذلك قال صاحب ابن عباد عن كتاب المعتمد المفرد « هذه بضاعتنا ردت إلينا » لأنه رأى فيه كثيرا من علوم المشرق التي عرفها (٣) .

٣ - رحيل كثير من الأندلسيين إلى المشرق لتنفيذ على علمائه ، ثم العودة إلى الأندلس لنشر العلم مثل زياد بن عبد الرحمن الملقب (بشبطين) الذي ينسب إليه أنه كان أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى الأندلس بعد تلميذه عليه ، ويحيى بن يحيى الليثي المصودى الذي رحل إلى المدينة أيضا وتلمذ على الإمام مالك ، ثم رحل إلى مصر فآخذ عن الليث بن سعد ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم المعتقى إمام المالكية في مصر ، ومثل عبد الملك بن حبيب السلمي ، والغازي بن قيس وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت كتب التراجم الأندلسية بذكرهم .

وقد بلغ من إقبال الأندلسيين على الارتحال في طلب العلم ، أن الشخص عندهم كان يعاب بأنه لم يرحل إلى المشرق (٤) .

إليه المقرئ ولكنه لم يصلنا (انظر : نفع الطيب ج ٣ ص ١٠ ، ص ٦٠ - ٦١ ، التكملة لكتاب المسئلة ج ١ ص ٢٨٢ ، ج ٢ ص ٧٠٤) .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣ .

(٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٤ ، انظر في الراحطين من الأندلس إلى المشرق في طلب العلم نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٦ وبعدها .

٤ - جمع الكتب وإنشاء المكتبات : والكتب ولا شك من أهم روائد الحركة العلمية - إن لم تكن أهمها - فى كل عصر ، ولذا فقد حرص الكثير من الأمراء والخلفاء والكبراء فى الأندلس على جلب الكتب ، وتأسيس المكتبات ، ومن أشهرهم فى ذلك الخليفة الحكم المستنصر ، الذى أسس مكتبة عظيمة حوت نحو ٤٠٠ ألف مجلد فى علوم شتى . وأخذ الكثيرون فى اقتناء الكتب ، وإنشاء المكتبات فى شتى أنحاء الأندلس سواء فى قرطبة أو غيرها ، للعلم ، أو للتباهى بها (٥) .

(٥) يقول ابن سعيد عن قرطبة « وهى أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب ويختبئ فيها ليس إلا لأن يقال : فلان منده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به » .

ويذكر قصة تدل على ذلك بين الرحالة الحضرمى وبين رجل أندلسى تدور عليه أمارات الغنى والرياسة ، حيث أقام الحضرمى مرة بقرطبة يريد كتابته حتى عثر عليه ، ففرح به أشد الفرح ، وأخذ فى شرائه ، وكلما ذكر ثمناً زاد هذا الرجل عليه حتى بلغ حداً لا يستطيعه . فاعتقد أنه نقيه فقال له : أمر الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده ، فقال له : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أتمت خزانة كتب ، واحتفلت بها لأتجمل بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رايته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنه ، ولم أبال بما أزيد فيه » (انظر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٤٦٢ - ٤٦٣) .

وذكر البعض أن مكتبات الأندلس العلية بلغت سبعين مكتبة (٦) .
٥ - كثرة مراكز العلم والثقافة : كالمسجد ، والمكتاب ، والقصور ،
والدور وغيرها . مما كان له اثر كبير في نهضة الحركة العلمية (٧) .

٦ - تقدير الامويين للعلم والعلماء حباً في العلم من ناحية
ورغبة في منافسة العباسيين والفاطميين من ناحية أخرى (٨) . ولذلك
نقد قريبا الكثيرين منهم - وخاصة الفقهاء - وولاهم المناصب الرسمية
في الدولة ، كالفتيا والقضاء وغير ذلك (٩) .

=

وحتى لو بدا في هذه الرواية طابع المبالغة أو التكلف ، أو أنها
قلبت في مجال إظهار محاسن المدن على بعضها ، فإن فيها شيء من
الدلالة على مدى حب الأندلسيين لجمع الكتب واقتنائها فهي ثروة
على أية حال ، وهي مظهر من مظاهر الترف والوجاهة ، ونوع من
الاهوية ، كما نراه عند الكثيرين من الأغنياء والوجهاء في مصرنا
اليوم . (انظر : المقرئ : نصح الطبيب ج ١ ص ٢١٥ ، ظهر الإسلام
ج ٣ ص ٢٣ - ٢٧ ، خوليان ريبيرا ، القرية الإسلامية في الأندلس
ص ١٩٠ وبعدها ، ليفي بروفنسال : حضارة العرب في أسبانيا
ص ٦١) .

- (٦) د. عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٣١٧ .
(٧) انظر : خوليان ريبيرا : التريسة الإسلامية في الأندلس ص ١٤٥
وبعدها .
(٨) انظر : د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي (الفصل الرابع عن
مكانة العلماء وجلال أقدارهم) ص ٩٧ وبعدها .
(٩) انظر في ذلك ما ذكره المقرئ من أنه كان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف
=
- (م ٢٥ - المجتمع الأندلسي)

ونتيجة لهذه العوامل وغيرها ، فقد بدأت الحركة العلمية بالاندلس في النمو والازدهار ، واخذت المؤلفات تتوالى ، والمعرفة تتشيع ، والثقافة تنتشر ، حتى ازدهر العلم ومم ، وقد اقتضى ذلك ازدهار صناعة الورق ، وما يتصل بها من أدوات النسخ والكتابة .

لقد كانت الفترة التي أعقبت فتح الأندلس ، والتي تسمى عصر الولاة (٩٢ - ١٢٨ هـ) فترة تسودها القلاقل والاضطرابات ، ومع ذلك — ونظرا لحرص المسلمين على العلم والثقافة — فقد شهدت هذه الفترة قدرا من الثقافة كان بمثابة خيوط الفجر الأولى التي تؤذن بمعد ذلك بمشرق الشمس ، وذلك على يد من جاء من الصحابة والتابعين . كما شهدت أيضا قدرا متواضعا من الأدب كان بمثابة البذور الأولى للأدب الأندلسي فيها بعد (١٠) .

ثم جاءت فترة تأسيس الإمارة الأموية ، والتي كانت بمثابة فترة علاج للكثير من الأدواء التي سبقتها ، وقد خلعت الأندلس في هذه الفترة أولى خطواتها نحو الحركة العلمية المنظمة ، وساعد على ذلك عدة عوامل منها :

١ — وفود كثير من الأمويين وانصارهم إلى الأندلس ، ولا شك انه كان منهم كثيرون على حظ وانصر من العلم والمعرفة .

==

قرية في كل واحدة منها مسجد وفقه مقلص — المقلص غطاء للرأس — تكون له الفتيا ، لا يجعل إلا من حفظ الموطأ ، أو عشرة آلاف حديث ، وحفظ المدونة . وكان هؤلاء الفقهاء المقلصون يأتون للصلاة مع الخليفة في يوم الجمعة بقرطبة ، ويطلبونه بأحوال بلادهم . (نفع الطيب ج ١ ص ٢١٢) .

(١٠) د. أحمد هيك : الأدب الأندلسي ص ٥٤ — ٥٥ .

٢ — عودة أول فوج من الاندلسيين الذين درسوا بالشرق ، وكانوا بمثابة أعضاء للبعثات الذين يتعلمون خارج البلاد ، ثم يعودون للقيام بدورهم في نشر العلم والمعرفة . ومنهم : الغازي بن قيس الذي تنطد على الإمام مالك ثم عاد في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، نكثه وعرض عليه القضاء فأبى وأخذ في نشر عنه (١١) . وغيره من مثلوا الجيل الأول للثقافة الأندلسية . مثل عبد الملك بن حبيب ، ويحيى الليثي ، وزيد ابن عبد الرحمن وغيرهم .

٣ — إنشاء المساجد — وعلى رأسها مسجد قرطبة الجامع — والتي كانت بمثابة النواة الحقيقية للحركة العلمية في الأندلس ، شأنها في ذلك شأن البلدان الإسلامية الأخرى . وفي هذه الفترة أيضا بدأ ظهور السمات الأولى المميزة للأدب الأندلسي ، والتي أخذت تنضج فيما بعد لتعطيه صورته الواضحة المتميزة (١٢) .

٤ — جلب كثير من الكتب والمؤلفات من المشرق إلى الأندلس ، سواء على يد الأندلسيين أو المشاركة الذين قدموا إلى الأندلس .

ولقد شهدت هذه الفترة ، وخاصة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٢٨ هـ) — دفعة كبيرة للحركة العلمية ، ووثبة عظيمة للثقافة والفن ، حيث شهد عصره الكثير من الهدوء والاستقرار ، واليسر والرخاء ، حتى سميت أيامه (بالعرس) (١٣) . فقد كان

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ ، ابن الفريسي :

تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٠١٥) .

(١٢) د. أحمد هبكل : الأديب الأندلسي ص ٧٤ — ٧٧ .

(١٣) المعبر ج ٤ ص ١٣٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٥ ، د. مصطفى

الشكعة : الأديب الأندلسي ص ١٠١ ، د. السيد سالم : تاريخ

المسلمين وآثارهم ص ٢٢٨ .

هذا الأمير ادبياً مثقفاً ، وشاعراً مطبوعاً ذا همة عالية ، مغرباً بالفنون والعلوم ، حريصاً على اقتناء الكتب ، وجلبها من الأماص . فقد أرسل عباس بن ناصح الشاعر إلى المشرق من أجل شراء الكتب النافعة فجاء بكتاب السند هند وغيره . (١٤) ، وكان بذلك يعتبر أول من عنى بجمع الكتب وتأسيس المكتبات من الأمويين ، وكان ذلك نواة لمكتبة قرطبة التي عمرت في عهد الحكم المستنصر .

كما كان ابنه عبد الله — رغم تقلب الأحوال السياسية في عهده — مجاباً للعلم مشاركاً فيه . قال عنه ابن حيان « كان متصرفاً في فنون من العلم ، متحققاً منها ، عالماً بلسان العرب ، بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب والأخبار » (١٥) .

وقد أدت هذه الوثبة إلى ظهور كثير من العلماء في علوم شتى إسلامية وعربية ، وظهور الطلائع الأولى في العلوم العقلية والطبيعية . ويمعد عباس بن فرنس من مظاهر هذه الوثبة العلمية في هذه الفترة ، ويعتبر من مغاخر الفكر الأندلسي بل والعالمي أيضاً ، حيث نسبت إليه مدة اكتشافات واختراعات منها القيام بمحاولة الطيران في الفضاء ، ومنها استنباط صناعة الزجاج من الحجارة ، ومنها اختراع آلة لمعرفة الوقت (١٦) .

ثم جاء عصر الخلافة فنهضت الحركة العلمية والثقافية في الأندلس نهضة شاملة ، وازدهرت ازدهاراً عظيماً ، كان من مظاهره وضوح الشخصية العلمية والثقافية للأندلس ، واستقلالها إلى حد كبير .

-
- (١٤) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ .
(١٥) ، المقتبس ص ٣٢ . نشر ملثور أنطونية باريس سنة ١٩٣٧ م .
(١٦) انظر د . حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦١ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٢ .

ولاشك أن ظروف التوحد والاستقرار ، والأمن والرخاء ، والتحضر والبرقي الذي تحقق في هذه الفترة على يد عبد الرحمن الناصر ، وأبنة الحكم المستنصر كان له دخل كبير في ذلك ، هذا بالإضافة إلى التشجيع الكبير للعلماء ، وجلب الكثير من الكتب والمؤلفات (١٧) .

وإذا كان المفضل يعود لعبد الرحمن الناصر في إعادة الأمن والاستقرار ، والقضاء على الفتن والقتال التي سادت في أواخر عهد الإمارة ، فإن المفضل يعود لأبنة المستنصر في ازدهار الحركة العلمية بصورة كبيرة ، حتى ليكن أن نطلق عليه اللقب الذي أطلق على الخليفة المأمون العباسي وهو (الخليفة العالم) .

فقد كان مولعاً بالكتب حتى قبل جلوسه على مرثى الخلافة في الأندلس ، حريصاً على جلبها ، ودفع الأثمان الغالية فيها ، حتى بلغت كما ذكر نحو ٤٠٠ ألف مجلد (١٨) . ومن أروع الأمثلة على ذلك : أنه أرسل إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار ذهباً حتى يرسل إليه نسخة من كتابه الأغاني ، فبعثها إليه قبل أن يظهر في بغداد (١٩) .

وتعددت هذه المكتبة كما ذكر تحتوى على أربعة وأربعين فهرس أو سجل ، كل فهرس يقع في خمسين ورقة ، وكانت هذه المدارس تكتفى بذكر أسماء الكتب ومصنفاتها فقط ، كما كان في هذه المكتبة عدد كبير من الباحثين والنساج والقومة والمتدوين الذين يقومون بشراء الكتب من الأمصار المختلفة ، هذا بالإضافة إلى من يعمل بالتجديد والزخرفة ،

(١٧) د. أحمد هيكل : الأئمة الأندلسي ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(١٨) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠١ ، المغرب : فتح الطيب ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٦ .

(١٩) المقري : فتح الطيب ج ١ ص ١٥٠ .

والتعليق على الكتب وتصحيحها ومقابلة نسخها ، وغير ذلك (٢٠) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الحكم يشجع العلماء على التأليف ، ويجزل لهم العطاء ، بل ويقترح عليهم بعض الميادين أو الموضوعات التي يؤلفون فيها ، ويشاركون في وضع مناهجها . فيذكر أنه اقترح على الخشنى تأليف كتابه (قضاة قرطبة) وهو يشير إلى ذلك في صدر هذا الكتاب ، كما اقترح على الزبيدي تأليف كتابه (طبقات اللغويين والنحويين) ، وقد أشار إلى ذلك أيضا (٢١) .

كما اقترح على ابن الصغار تأليف كتاب في اشعار بنى أمية بالمشرق ، وطلب من ابي الفرج الاصفهاني تأليف كتاب في انساب بنى أمية فآله له ، وأنفذ معه قصيدة يمدحه فيها وقومه ، فجاد عليه بصلة جزيلة (٢٢) .

وقد كان الحكم شغوفًا بقراءة الكتب ، والتعليق عليها . ولا محجب في ذلك فقد كان كما يقول المقرئ : « غزير العلم واسع الاطلاع ، ذا معرفة بالآخبار والانساب ، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب » (٢٣) .

(٢٠) الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠٣ وقد ذكرتها بعض المصادر عشرين

ورقعة . د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٨١ ،

د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٤ .

(٢١) انظر قضاة قرطبة ص ١٠ ، طبقات اللغويين والنحويين ص ٩ -

١٠ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٠ .

(٢٢) جذوة القتبس ترجمة ٥٣٣ هـ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب

الأندلسي ص ٤٥ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ١٩١ ،

خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢٣) نفع الطبيب ج ١ ص ٣١٨ .

... ويقول ابن حيان : « وكان له وراثون ياتطار البلاد ، ينتخبون
عنه غرائب التواليف . وكان مع هذا كثير التهم بكتبه ، والتصحيح لها ،
والطبعة لفوائدها .. وقلما تجد كتابا في خزائنه إلا وله فيه قراءة
وفطر من أى فن كان من فنون العلم ، يقرؤه ويكتب فيه بخطه ...
وكان يؤثقل به مابونا ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الاندلسيين
وإئمتهم ، يتقلون من خطه ويحضررون به » (٢٤) .

كما تزيب الحكم العلماء وافدق عليهم ، واهتم بإنشاء المكاتب
لطلاب العلم ، ووقف عليها الأوقاف . فيذكر أنه أقام في سلحة المسجد
الجامع قرطبة وحوله بعد الزيادة التي أضفها إليه ثلاثة مكاتب لتعليم
أولاد الضعفاء والمساكين ، وتعلم كذلك أربعة وعشرين مكتبا في أرباض
قرطبة ولما ذلك يقول الشاعر ابن شبيب :

وساحة المسجد الأعلى مكتبة

مكتبا الفينامي في نواحيها

لو مكتت سور القرآن من كلام

نانتك يا خير تالها وواعيها (٢٥)

كما حبس خوانيت المراجين بسوق قرطبة على المعلمين بهذه
المكاتب ، وأشهد على ذلك القاضي محمد بن اسحاق ، وجعل للعلماء جانب
من دار الملك يجلسون فيه للتأليف والنسخ والترجمة والمقارنة (٢٦) .
ومن الغريب بعد هذا كله ان نجد البعض ينتقد الخليفة الحكم

(٢٤) ابن الأبار : اللطاة السيرة ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢٦) جنوة المقتبس ص ٤٧ ، خوليان روبرا : التربية الإسلامية في

الاندلس ص ١٩ .

على انشغاله بالحركة العلمية معللا ذلك بأنه انصرف عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي . ومنهم د. حسين مؤنس الذى وافق على ذلك قائلا : « وهناك وجه للحق فى هذا الحكم ، فلو ان المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد ابن أبى عامر سبيلا إلى السلطان » (٢٧) . ولكننا لا نوافق هؤلاء على ذلك فالحاكم العالم المثقف أفضل ألف مرة ومرة من الجاهل المستبد ، فهل كان مطلوبا من الحكم أن يظل جاهلا ، ولا يشتغل بالعلم ، أو يتقف نفسه ؟ ، والعلم والثقافة بلا شك يؤسمان من مدارك الحاكم ليستطيع حكم الدولة حكما سديدا ، لقد كان المؤمن العباسى رغم اشتغاله بالعلم والثقافة ذا حنكة ومقدرة فى كثير من النواحي السياسية والإدارية . والعجب أن د. مؤنس عاد بعد ذلك ليقول من سياسة المستنصر « وكل ذلك لم يشغل الحاكم من النظر السديد فى أمور ملكه » . وذكر أيضا : أن ملوك النصارى حاولوا انتهاز فرصة انشغاله بالعلوم ، فاغاروا على أطراف الدولة ، فنهض الحكم لفزوهم ابتداء من سنة ٣٥٢هـ ، وتوغل فى أراضيهم ، واستولى على قلاع كثيرة ، وأرغم الكثير منهم على التسليم بسيادة قرطبة فأخذوا فى إيفاد سفاراتهم لعقد المعاهدات معه (٢٨) . ومن هنا نرى : أن اهتمام الحكم بالحركة العلمية ، واشتغاله بالعلم لم يصرفه عن النظر فى أمور دولته ، بل إن ذلك زاد من حبراته وتجاريه فى حكمها . وأن الظروف هى التى ساعدت ابن أبى عامر على الوصول إلى النفوذ والسلطان لتقريبه من السيدة صبح زوجة الحكم ، وتوليها الحجابة على ابنتها هشام المؤيد وهو فى سن العاشرة ، وقد كان طموحا منذ البداية للوصول فاستغل فى ذلك كل فرصة ممكنة ، واتخذ

(٢٧) معالم تاريخ المغرب فى الأندلس ص ٣٣٣ .

(٢٨) نفس المرجع ص ٣٣٥ .

وسائل عديدة غير مشروعة في سبيل الوصول إلى هدفه (٢٩) .
وفي فترة الحجابة اهتم المنصور بن ابي علير ايضا بالحركة العلمية وخاصة العلوم الدينية والأدبية ، بالرغم من تلك الثورة التي اعلنها على العلوم العقلية وخاصة المنطق والفلسفة ، حيث أحرق ما في خزائن الحكم منها ، وطرح بعضها في آبار القمر ، وأهال عليه التراب والحجارة . ويقال : إنه ما فعل ذلك إلا تقربا إلى الفقهاء المالكية والعبادة لتثبيت سلطانه — حيث كانوا ينظرون إلى المشتغلين بهذه العلوم على انهم زنادقة — وأنه كان في قرارة نفسه يميل إليهما ، ويطلع عليهما (٣٠) .

وقد كان المنصور يميل إلى الكتب الأدبية ، وخاصة كتب الاسرار ، مثل كتاب حسان بن ابي عبدة (ربيعة وعقيل) ، الذي وصفه ابن حزم بأنه من أبلغ ما ألف في هذا المعنى (٣١) .

والكتب ذات الطابع القصصي مثل كتاب (الهجنف بن فذقان ابن يثرب مع الخنوت بن مخزومة بن نوفل) ، وكتاب (الجواس بن قعطل المنجى مع ابنة عمه عفران) . وقد ألفها له صاعد اللغوى بعد هجرته من بغداد سنة ٣٨٠هـ واتصله به ، كما ألف له أيضا كتاب (الفصوص) على غرار كتاب النوادر لأبي علي القالي . وقيل إن المنصور كان شغوفا

(٢٩) انظر : د. خالد الصوفي : العرب في اسبانيا (عصر المنصور الأندلسي) ص ٤٢ وبعبدها .

(٣٠) الحبيدي : جنوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفي : تاريخ الأمم ص ٦٦ ، روبرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ٣٧ ، د. خالد الصوفي : المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(٣١) الحبيدي : جنوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفي : تاريخ العرب في اسبانيا ص ٢٥٧ .

بكتاب الجواس إلى درجة أنه رتب من يقرؤه له كل ليلة (٣٢) .

وينكر ابن حبان : أن المنصور أثاب صاعدا على كتاب النصوص
بخمسة آلاف دينار ، وأنه أمره أن يسمعه الناس في مسجد مدينة الزاهرة
التي بناها (٣٣) .

وقد كان للمنصور مجلس في قصره يجتمع فيه العلماء والأدباء
والشعراء ، وكان يشاركون أحيانا في مناقشتهم ، ويلى فيها بدلوه ،
ولا غرو فقد كان أدبيا شاعرا ومن شعره :

رمت بنفسى هول كل كرهية
وخاطرت والحر الكريم مخاطر .
وما صاحبي إلا جنان مشيع
واسمر خطي وبيض باتر
وإني لزجاء الجيوش إلى الوشى
أسود تلاقىها أسود خوادر (٣٤)

(٣٢) جنوة المقتبس ترجمة ٥٠٩ ص ٢٤٠ ، معجم الأدباء ج ١١
ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، بغية الملتبس ترجمة (٨٥٢) ص ٣١٩ -
٣٢٠ .

(٣٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٢٣ . وهناك روايات أخرى تذكر : أن
المنصور اغتاز مرة من كثرة أكلانيب صاعد - وقد أنهم بالكذب -
فأمر بإخراجه من مجلسه ، وتنف هذا الكتاب في النهر . وفي
ذلك يقول أحد الشعراء متهميا :

قد غاص في النهر كتاب النصوص
وهكذا كل ثقيل يغوص

وقد بلغ من اهتمامه بالأدب والشعر أن أنشأ ديوانا خلاصا سمى
'ديوان النداء' ، مهمته ترتيب الشعراء في طبقات ، ويذل العطاء لهم
على أقدارهم في الشعر . وكان على رأسه واحد من كبار الأدباء النقاد
وهو عبد الله بن محمد بن مسلمة . وكان المنصور يصطحب الشعراء معه
في غزواته ليقولوا الشعر فيها لتحسيس الجند ووصف المارك ، وذكر أنه
لصطحب مرة في إحدى الغزوات أربعين شاعرا من كل طبقة (٣٥) .
وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على كثرة الشعراء في ذلك الوقت .
وإلى جانب اهتمام المنصور بالأدب والشعر ، فإنه لم يغفل العلوم
الدينية واللغوية فقد ذكر أنه كلف ابن المكوي الإشبيلي ، وأبا مروان
المعيطي الفقيه بجمع أقوال الإمام مالك في كتاب على نحو كتاب (الباهر)
الذي جمع فيه ابن الحداد المصري أقوال الإمام الشافعي فأخرج له
هذا الكتاب على أكمل صورة (٣٦) .

كما أنه اتخذ محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي قنينا للتدقيق
والضبط في مكتبته ، وقد استعان بذلك في تأليف كتاب من تاريخ بني عامر
قدمه للمنصور (٣٧) .

نرد عليه صاعد قائلا :

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار المتصوص

وروايات تذكر : أن علماء قرطبة أغرقوا هذا الكتاب ، ورووه
في نهر قرطبة لكثرة ما فيه من أكاذيب . (انظر نتج الطيب ج ١)
ص ٧٦ - ٧٨) .

(٢٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٧٣ ، د. خالد الصوي : مرجع سابق
ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٣٥) د. خالد الصوي : المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

(٣٦) جذوة المتببس ص ١٢٢ .

(٣٧) التكملة ص ٣٨٤ .

كل هذا وغيره مما جعل الحيدى يصنفه بقوله « كان للنصور همة رفيعة في العلوم » (٣٨) .

لقد نشطت الحركة العلمية نشاطا منقطع النظير في الأندلس ، وازدهرت في عصر بنى أمية - وخاصة في العاصمة قرطبة التي نائمت حواضر العالم الإسلامي والأوربي آنذاك - ولم تكن وقتنا على عنصر دون آخر ، بل شاركت فيها شتى مناصر المجتمع من عرب وبربر وموالي ومولدين ومستعربين ، كما شاركت فيها المرأة أيضا ، فكان هناك الشاعرات والكاتبت والناسخات للمصاحف ، والمعلمات في المكاتب . للفتيات وغير ذلك (٣٩) .

وقد اشداد الكثير من المؤرخين بذلك حيث قال المقرئ : (إن قرطبة أعظم مليا ، وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارفة بها) (٤٠) ، ووصفها بعض الأوربيين بأنها جوهرة العالم (٤١) . وعنها قال الشاعر الأندلسي مفتخرا :

باربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثلاثة

والعلم أعظم شيء وهو رابعها (٤٢)

(٣٨) جنوة القتبس ص ١٢٣ ترجمة ٢٣١ .

(٣٩) انظر في ذلك : بلب النساء في بغية اللبس ص ٤٤٣ وبعدها ،

جنوة القتبس ص ٤١٢ وبعدها ، ريبيرا : التربية الإسلامية في

الأندلس ص ١٦١ ، ٢٠٤ ، العجيب ص ٢٤٨ .

(٤٠) نفع الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤١) ليني برونسال : حضارة العرب في اسبانيا ص ١١٤ ،

د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسي ص ٣١٤ .

(٤٢) نفع الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

التعليم عند الأندلسيين :

وكان من مظاهر الحركة العلمية ازدهارها ، فسيوع التعليم في الأندلس في ذلك العصر ، فقد أصبح علما يشمل الجنسين ، وكثرت أملكه ومؤسساته ، وكثرت رحلات الطلاب إلى خارج الأندلس لطلب العلم ، وغدت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة بصورة رئيسية ، وتعلمها الكثير من الأسبان المسيحيين ، ولذلك سموا (بالمستعربين) .

ويذكر أن هشلم بن عبد الرحمن الداخل هو الذي جعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد أهل الذمة ومؤسساتهم ، وكان لهذا أثره العميق في انتشارها وفي اعتناق الكثيرين للإسلام (٤٣) .

وقد قامت المساجد بدور هام في التعليم عند الأندلسيين والأمثلة كثيرة على ذلك في كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

كما قامت المكاتب بدور هام أيضا في الناحية التعليمية . فكان الطلاب يلقون فيها مبادئ العلوم إلى جانب حفظ القرآن الكريم ، وقد كثرت هذه المكاتب في عهد الخليفة المستنصر . ويمكن القول بأنها أصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعد أن كان المؤدبون يتخذونها في بيوتهم . وفي ذلك يقول ابن عذاري : « ومن مستحسنات أفعاله ، وطيبات أعماله ، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن في مكتب حول المسجد الجامع ، ويكل ريش من أرباض قرطبة ، وأجرى عليه الأرزاق ، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا منها حول المسجد الجامع ثلاثة ، وبقيتها

(٤٣) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٢٩ ، د. الحجى : التاريخ الأندلسي ص ٢٧٨ .

فى كل ريف من ارياض المدينة (٤٤) .

ونستطيع القول بان هذه المكتبة قد قامت بدور المدارس فى البداية ، حتى قامت المدارس بعد ذلك فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة (٤٥) . ويشير ابن سميذ المغربى فى القرن السابع الهجرى إلى انه لم تكن هناك مدارس فى الأندلس تعين على طلب العلم كما كان الحال فى المشرق ، وإنما كان طلاب العلم يقرأون جميع العلوم فى المساجد باجرة (٤٦) . وفى هذا رد على كثير من الباحثين الذين يتجوزون غيركون أنه كانت هناك مدارس فى الأندلس فى العصر الأموى ويطلقون على المكتاتب أو المكتبة هذا اللفظ (٤٧) ، ومعلوم ان المدارس لم تظهر فى العالم الإسلامى كمؤسسات تعليمية تسمى بهذا الاسم إلا فى القرن الخامس الهجرى على يد نظام الملك عندما أنشأ المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٥٧ هـ . ولم تظهر المدارس بالأندلس بهذا المسمى إلا فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة (٦٣٥ هـ — ٨٩٧ هـ) (٤٨) .

وقد قام المؤيدون بدور كبير فى التعليم حيث لقبوا أبناء العصابة والخاصة ، وكان منهم كثير من العلماء مثل الفارزى بن قيس ، الذى كان يؤدب فى قرطبة منذ دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وأبو الغمر عبد الواحد بن سلام المعروف بالأحديب (ت ٢٠٩ هـ) ، وكان عالما بالنحو

(٤٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ .

(٤٦) المرقى : نفع الطبيب ج ١ ص ١٠٢ .

(٤٧) انظر خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٣ -

١٤ ، ص ٢٠ .

(٤٨) انظر : دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ ، ابن الأحمر : تبيين

فرائد الجبان ص ٥٠ .

واللغة ، ولحميد بن نعيم وكان مؤدبا بجليان وطليطلة ، وجابر بن غيث الذي اشتهر بشدته على الطلاب قتل من تأدب عنده (٤٩) .

ومحمد بن حزم - وهو غير ابن حزم النقيب المشهور - الذي كان يساعده ابنه وابنته في تعليم الصبيان والمبنيات في مكتبة بقرطبة .
وسعيد بن سلمون بن سيد أبيه ، وكان من اهل قرطبة له كتاب يؤدب فيه ، وكان صالحا قرا عليه كثير من الناس للقرآن (٥٠) .

ومن مؤدبي ابنساء الامراء والخاصة : هشام بن الوليد الفافقي مؤدب الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وأبو محمد عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي ، وكان عالما بال نحو واللغة ، مبرزا في الشعر ، أدب ابنساء الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وابن ارقم مؤدب عبد الرحمن الناصر (٥١) .

وعثمان بن نصر بن عبد الله القرطبي (ت ٤٢٥ هـ) مؤدب الحكم المستنصر (٥٢) . ووليد بن عيسى بن حارث ويعرف بالطنجي (الطنجي) ت ٤٥٢ هـ ، وكان بصيرا بالشعر ، حسن الاستنباط لمعانيه ، جيد النظر فيه ، شرح شعر أبي تمام ، ومسلم بن الوليد ، فاختار الناس منه ذلك .
« كان مؤدبا بعيد الاسم في التأديب ، يتنافس فيه المأدوك كما قال ابن الفرضي (٥٣) .

(٤٩) انظر طبقات الزبيدي ص ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .
(٥٠) انظر تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٥٢٦ ، ربيرا : المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٥١) انظر طبقات الزبيدي ص ٢٩٢ - ٢٩٩ ، المتنبس في اخبار بلاد الأندلس ص ٣٥١ - ٣٥٢ ، ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ١١٢ - ١١٤ .

(٥٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٨٩٨ .

وحسين بن وليد بن نصر القرطبي (٣٩٠ هـ) وهو من تلاميذ ابن القوطية وكان عالما بالعربية متقدما فيها ، وكان مؤدبا لأبناء النصور ابن أبي علبر (٥٤) .

ومحمد بن خطاب الأزدي وكان يخطف إليه في علم العربية كثيرون من أولاد الخاصة والكبراء (٥٥) ، وغير هؤلاء كثيرون ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

وقد اتخذ بعض هؤلاء المؤدبين أو المعلمين من التعليم حرفة يتكسبون بها ، وكان الواحد منهم يتقاضى جملا أو مكافأة كلما بلغ أحد تلاميذه مرحلة الإتيان والحنق ولذلك عرفت هذه المكافأة باسم (الحنقة) (٥٦) .

أما مؤدبو أولاد الأمراء والخلفاء والخاصة ، فقد ارتقوا إلى مكانة عالية ، حيث كان معظمهم من مشاهير العلماء ، وأغنى عليهم الكثير والكثير (٥٧) .

ويذكر الزبيدي طبيعة التحصيل العلمي عند هؤلاء المؤدبين فيقول : « ولم يكن عند مؤدبي العربية ، ولا عند غيرهم من عني بالنحو كبير علم ... وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يمانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية ، وغوامضها ، والاعتلال

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ١٥١٢ .

(٥٤) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٣٥٦ .

(٥٥) الحميدي : جذوة القتبس ص ٥٤ .

(٥٦) انظر : طبقات الزبيدي ص ٢٧٨ .

(٥٧) انظر عن مرتبات المعلمين (التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٢١ وبمسدها) .

لشأنها ، ثم كانوا لا ينظرون في إجابة ولا إدغام ، ولا تصريف ولا إنبية ، ولا يجيئون في شيء منها » (٥٨) . . .

« فهو يتهم مؤدبي العربية والتخو بقلة التحصيل العلمي ، غير أن هذا الحكم العام يأتي جلقاً ومجحفاً في حق الكثير من المؤيدين الذين وصلوا إلى مراتب عليا في العلم ، وكان منهم كثيرون لهم منزلة كبيرة في نفوس الناس . ومن يتصفح كتب التراجم والطبقات الاندلسية ومنها طبقات الزبيدي نفسه يجد الكثير من الأمثلة على ذلك مثل أبي جرش الذي ضرب به المثل في الفصاحة ، وأبي بكر الكتاني ، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله ، وصالح بن معاني ، والرشاشي وغيرهم (٥٩) .

وقد ذكر ابن خلدون بعض مبادئ التعليم عند الاندلسيين فقال : « إنهم يجعلون القرآن أصلاً للتعليم ، ولكنهم لا يقفون عند ذلك كما يفعل سائر أهل المغرب ، وإنما يخطون في تعليمهم رواية الشعر والترسل ، والأخذ بقواعد العربية وحفظها ، وتجويد الخط إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الثبوبة ، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بها ، ويرز في الخط والكتابة ، وتعلق بأذيال العلم على الجيلة » . ويمتدح هذا المنهج التعليمي فيقول : « فإفادهم الفتن في التعليم ، وكثرة رواية الشعر والترسل ، ومدارس العربية من أول العمر ، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي » (٦٠) .

(٥٨) طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٥٩) المصدر السابق : ص ٢٨١ — ٢٨٤ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٩ .

د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ص ٦٤ .

(٦٠) المقدمة ص ٣٩٧ — ٣٩٨ الطبعة البنية د. ت .
(م ٢٦ — المجتمع الاندلسي)

وقد ذكر ابن خلدون أيضا : أن القاضي أبا بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ) قد ذهب إلى طريقة غريبة في التعليم حيث تقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، ثم ينتقل إلى الحساب ، ثم إلى درس القرآن ، فإنه يتيسر عليه حتى يستطيع فهم ما يقرأ . وأنه انتقد أهل البلاد الذين يأخذون الصبي بحفظ القرآن في أول أمره فيقرأ ولا يفهم ، ونهى عن أن يخلط في التعليم علمان إلا إذا كان المتعلم قبالا لذلك بجودة الفهم والنشاط . وعلق ابن خلدون على ذلك بقوله « وهذا لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه » (٦١) .

ويبدو أن هذا المنهج لم يطبق نظرا لصعوبته من ناحية ولأن حفظ الصبي للقرآن في الصغر أجدى وأنفع ، وجرت العادة بذلك من ناحية أخرى .

ويشير ابن العربي إلى المنهج الذي سار عليه الاندلسيون في تعليم أولادهم فيقول : « فصار الصبي مندهم إذا عقل فإن سلخوا به أمثل طريقة لهم عليه كتاب الله ، فإذا حنقه نقلوه إلى الأدب ، فإذا نهض منه حفظوه الموطأ فإذا لقنه نقلوه إلى المدونة . ثم ينتقلونه إلى وثائق ابن العطار ثم يختصمون له بأحكام ابن سهل » (٦٢) .

ويبدو أن الاستاذ أحمد أمين قد فهم من قول ابن خلدون ، وذكره

(٦١) المقدمة ص ٣٩٨ .

(٦٢) خويان ربريا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٧٦ . والمدونة : هي مجموعة رسائل من فقه الإمام مالك جمعها تلميذه أسد ابن الفرات النيسابوري ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . (د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٣) .
(٦٣) انظر : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ - ٩ .

طريقة ابن العربي في التعليم. إن هذا المنهج الذي رآه ابن العربي قد طبق . ولذا قال : « وقد ذكر ابن خلدون وابن العربي أن الأندلسيين طريقة في التعليم تخلف من طريقة أهل المشرق . فهم في المشرق يحفظون القرآن للصبي قبل أن يستطيع فهمه ، ثم يعلمونه اللغة العربية . وعيب هذه الطريقة أن الحافظ للقرآن من غير معرفة معانيه عرضة للفهم الخاطيء الذي يبقى في ذهنه على مر الأيام ، أما في الأندلس فيعلمون اللغة العربية أولا ثم يحفظون القرآن بعد القدرة على الفهم ، وعيب هذه الطريقة أن بعض المتعلمين قد يتخلفون عن حفظ القرآن أو تعلم العربية ، ثم ينقطعون عن التعليم ، ولذلك نصح بعضهم بأن يحفظ الطفل القرآن أولا ولو من غير فهم ثم يتعلم العربية ، ثم يعود إلى القرآن ثانية . وقد استطاع الفهم » (٦٣) .

غير أن قول ابن خلدون (إنهم يجعلون القرآن أصلا في التعليم) ، وقول ابن العربي (نصار الصبي عندهم إذا عقل فإن سلخوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله) يفيدان غير ما قال به الأستاذ أحمد أمين ، والواقع أن الأندلسيين مثل المشاركة ساروا على تعليم ابنائهم القرآن الكريم أولا لأن هذا هو الأصل ، وهو الأجدي في الحفظ ، وأن المنهج الذي وضعه ابن العربي لم يطبق لصعوبته من ناحية ، ولأن العوائد لا تساعد على تطبيقه من ناحية أخرى كما قال ابن خلدون .

الإجازات العلمية :

وكما أن الإجازات العلمية كانت معروفة في المشرق ، فقد انتقلت إلى الأندلس أيضا بانتقال الكثر من العلماء المشاركة . وأصبح منح الأستاذ الإجازة لطلابه أمرا شائعا ، بعد تثليذهم على يديه . وكانت تسجل في وثيقة من الرق أو الكاغد (الورق) ، أو في

الكتب التي درسها الطالب بخط الأستاذ نفسه (٦٤) . ومن أمثلة هذه الإجازات ما ذكره ابن الفرضي من أن يوسف بن محمد بن سليمان الهمداني الشاذلي الذي رحل إلى المشرق عشر سنوات وسمع من الكثيرين أجاز له جميع ما رواه وتولى سنة ٢٨٣هـ (٦٥) .

ولم تكن هذه الإجازات مقصورة على الرجال فقط بل نالتها بعض النساء أيضا . فقد ذكر الضبي : أن أبا عمرو الداني المرقى (هـثمان ابن سعيد) المعروف بابن الصيرفي (ت ٤٤٤هـ) كان يقرئ بالمرية ، وقرأت عليه امرأة تدعى (ربحانة) ، وكانت تقعد خلف ستر متقرا ، ويشير إليها بتضييب في يده إلى الوقف ، وأنها أكلت السبع عليه ، وقرأت عليه خلاف السبع روايات ، وطلابه بالإجازة فكتب لها إجازتها بعد توقف (٦٦) .

وقد وضع أبو العباس العبري وليد بن بكر بن مخلد (٣٩٢هـ) - وكان من أهل سرقسطة ، ورحل إلى المشرق ، ولقى الكثير من العلماء في بلاد عديدة - كتابا في تجوز الإجازة سماه (كتاب الوجزة) . وهو في هذا الكتاب يحتج على بعض الإجازات العلمية ، ويرى أنها غير موثوق بها ، وأن الزيغ قد شابها (٦٧) . وهذا دليل على قيام البعض بتزييف الإجازات العلمية ، للتصدي للإقراء والتدريس طمعا في المكانة والمنصب ، والحصول على المكسب المادية .

(٦٤) روبرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٤٨ .

(٦٥) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٦٣٦ ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٦٦) الضبي : بغية الملتبس ترجمة ١١٨٦ .

(٦٧) الضبي : بغية الملتبس ترجمة ١٤١١ .

وقد ذكره خويلد روبرا باسم (الوجزة في صحة القول بالإجازة) . ولم يشر إلى المصدر الذي أتى منه بذلك (التربية الإسلامية ص ١٤٩)

أهم العلوم وأشهر العلماء أولا : العلوم الدينية والعربية .

أهتم الإنديسيون بالعلوم الدينية اهتماما كبيرا ، وقد بدأت بذرة هذه العلوم بانتقال بعض الصحابة والتابعين إلى الأندلس مع الفتح وبعده . وكان هؤلاء إلى جانب كونهم جنودا متحدين ، حملة علم ومعركة ومثلوا الطبقة الأولى في العلوم الدينية والعربية ، ثم جاءت بعدهم طبقة ثانية حلوا معهم علما جديدا وكان معظم هؤلاء من الذين رحلوا إلى المشرق وتلمذوا على يد علمائه ، ثم جاءت طبقة ثالثة خطت بالعلم خطوات جديدة من حيث التنظيم والتأليف . ومن أشهر هذه العلوم :

١ - علم التفسير : كان القرآن ولا يزال المصدر الأساسي ، والمنهل العذب للكثير من العلوم ، وعنى رأسها علم التفسير ، ومن العلوم أن المفسرين قد اتجهوا في تفسير القرآن اتجاهين :

(أ) التفسير بالمأثور : وهو ما أثر عن النبي ﷺ ومحدثيه من أقوال في تفسير بعض آيات القرآن الكريم .

(ب) التفسير بالرأى : وهو ما يعتمد فيه على العقل إلى جانب النقل ، وربما أكثر (١) .

ومن مشاهير المفسرين في عصر بني أمية بالأندلس بنى بن مخلد (ت ٢٧٣ ، ٢٧٦ هـ) الذي ألف تفسيرا للقرآن الكريم أطلق عليه

(١) من أشهر المفسرين بالمأثور في الأندلس والذين وصلتنا كتبهم ابن مطيع (أبو محمد بن عبد الحق) (ت ٥٤٦ هـ) ، ومن أشهر المفسرين بالرأى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الشهير بالإمام القرطبي (٦٧١ هـ) صاحب الجاه لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبي .

أبن حزم وقال عنه « اتقطع قطعاً لا استثنى فيه انه لم يؤلف فى مذهبه ،
ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره » (٢) .

وكذلك ابن محاسب عثمان بن محمد (ت ٣٠٦هـ) المكتى بأبى سعيد ،
« وكان من أهل استجة . قال عنه ابن الفرضى : (كان حافظاً للتفسير ،
عالماً بأخبار الدهور ، وله فى ذلك كتاب نقل أكثره على ظهر قلب) » (٣) .
وقد اشتهر بالزهد والعزوف عن الدنيا .. يروى انه كتب على باب داره
(يا عثمان لا تطمع) (٤) .

وكذلك سعدان بن سعيد بن خبير المكتى بأبى سعيد وهو من أهل
قرظبة ، كان إماماً للمسجد الجليل بها ، وقراً للناس عليه كتاب التفسير
المنسوب إلى ابن عباس من رواية الكلبى (٥) .

٢ — علم الحديث : ازدهر علم الحديث بالاندلس ، واشتغل به
كثيرون . يقول ابن سعيد « ورواية الحديث عندهم رغبة » (٦) .

ويذكر ابن الفرضى : ان صعصعة بن سلام الشافعى (ت ١٩٢هـ)
طهيد الإمام الأوزاعى كان أول من أدخل الحديث إلى الاندلس (٧) .
كما يذكر أن الفخازى بن قيس (ت ١٩٩هـ) كان أول من أدخل الموطأ

(٢) الحبيدى : جنوة المقتبس ص ١٧٧ ترجمة ٣٣١ ، الضبى : بغية
اللمتس ص ٢٤٥ ترجمة ٥٨٤ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ترجمة ٩٠١ .

(٤) انظر جنوة المقتبس ترجمة ٧٠٥ ، بغية الملتبس ترجمة ١١٩٤ وقد
ورد اسمه فيهما عثمان بن محاسب .

(٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ترجمة ٥٤٥ .

(٦) القرى : فتح الطبيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٧) تاريخ علماء الاندلس ترجمة ٦١٠ .

إلى الأندلس قبل زياد بن عبد الرحمن اللخمي (شبطون) ت ٢٠٤ هـ ،
وقيل إنه كان يحفظه (٨) .

غير أننا نجد فيها محدثاً مشهوراً دخل الأندلس منذ سنة
١٢٣ هـ ، واستقر في ملقة ، ثم انتقل منها إلى إشبيلية وهو معاوية
ابن صالح الحضرمي الحمصي ، وعندما قدم عبد الرحمن الداخل إلى
الأندلس عهد إليه بمدة أمور منها : أنه وجهه بكتاب إلى أخته أم الأصبح ،
وكان عبد الرحمن قد تركها في الشام ، ثم ولاء القضاء . ويعتبر هو
مدخل علم الحديث إلى الأندلس على حد قول يحيى بن يحيى الليثي ،
وقد أئرد له ابن الأبار كتاباً خاصاً به (المدخل الصالح في حديث
معاوية بن صالح) وقد توفي سنة ١٥٨ هـ (٩) .

وهو يعتبر بذلك من أوائل المحدثين بالأندلس إن لم يكن أولهم ، قبل
صعصعة والفارسي بن قيس . ويعتبر بقي ابن مخلد أيضاً من أشهر علماء
الحديث إلى جانب التفسير والفقه . وكان قد أدخل مسند ابن أبي شيبة
كاملاً ، وأخذ يدرسه في قرطبة ، فأنار ذلك فقهاء المالكية ، وصنف
في الحديث كتاباً رتبته على أسماء الصحابة ، روى فيه عن ألف وثلاثمائة
صحابي ونوف ، كما رتبته على أبواب الفقه المختلفة أيضاً . فهو مصنف
ومسند معا ، أو كتاب فقه وكتاب حديث ، قال عنه ابن حزم : « وما
أعلم هذه الرتبة لأحد مثله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه ، واحتفاله فيه

(٨) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ، ٥٨ ، جنة المقتبس
ترجمة ٢٤٨ .

(٩) انظر : المقتبس ص ٣١٤ — ٣١٥ ، قضاة قرطبة ص ٣٠ ، ٢٢ ،
تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٤٥ .

بالحديث وجودة شيوخه . فإنه روى عن ملثني رجل وأربعة وثمانين رجلا .

ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائر أعلامهم مشاهير (١٠) .

ثم تلاه تلميذه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد ، وكان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه (١١) .

ومن علماء الحديث أيضا : قاسم بن ثابت (ت ٣٠٢ هـ) الذي على جميع الحديث والفقه ، وألف في غريب الحديث كتابا سماه (الدلائل) اتنى عليه الكثيرون ، ومنهم أبو علي الغالي الذي قال عنه « لم يؤلف بالأندلس كتاب أكمل من كتاب قاسم في شرح الحديث » (١٢) .

وكذلك أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيري ويمرّف بابن عمير .
ت ٣١٢ هـ . وكان عالما بالحديث حافظا له ، بصيرا بعلمه ، إماما فيه ، وكانت الرحلة إليه في وقته (١٣) .

ومنهم أيضا قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠ هـ) الذي رحل إلى القيروان ومصر والعراق ثم عاد إلى الأندلس وقد تبحر في الحديث والرجال ، وألف كتابا طويلا ، ثم اختصره وسماه (المجتنى) ، وقدمه للحكم المستنصر ، وفيه من الحديث المسند الفسان وأربعمئة وتسعون حديثا في سبعة أجزاء ، وصنفه على أبواب الفقه ، وكان له الفضل في نشر العلم بالأندلس على هذه الطريقة ، وله مصنف آخر في بيان صحيح الحديث وغريبه (١٤) .

(١٠) بغية المتبصّر ترجمة ٥٨٤ ص ٢٤٥ .

(١١) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٨٣ .

(١٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠٦٢ . يذكر أنه مات قبل إكماله فأكمله أبوه بمعد ومثله .

(١٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٦ .

(١٤) انظر ترجمة في تاريخ علماء الأندلس رقم ١٠٧٠ ، ظهر الإسلام ٣ ص ٥٠ .

٢ - علم القراءات : نما علم القراءات في الأندلس شيئا فشيئا ، حتى وصل إلى الذروة على يد الإمام الشاطبي ، صاحب الرسالة المشهورة (حرس الأمان) المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، والتي عمت شهرتها الأمان ، ولا تزال مرجعا للكثيرين من المشتغلين بالقراءات إلى اليوم (١٥) .

وكانت قراءة نافع هي القراءة المشهورة بالأندلس يقول المقدسي (وأما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع) (١٦) ويقول ابن سعيد (وقراءة القرآن عندهم بالسمع) (١٧) .

ومن الذين اشتغلوا بعلم القراءات في الأندلس في العصر الأموي سليمان بن مسرور ، وكان من أهل طليطلة ، غلب عليه العلم بالقراءات وكان فيها إماما ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، وحل حاجا قبل التسعين من مبره ، ثم استوطن مصر وتوفي بها (١٨) . ويحيى بن مجاهد بن هوانة الفزاري القرطبي (ت ٣٦١ هـ) ، وقد عني بالقراءات والتفسير ، وكان عبدا زاهدا (١٩) . ومنهم أحمد بن محمد بن عبد الله المقرئ الطليكني ، وهو محدث منسوب إلى بلده ، وكان إماما في القراءات مذكورا ، وثقة في

(١٥) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٣ ، د. أحمد شاذلي :

موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٨٥ .

(١٦) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ ، أحمد أمين : ظهر

الإسلام ج ٣ ص ١٢ .

(١٧) المقرئ : نفع الطبيب ج ١ ص ١٠٣ .

(١٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٥٣ .

(١٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٩٥ .

الروابع مشهوراً ، توفي سنة ٤٢٨هـ (٢٠) .

ومن أشهر من عرف بالقراءات في الأندلس قبل الإمام الشافعي :
أبو عمر الداني (عثمان بن سعيد المقرئ) وكان قد رحل إلى المشرق
قبل الأربعمائة ، وطلب علم القراءات ، وقرأ وسمع الكثير ، ثم عاد
إلى الأندلس فتصدر بالقراءات وألف فيها عدة مؤلفات بلغت المائة ،
ونظمها في أرجوزة مشهورة . وكان إمام وقته في الإقراء ، وقد توفي
في دانية سنة ٤٤٤هـ (٢١) .

علم الفقه :

يقول ابن سعيد عن الفقه في الأندلس : « والفقه رونق وجاهة
ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب
ما يتباحثون به ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إنهم كانوا يسمون
الأمير العظيم عندهم بالفقيه ، وقد يقولون للكتب والنحوي واللغوي
الفقيه لأنها عندهم من أربع السمات » (٢٢) . ومن هذا تتضح مكانة
الفقه والفقهاء بالأندلس .

وقد كان أهل الأندلس منذ الفتح وحتى عصر هشام بن عبد الرحمن
الداخل على مذهب الإمام الأوزاعي (٢٣) ، وقد سار على هذا المذهب

(٢٠) بغية الملتبس ترجمة ٣٤٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٨٧ .

(٢١) بغية الملتبس ترجمة ١١٨٥ ، جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٢ .

(٢٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٢٣) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحيى الأوزاعي نسبة إلى
الأوزاع وهم بطن من حمير ، أو نسبة لقرية سميت بذلك تقع خارج
باب الفراءديس من دمشق . ولد في بعلبك سنة ٨٨ هـ ، ٩٣ هـ ، ثم

معد من العلماء ومن أشهرهم تلميذه وناسر مذهبيه أبو عبد الله صمصمة.
ابن سلام الشامي ت ١٩٢ هـ ، الذي كلفت الفتيا دائرة عليه في عهد
عبد الرحمن الداخل ، وصدرًا من عهد ابنه هشام . وانتفع بعلمه كثيرون.
مثل عبد الملك بن حبيب المسلمي ت ٢٢٨ هـ ، وعثمان بن أيوب (ت ٢٤٦ هـ) ،
وابن زريق اللقب (بزونان) الذي تولى الفتيا في عهد هشام وكان يذهب
بمذهب الأوزاعي (٢٤) .

ثم بدأ مذهب مالك في الانتشار في عهد هشام بن عبد الرحمن
الغدافل . ويذكر أن الفضل في ذلك يعود إلى زياد بن عبد الرحمن اللخمي
(شبوطون) ت ٢٠٤ هـ ، الذي يقال : إنه أول من أدخل فقه الإمام مالك.
إلى الأندلس (٢٥) .

ومن الفقهاء الذين برعوا في الفقه أيضا عيسى بن دينار الغافقي
(ت ٢١٢ هـ) قال عنه محمد بن عبد الملك (كان عيسى بن دينار عالما
متقنا مفتيا ، وهو الذي علم المسائل أهل مصرنا وفتقها ، وكان فقهه من
يحيى بن يحيى على جلالة قدر يحيى وعظمه) .

وكان محمد بن مبر بن لبابة بقول « فقيه الأندلس عيسى
ابن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعاطلها يحيى بن يحيى » .

=

رحل إلى دمشق واليمن والحجاز والعراق للتعلم ، ثم عاد فاستقر
في بيروت حتى توفي بها سنة ١٥٧ هـ ودفن بقرية قريبة منها
تسمى (جنتوس) ، وكان كثير المناقب ، عرف بالزهد والورع
وطول الصمت وكان رأسا في العلم والعمل (وفيات الأعيان
ج ٣ ص ١٢٧ ، العبر في خبر من غير ج ١ ص ٢٢٧) .

(٢٤) انظر تاريخ علماء الأندلس تراجم رقم ٦١٠ ، ٨١٦ ، ٨٩٩ ، ٨١٥ .
(٢٥) نفع الطيب ج ١ ص ٣٤٤ ، (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٥١) .

وقال عنه ابن الفرضي « كان إماما في الفقه على مذهب مالك بن انس ، وعلى طريقة عاتية بن الزهد والعبادة ، ويقال إنه صلى الصبح أربعين سنة بوضوء العتمة ، وكان يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث » (٢٦) .

ومنهم : محمد بن عمر بن لبابة (ت ٣١٤ هـ) وكان إماما في الفقه مقدما على أهل زمانه في حفظ الرأي ، والبصر بالفتيا ، يذكر أنه درس كتب الرأي ستين سنة ، وانفرد بالفتيا في عهد الناصر (٢٧) .

ومنهم أيضا لبابة محمد بن يحيى بن عمر (ت ٣٣٠ هـ) وكان حافظا للفقه على مذهب الإمام مالك ، عالما بمقد الشروط ، بصيرا بعلمها ، ولى قضاء البرة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وله في الفقه كتب مؤلفة . منها كتاب المنتخب الذي قال عنه ابن حزم « وما رأيت لمالك كتابا أنبل منه في جميع روايات المذهب . . الخ » (٢٨) .

كما كان منهم يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤ هـ) — زعيم الفقهاء في ثورة الرض — والذي لقب بماتل الأندلس وقد أصبحت له الفتيا بالأندلس بعد عيسى بن دينار ، وغدت له مكانة عظيمة ونفوذ كبير خاصة في عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان أحمد بن خالد يقول : لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الخطوة وعظم القدر ، وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى ، وسمع منه مشايخ

(٢٦) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١١٤٤) .

(٢٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١١٨٩ ج ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٢٣١ ج ٢ ص ٥١ ، بغية المتيسر ترجمة (٣١١) .

الأنطلس في وقته (٢٩) .

وكذلك يحيى بن معمر الالهاني ، وكان ورعا غاضلا ، اشتهر بالفقه والفرانج ، وولاه عبد الرحمن الأوسط قضاء الجماعة بقرطبة ، فكان عند حسن ظنه ، وكان إذا اختلف مع فقهاء قرطبة في حكم من الاحكام ، كتب إلى فقهاء مصر من المالكية يسترشد برأيهم ، فكان فقهاء قرطبة ينفرون منه لذلك ويذمونه ، وعلى رأسهم يحيى الليثي الذي ظل به حتى عزل من القضاء (٣٠) .

وكذلك كان عبد الملك بن حبيب (ت ٢٢٨ هـ) من الفقهاء المشهورين وله في الفقه كتاب (الواضحة) لم يؤلف مثله كما قيل ، وكان يعد عالم الأنطلس كما قال ابن لبابة (٣١) .

وكذلك ابن مرتزيل عبد الله بن محمد بن خالد (ت ٢٥٦ هـ) الذي اعتبره ابن الفريسي رأس المالكية بالأنطلس والقائم بها والذاب عنها في عصره (٣٢) .

وفي عهد الحكم بن هشام الملقب بالريضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) غدا

(٢٩) نفس المرجع ترجمة ١٥٥٦ ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ ، يقال إنه سمي بمعاقل الأنطلس لأنه لما رحل إلى المدينة ليتعلم من الإمام مالك جلس إليه ذات يوم فذكر أن هناك فيلا عظيما فخرج الكثيرون لرؤيته فقال له الإمام مالك : لماذا لا تخرج لترى الفيل ، فقال : إنما جئت لأتلمع منك (نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٨) .

(٣٠) ابن حبان : المقتبس ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣١) المرجع السابق ترجمة ٨١٦ ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧١ ، القرى : نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٣٢) نفس المرجع ترجمة ٦٣٧ ج ١ ص ٢١٣ .

للمذهب المالكي المكتنة الاولى في الاندلس ، واصبح المذهب الرسمي ، .
وتقلص مذهب الأوزاعي ، وبدأ في الاندثار ، ولم يبق منه إلا مسألة إياحة
زراعة الأشجار في ساحة المسجد .

ومن اعلام المالكية في فترة الخلافة عبد الله بن أبي دليم الذي صنف
كتاب (الطبقات فيمن روى عن مالك من الانصار) (٣٣) ، ويحيى
ابن عبد الله بن يحيى الليثي (٣٤) . وهناك الكثير من فقهاء المالكية من
ترجمت لهم كتب الطبقات ومن أشهرها كتاب القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ)
المسمى (ترتيب المدارك ، وتقريب الملك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك) .

وإلى جانب فقهاء المذهب المالكي فقد وجد فقهاء على المذاهب
الأخرى ، ولكنهم كانوا قلة بالنسبة للمالكية ، مثل المذهب الشافعي . ومن
علمائه ابن أبي بردة البغدادي « الذي كان من أعلم الناس بمذهب الشافعي ،
وأحسنهم قيسا به ، ولم يصل إلى الاندلس أنهم منه بهذا المذهب »
كما قال ابن الفرضي (٣٥) .

وقاسم بن محمد بن سيار الببائي وكان محدثا فقيها على هذا
المذهب ، وله مؤلفات في الرد على مخالفه ومنها كتاب (الإيضاح في
الرد على المقلدين) (٣٦) .

وكذلك عثمان بن أبي سعيد الكناني (٣٧) ، وأسلم بن عبد العزيز

(٣٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ترجمة (٧٠٧) .

(٣٤) المصدر السابق ترجمة (١٥٩٧) .

(٣٥) نفس المصدر ترجمة (١٤٠٣) .

(٣٦) الحميدي : جذوة المقتبس ترجمة (٧٦٤) .

(٣٧) تاريخ علماء الاندلس ترجمة (٨١٢) .

ابن هاشم (٣٨) ، وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس (٣٩) ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم في كتب التراجم .

ومن فقهاء المذهب الحنفي : محمد بن عيسى الملقب بالأعشى القرطبي ، الذي كان أول من تأثر من الأندلسيين بفقه أهل العراق كما ذكر ابن الغرضي (٤٠) . وكذلك أحمد بن سليمان القيرواني الذي قدم إلى الأندلس ، وروى عن سحنون بن سعيد ، وكان يذهب بمذهب العراقيين كما ذكر ابن الغرضي ، وتوفى ببجاية سنة ٢٩٦هـ (٤١) .

كما وجد فقهاء على المذهب الظاهري مثل القاضي منذر بن سعيد البلوطي « الذي غلب عليه التفقه بهذا المذهب ، فكان يؤثره ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقاتله ، ويأخذ به نفسه وبنيه ، ولكنه كان يقضى بالمذهب المالكي لأنه المذهب المعمول به في الأندلس » (٤٢) .

ومثل عبد الله بن محمود بن قاسم بن هلال ت ٢٧٢هـ (٤٣) ، والحسن ابن حمية الظاهري . والفتبة المشهور ابن حزم الذي حمل لواء هذا المذهب ، وعمل على نشره وإحيائه من جديد بعد أن كاد يندثر (٤٤) .

(٣٨) المصدر السابق ترجمة (٢٨٠) .

(٣٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٥٤) .

(٤٠) المصدر السابق ترجمة (٢٠٠) .

(٤١) ابن حيان المتنبس ص ٢٠٨ - ٢٠٩ تحقيق مكى .

(٤٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٤٠٤) ، نفح الطيب ج ٦ ص ٣٣٣ .

(٤٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٩٥٥) .

(٤٤) تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٣١١ - ٣١٢ .

فإذا خطونا خطوة أخرى رأينا أن الاختلافات أو الخلافات بين
وقد تحدث بالتفصيل من هذه المذاهب في الفصل الثالث .

الفقهاء في المشرق قد اشتدت ، وألفت في ذلك الكتب المتعددة ، حيث
سرى الاختلاف من السياسة إلى العقائد ثم إلى العلوم وبخاصة الفقه .
فوجد الكثير من الفقهاء يتناظرون طويلا في كثير من المسائل الفقهية .
وقد نشأ عن ذلك علم جديد يسمى بمعلم الاختلاف . ويؤثر عن أيوب
المسختياني قوله (لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف) (٤٥) .
وقد أدى هذا إلى ظهور فريق من الفقهاء حكموا العقل في آرائهم ،
ونفسوا أدلتهم ، وسبوا بأهل الرأي لظلمة القياس على فقههم وكان
أكثرهم بالعراق وفي مقابلهم أهل الحديث ، وكان أكثرهم بالحجاز (٤٦) .

وقد اشتد الخلاف بين الفريقين وهو خلاف كان منشؤه في الأمم
الأغلب البحث والدراسة ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة ، وليس المهوى
والتمصّب ، ومحاولة التغلب على الفريق الآخر ومثال ذلك تلك المناظرة
التي جرت بين أبي حنيفة وهو صاحب الرأي والقياس ، وبين الأوزاعي
وهو من أهل الحديث في دار الخباطين بمكة حول رفع الأيدي عند
الركوع وعند الرفع منه (٤٧) .

وقد جمع بعض الفقهاء المذاهب المختلفة في كل مسألة ، وألغوا في
اختلاف الرأي كتباً كثيرة مثل الطبري في كتابه (اختلاف الفقهاء) (٤٨) .

(٤٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٨ .

(٤٦) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٨٤ .

(٤٧) أبو زهرة : تاريخ الجدل ص ٣٢١ .

(٤٨) نشر المستشرق يوسف شاخيت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت

وقد انتقل ذلك إلى الأندلس فرأينا مثلا ابن رشد الحفيد يؤلف كتابا
فى اختلاف المذاهب وعلاها سباه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) .
وهو يذكر الخلاف فى كل مسألة فقهية حدث فيها اختلاف ويرجع ذلك إلى
سببه ، ويضع قاعدة عامة فى ذلك يطبقها على كل أنواع الخلاف فى
الفقه تطبيقا بديعا فكان هذا فى الواقع خطوة جديدة .

ولما وجدت مذاهب أخرى فى الأندلس إلى جانب المذهب المالكي
ومن قبله مذهب الأوزاعي كثر الجدل بعد أن كان الأندلسيون
منصرفين عنه فى البداية ، حتى حكى أن بعضهم كان يتجادل حتى فى
مجالس المزاء ، وكان لكثرة الجدل بين الفرق والمذاهب فى المشرق أثر
فى ذلك (٤٩) .

ملوم اللثة :

بالرغم من قدوم الكثير من العرب أثناء الفتح وبعده إلى الأندلس ،
ومعهم لغتهم وأشعارهم ، وأيامهم وأخبارهم ، وبزهرهم البذرة الأولى ،
الا أن ذلك لم يكن علما منظما ، حتى جاء الأمويون فأرادوا بنساء دولتهم
ونافسة العباسيين والفاطميين الذين كان من أسباب حضارتهم ازدهار
الحركة العلمية ، ومن هنا رأيناهم يستقدمون كبار العلماء من المشرق
للمساهمة فى نشر الثقافة العربية ، إلى جانب من تقدم بنفسه . ومنهم
أبو على القسائى إسماعيل بن القاسم بن عبدون السذى كان أبوه مولى

عنوان (كتب الجهاد والجزية وأحكام المحاربين من كتب اختلاف
الفقهاء لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى) فى لندن سنة ١٩٢٣م .
(انظر : د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٩٤ ملهش ٢)
(٤٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٢ ، ٦٨ .
(م ٢٧ - المجتهد الأندلسى)

لعبد الملك بن مروان واستدعاء الخليفة عبد الرحمن الناصر فقدم إلى
الاندلس سنة ٣٣٠هـ « فسمع الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة
والأخبار والأمل ، وعظمت استفادتهم منه » (٥٠) .

وقد تلمذ على يديه الكثيرون بالاندلس ، وأمل على طلابه كتابه
الشهير (الأمل) ، وكذلك كتاب (النوادر) . وكان من أشهر تلاميذه
الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذي تأدب على يديه ، وكان لذلك أثره
الكبير في حبه للعلم ، وجمعه للكتب . وأسس بذلك أول مدرسة للدراسات
اللغوية بالاندلس .

يقول ابن حزم — وهو من هو — « كتاب نوادر أبي علي وهو ذيل
الأملي ، مبار لكتاب الكامل الذي جمعه المبرد . ولئن كان كتاب المبرد أكثر
نحوا وخبرا ، فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعرا » (٥١) .

ومن مؤلفاته أيضا : كتاب المبتدأ والمختصر ، وكتاب البارع
في اللغة ، رتبته على حروف المعجم ، وكان نحو من ثلاثة آلاف ورقة ،

(٥٠) لقب بالقائل نسبة إلى قائله (تاليفه) . وذكر أنه ولد في
مناجرد (ملانجرد) بديار بكر التي تقع الآن في تركيا . انظر
معجم البلدان ج ٧ ص ١٧) . وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين أنه رحل
إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ (ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٣ — ٨٤) .
بينما ذكر د. أحمد هيكل أنه رحل إليها سنة ٣٤٠هـ (الانبى الأندلسي
ص ١٩٢) . والصحيح أنه رحل إليها سنة ٣٣٠هـ كما ذكر ذلك
ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٢٣) . والحميدي
(جذوة المقتبس ترجمة ٢٠٣) . ولم ينكر لنا د. هيكل المصدر
الذي رجح إليه في ذلك ، ونعتقد أنه ربما يكون خطأ مطبعيا .
(٥١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٣ .

ونذكر أنه لم يؤلف مثله ، وقد ظل في قرطبة ينشر عليه حتى توفي سنة ٣٥٦هـ (٥٢) .

وقد برز في هذه الفترة أيضا عدد من الأندلسيين الذين تلمذوا على يد المالقي مثل : أبي بكر الزيردي الذي اختصر كتاب العين ، والسف كتاب مبيعات الفحويين واللفويين ، وكتاب لحن العماة ، وكتاب الأبنية في النحو ، وكتاب الواضع في العربية . وكان مؤدبا للأمير هشام بن الحكم المستنصر (٥٣) .

ومن الأندلسيين المولدين الذين اشتهروا بالدراسات اللغوية أيضا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المشهور بلبن القوطية (ت ٣٦٧هـ) الذي برع في الفقه والتاريخ أيضا . يقول عنه ابن الفريسي « وكان عالما بالنحو ، حافظا للغة ، متقدما فيها على أهل عصره ، لا يشق غباره ، ولا يلحق شأوه ، وله في هذا الفن مؤلفات حسنة منها كتاب تصارييف الأعمال ، وكتاب المقصور والممدود ، وغير ذلك ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ منه » (٥٤) .

ويقول عنه الحميدى : « كان إماما في العربية ، وله كتاب الأفعال لم يؤلف مثله » (٥٥) .

ومن الذين برعوا في هذا المجال أيضا : صاعد البغدادي ، الذي وفد إلى الأندلس أيام المنصور بن أبي ملهر سنة ٣٨٠هـ ، فتلقاه

(٥٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦٩ (٢٢٣) ، جذوة المتنبس ص ١٦٥ (٣٠٣) .

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٨٩ - ٩٠ ترجمة (١٣٥٧) .

(٥٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧ ترجمة ١٣١٨ .

(٥٥) جذوة المتنبس ص ٧٦ ترجمة (١١١) .

وأكرمه ، متشبها بالناصر في تلقيه لأبي على القالى . وكان صاعد عالما باللغة والأدب والأخبار ، سريع البديهة حسن الشعر ، بارع الارتجال ، محبا للتجوز والمزاج حتى اتهم بالكذب . وكان لمحاوراته ومناظراته مع الكثيرين اثر كبير في تنشيط الحركة اللغوية والأدبية . وله كتاب (الفصوص) الذى املأه في مسجد مدينة الزهراء التى بناها المنصور على فرار الأملى على القالى ، ويذكر أن المنصور كافاه عليه بخمسة آلاف دينار (٥٦) .

الأدب : ما كاد العرب يضعون أقدامهم في الأندلس ، ويستقرون فيها حتى أخذوا في نشر لغتهم وأدبهم ، وقد كان للانشغال بالفتح ، وتثبيت أقدام المسلمين في البلاد اثره في قلة الأدب شعرا ونثرا في عصر الولاة (٥٧) . ثم بدأت الأندلس تشهد في عصر الإمارة (١٣٨ - ٣٠٠ هـ) أولى الخطوات نحو ادب أندلسي له سماته وخصائصه المميزة (٥٨) .

فقد ظهر أول جيل من الأبناء والشعراء الذين اهتموا بالبيئة الأندلسية وأحداثها . ولم يقتصر الاشتغال بالأدب على طوائف الشعب ، بل شارك فيه بعض الولاة والأمراء ، كما لم يعد وقفنا على الوافدين

(٥٦) جذوة المتنبس ص ٢٤٠ ترجمة (٥٠٩) ، بغية المتنبس ص ٣١٩ ترجمة (٨٥٢) ، المراكشي : المعجب في تخيص أخبار العرب ص ١٩ وبعدها .

(٥٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٥٨) من أهم هذه السمات : التجديد في الموضوعات فالبيئة الأندلسية غير المشرقية ، والتجويد الغنى سواء من ناحية الشكل أو المضمون ، ووضوح العاطفة وصنعها (الأدب الأندلسي ص ٧٨ وبعدها) .

من المشرق فقط ، كما كان الحال عموماً في عصر الولاة . وبالرغم من أن الشعر الأندلسي في هذه الفترة قد ساعد في اتجاه المدرسة التقييدية في المشرق ، إلا أنه وجدت له سمات أخذت تشكل أولى ملامحه منذ نشأته كشعر أنطلسي .

ومن أهم شعراء هذه الفترة : أبو المخشى عامر بن زيد العبادي الذي يتصل نسبه بالعباد نصاري الحيرة ، وكان والده من جنود الشام الذين قدموا إلى الأندلس ، ونزل كورة إلبيرة ، فنشأ ابنه في بلدة تسمى (شوف) ونبغ في الشعر حتى صار المع شعراء هذه الفترة . وقد اشتهر بالهجاء المذعج لخالتيه حتى عبر بأصم له النصراني ، وقد اختص في أول أمره بالأمير سليمان بن عبد الرحمن الداخل ، وأكثر من مدحه ، وامتد به المهر حتى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وذكر البعض أنه توفى في عهد الحكم الريضي .

قال عنه الرازي مؤرخ الأندلس الأول « كان شاعر الأندلس في حينه ، وهو صاحب المعاني الحسنة ، والنوادر الكثيرة ، والقول الغزير » . ولم يصلنا من شعره إلا القليل (٥٩) .

ومن يعدون من شعراء هذه الفترة أيضاً الأمير عبد الرحمن الداخل ، وكان شاعراً مجيداً ونائراً بليغاً وله أبيات مشهورة في وصف نخلة وهي :

تبيت لنا وسط الرصافة نخلة

تتاعت بأرض الغرب من بلاد النخل

(٥٩) ابن المقوية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ - ٣٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤ ، د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسي ص ٩٠ .

فقلت شبيهي في التغرب والتوى
وطول التناهي عن بني وعن اهلي
نشأت بارض انت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والتناهي مثلي
سقتك غواذي المزن في التناهي الذي
يسبح ويستمرى السملكين بالوبل (٦٠).

ومن مشاهير شعراء هذه الفترة أيضا : عباس بن ناصح التتني ،
وكان من أهل الجزيرة الخضراء ورحل مع أبيه إلى مصر والحجاز والعراق ،
فنال حظا من العلم في الفقه والحديث والأدب ، واتصل بالأمير الحكم
ابن هشام ومده ، فاستقضاء على شذونة والجزيرة (٦١) . ويتسم شعره
بنزعة بدوية واضحة ، فيه الكثير من الخشونة وقلة الصقل ،
والسذاجة في الأفكار والمصور والقلق في الالفاظ (٦٢) ، وما يدل على
ذلك أنه أنشد بعض الشعراء بقرطبة قصيدة جاء فيها :

تجاف عن الدنيا فما أعجز ولا عاجز إلا الذي خط بالقلم
فقال له يحيى الغزال وكان لا يزال شاعرا مبتدئا ولكنه مطبوع :
« أيها الشيخ وما يفعل منعل مع فاعل . فقال له : كيف تقول أنت قال
أقول :

تجاف من الدنيا فليس بعاجز ولا حازم إلا الذي خط بالقلم
فقال : والله يا بني لقد طلبها منك يوما فما وجدتها (٦٣) .

(٦٠) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٣٧ .
(٦١) انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس رقم (٨٨١) .
(٦٢) د. أحمد هبكل : الأدب الأندلسي ص ١٠٥ .

ومن شعره في الزهد أيضا :

ما خير مدة عيش المرء لو جعلت
كددة الدهر والأيام تنفيها

فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضى
وابتغ نجاتك بالدينيا وما فيها (٦٤)

وبن شاعرات هذه الفترة كذلك (حسنة التبيجة) التي تعتبر
أولى شواعر الأندلس الحقيقيات ، وكانت من أهل البيرة ، وقد ورثت
الشعر من أبيها أبي الحسين . وعندما توفى لجأت إلى الحكم الرضى
:قائلة :

إني إليك أبا العاصي موصلة
أبا الحسين سقته الوالكف الديم
قد كنت ارتع في نعماه عاكفة
فاليوم آوى إلى نعمائك يا حكم
أنت الإمام الذي أنقذ الأنام له
وملكته مقاليد التهي الأمم
لا شيء نخشى إذا ما كنت لي كنفا
آوى إليه ولا يعرو لي العدم
لا زلت بالعزة القمصاء مرتديا
حتى تنزل إليك المربوب والعجم

نابر بأجراء رزق شهري عليها ، وكتب إلى علمه على إبيرة (جابر
'ابن لبيد) أن يجهزها بجهاز حسن ، ولما توفى الحكم لم ينفذ هذا

(٦٣) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ١٤٥ .

(٦٤) بغية المتيسر ص ٢٧٦ .

العامل ما أمره به ، ونالها منه شيء من الضر فشكت للأمير الجديد .
عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بأبيات شعرية فعزل هذا العامل وأمر
لها بصلة فبعثت إليه بأبيات تشكره فيها ومنها :

قل للإمام أيا خير الورى نسبيا

مقابلا بين آباء واجساد

جودت طبعى ولم ترض الظلامه لى

فهاك فضل ثناء رائح غادى

فإن أقيمت ففى نعمائك عاكفة

وإن رحلت فقد زودتى زادى(٦٥)

وقد حدثت تغيرات كبيرة فى المجتمع الأندلسى من الناحية الاجتماعية
منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث شاع البذخ والترف ، وازدهر فن
الفناء على يد زرياب مما أدى إلى التجديد فى الأدب ، والاهتمام بأغراض
وموضوعات لم تكن شائعة من قبل كالتشعار للهو والمجون والخمر والتفزل
بالمذكر .

ومن أشهر شعراء التجديد (يحيى الفزال) الذى أكثر من القول
فى الخمريات مثل قوله :

ولما رأيت القرب كنت سماؤهم

تأبطت زقى واحتسبت غنائى

فلما أتيت الحان ناليت ربه

فهب خفيف الروح نحو ندالى(٦٦)

(٦٥) فتح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب .

الأندلسى ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٦٦) ابن حنية : المطرب فى أشعار أهل المغرب ص ١٤٨ .

والمطرف بن عبد الرحمن الأوسط الذى يقول :

أفريت عبرى فى الشر ب والوجوه الملاح
ولم أضيع أصيلا ولا اطلاع الصباح
أحيى الليالى سهدا فى نشوة ومراح
ولست أسمع ماذا يقول داعى الفلاح (٦٧)

ومثل الشاعر مؤمن الذى يتغزل فى متى يلقب بلبن القط فيقول :

قولا قصور أبا نصر بحرمة المضارب والتضر
الاحكام اليوم لأين الذى لقب بالقط على البدر
لا والذى طافت قريش له بالبيت فى أيامه العشر
كان هاروت نعى طريقه إذا رنا ينفث بالسحر (٦٨)

كما ظهرت أيضا بواكير شعر الطبيعة ، وكثرت اشعار الزهد كرى
فعمل لهذا التيار الذى بدأ ينتشر فى المجتمع كقول الأمير عبد الله وهى
من الأبيات الرائعة :

ولعل المقصود بمنصور (منصور اليهودى) المعنى المشهور فى
عهد الحكم بن هشام .

يا من يراوغه الأجل حتام يلهيك الأمل
حاتم لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب القبا ة ولا نجاة لمن غفل
هيهات تشفك القى ولما يدوم لك الشغل
فكان يومك لم يكن لو كان نعيمك لم يزل (٦٩)

(٦٧) نفع الطيب ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٦٨) ابن حبان : المقتبس ص ١٣٨ تحقيق ملغور انطونية .

(٦٩) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ ، أخبار مبعوعة فى فتح الاندلس
ص ١٥٣ .

كما ظهر في أواخر هذه الفترة (إمارة الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) شعر الموشحات حيث كان الغناء الموسيقى قد ازدهر ، وكثر الاختلاط بين العرب والإسبان فنشأت الموشحات استجابة لحاجة فنية من ناحية ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية من ناحية أخرى . وتعتبر الصورة الأدبية المعبرة من تبلور الشخصية الأندلسية في ميدان الأدب . وهي التي منحتة تميزا خاصا من الشعر المشرقي (٧٠) .

لما في فترة الخلافة فقد نهض الأدب نهضة عظيمة ساعد عليها ما كان من توحيد الأندلس سياسيا بالتضام على الفتن والثورات ، ورفقها اجتماعيا ، ونهوضها ثقافيا . فبدأ ظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر والنثر ، بالإضافة إلى تطوُّر الاتجاهات التقليدية ، ووفرة الانتاج الأدبي وخصوبته ، نظرا لكثرة الأدباء والشعراء ، والتشجيع الذي لقيه الكثيرون منهم . ، وشيوع الأدب شيوعا يكاد يكون علما بين الأندلسيين . حتى أنه كان في بعض الأحيان يؤدي وظيفة الرسائل أو البطاقات ، وأحيانا يحل محل لغة الجدل والمناظرات (٧١) ، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن جعلوه على السنة الطيور . ولعل في قصة زوجة الخليفة عبد الرحمن الناصر ما يدل على ذلك . حيث يروى أنها أحضرت زرزورا وعلقت أبيضاتا من

(٧٠) عن الموشحات انظر : د. أحمد هيك : الأدب الأندلسي ص ١٢٥

— ١٥٤ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٣٧١

وبعدها ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٧٠ -

٧١ ، د. محمد عناني : الموشحات الأندلسية سلسلة عالم

الآثرية رقم ٣١ سنة ١٩٨٠ م الكويت .

(٧١) د. أحمد هيك : الأدب الأندلسي ص ٢٣٠ .

الشعر ، وعندما قعدت الناصر في بهو قصره بمدينة الزهراء القصد ، وبدأ
الطبيب في ذلك اطل الزرور ووقف على إثناء من الذهب كان بلجلس
وأخذ يردد :

أيها القاصد رفقا بلهجر الأرمينا

إنما تقصد عرفا فيه حيا العالينا

فأعجب الناصر بذلك كثيرا ، ولما سأل عن ذلك أخبر بان إحدى زوجاته
وهم أم ولده المستمر ، قد ريت هذا الطغر ، وحفظته هذه الأبيات
ليقولها بهذه المناسبة (٧٢) .

وإذا كان البعض يرى في هذه الحكاية تلميذا من المبالغة
أو الاختراع ، فإنها مع ذلك تدل على مدى شيوع الشعر في هذه الفترة
بين الأندلسيين .

وقد صور الشعر الأندلسي في هذه الفترة ثنتي جوانب الحياة
الأندلسية ، وشاع بين الأندلسيين شيوعا جعله يغلغل في حياتهم
اليومية حتى أصبح ظاهرة أساسية من ظواهر البيئة (٧٣) .

لما من شعراء هذه الفترة بهم كثيرون منهم الخلفاء كالناصر
والمستمر ، ومنهم الوزراء كإبن جهنور وإبن شهيد ، ومنهم العلماء
كأبي زيد ، ومنهم القضاة كإبن سعيد البلوطي ، ومنهم الأبناء كإبن
ميد ربه وإبن هاتئ الأندلسي ، وإبن دراج القسطلبي (متنبى
المغرب) (٧٤) .

(٧٢) نفع الطبيب ج ١ ص ١٦٨ .

(٧٣) د. أحمد هيك : الأدب الأندلسي ص ٢٣٠ د. مصطفى الشكعة :
الأدب الأندلسي ص ٢٣ .

(٧٤) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١١٣ ويومها د. أحمد
هيك ص ٢٣٢ ويومها .

وفى هذه الفترة تطور النثر أيضا فظهر نوع جديد وهو النثر التأليفى الذى يختلف عن النثر الأدبى . وقد تأثر النثر الأدبى فى هذه الفترة بذهب الجلفظ فى المنهجية ، والعنلية بالبداية والموضوع والخاتمة ، وانعكست عليه الفخامة والجزالة فى الالفاظ ، والعبارات الاعتراسية ، والميل للتكرار والتطويل ، والبحث والتعمق فى الجزئيات والتفاصيل كاثرة لفخامة الأندلس ، وعظمة حضارتها فى عصر الخلافة (٧٥) .

كما لقيت المكتبة الرسمية عناية كبيرة ، حيث وجدت طائفة من الأدباء المقتدرين الذين وصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة والحجابه ، كابن بطيس وابن بدر وابن بسيل وابن جهور وابن أبى علبر وجعفر المصحفى وغيرهم (٧٦) .

ولم يقتصر الأمر على الرجال بل كانت هناك كتابات من النساء كحزونة كاتبة الخليفة الناصر (ت ٣٥٨ هـ) ولبنى كاتبة الخليفة المستنصر (ت ٣٧٤ هـ) (٧٧) .

أما النثر التأليفى خلال فترة الخلافة فقد تمثل فى فرعين : التاريخ الأدبى وهو مزيج من التراجم والأخبار والمختارات والحديث عن الشعر والشعراء . ومثال ذلك ما ألفه عثمان بن ربيعة القرطبى بعنوان (طبقات الشعراء بالأنطلس) ، وما ألفه محمد بن هشام الروانى بعنوان (اخبار الشعراء بالأنطلس) (٧٨) ، وما ألفه أحمد بن فرج الجيائى .

(٧٥) د. أحمد هيكى : المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٧٦) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ وبمدها .

(٧٧) انظر الضبى : بغية المتئس ص ٥٤٦ ترجمة رقم ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ .

(٧٨) بالنداء : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٨٥ ، د. أحمد هيكى : الأدب الأندلسى ص ٢٦٦ .

بعضون (الحذائق) الذى عارض به كتاب الزهرة لابن داود الاصفهاني ،
وقد تمه للحكم المستنصر . وضمنه كثيرا من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى
القرن الرابع الهجرى (٧٩) .

ورغم تأثر الكتابة الأندلسية بالأسلوب المشارقة فى هذا النوع ،
إلا أنه كانت هناك محاولات من الكتاب الأندلسيين للتفوق عليهم بدافع الروح
القومية ، التى كانت تذكهم لتأكيد ذاتهم ، وإبراز جهودهم .

أما النوع الثانى : وهو التأليف الأدبى ويعنى به تأليف كتب ادب
بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، والمتمثل فى كل ما يكون به التأديب والتعذيب ،
فمن أشهر كتبه كتاب (المعتمد الفريد) لابن عبد ربه الذى يجمع أطرافا
كثيرة من التاريخ والأخبار والشعر والنثر والأخلاق والعادات وغير ذلك
مما حواه (٨٠) .

وفى فترة الحجابة ظل الأدب سائرا بقوة الدفع فى الفترة السابقة ،
ولم يحدث فيه تطور عما كان عليه فى فترة الخلافة ، بل أخذت
بعض الأنواع تختفى مثل الشعر العلى والفلسفى الذى كان قد بدأ فى
الظهور والنمو فى عهد المستنصر ، ثم بدأ فى الاختفاء فى عهد المنصور
من أبى عامر بسبب التضييق على الفلسفة ، ومطاردة المستغنين بها ،
ونشطت أغراض أخرى كالخبريات وشعر اللهو والمجون ، نتيجة لاشتداد
تيار الترف ، والإقبال على المتع الحسية ، بالإضافة إلى شعر المدح
والوصف والاستعطاف ، كنتيجة للحكم الاستبدادى من المنصور .

(٧٩) بغية المتيسر ص ١٥١ ترجمة ٣٣١ ، جذوة المتنبس ص ١٠٤
— ١٠٥ ترجمة ١٧٦ .

(٨٠) د . هيكل : الأديب الأندلسى ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، د . إحصان
عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٣ .

ومن مشاهير شعراء هذه الفترة عبد الملك بن شهيد الذى اشتهر
بشعر اللهور . ومن أبياته فيه :

انا شيخ والشيخ يهوى الصبايا
ما بنفس أتيك كل الرزايا
ورسول الإله أسهم فى الغنى
لمن لم يحب فيه المطايا (٨١)
وقوله :

ولرب حان قد شهمت بديره
خير الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جملاوا السرور شعارهم
متصافرين تخشعا لكبيره
والقس بما شاء طول مقابنا
يدعو بصود دولتنا بزيوره
يهدى لنا بالراح كل مصفر
كالخشف جهه التماس خفيره
يتناول القرفاء فيه وشربهم
لسلافه والأكل من خنزيرة (٨٢)

وكذلك ابن دراج القسطلى الذى اشتهر بمداخله للمنصور . قال
عنه ابن حبان : « القسطلى سباق فى طبية الشعراء الملبسين ، وخاتبة
محسنى أهل الأندلس إجمعين » .
وقال عنه الحيدى : « وهو معدود فى جملة العلماء ، والمقدمين من

(٨١) المقرى : نفع الطبيب ج ١ ص ١٨٧ ، ٢٧٤ .

(٨٢) نفع الطب ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

السفراء والمذكورين من البلغاء ، وشعره كثير مجموع يدل على علمه وله طريقة في البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته (٨٣) .

وقال عنه ابن حزم : لو قلت إنه لم يكن بصقع الأنطلس أشعر من ابن دراج لم أبعد (٨٤) .

وكذلك الرمادي يوسف بن هارون الكندي الذي اشتهر بوقعة شعره وكان جريئاً مستهترا فيه ، وله شعر يدافع فيه عن الخبر حين أراد الحكم المستنصر أن يقطع اشجار الكروم . وكان فيه ميل إلى التشيع . قال عنه الفتح خاقان : إنه شاعر مغلتي ، ائترج له من الصناعة المفلح ، وبضى له بريقها المؤلق ، وسال بها طبعه كالماء المتدفق ، فاجمع على تفضيله الخفيف والمتق .

وكان شيوخ الأنطلس يقولون (فتح الشعر بكنة ، وختم بكنة) يعنون إيرا القيس والمتنبى والرمادي (٨٥) . وقد كثر شعراء هذه الفترة لدرجة أنه ذكر أن المنصور صاحب معه في إحدى غزواته أربعين شاعرا من طبقت مختلفة (٨٦) .

إما من النثر في هذه الفترة : فقد ازدهر النثر الأدبي الخالص حيث وجد ديوان للكتاب يحررون فيه الرسائل والمنشورات ، ويصفون

(٨٣) انظر عنه : جذوة المقتبس ترجمة ١٨٦ ، بغية المقتبس ترجمة ٣٤٢ .

(٨٤) جبهة أنساب العرب ص ٤٦٦ — ٤٦٧ .

(٨٥) كان يلقب بابي جنيس وهي كلمة رومانية صارت في الأسبانية Cenisa ومعناها رماد فعرف بالرمادي (انظر : أحمد هيكل :

الأدب الأنطلسي ص ٣٠٣ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ٢٠٠) .

(٨٦) بالثنيا : تاريخ الفكر الأنطلسي ص ٦٦ ، د. خالد المصطفى : عصر المنصور الأنطلسي ص ٢٥٦ .

المعارك والغزوات التي يقوم بها المنصور . كما برز النثر الوصفي أيضا . وقد تأثر النثر عميقا في هذه الفترة بطريقة ابن العميد في الميل إلى الاطناب ، والاعتماد على المحسنات البديعة بكثرة . ومن كتاب هذه الفترة أبو مروان الجزيري ، وابن دراج القسطلي ، والمنصور ابن أبي عامر أيضا .

وفي الفترة التي سبقت سقوط الخلافة والمساء بالفتنة البربرية تأثر الأدب تأثرا واضحا بأحداثها فانتشر أدب الطهي والنفاق والنفاهة ، أو أدب الفتن والحروب بمعنى الشمل . كما ظهر أدب التأمل والتذكر والمراجعة . وكان الشعر مجال النوع الأول ، والنثر مجال النوع الثاني بصفة عامة . ومن هنا خطأ النثر خطوات واسمة حتى سبق الشعر الذي ضلقت أغراضه ، وقل إنتاجه لهجرة الكثيرين من الشعراء من آتون الفتنة فهو ما بين مرح كاذب أو لهو ومجون ، أو بكاء لفقد الأهل والأحباب أو وصف لأشياء تافهة مثل وصف أبي عامر بن شهيد للبرغوث (٨٧) .

وأهم ما يلاحظ على الشعر في هذه الفترة كثرة مزجه بالنثر فالكثير منه لم يكن على شكل قصائد مستقلة ، وإنما كأجزاء من رسائل أو كتب أو رقاع تحرر لغرض ما ، حيث كثف الكثير من الأدباء يجمعون بين الشعر والنثر (٨٨) .



(٨٧) د. أحمد هيك : الأدب الاندلسي ص ٢٩٠ - ٣٩٢ .

(٨٨) د. أحمد هيك : المرجع السابق ص ٣٩٣ .

ثانياً - العلوم المتتية

الترجمة : لم تصل الترجمة في الاندلس إلى ما وصلت إليه في بغداد في عصر المنصور والرشد والمأمون كما يبدو ، حيث لم تشر المصادر إلى كثير من الكتب التي ترجمت في الاندلس ، ويبدو أن ذلك راجع إلى أنه كان بالإمكان جلب نسخ من الكتب المترجمة من المشرق إلى الاندلس دون بذل جهد في ترجمتها من جديد . وعلى ذلك فإننا نعتقد أنه قد جلبت كتب كثيرة مترجمة من المشرق وخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر .

وقد ذكرت لنا المصادر كتابين من الكتب التي تمت ترجمتها في الاندلس وهما : كتاب ديسقوريدس (الأدوية المفردة) والمعروف بكتاب الحشائش ، وكان باليونانية (١) ، وكتاب أورسيوس (هرويسس أو هروشيئس في المصادر العربية) . ويسمى (التواريخ السبعة في الرد على الوثنيين) وهو باللاتينية (٢) .

(١) ديسقوريدس : طبيب وعشاب يوناني ، ولد في بلدة عين زربة قرب طرسوس جنوب آسيا الصغرى ، ولهذا سمي في المصادر الأوربية Discorides- Ain zarbio أي (ديسقوريدس المين زربي) . وقد عاش في القرن الأول الميلادي ، واشتهر بكتاباته عن مركبات الأدوية من الأعشاب ، وقد ظل كتابه (الأدوية المفردة) أعظم مرشد لخواص الأعشاب الطبية ، وما زالت له قيمة علمية بالرقم من التقدم الطبي حتى الوقت الحاضر (انظر : عنان : دولة الإسلام في الاندلس ، العصر الأول - القسم الثاني ص ١٠٨ هابش ٢١ مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٣٤) .

(٢) بولوس أورسيوس : راهب ومؤرخ روماني الأصل ، أسباني المولد والنشأة ، عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن

=

(م ٢٨ - المجتمع الاندلسي)

وهذان الكتابان كان قد أرسل بهما الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر مع السفارة التى بعث بها إليه سنة ٣٣٨هـ (٣) .

الخامس الميلادى ، ووضع هذا الكتاب الذى أرخ فيه للعالم القديم منذ بدء الخليفة حتى عصره (١٦م) . وهذا الكتاب كما يقول د. حسين مؤنس : ذيل على كتاب (مدينة الله) لستاذة القديس أوغسطين ، وخاصة الجزء الثالث منه المتعلق بتاريخ العالم القديم . وقد لقى كتاب أورسيوس إقبالا شديدا من معاصريه ، واعتمد عليه الكثيرون من بعده ، ومنهم بعض المؤرخين المسلمين كالرازى وابن خلدون وغيرهما فى التاريخ للأمم التى حكمت أسبانيا قبل الفتح الإسلامى . (عنان : المرجع السابق ص ١٠٨ هامش ٢ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٨) .

(٢) اختلف فى تاريخ هذه السفارة فذكر البعض أنها كانت فى سنة ٣٣٤هـ ، وذكر البعض أنها حدثت سنة ٣٣٦هـ ، وذكر البعض أنها وقعت سنة ٣٣٧هـ ، بينما ذهب الكثيرون إلى أنها كانت سنة ٣٣٨هـ . كما اختلف فيه من أرسلها فذكر البعض أنه قسطنطين ، وذكر البعض أنه ابنه رومانوس الذى تولى بعده ، ولعل مرجع هذا يعود إلى الاختلاف فى تحديد تاريخها ، وإن كان الراجح أنها كانت سنة ٣٣٨هـ فى عهد قسطنطين . وربما كان الإمبراطور هو الذى أرسل السفارة وبعث ابنه بالكتابين معها ، وربما يكون الإمبراطور قد أرسل السفارة باسمه واسم ابنه الذى كان يعده للحكم بدليل أن الخطاب الذى أرسله للخليفة يبدأ

وكان الكتاب الأول قد ترجم في بغداد في عهد الخليفة المتوكل المبرس (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) على يد (أحمد أو أسطفن بن بلسيل) من اليونانية إلى العربية ، وقام بمراجعة الترجمة (حنين بن إسحاق) . وقد وضع إسطفن أسماء عربية للنسبات في مقابلة الكلمات اليونانية ، غير أن بعض الأسماء ظلت على صورتها اليونانية لعدم معرفته بها ، وهنا جاء دور الأندلس لتكملة ذلك ، فيذكر المؤرخون أن الناصر لما وصلته نسخة من هذا الكتاب كلف طبيبه الخاص (حسداى بن شروط) ، وحمد النبلي ، وعبد الرحمن ابن الهيثم ، وأبو عبد الله الصقلي وكان له إلمام بالمقايير والنسبات بالنظر فيه وترجمته ، غير أنه لم يكن لديهم إلمام باليونانية فأرسل إلى الإمبراطور يطلب منه إرسال مترجم له ، فأرسل إليه الراهب نيقولا ، الذي كان يجيد اليونانية واللاتينية سنة ١١٤٠ هـ ، ففسر أسماء المقايير

=

بقوله « من قسطنطين ورومانيين المؤمنين بالمسيح اللكين العظيمين ملكى الروم » . (انظر : فتح الطيب ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢) ، ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ١٤٢ ، ابن جليل : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ ، مثاق : دولة الإسلام في الأندلس القسم الثانى ص ١٠٧ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأندلسهم في الأندلس ص ٢١٥ — ٢١٦ ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس ص ٦٧ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩٩ ، أحمد أمين : ظفر الإسلام ج ٣ ص ٢٣٢) .

المجهولة ، وتلتزم على يديه كثير من المهتمين بدراسة الطب والاعشاب (٤) .
وقد كان لذلك أثره فى إقبال الكثير من الأندلسيين على دراسة
الطب والعقار متخذين من هذا الكتاب مصدرا رئيسيا لهم .
وأما الكتاب الثانى فيذكر أنه قام بترجمته للحكم المستنصر قبل
الخلافة ، ويبدو أنه أخذه من والده الناصر — قاضى النصارى بقرطبة
وليد بن حزون (٥) الذى قام بدور المترجم للملك أردون الرابع ملك
ليون عندما قدم لزيارة المستنصر سنة ٣٥١هـ ، وشاركه فى هذه
الترجمة قاسم بن أصبغ البيلائى — نسبة إلى بيسانة — المتوفى سنة
٣٤٠هـ (٦) .

(٤) يذكر أن الإمبراطور قال للخليفة : إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى
فائدته إلا برجل يحسن اللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك
الأدوية ، وأما كتاب هرويسيس فعندك فى بلدك من اللطينيين
(اللاتينيين) من يقرؤه باللسان اللطينى ، وإن كاشفتم عنه نقلوه
من اللطينى إلى اللسان العربى . (أحمد أمين : ظهر الإسلام
ص ٢٣٤ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ ،
عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ١٠٩) .

(٥) انظر : المقبرى : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٢ — ١٨٣ ، د. السيد
سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ . وقد ذكره
البعض باسم الولد بن الخيزران المعروف بابن مغيث ، ولعله
خطا فى الطبع (انظر : د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ
العربى ص ٢٤ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٩) .

(٦) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣١٢ . ويستبعد د. إحسان عباس
أن يكون قاسم قد شارك فى ترجمة هذا الكتاب حيث توفى سنة

وقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأنطلسيون من هذه الترجمة من أحمد بن محمد الرازي (٢٤٤ هـ) إلى ابن خلدون (٨٠٨ هـ) . ومنهم من نقل من هذا الكتاب ونص على ذلك صراحة (٧) .

وليس ببعيد أن تكون هناك كتب أخرى قد ترجمت عن اليونانية واللاتينية وغيرها إلى العربية في الأنطلس ، بالرغم من عدم إشارة المصادر إلى ذلك كثيرا ، حيث نهضت الحركة العلمية ، ووجدت التشجيع الكافي ، وتوافرت كافة الإمكانات التي تساعد على الترجمة (٨) .

٣٤٤ هـ ، ولكنه استدرك فقال : إلا أن تكون ترجمته كتاب هرويسيمس قد تمت قبل مجيء نقولا الراهب . (انظر : تاريخ الأدب الأنطلسي ص ٤٧ هاش ٢) .

ولا يستبعد أن يكون قسم قد شارك في ترجمة هذا الكتاب حيث كان متصلا بالمستمر قبل خلافته ، واختصر له كتاب المسفن لأبي داود ، وسماه (المجتنى) سنة ٣٢٤ هـ . وكان يجيد اللغة اللاتينية (اللطينة) كما يتضح من قول الأبراطور لعبد الرحمن الناصر . (انظر : القرى ج ٢ ص ٢٥٤ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأنطلس ص ١٥٥ هاش ١) . وتوجد نسخة من الترجمة العربية لهذا الكتاب في مكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك . وقد أضف إليها تكملة لتاريخ القوط حتى دخول طارق بن زياد أسبانيا . وهذه الإضافات في أغلب الظن نقت عن مؤرخين لاتينيين ، وتقع هذه النسخة تحت رقم H 893712 x . (نشأة تدوين التاريخ العربي ص ٢٤) .

(٧) د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأنطلس ص ٢٤ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٨)

الفلسفة : يظهر ان نشأة الفلسفة في الاندلس كانت كنهشاتها في المشرق وقد نشأت في المشرق من الاشتغال بالطب والتنجم لعناية الكثير من الخلفاء بها . وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ليس اعتقادا فيه ، وإنما رغبة في حسب الاستطلاع ، واستشراف المستقبل ، والتطلع إلى معرفة ما سيجري .

وكذلك كان الشأن في الاندلس حيث احتاج الأمويين إلى الأطباء وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ، والاشتغال بالطب والنجوم يسلم إلى الفلسفة ، ولذلك نرى ان الفلاسفة الاندلسيين الأوائل كانوا من الأطباء مثل الكرماني ، وأبو جعفر بن حميس ، وحسين بن أبان ، أو من المنجمين مثل ابن السبينة ، ومسلمة بن أحمد المجريطي ، وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم (٩) .

وقد ساعد على ظهور الفلسفة ونموها بالاندلس عدة عوامل منها :

١ - رحيل بعض الأطباء من المشرق إلى الاندلس مثل اسحاق ابن عمران الذي كان طبيبا مشهورا في بغداد .

٢ - اهتمام بعض الخلفاء الأمويين بالكتب العلمية والفلسفية مثل الحكم المستنصر ، وجلبها إلى الاندلس وترجمتها ، فيذكر ابن أبي أصيبعة ان الكرماني رحل إلى المشرق وجلب معه عند عودته رسائل اخوان الصفا (١٠) .

٣ - التبادل الثقافي بين الاندلس وبعض البلاد الأجنبية مثل الدولة البيزنطية مما أدى إلى إهداء بعض الكتب للخلفاء الأمويين وترجمتها .

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣٢ .

(١٠) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٧ .

وقد أدت هذه المواقف وغيرها إلى وجود مجموعة من المشتغلين بالطب والتنجيم أولا ، وبالفلسفة ثانيا .

والحقيقة أنه رغم ذلك فإن غالبية الاندلسيين لم يثقلوا بالفلسفة بالقبول الذي تلقوا به الطب وغيره من العلوم العملية ، حيث كان جل اهتمامهم موجها إلى العلوم الدينية والعربية ، ولذلك لم يكن للفلسفة حظ كبير من الاهتمام في العصر الأموي ، وكان المشتغلون بها موضع نفور واضطهاد ، ورعى بالكثر والإلحاد والزنتة .

يقول ابن سعيد المغربي « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، ومن يشتغل بها يجتهد في إخفاء ذلك حتى لا يطلق عليه لقب زنديق من العامة ويقتل ، أو يحرق هو وكتبه » (١١) . كما عمل المتصور بن أبي عامر تقريبا إلى الصرامة والنفاه .

وقد أخذ الطب والتنجيم يتطوران إلى فلسفة بعد سنين ، حتى رأينا فلاسفة حقيقيين كان لهم دورهم وأثرهم في هذا المجال . كابن باجة وابن رشد وابن طفيل وغيرهم .

ويصف ابن طفيل (ت ٥٨١ هـ) حال الفلسفة في الاندلس فيقول « إن هذا العلم أندر من الكبريت الأحمر ، لاسيما في هذا المصقع الذي نحن فيه ، لأنه من الغرابة في حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر منه بشيء لم يكلم الفلاس إلا رمزا » (١٢) .

ويظهر أن الاشتغال بالفلسفة في الاندلس كان على نوعين : نوع يميل إلى التصوف منه إلى الفلسفة البحتة . واتباع هذا النوع قد ساروا على طريقة أفلاطون ، وكان من أوائهم ابن مسرة وابن سدر ، وهذه

(١١) المقرئ : فتح الطبيب ج ١ ص ١٠٢ .

(١٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ٢٢٥ .

المدرسة تعتمد على الذوق والكشف والمراقبة أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق والقياس . والنوع الثاني : يعتمد على الفلسفة الصرفة على النحو الذى سار عليه أرسطو . ومن اتباع هذا النوع : أبو بكر بن الصائغ المشهور بابن بلجة (ت ٥٤٤ هـ) ، وابن طفيل (ت ٥٨١ هـ) ، وابن رشد (ت ٥٩٤ هـ) (١٣) .

ومن أوائل من نسبوا إلى الفلسفة فى العصر الأموى ابن مسرة محمد ابن عبد الله (ت ٣١٩ هـ) ، وقد اعتنق والده مذهب المعتزلة ، وكان هذا المذهب غير مرغوب فيه بالاندلس ، فاضطر إلى إخفائه ، ولقنه لابنه ، ومعروف أن هذا المذهب يعتمد على العقل كثيرا ، ويتسلح أصحابه بالمنطق والفلسفة .

ولذلك نشأ محمد معتزليا محبا للحكمة والدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاما ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٩٨ هـ ، ولقى أهل الجبل وأصحاب الكلام ، ثم عاد فأنظر الورع والتفكير ، وأصبح له تلاميذ يلقتهم مذهب الذى يجمع بين التصوف والاعتزال ، واتخذ خلوة له فى جبل قرطبة حتى سمي بالجبلي (١٤) .

وقد أثار ذلك الصلابة والفقهاء بعد اكتشاف أمره ، فأنشأوا عنه أنه زنديق مما اضطره إلى مغادرة الاندلس فى آخر عهد الأمير عبد الله ، ثم عاد فى عهد الناصر ، فواصل الدعوة لمذهبه ، وانضم إليه الكثيرون لظهور الورع الزاهد ، وألف كتباً منها كتاب التبصرة وكتاب الحروف لم يصلنا أى منها . ويذكر أن الخليفة الناصر قد أمر بإحراق كتبه خارج

(١٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣٥ .

(١٤) تاريخ علماء الاندلس ج ٢ ص ٢٩ ترجمة ١٢٠٤ ، الحميدى : جذوة النبوة ، ترجمة ٨٣ .

جاء قرطبة ، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات غن منازل.
المحدثين غير داخضة (١٥) . ويبدو أنه كان يلحن تلاميذه نوعا من
الاعتزال والفلسفة تحت ستار الزهد والتصوف ، أو يروج لتعاليم مذهبه.
تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية (١٦) .

ثم بدلت الفلسفة تأخذ مكانها مرة أخرى في عهد الحكم المستنصر في
ظل التسليح الذي أشاعه ، واهتم به بالعلوم على شتى أنواعها ، فعادت
معرفة ابن حمزة من جديد ، وأخذت آراؤه تظهر مرة أخرى ، وتجد
طريقها إلى الآخرين .

ومن أشهر من اشتغل بالفلسفة في عهد المستنصر ملحان « الذي
كان ذا نظر في حد المنطق ، كثير المطالعة لكتب الفلسفة » (١٧) .

وإدريس بن مريم « الذي كان بصيرا بحد المنطق ، كثير المطالعة
لكتب الأوائل حافظا بعلم الحساب والتنجيم » (١٨) ، ومحمد بن يحيى
الرباعي « الذي طالع كتب أهل الكلام ، ونظر في المنطقيات فأحكبها ،
إلا أنه كان لا يتقصد مذهبا من مذاهب المتكلمين ، ولا يقود أصلا من
أصولهم ، وإنما كان يقول على ما بهل إليه في الوقت ، ويؤثره في
الحضرة » (١٩) .

(١٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ج ١
ص ٣١٢ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ١٩٧ .

(١٦) د. أحمد هيك : الأدب الأندلسي ص ١٢٦ ، وإحسان عباس :
تاريخ « الأدب الأندلسي » ص ٥٤ .

(١٧) الزبيدي : طبقات الشافعيين والنحويين ص ٢٢٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(١٩) المرجع السابق ص ٢٣٦ .

ومن عرف بدراسة المنطق والفلسفة أيضا في هذه الفترة
ابن حفصون ، ومحمد بن عبدون الجبلى الذى درس على سليمان المنطقى
بيغداد (٢٠) . ومحمد بن اسماعيل الملقب بالحكيم الذى اهتم بالمنطق
والحساب ايضا (٢١) .

ويبدو ان هؤلاء قد اکتفوا بمجرد الاطلاع والنظر فى كتب الفلسفة ،
حيث لم يؤلفوا كتباً ، على عكس الحال فى علوم الطب والهندسة والفلك
والحساب ، غير ان الفلسفة ما لبثت ان انتكست مرة اخرى فى عهد
المنصور بن أبى عامر نتيجة لضغوط الفقهاء والعلماء حيث اضطهد
الفلاسفة ، واحرق كتبهم تقريبا للعلماء وترضية للفقهاء ، رغم ميله
إليها فى الباطن كما ذكر (٢٢) .

وقد لقيت الفلسفة بعد ذلك — وخاصة فى القرن السادس
الهجرى — اهتماما كبيرا فظهر فلاسفة حقيقيون من أمثال ابن باجة
وابن طفيل وابن رشد كانت لهم آراؤهم الفلسفية التى أحدثت دويما فى
العلماء المسلمين الاسلامى والمسيحى .

فيذكر ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) انه رأى من كتب الفلسفة « رسائل
مجموعة وعيوننا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى دالة على تمكنه من
هذه الصناعة ، ورسائل لأبى عبد الله المنجى أيضا ويعرف بابن الكتانى

(٢٠) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٦ .

(٢١) إحصان عيسى : تاريخ الادب الأندلسى ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢٢) المقرئ : نفع الطبيب ج ١ ص ٢٢١ ، مساعد : طبقات الأئمة
ص ٦٦ .

د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٤٠ ، د. خالد

الصوفى : المنصور الأندلسى ص ١٩٩ ، ٢٥٦ .

وكان مقدما فى علوم الطب والمنطق (٢٣) .

يقول الضبى عن السرتسطى « له أدب وعلم وتصرف فى حدود :
المنطق يعرف بالحصار وهو مشهور ذكره أبو محمد على بن أحمد
(ابن حزم) « (٢٤) .

ونذكر الحميدى أن ابن حزم نقل من شعره فى ذم الناس للمنطق :
ظلموا ذا الكتاب إذ وصفوه
بالذى ليس فيه إذ جهلوه
لو دروا حقه لما اتكروه
أو دروا فضله لئن ففسلوه
كذبوا والله لو عرفوه
لتفوا عنه كل ما نحلوه (٢٥)

الطبيب : كان من مظاهر تقدم الثقافة الأندلسية فى فترة الإمارة
ظهور أوائل المستغنين بالطب فى الأندلس ، مثل أحمد بن إيلس القرطبى ،
الذى يعد أول من اشتهر بالطب فى الأندلس ، وذلك فى عهد الأمير
محمد بن عبد الرحمن الأوسط . ونبغ بعده جماعة منهم يحيى بن اسحاق
طبيب الأمير عبد الله بن محمد ، والذى أصبح وزيرا للناصر فيما بعد ،
وله مؤلفات فى الطب .

تم اخذ الطب يزدهر فى فترة الخلافة ، واشتهر به كثيرون
وخاصة فى عهد الناصر والمستنصر ، مثل سعيد بن عبد ربه الذى كانت

(٢٣) بغية الملتبس ص ٦٧ ترجمة رقم ٨١ .

(٢٤) بغية الملتبس ص ٣١١ ترجمة ٨١٣ .

(٢٥) جنوة المقتبس ص ٢٢٣ ترجمة ٤٧٨ .

له طريقة خاصة فى علاج الحميات . وأحمد بن يونس وأخوه عمر الذين اشتهرا بالمهارة فى تحضير الادوية ، وعلاج كثير من الأمراض ، وخاصة علاج العيون (٢٦) .

وأبو عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى ، الذى رحل إلى مصر سنة ٣٣٧هـ ، وأشرف على بیمارستان مصر ، والموزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شهيد مصنف كتاب (الادوية المفردة) الذى يقول عنه المقرئ : « إنه كان آية الله تعالى فى الطب وغيره ، حتى أنه عانى جميع ما فى كتابه من الادوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان لا يرى التداوى بالادوية ما أمكن ، بل بالأغذية وما بقرب منها . وإذا اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة فى الإبراء من الأمراض الصعبة ، والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه » .

ويقول عنه صاعد « ألف كتابا جليلا لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديستوربندس وكتاب جالينوس المؤلفين فى الادوية المفردة ، ورتبه أحسن ترتيبا » (٢٧) .

ومن مشاهير الأطباء فى عهد الخليفة الناصر الطبيب اليهودى حسداى ابن شبروط الذى اتخذ الناصر طبيا خاصا له ، وذاعت شهرته حتى أن شاتجة ملك ليون الذى كان القى بالسجين نظرا لسيئته الزائدة — وذكر

-
- (٢٦) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٩ ،
صاعد الاندلسى : طبقات الأمم ص ٧٨ ، ١٢٤ ، دائرة معارف
الشعب ٦٤ ص ١٩٤ ، د. أحمد هيكى : الأندلس فى ١٢٧ .
د. أحمد شلى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ .
(٢٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٥ .

أن ذلك كان من أسباب خلعه نظرا لعدم قدرته على تصريف أمور المأكمة —
فقد طلب من الناصر أن يرسل له طبيبا لعلاج من ذلك ، فأرسل إليه
طبيه حسداى الذى نجح فى تخفيف وزنه (٢٨) .

ومن أشهر الأطباء فى عهد المستنصر الطبيب المشهور وعالم الجراحة
أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى — نسبة إلى مدينة الزهراء التى
الناصر — والذى اتخذ المستنصر طبيبا خاصا ، وألف عدة كتب فى الطب
ترجمت إلى اللاتينية مثل كتاب : Libes-Sepilitoris الذى ترجمه
جيرارد الكريونى ، وكتبه فى الجراحة الذى ترجمه جيدوى كاولياك إلى
اللاتينية أيضا سنة ١٤٨٩م تحت عنوان Chirur-giaparua (٢٩) .

ويعتبر الزهراوى من أشهر الجراحين المسلمين — أطباء الجراحة —
وقد ترك مرجعا فى وصف الآلات الجراحية وطرق استخدامها ، وتوضيحا
بالرسوم ، وهو كتاب (التصريف ابن عجز من التأليف) الذى ظل مرجعا
يعول عليه لدراسة الطب فى أوروبا عدة قرون بعد ترجمته إلى
اللاتينية ، ويذكر أنه باشر بمعض عمليات التوليد والجراحة النسائية ،
ونصح باستخدام مساعدات من النساء فى ذلك (٣٠) .

(٢٨) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٣٠ ، لبن بول :
قصة العرب فى إسبانيا ص ١٠٩ ، عثمان : دولة الإسلام فى
الأندلس ج ٢ ص ١١٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب
والأندلس ص ٣٢١ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة
الأموية ص ٧٠ .

(٢٩) انظر ترجمته فى بغية المتعصب رقم ٧١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ
المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٢ .

(٣٠) د. سعيد عشور وآخران : تاريخ الحضارة الإسلامية العربية
ص ١٢٤ — ١٢٥ .

وكذلك الإسقف القرطبي ابن زيد الذي كان مختصا بالخليفة المستنصر
وآلف كتب (تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان) (٣١) .

كما نبغ في الطب أيضا في عهد هشام المؤيد ابن الخليفة
المستنصر الطبيب الأندلسي المشهور ابن جلجل (أبو داود سليمان
ابن حسان) ت ٣٩٩ هـ ، الذي كان طبيا لهشام المؤيد ، وضع كتابا في
طبقات الأطباء ، وشرح أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ،
وأوضح ما غرض منها في كتابه (تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب
ديسقوريدس) . قال عنه الحميدى : « سليمان بن جلجل مذكور بالطب
والأدب ، له كتاب في أخبار الأطباء بالأندلس » (٣٢) .

وكذلك عبد الرحمن بن الهيثم طبيب المنصور بن أبي عامر . وقد
ألف عدة كتب عن الأدوية المفردة (٣٣) ، وكان عريب بن سعيد القرطبي
المؤرخ (ت ٣٦٩ هـ) طبيا أيضا وله مؤلفات في الطب منها كتاب (خلق
الجنين وتدبير الحبال والمولود) وهو مخطوط بكتبة الاسكوريال (٣٤) .
الفلك والنجوم : اهتم القدماء بالنجوم والكواكب وحركاتها ،
وربطوا بين ذلك وبين معرفة المستقبل ، وأطلقوا على ذلك علم التنجيم .
والحقيقة أن التنجيم على هذا الأساس ليس علما ، لأن معرفة المستقبل
وعلم الغيب إنما هو لله عز وجل لا يظهر عليه أحدا إلا من ارتضى من
رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا .

-
- (٣١) إحصان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤٧ .
(٣٢) جنوة المقتبس ترجمة ٥٢ ص ٢٢٥ ، دائرة معارف الشعب (٦٤)
ص ١٩٥ . وقد نشر كتابه (طبقات الأطباء) ضمن منشورات
المعهد الفرنسي بالقاهرة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد سنة ١٩٥٥ م .
(٣٣) المختار من عالم المعرفة ص ١٣٦ .
الأدب الأندلسي ص ١٩٤ .
(٣٤) بالنسبة : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، د . هيكل :

ورغم ذلك فإن بعض حكام المسلمين كانوا يطلبون التنجيم لاستشارتهم والاختد برايمهم قبل الإقدام على عمل هلم كالتبناء أو الحرب أو غير ذلك (٣٥) .

ومن أمراء الأتتلس الذين اهتموا بالتنجيم هشام بن عبد الرحمن الداخل . فيذكر أنه استدمى النجم الضبى من بلده بلجزيرة الخضراء ، وكان بارعا فى علم النجوم والمعرفة بالحركات العلومية كما قيل حتى لقب (ببطلهوس) لحقه وإصلته .

ورغم عدم اعتقاد هشام فى التنجيم ، إلا أنه كان يحب أن يسمع ما يقوله الضبى « حيث أن النفس طلعة كما قال » . وقد أخبره هذا النجم بأنه لن يستمر فى ملكه أكثر من ثمانية أعوام فكان كما قال — وهذا من بنب المصادفات فقد كذب النجوم ولو صدقوا — ويذكر أنه زهد فى الدنيا ولزم أعمال الخير بعد أن أخبره بذلك (٣٦) .

وكذلك كان من النجيين أحمد بن فارس البصرى ، الذى كان زعيم هذه الصناعة بالأتتلس على عهد الحكم بن هشام ، كما ذكر ذلك ابن بسام نقلا عن ابن حبان (٣٧) . ومنهم أيضا جند الله بن الشمر ابن نمير القرطبى ، منجم عبد الرحمن الأوسط وتنبه قبل الإمارة . ذكر أنه بشره بأن الأمر سيصير إليه ، فلما صار إليه قربه وفادته ، وأجرى عليه رزقا للشعر ورزقا للتنجيم (٣٨) .
وكذلك إدريس ابن مقيم الذى كان بصيرا بالمنطق حاذقا بالحساب والتنجيم (٣٩) .

-
- (٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العرمة ص ١١٠ .
(٣٦) انظر : نفع الطيب ج ١ ص ١٢٧ .
(٣٧) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ٤ ج ١ ص ٥٩ .
(٣٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ١٢٤ .
(٣٩) طبقات الزبيدى : ص ٣٣٢ .

وقد فرق علماء المسلمين بين التنجيم والفلك فنادى معظمهم بمدم تأثير الكواكب والنجوم على مستقبل الإنسان ، ونفوا أن يكون لها دخل فى النفس أو السعد . وعلى ذلك فقد وجد من بين علماء الأندلس من رفض التنجيم ، واهتم بالفلك كعلم له قواعده وأصوله ، ومن هؤلاء عباس ابن مرفلس الذى يمكن أن تعده من أوائل علماء الفلك فى الأندلس إلى جانب اهتماماته واختراعاته الأخرى . فقد ذكر أنه صنع فى بيته قبة تشبه السماء ، وزودها بالآلات وأدوات تحدث رعود وبروقا ، وجعل فى أعلاها نجوما وغيوبا تبدو للناظر وكأنها حقيقية (٤٠) .

وقد كان الأمير عبد الرحمن الأوسط من أوائل الأمويين اهتماما بجلب الكتب القديمة من المشرق ، ولذلك وجه عباس ابن ناجح الشاعر إلى المشرق لجلبها . نجاء بكتاب (السند هند) وغيره منها ، وبعتبر أول من أدخلها إلى الأندلس ، وعرف أهلها بها ، ونظر هو فيها (٤١) .

(٤٠) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٢٣٣ . أحمد أمين : ظهور الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٤ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٦ - ١٩٧ ، ومن الغريب أن الفرضى الذى ترجم للقشيري فى كتابه (تاريخ علماء الأندلس) لم يترجم لعباس بن مرفلس رغم شهرته الكبيرة ، وترجم له الضبى فى بغية المقتبس والحميدى فى جنوة المقتبس ولم يذكرنا شيئا عن ذلك . (انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٩ ، جنوة المقتبس ترجمة ٧٣١ ، بغية المقتبس ترجمة ١٢٤٧) .

(٤١) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٥ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ . وكتاب السند هند يعتبر من كتب الفلك الهندية ، ويذكر أنه وفد على بلاط الخليفة العباسى المنصور سنة ١٥٦هـ أحد الهندو ومعه نسخة من هذا الكتاب ، فأمر الخليفة محمد بن اسحاق الفزارى بترجمته للعربية ، ويقال : إن الخوارزمى استفاد منه ، واعتمد.

ويعتبر مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة اللهي القرطبي (٢٩٥ هـ) من
أوائل المستغلين بالنسك والنجوم في الأندلس أيضا ، وكان يعرف
(بصاحب القبلة) لأنه كان مولعا بالتنسيق في قبلته مفتونا بذلك
كما قيل (٤٢) .

وقد قال بكروية الأرض ، واختلاف المصول حسب المناخ ، وقد
تعرض بسبب ذلك لهجوم بعض المقلدين ، ومنهم ابن عبد ربه صاحب
المقد الفريد الذي قال فيه :

أبا عبيدة ما السؤال عن خبر

تحكيه إلا سواء والذي سالا

أبيت إلا شذوذا عن جماعتنا

ولم تصب رأي من أرجى أو اعتزلا

كذلك القبلة الأولى جحلة

وقد أبيت فما نبى بها بدلا

زعت بهرام أو بيذخت ترزقنا

لا بل عطرده أو مريخ أو زحلا

وقلت إن جميع الخلق في ظلك

بهم يحيط وفيهم يقسم الأجيلا

والأرض كورية حف السماء بها

فوقا ونحن وصارت نقطة مثلا

==

عليه في وضع زيجته المشهور بعد أن أدخل عليه تعديلات
وإضافات عدة . (انظر دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية
العربية ص ١١١) .

(٤٢) انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ رقم
١٤٢٠ .

(م ٢٩ — المجتمع الأندلسي)

صيف الجنوب شتاء للشمال بها
قد صار بينهما هذا وذا دولا
فما لكاتون في صنعا وقرطبة
فردا وابول يلقى فيهما السؤلا
هذا الليل ولا قول عزرت به
من القوانين يجرى القول والمملا
كما استمر ابن موسى في غوابته
فوعر السهل حتى خطته الجبلا
ابلغ معاوية المصطفى لقولهما
اتى كفرت بما قالوا وما فعلا (٤٢)
ويقول ابن عبد ربه ايضا في مهاجمة المشتغلين بالفلك والنجوم :
فاين الزيج والقانون والاركنذ والكه
واين السند هند البطل والجنول هل له
سوى الاثك على الله تعالى منثر الزمه
إذا كان اخو الغيب
يرى الغيب بما ضمه
إلى ان يطلب الرزق
طلاب الماجز الهمة
وهذى الأرض قد وارت
كفوزا عدة جمه

(٤٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧
وابن موسى هو الاقتسبين او الاقتستين ، ومعاوية هو ابن الشيبانيس
القرشي ويظهر انهما كانا من أصحاب ابن ابي عبيدة والقائلين
بالتقوالة .

فلا والله ما الله

خلق يحتوى عليه (٤٤)

كما يعتبر أبو القاسم مسلمة الجريطى (٣٩٨ هـ) من علماء الفلك أيضا يقول عنه صاعد : إنه أعلم من كان قبله بعلم الأملاك ، وحركات النجوم ، وكانت له غنية بأرصاد الكواكب (٤٥) .

الكيمياء : اشتغل بعض علماء الأندلس بطم الكيمياء ، ومن أوائل المشتغلين به أبو القاسم مسلمة بن أحمد الجريطى (ت ٣٩٨ هـ) الذى يعد شيخ الأندلس فى هذا العلم فى العصر الأموى ، وقد ألف فيه كتابا سماه (رتبة الحكيم) ، وجعله قرينا لكتاب آخر ألفه فى السحر والطلسمات وسماه (غنية الحكيم) . ومن كبار تلاميذه فى هذا المجال أبو بكر بن بشرى (٤٦) .

ويمكن أن نعد عيسى بن فرناس بـت ٨٨٦ م) من الذين نبغوا فى هذا العلم أيضا ، حيث له اختراعات متعددة ، ويذكر أنه كان أول من استنبط بالآندلس صناعة الزجاج من الأحجار وهى صناعة تحتاج إلى معالجات بطرق كيميائية (٤٧) .

(٤٤) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٩٠ .

(٤٥) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، وإحسان عباس : المرجع السابق ص ٥٢ .

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٩٦ .

(٤٧) انظر نفع الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ ، المغرب فى طى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ ، د. عبد الرحمن الحجى : الحضارة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٢ .

الرياضيات : يلاحظ أن كثيرا من علماء الأندلس كانوا يبنفون فى .
عدة علوم ولا يقتفرون على علم واحد ، حيث لم يكن التخصص الدقيق
معروفا فى ذلك الوقت .

ومن هنا فقد وجدنا كثيرا من الذين اشتغلوا بالنجوم والفلك يبنفون .
فى الرياضيات أو العكس . وكان من أوائل من اشتغل بالرياضيات .
فى الأندلس ، ولغت الانتظار إليها أبو القاسم مسلمة المريطى (ت ٣٩٨ هـ)
الذى وصفه صاعد بأنه « كان إهام الرياضيين فى وقته » وتخرج على
بنيه كثير من الطلاب مثل ابن السمع وابن الصنار والزهرراوى والكرمائى
وغيرهم (٥٠) .

كما كان من أوائل من اشتهروا بالرياضيات أيضا أبو مبيده مسلم
ابن أحمد اللبئى (ت ٢٩٥ هـ) المعروف بصاحب القبلة ، وكان عالما
بالحساب والنجوم وتحركات الكواكب وأكملها (٥١) .
ويحيى بن يحيى القرطبى المعروف بابن السمينة وكان بصيرا
بالحساب والنجوم (٥٢) .

كما برع عباس بن فرناس القرن الثانى - الثالث الهجرى (ت ٨٨٦ م)
فى علم المسد الهندسة الميكانيكية ، حيث ابتكر الآلة المعروفة بالبقانة
لمعرفة الوقت على غير رسم وهثال . وقام بأول محاولة للطيران فى العالم

(٥٠) د. إحسان عباس : تاريخ الأندلس ص ٥٢ ، ظهر الإسلام
ج ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .
(٥١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٢٠ ج ٢ ص ١٢٦ -
١٢٧ .

(٥٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٨٠ ج ٢ ص ١٨٨ .

الإسلامي ، وكان متعدد المواهب برز في مجالات شتى (٥٣) .

وكذلك القاسم بن أصبغ بن السمع (ت ٤٣٦ هـ) الذي برع في علم النجوم والهيئة والحساب والهندسة ، وله عدة مؤلفات منها : كتاب (المدخل إلى الهندسة) شرح فيه كتاب إقليدس ، وكتابان في الأسطرلاب ، وكتاب آخر في الهندسة (٥٤) .

وكذلك أبو الحسن الزهراوى (على بن سليمان) - وهو غير أبو القاسم الزهراوى الطبيب المشهور - وكان عالما بالهندسة والعدد ، وله كتاب في الهندسة بعنوان : (المقلبات من طريق البرهان) (٥٥) .

كما اشتهر أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي (ت ٤٥٨ هـ) بالهندسة أيضا وكان قد رحل إلى المشرق في طلبها ، وخلصه في حران ، ثم عاد إلى الأندلس وصار لا يفتق له غبار فيها ، وهو أول من أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس (٥٦) .

وكذلك ابن الصفا الذي اشتهر بالحساب والهندسة والفلك أيضا ، وله زيج مختصر على مذهب السند هند . كما اشتهر بالرياضيات أيضا . في عصر الحكم المستنصر عبد الله بن محمد المعروف بالسرى ، وكان الحكم يحبه ويقربه ، وكذلك أبو بكر بن عيسى وكان يتخذها في علوم الهندسة والعدد والنجوم ، وكان يجلس للتعليم فيها (٥٧) .

(٥٣) انظر : فتح الطيب ج ٢ ص ٣٢١ وبعدها ، البيان المغرب ج ٢ ج ٢ ص ١٦٦ وبعدها .

(٥٤) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٥) الضبى : بغية اللطيف ترجمة ١٢٢٠ .

(٥٦) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٧) د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٣٨ .

ومن الرياضيين المشهورين بالاندلس أيضا محمد بن الفرج الرشاشي، الذي عرف بالذراع نظرا لأنه ابتكر وحدة قياسية للمسافات هي الذراع الذي نسب إليه فأصبح يعرف بالذراع الرشاشي ، وكان أهل الاندلس يقيسون به . ويبلغ طوله ضعف المساموني الذي كان معروفا في المشرق (١٧١سم) ويذكر أن الإدريسي والبكري قد استخدماه في قياس بعض المعالم الأثرية التي تحدثنا عنها كمنارة الإسكندرية ، وجابع قرطبة وغيرها (٥٨) .

التساويح : لم يكن ظهور علم التاريخ في الاندلس منفصلا من جذوره التي نشأ فيها وتطور عنها في المشرق ، وقد تأثرت الاندلس بمؤثرات علمية وفنية كثيرة وفدت من المشرق ، ومنها تدوين التاريخ ، الذي تأثر في بدايته بمدرسة مصر التاريخية بصفة خاصة ، كما تأثر بمؤثرات لاتينية وبخاصة كتاب هرويسيس في التاريخ الذي تمت ترجمته ، واستناد منه الكثير من المؤرخين الاندلسيين (٩٥) .

وقد اهتم الاندلسيون بتاريخ بلادهم ، وتمصبوا له ممسايدل على ظهور الروح القومية الاندلسية ، فنجد ابن حزم يضع رسالة في فضل علماء الاندلس ، ويعيب على أهلها تقصيرهم في تخليد أخبار علمائهم مع كثرتهم ، وفي مآثرهم وفضائلهم ، ووفور أدبائهم ، وجلالة ملوكهم .

(٥٨) ابن حيان : القتيبي ص ٣٢٥ - ٣٢٦ تحقيق د. محمود مكي .
وقد ذكره ابن الفريسي باسم محمد بن الفرج الذراع المعروف بالرشاشي من أهل قرطبة ، وهو الذي ينسب إليه الذراع .

ونعتقد أنه قد حدث خطأ في الطبع والأصح ما ذكره ابن حيان .
(انظر : تاريخ علماء الاندلس ج ٢ ص ١٤ ترجمة ١٣٣) .

(٥٩) نشأة تدوين التاريخ العربي ص ٧ .

كما وضع الشقندى - نسبة إلى شقندة وهى ريش من ارباض
قرطبة - رسالة أخرى تعصب فيها للأنطلسيين على طول الخط فقال :
إن الإجهاج حصل على فضل الأنطلس ، وقد نشأ فيهم من الفضلاء
والأدباء والشعراء ما اشتهر فى الأماق إلى أن ذهبوا وذهبت آثارهم ،
ودرسوا ودرست آثارهم (٦٠) ، ثم امتد هذا التعصب ليشمل المدن
والأنتليم الأنطلسية حيث تعصب أهل كل مدينة لها ، وألقوا فى فضائلها .
ويعتبر عبد المنك بن حبيب المسلمى (ت ٢٣٨ هـ) - الذى لقبه
بعمام الأنطلس - أول مؤرخ أنطلسى يتعرض لتاريخ بلاده ، وهو من أوضح
الأمثلة على تآثر الأنطلس بالتأثيرات المشرقية فى تدوين التاريخ . فقد
رحل إلى المشرق ، ودرس الحديث والفقه على مذهب الإمام مالك ، واكتسبه
ذلك توسعا وفيها فى دراسة التاريخ وقد وصفه ابن الفريسي بأنه (كان
نصوبيا عروضا شاعرا ، حافظا للأخبار والأنساب والأشعار ، طويل
اللسان ، متصرفا فى فنون العلم) . وذكر أن له مؤلفات فى الفقه
والتواريخ والأدب كثيرة ^١ ^٢ ^٣ ^٤ ^٥ ^٦ ^٧ ^٨ ^٩ ^{١٠} ^{١١} ^{١٢} ^{١٣} ^{١٤} ^{١٥} ^{١٦} ^{١٧} ^{١٨} ^{١٩} ^{٢٠} ^{٢١} ^{٢٢} ^{٢٣} ^{٢٤} ^{٢٥} ^{٢٦} ^{٢٧} ^{٢٨} ^{٢٩} ^{٣٠} ^{٣١} ^{٣٢} ^{٣٣} ^{٣٤} ^{٣٥} ^{٣٦} ^{٣٧} ^{٣٨} ^{٣٩} ^{٤٠} ^{٤١} ^{٤٢} ^{٤٣} ^{٤٤} ^{٤٥} ^{٤٦} ^{٤٧} ^{٤٨} ^{٤٩} ^{٥٠} ^{٥١} ^{٥٢} ^{٥٣} ^{٥٤} ^{٥٥} ^{٥٦} ^{٥٧} ^{٥٨} ^{٥٩} ^{٦٠} ^{٦١} ^{٦٢} ^{٦٣} ^{٦٤} ^{٦٥} ^{٦٦} ^{٦٧} ^{٦٨} ^{٦٩} ^{٧٠} ^{٧١} ^{٧٢} ^{٧٣} ^{٧٤} ^{٧٥} ^{٧٦} ^{٧٧} ^{٧٨} ^{٧٩} ^{٨٠} ^{٨١} ^{٨٢} ^{٨٣} ^{٨٤} ^{٨٥} ^{٨٦} ^{٨٧} ^{٨٨} ^{٨٩} ^{٩٠} ^{٩١} ^{٩٢} ^{٩٣} ^{٩٤} ^{٩٥} ^{٩٦} ^{٩٧} ^{٩٨} ^{٩٩} ^{١٠٠} ^{١٠١} ^{١٠٢} ^{١٠٣} ^{١٠٤} ^{١٠٥} ^{١٠٦} ^{١٠٧} ^{١٠٨} ^{١٠٩} ^{١١٠} ^{١١١} ^{١١٢} ^{١١٣} ^{١١٤} ^{١١٥} ^{١١٦} ^{١١٧} ^{١١٨} ^{١١٩} ^{١٢٠} ^{١٢١} ^{١٢٢} ^{١٢٣} ^{١٢٤} ^{١٢٥} ^{١٢٦} ^{١٢٧} ^{١٢٨} ^{١٢٩} ^{١٣٠} ^{١٣١} ^{١٣٢} ^{١٣٣} ^{١٣٤} ^{١٣٥} ^{١٣٦} ^{١٣٧} ^{١٣٨} ^{١٣٩} ^{١٤٠} ^{١٤١} ^{١٤٢} ^{١٤٣} ^{١٤٤} ^{١٤٥} ^{١٤٦} ^{١٤٧} ^{١٤٨} ^{١٤٩} ^{١٥٠} ^{١٥١} ^{١٥٢} ^{١٥٣} ^{١٥٤} ^{١٥٥} ^{١٥٦} ^{١٥٧} ^{١٥٨} ^{١٥٩} ^{١٦٠} ^{١٦١} ^{١٦٢} ^{١٦٣} ^{١٦٤} ^{١٦٥} ^{١٦٦} ^{١٦٧} ^{١٦٨} ^{١٦٩} ^{١٧٠} ^{١٧١} ^{١٧٢} ^{١٧٣} ^{١٧٤} ^{١٧٥} ^{١٧٦} ^{١٧٧} ^{١٧٨} ^{١٧٩} ^{١٨٠} ^{١٨١} ^{١٨٢} ^{١٨٣} ^{١٨٤} ^{١٨٥} ^{١٨٦} ^{١٨٧} ^{١٨٨} ^{١٨٩} ^{١٩٠} ^{١٩١} ^{١٩٢} ^{١٩٣} ^{١٩٤} ^{١٩٥} ^{١٩٦} ^{١٩٧} ^{١٩٨} ^{١٩٩} ^{٢٠٠} ^{٢٠١} ^{٢٠٢} ^{٢٠٣} ^{٢٠٤} ^{٢٠٥} ^{٢٠٦} ^{٢٠٧} ^{٢٠٨} ^{٢٠٩} ^{٢١٠} ^{٢١١} ^{٢١٢} ^{٢١٣} ^{٢١٤} ^{٢١٥} ^{٢١٦} ^{٢١٧} ^{٢١٨} ^{٢١٩} ^{٢٢٠} ^{٢٢١} ^{٢٢٢} ^{٢٢٣} ^{٢٢٤} ^{٢٢٥} ^{٢٢٦} ^{٢٢٧} ^{٢٢٨} ^{٢٢٩} ^{٢٣٠} ^{٢٣١} ^{٢٣٢} ^{٢٣٣} ^{٢٣٤} ^{٢٣٥} ^{٢٣٦} ^{٢٣٧} ^{٢٣٨} ^{٢٣٩} ^{٢٤٠} ^{٢٤١} ^{٢٤٢} ^{٢٤٣} ^{٢٤٤} ^{٢٤٥} ^{٢٤٦} ^{٢٤٧} ^{٢٤٨} ^{٢٤٩} ^{٢٥٠} ^{٢٥١} ^{٢٥٢} ^{٢٥٣} ^{٢٥٤} ^{٢٥٥} ^{٢٥٦} ^{٢٥٧} ^{٢٥٨} ^{٢٥٩} ^{٢٦٠} ^{٢٦١} ^{٢٦٢} ^{٢٦٣} ^{٢٦٤} ^{٢٦٥} ^{٢٦٦} ^{٢٦٧} ^{٢٦٨} ^{٢٦٩} ^{٢٧٠} ^{٢٧١} ^{٢٧٢} ^{٢٧٣} ^{٢٧٤} ^{٢٧٥} ^{٢٧٦} ^{٢٧٧} ^{٢٧٨} ^{٢٧٩} ^{٢٨٠} ^{٢٨١} ^{٢٨٢} ^{٢٨٣} ^{٢٨٤} ^{٢٨٥} ^{٢٨٦} ^{٢٨٧} ^{٢٨٨} ^{٢٨٩} ^{٢٩٠} ^{٢٩١} ^{٢٩٢} ^{٢٩٣} ^{٢٩٤} ^{٢٩٥} ^{٢٩٦} ^{٢٩٧} ^{٢٩٨} ^{٢٩٩} ^{٣٠٠} ^{٣٠١} ^{٣٠٢} ^{٣٠٣} ^{٣٠٤} ^{٣٠٥} ^{٣٠٦} ^{٣٠٧} ^{٣٠٨} ^{٣٠٩} ^{٣١٠} ^{٣١١} ^{٣١٢} ^{٣١٣} ^{٣١٤} ^{٣١٥} ^{٣١٦} ^{٣١٧} ^{٣١٨} ^{٣١٩} ^{٣٢٠} ^{٣٢١} ^{٣٢٢} ^{٣٢٣} ^{٣٢٤} ^{٣٢٥} ^{٣٢٦} ^{٣٢٧} ^{٣٢٨} ^{٣٢٩} ^{٣٣٠} ^{٣٣١} ^{٣٣٢} ^{٣٣٣} ^{٣٣٤} ^{٣٣٥} ^{٣٣٦} ^{٣٣٧} ^{٣٣٨} ^{٣٣٩} ^{٣٤٠} ^{٣٤١} ^{٣٤٢} ^{٣٤٣} ^{٣٤٤} ^{٣٤٥} ^{٣٤٦} ^{٣٤٧} ^{٣٤٨} ^{٣٤٩} ^{٣٥٠} ^{٣٥١} ^{٣٥٢} ^{٣٥٣} ^{٣٥٤} ^{٣٥٥} ^{٣٥٦} ^{٣٥٧} ^{٣٥٨} ^{٣٥٩} ^{٣٦٠} ^{٣٦١} ^{٣٦٢} ^{٣٦٣} ^{٣٦٤} ^{٣٦٥} ^{٣٦٦} ^{٣٦٧} ^{٣٦٨} ^{٣٦٩} ^{٣٧٠} ^{٣٧١} ^{٣٧٢} ^{٣٧٣} ^{٣٧٤} ^{٣٧٥} ^{٣٧٦} ^{٣٧٧} ^{٣٧٨} ^{٣٧٩} ^{٣٨٠} ^{٣٨١} ^{٣٨٢} ^{٣٨٣} ^{٣٨٤} ^{٣٨٥} ^{٣٨٦} ^{٣٨٧} ^{٣٨٨} ^{٣٨٩} ^{٣٩٠} ^{٣٩١} ^{٣٩٢} ^{٣٩٣} ^{٣٩٤} ^{٣٩٥} ^{٣٩٦} ^{٣٩٧} ^{٣٩٨} ^{٣٩٩} ^{٤٠٠} ^{٤٠١} ^{٤٠٢} ^{٤٠٣} ^{٤٠٤} ^{٤٠٥} ^{٤٠٦} ^{٤٠٧} ^{٤٠٨} ^{٤٠٩} ^{٤١٠} ^{٤١١} ^{٤١٢} ^{٤١٣} ^{٤١٤} ^{٤١٥} ^{٤١٦} ^{٤١٧} ^{٤١٨} ^{٤١٩} ^{٤٢٠} ^{٤٢١} ^{٤٢٢} ^{٤٢٣} ^{٤٢٤} ^{٤٢٥} ^{٤٢٦} ^{٤٢٧} ^{٤٢٨} ^{٤٢٩} ^{٤٣٠} ^{٤٣١} ^{٤٣٢} ^{٤٣٣} ^{٤٣٤} ^{٤٣٥} ^{٤٣٦} ^{٤٣٧} ^{٤٣٨} ^{٤٣٩} ^{٤٤٠} ^{٤٤١} ^{٤٤٢} ^{٤٤٣} ^{٤٤٤} ^{٤٤٥} ^{٤٤٦} ^{٤٤٧} ^{٤٤٨} ^{٤٤٩} ^{٤٥٠} ^{٤٥١} ^{٤٥٢} ^{٤٥٣} ^{٤٥٤} ^{٤٥٥} ^{٤٥٦} ^{٤٥٧} ^{٤٥٨} ^{٤٥٩} ^{٤٦٠} ^{٤٦١} ^{٤٦٢} ^{٤٦٣} ^{٤٦٤} ^{٤٦٥} ^{٤٦٦} ^{٤٦٧} ^{٤٦٨} ^{٤٦٩} ^{٤٧٠} ^{٤٧١} ^{٤٧٢} ^{٤٧٣} ^{٤٧٤} ^{٤٧٥} ^{٤٧٦} ^{٤٧٧} ^{٤٧٨} ^{٤٧٩} ^{٤٨٠} ^{٤٨١} ^{٤٨٢} ^{٤٨٣} ^{٤٨٤} ^{٤٨٥} ^{٤٨٦} ^{٤٨٧} ^{٤٨٨} ^{٤٨٩} ^{٤٩٠} ^{٤٩١} ^{٤٩٢} ^{٤٩٣} ^{٤٩٤} ^{٤٩٥} ^{٤٩٦} ^{٤٩٧} ^{٤٩٨} ^{٤٩٩} ^{٥٠٠} ^{٥٠١} ^{٥٠٢} ^{٥٠٣} ^{٥٠٤} ^{٥٠٥} ^{٥٠٦} ^{٥٠٧} ^{٥٠٨} ^{٥٠٩} ^{٥١٠} ^{٥١١} ^{٥١٢} ^{٥١٣} ^{٥١٤} ^{٥١٥} ^{٥١٦} ^{٥١٧} ^{٥١٨} ^{٥١٩} ^{٥٢٠} ^{٥٢١} ^{٥٢٢} ^{٥٢٣} ^{٥٢٤} ^{٥٢٥} ^{٥٢٦} ^{٥٢٧} ^{٥٢٨} ^{٥٢٩} ^{٥٣٠} ^{٥٣١} ^{٥٣٢} ^{٥٣٣} ^{٥٣٤} ^{٥٣٥} ^{٥٣٦} ^{٥٣٧} ^{٥٣٨} ^{٥٣٩} ^{٥٤٠} ^{٥٤١} ^{٥٤٢} ^{٥٤٣} ^{٥٤٤} ^{٥٤٥} ^{٥٤٦} ^{٥٤٧} ^{٥٤٨} ^{٥٤٩} ^{٥٥٠} ^{٥٥١} ^{٥٥٢} ^{٥٥٣} ^{٥٥٤} ^{٥٥٥} ^{٥٥٦} ^{٥٥٧} ^{٥٥٨} ^{٥٥٩} ^{٥٦٠} ^{٥٦١} ^{٥٦٢} ^{٥٦٣} ^{٥٦٤} ^{٥٦٥} ^{٥٦٦} ^{٥٦٧} ^{٥٦٨} ^{٥٦٩} ^{٥٧٠} ^{٥٧١} ^{٥٧٢} ^{٥٧٣} ^{٥٧٤} ^{٥٧٥} ^{٥٧٦} ^{٥٧٧} ^{٥٧٨} ^{٥٧٩} ^{٥٨٠} ^{٥٨١} ^{٥٨٢} ^{٥٨٣} ^{٥٨٤} ^{٥٨٥} ^{٥٨٦} ^{٥٨٧} ^{٥٨٨} ^{٥٨٩} ^{٥٩٠} ^{٥٩١} ^{٥٩٢} ^{٥٩٣} ^{٥٩٤} ^{٥٩٥} ^{٥٩٦} ^{٥٩٧} ^{٥٩٨} ^{٥٩٩} ^{٦٠٠} ^{٦٠١} ^{٦٠٢} ^{٦٠٣} ^{٦٠٤} ^{٦٠٥} ^{٦٠٦} ^{٦٠٧} ^{٦٠٨} ^{٦٠٩} ^{٦١٠} ^{٦١١} ^{٦١٢} ^{٦١٣} ^{٦١٤} ^{٦١٥} ^{٦١٦} ^{٦١٧} ^{٦١٨} ^{٦١٩} ^{٦٢٠} ^{٦٢١} ^{٦٢٢} ^{٦٢٣} ^{٦٢٤} ^{٦٢٥} ^{٦٢٦} ^{٦٢٧} ^{٦٢٨} ^{٦٢٩} ^{٦٣٠} ^{٦٣١} ^{٦٣٢} ^{٦٣٣} ^{٦٣٤} ^{٦٣٥} ^{٦٣٦} ^{٦٣٧} ^{٦٣٨} ^{٦٣٩} ^{٦٤٠} ^{٦٤١} ^{٦٤٢} ^{٦٤٣} ^{٦٤٤} ^{٦٤٥} ^{٦٤٦} ^{٦٤٧} ^{٦٤٨} ^{٦٤٩} ^{٦٥٠} ^{٦٥١} ^{٦٥٢} ^{٦٥٣} ^{٦٥٤} ^{٦٥٥} ^{٦٥٦} ^{٦٥٧} ^{٦٥٨} ^{٦٥٩} ^{٦٦٠} ^{٦٦١} ^{٦٦٢} ^{٦٦٣} ^{٦٦٤} ^{٦٦٥} ^{٦٦٦} ^{٦٦٧} ^{٦٦٨} ^{٦٦٩} ^{٦٧٠} ^{٦٧١} ^{٦٧٢} ^{٦٧٣} ^{٦٧٤} ^{٦٧٥} ^{٦٧٦} ^{٦٧٧} ^{٦٧٨} ^{٦٧٩} ^{٦٨٠} ^{٦٨١} ^{٦٨٢} ^{٦٨٣} ^{٦٨٤} ^{٦٨٥} ^{٦٨٦} ^{٦٨٧} ^{٦٨٨} ^{٦٨٩} ^{٦٩٠} ^{٦٩١} ^{٦٩٢} ^{٦٩٣} ^{٦٩٤} ^{٦٩٥} ^{٦٩٦} ^{٦٩٧} ^{٦٩٨} ^{٦٩٩} ^{٧٠٠} ^{٧٠١} ^{٧٠٢} ^{٧٠٣} ^{٧٠٤} ^{٧٠٥} ^{٧٠٦} ^{٧٠٧} ^{٧٠٨} ^{٧٠٩} ^{٧١٠} ^{٧١١} ^{٧١٢} ^{٧١٣} ^{٧١٤} ^{٧١٥} ^{٧١٦} ^{٧١٧} ^{٧١٨} ^{٧١٩} ^{٧٢٠} ^{٧٢١} ^{٧٢٢} ^{٧٢٣} ^{٧٢٤} ^{٧٢٥} ^{٧٢٦} ^{٧٢٧} ^{٧٢٨} ^{٧٢٩} ^{٧٣٠} ^{٧٣١} ^{٧٣٢} ^{٧٣٣} ^{٧٣٤} ^{٧٣٥} ^{٧٣٦} ^{٧٣٧} ^{٧٣٨} ^{٧٣٩} ^{٧٤٠} ^{٧٤١} ^{٧٤٢} ^{٧٤٣} ^{٧٤٤} ^{٧٤٥} ^{٧٤٦} ^{٧٤٧} ^{٧٤٨} ^{٧٤٩} ^{٧٥٠} ^{٧٥١} ^{٧٥٢} ^{٧٥٣} ^{٧٥٤} ^{٧٥٥} ^{٧٥٦} ^{٧٥٧} ^{٧٥٨} ^{٧٥٩} ^{٧٦٠} ^{٧٦١} ^{٧٦٢} ^{٧٦٣} ^{٧٦٤} ^{٧٦٥} ^{٧٦٦} ^{٧٦٧} ^{٧٦٨} ^{٧٦٩} ^{٧٧٠} ^{٧٧١} ^{٧٧٢} ^{٧٧٣} ^{٧٧٤} ^{٧٧٥} ^{٧٧٦} ^{٧٧٧} ^{٧٧٨} ^{٧٧٩} ^{٧٨٠} ^{٧٨١} ^{٧٨٢} ^{٧٨٣} ^{٧٨٤} ^{٧٨٥} ^{٧٨٦} ^{٧٨٧} ^{٧٨٨} ^{٧٨٩} ^{٧٩٠} ^{٧٩١} ^{٧٩٢} ^{٧٩٣} ^{٧٩٤} ^{٧٩٥} ^{٧٩٦} ^{٧٩٧} ^{٧٩٨} ^{٧٩٩} ^{٨٠٠} ^{٨٠١} ^{٨٠٢} ^{٨٠٣} ^{٨٠٤} ^{٨٠٥} ^{٨٠٦} ^{٨٠٧} ^{٨٠٨} ^{٨٠٩} ^{٨١٠} ^{٨١١} ^{٨١٢} ^{٨١٣} ^{٨١٤} ^{٨١٥} ^{٨١٦} ^{٨١٧} ^{٨١٨} ^{٨١٩} ^{٨٢٠} ^{٨٢١} ^{٨٢٢} ^{٨٢٣} ^{٨٢٤} ^{٨٢٥} ^{٨٢٦} ^{٨٢٧} ^{٨٢٨} ^{٨٢٩} ^{٨٣٠} ^{٨٣١} ^{٨٣٢} ^{٨٣٣} ^{٨٣٤} ^{٨٣٥} ^{٨٣٦} ^{٨٣٧} ^{٨٣٨} ^{٨٣٩} ^{٨٤٠} ^{٨٤١} ^{٨٤٢} ^{٨٤٣} ^{٨٤٤} ^{٨٤٥} ^{٨٤٦} ^{٨٤٧} ^{٨٤٨} ^{٨٤٩} ^{٨٥٠} ^{٨٥١} ^{٨٥٢} ^{٨٥٣} ^{٨٥٤} ^{٨٥٥} ^{٨٥٦} ^{٨٥٧} ^{٨٥٨} ^{٨٥٩} ^{٨٦٠} ^{٨٦١} ^{٨٦٢} ^{٨٦٣} ^{٨٦٤} ^{٨٦٥} ^{٨٦٦} ^{٨٦٧} ^{٨٦٨} ^{٨٦٩} ^{٨٧٠} ^{٨٧١} ^{٨٧٢} ^{٨٧٣} ^{٨٧٤} ^{٨٧٥} ^{٨٧٦} ^{٨٧٧} ^{٨٧٨} ^{٨٧٩} ^{٨٨٠} ^{٨٨١} ^{٨٨٢} ^{٨٨٣} ^{٨٨٤} ^{٨٨٥} ^{٨٨٦} ^{٨٨٧} ^{٨٨٨} ^{٨٨٩} ^{٨٩٠} ^{٨٩١} ^{٨٩٢} ^{٨٩٣} ^{٨٩٤} ^{٨٩٥} ^{٨٩٦} ^{٨٩٧} ^{٨٩٨} ^{٨٩٩} ^{٩٠٠} ^{٩٠١} ^{٩٠٢} ^{٩٠٣} ^{٩٠٤} ^{٩٠٥} ^{٩٠٦} ^{٩٠٧} ^{٩٠٨} ^{٩٠٩} ^{٩١٠} ^{٩١١} ^{٩١٢} ^{٩١٣} ^{٩١٤} ^{٩١٥} ^{٩١٦} ^{٩١٧} ^{٩١٨} ^{٩١٩} ^{٩٢٠} ^{٩٢١} ^{٩٢٢} ^{٩٢٣} ^{٩٢٤} ^{٩٢٥} ^{٩٢٦} ^{٩٢٧} ^{٩٢٨} ^{٩٢٩} ^{٩٣٠} ^{٩٣١} ^{٩٣٢} ^{٩٣٣} ^{٩٣٤} ^{٩٣٥} ^{٩٣٦} ^{٩٣٧} ^{٩٣٨} ^{٩٣٩} ^{٩٤٠} ^{٩٤١} ^{٩٤٢} ^{٩٤٣} ^{٩٤٤} ^{٩٤٥} ^{٩٤٦} ^{٩٤٧} ^{٩٤٨} ^{٩٤٩} ^{٩٥٠} ^{٩٥١} ^{٩٥٢} ^{٩٥٣} ^{٩٥٤} ^{٩٥٥} ^{٩٥٦} ^{٩٥٧} ^{٩٥٨} ^{٩٥٩} ^{٩٦٠} ^{٩٦١} ^{٩٦٢} ^{٩٦٣} ^{٩٦٤} ^{٩٦٥} ^{٩٦٦} ^{٩٦٧} ^{٩٦٨} ^{٩٦٩} ^{٩٧٠} ^{٩٧١} ^{٩٧٢} ^{٩٧٣} ^{٩٧٤} ^{٩٧٥} ^{٩٧٦} ^{٩٧٧} ^{٩٧٨} ^{٩٧٩} ^{٩٨٠} ^{٩٨١} ^{٩٨٢} ^{٩٨٣} ^{٩٨٤} ^{٩٨٥} ^{٩٨٦} ^{٩٨٧} ^{٩٨٨} ^{٩٨٩} ^{٩٩٠} ^{٩٩١} ^{٩٩٢} ^{٩٩٣} ^{٩٩٤} ^{٩٩٥} ^{٩٩٦} ^{٩٩٧} ^{٩٩٨} ^{٩٩٩} ^{١٠٠٠} ^{١٠٠١} ^{١٠٠٢} ^{١٠٠٣} ^{١٠٠٤} ^{١٠٠٥} ^{١٠٠٦} ^{١٠٠٧} ^{١٠٠٨} ^{١٠٠٩} ^{١٠١٠} ^{١٠١١} ^{١٠١٢} ^{١٠١٣} ^{١٠١٤} <

عليها في الأندلس ، وكنوز قصر طليطلة التي عثر عليها المسلمون وغير ذلك .

ويبدو أن بعض تلاميذه قد أضاف إلى هذا الكتاب حيث نجد فيه فيه أخبارا عن عمر الأمير عبد الله بن محمد إلى سنة ٢٧٤هـ ، رغم أن ابن حبيب توفي قبل إمارته سنة ٢٣٨هـ (٦٢) .

وقد أخذ ابن حبيب معظم الأخبار والروايات عن شيوخه من المصريين مثل الليث بن سعيد ، وعبد الله بن وهب كما ذكر ذلك بنفسه ، ولذلك نجده يتبع منهج المحدثين من حيث سند الخبر أو الرواية ، وإن كان هذا لم يمنع من تسلل الكثير من الحكايات الخيالية والاساطير إلى كتابه . ومع ذلك فإن كتاب ابن حبيب هذا يعد أول محاولة أندلسية

(٦٢) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا في مكتبة البوديلانا في أكسفورد تحت رقم ١٢٧ . ويذكر بعض من اطلع عليه أنه ليس بذى قيمة علمية كبيرة ، نظرا لكثرة الاساطير فيه . وإن كان هذا لا يقتل من قدر ابن حبيب الذي كان أول رائدا في هذا المجال ، والريادة غالبا لا تنسم بالدقة الشديدة ، وتحتاج إلى التصحيح والإضافة . (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ٨ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٤٩ ، ٢٣٥ ، د. أحمد هيك : الأدب الأندلسي ص ١٢٦ .

وقد قام د. محمود مكي بدراسة وافية لهذا الكتاب ، ونشر الجزء الخاص بالأندلس منه بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧م ، وذكر أن هذه النسخة هي مختصر لكتاب ابن حبيب الأصلي ، وأن الذي قام بوضعها بعض تلاميذه وخاصة ابن أبي الرقاع (انظر نشأة تدوين التاريخ العربي ص ١٠) .

كتابتها تاريخ الاندلس : يؤرخ ما قبله من اساطير ، وما بعده من قصور
بولقمس في بعض النواحي (٦٤) .

ويعتبر (معارك بن مروان) وهو حفيد موسى بن نصير (القرن
الثالث الهجري) من المؤرخين الاندلسيين الأوائل الذين حاولوا التدوين
في تاريخ الاندلس . حيث يشير الحميدى إلى أنه ألف كتابا في فتح
الاندلس تناول فيه أخبار جده موسى (٦٤) .

ويرى د. محمود مكى أن القسم الذى يدور حول حياة موسى
ابن نصير في كتاب (الإملة والسياسة) المنسوب لابن تقيية مأخوذ عن
كتاب معارك ، وهذا الكتاب فيه أيضا الكثير من الاساطير والروايات
الخيالية (٦٥) .

ثم جاء بعد ذلك (عبد الله بن الحكيم ت ٣٤١ هـ) والذي
يعتبر بداية لمرحلة جديدة في التدوين التاريخي تخلت عن الاساطير ،
وركزت على موضوعات اندلسية . فقد ألف كتابا في الانساب بعنوان
(انساب الداخلين إلى الاندلس من العرب وغيرهم) اهداه للخليفة
الناصر سنة ٣٣٠ هـ . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا منه إلا شذرات
نقلها بعض المؤرخين اللاحقين .

وظهر في القرن الرابع الهجري مؤرخون اهتموا بالتراجم والطبقات ،

(٦٣) د. عبد الواحد نفون : نشأة تدوين التاريخ العربي في الاندلس
ص ٩ - ١٠ .

(٦٤) جنوة المقتبس ترجمة (موسى بن نصير) رقم ٧٩٣ ص ٢٢٨ .
(٦٥) قام د. محمود مكى بدراسة هذا الكتاب ونشر الجزء المتعلق
بالاندلس في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد العدد
الخامس سنة ١٩٥٧م (نشأة تدوين التاريخ العربي ص ١١) .

ويعد محمد بن حارث الخشبي (ت ٣٦١ هـ) من أبرزهم في هذا المجال ، وقد كانت له اهتمامات متعددة كالحديث والفقه واللغة والتاريخ . وقد صنف بتشجيع من الخليفة الحكم المستنجد من الكتب في هذا المجال مثل كتاب (أخبار القضاة بالأندلس) وكتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) (٦٦) .

وكذلك ابن الفرضي أبو الوليد بن عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت ٤٠٣ هـ) صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) الذي يعتبر من أشهر كتب التراجم الأندلسية .

ثم جاءت أسرة برز منها الكثير من المؤرخين الذين حاولوا وضع أسس لعلم التاريخ في الأندلس وهي أسرة الرازي ، ومن أبرز أفرادها أحمد بن محمد بن موسى الرازي (ت ٣٤٤ هـ) الذي كان مؤرخاً وجغرافياً ، ولقب (بلقاربخي) لكثرة مؤلفاته في مجال التاريخ ، وله كتاب (أخبار ملوك الأندلس) وكتاب (الاستيعاب في أنساب مشاهير الأندلس) ويقع في خمس مجلدات كبيرة . وكتاب آخر في مسالك الأندلس ومراسيها

(٦٦) نشأة ^{تدوين} التاريخ العربي في الأندلس من ١٣ - ١٤ . وقد نشر الكتاب الأول في مدريد لأول مرة سنة ١٩١٤م بواسطة المستشرق الأسباني خوليان ريبيرا مع ترجمة إسبانية ، كما نشر في مصر بمصرية عزت المطاط سنة ١٩٥٤م ، ثم نشر بعنوان (قضاة قرطبة) في القاهرة سنة ١٩٦٦م وهي الطبعة التي اعتمد عليها الباحث . أما الكتاب الثاني فيوجد في مكتبة القصر الملكي بالرباط كتاب بعنوان (طبقات المحدثين بالأندلس) تحت رقم (٦٩١٦) يعتقد بأنه هو هذا الكتاب (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربي من ١٣ - ١٤) .

ولمهمات أمين مدنها واخبارها ، وكتاب من كبار المؤرخين
الاندلسيين (٦٧) .

ثم جاء بعده ابنه عيسى فأكمل ما بداه ، وقد ألف كتابا في تاريخ
الاندلس للخطبة المنتصر ، كما ألف كتابين آخرين للمصور بن ابي عابر
احدهما من الوزارة والوزراء بالاندلس . والثاني من الحطب بالاندلس ،
كما اخذ في اكمال كتاب ابيه من اخبار ملوك الاندلس (٦٨) .

وقد تركت أسرة الرازي اثرا كبيرا في مجال التدوين التاريخي .
فقد كان احمد بن محمد اول من أدخل قاعدة التقديم للتاريخ بالجغرافيا
في الاندلس ، واخذها عنه معظم من جاء بعده من المؤرخين .

ثم جاء ابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ) الذي برع في علوم اللغة ، كما
برع في التاريخ ايضا « وكان حافظا لاخبار الاندلس يعلمها من ظهر
قلب » كما ذكر ابن الفرضي (٦٩) .

ويعتبر كتابه الذي وصلنا وهو (تاريخ افتتاح الاندلس) اهم ما بقى
من مؤلفاته . ويتناول تاريخ الاندلس من الفتح إلى نهاية إمارة عبد الله
ابن محمد (٢٩٩ هـ) .

ويبدو أنه إلهام على بعض تلاميذه ، وقد أورد في هذا الكتاب
اخبار كثيرة عن القوط الذين ينتسب إليهم ، يظهر من خلالها ميله إلى
أصله القوطي حيث يخالف فيها الكثير من المؤرخين ، كما أنه يأتي بحوادث

(٦٧) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ج ١ ص ٤٢ ترجمة ١٣٧ ،
الميدى : جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ص ١٠٤ ، د. أحمد هيك :
الادب الاندلسي ص ١٩٢ .

(٦٨) نشأة تدوين التاريخ العربي ص ٣٧ .

(٦٩) تاريخ علماء الاندلس ج ٢ ص ٧٦ ترجمة (١٣١٨) .

آسيائية لم يكن يعرفها العرب وتتضمن قصصا شعبية اسبانية مثل قصة القومس اربطاس الذى اعجب به عبد الرحمن ايها إعجاب وعينه قومسا لاهل ملته (٧٠) .

ورغم ذلك فإن هذا الكتاب يعتبر من المحاولات الرائدة فى مجال التدوين التاريخى فى الاندلس نظرا لما تميز به من ذكر لخصائص تتعلق بطبيعة وتكوين المجتمع الاندلسى ، وانتساب المؤلف لهذا المجتمع ، ومحاولته رسم صورة للأحداث التى مرت عليه منذ الفتح وحتى نهاية القرن الثالث الهجرى (٧١) .

ويعتبر عريب بن سعد القرطبى (٢٦٩ — ٣٧٠ هـ) من مشاهير المؤرخين فى الاندلس ايضا ، وهو من اصل اسباني أسلم أباه ، وكان والده يعمل كاتبا لدى الخليفة الحكم المستنصر ، ثم عمل هو ايضا لديه ، وقد اختصر عريب تاريخ الطبرى وزاد عليه أخبار المغرب والاندلس ويسمى (صلة تاريخ الطبرى) (٧٢) . وقد حاول نبيه تصحيح بعض المفاهيم التى كانت شائعة عن أحداث الفتح مثل قصة مائدة سليمان فتراه يقول عنها : « وأصل طارق مائدة منظومة بالدر والياقوت والزبرجد ، وهى التى يزعم الناس انها مائدة سليمان بن داود عليها السلام ، ولم تكن كذلك . غير أن أهل الحسبة من المعجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة أوصوا للكنائس ببال تصنع منه كراسى توضع عليها مصاحف الإنجيل فى الامماد فكانت تلك المائدة مما يتفوق فيه

(٧٠) أحمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٧ .

(٧١) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٦ — ١٨ .

(٧٢) أحمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

المسلوك « (٧٣) .

وهذا التفسير الفريد يدل على معرفة عريب بعادات الامسيان قبل الفتح ، ولذلك فقد علق المؤرخ المغربي ابن الشباط (٦٨١هـ) على ذلك قائلا « واعلم ان هذا القول من عريب غريب ، لم يذكره فيما علمت غيره ، وإيها ذكروا كلهم انها مأثدة سليمان بن داود » (٧٤) .

ومن المؤرخين الأندلسيين أيضا ابن أبي الفياض (٤٥٩هـ) ، وله كتاب يسمى العبر لم يبق منه إلا قطعة صغيرة وصلفنا ، إلى جانب نصوص منه نقلها بعض المؤرخين المتأخرين في مؤلفاتهم (٧٥) .

ومنهم أيضا : أحمد بن عمر العنزي (٤٧٨هـ) ، وكان له اهتمام بالجغرافيا إلى جانب التاريخ ، وله كتاب (المتفاض ايكار اوائل الاخبار) ، وكتاب (اسلام النبوة) ، وكتاب (ترصيع الاخبار ، وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع المسالك) وهو كتاب جغرافى تاريخى . لم يبق منه إلا قطعة صغيرة معظم أخبارها من الأندلس (٧٦) .

(٧٣) المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٧٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصف لابن الشباط ص ١٤٩ نصاب جديان تحقيق د. أحمد العبادى : مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد سنة ١٩٧١م .

(٧٥) نشر د. عبد الواحد ذنون هذه القطعة المتبقية من كتاب ابن أبي الفياض بعنوان (نص اندلسى جديد من تاريخ ابن أبي الفياض) بمجلة المجمع العلمى العراقى الجزء الاول — المجلد الرابع والثلاثين سنة ١٩٨٣م .

(٧٦) نشر د. عبد العزيز الاهوانى القطعة المتبقية من الكتاب الأخير

وكان العزري من أوائل المؤرخين الاندلسيين الذين ذكروا نص
المعاهدة التي عقدها عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تميم حاكم شرق
الاندلس (٧٧) .

ثم يأتي عمدة مؤرخي الاندلس ابن حيان (٤٦٩ هـ) وكان من كتاب
النصور بن ابي علر ، وقد ضاعت معظم كتبه ولم يتبق منها إلا أجزاء
من كتابيه الكبيرين المقتبس ، والمتين . أما المقتبس فيقع في عشرة أجزاء ،
وتتضمن تاريخ الاندلس منذ الفتح حتى زمن المؤلف (٧٨) .

وأما كتابه المتين فقليل إنه يقع في ستين جزءاً ، ولكنه للأسف

==

في محريد سنة ١٩٦٥ م بعنوان (نصوص عن الاندلس من كتاب
ترصيع الأخبار وتنويع الآثار) .
(٧٧) نشأة تدوين التاريخ العربي في الاندلس ص ٥٥ .
(٧٨) وصلت إلينا قطع متفرقة من كتاب المقتبس نشر بعضها ، منها
قطعة تتضمن بعض أخبار الأمير عبد الله نشرها ملثور انطونيه في
باريس سنة ١٩٣٧م . وقطعة تتضمن بعض أخبار الأمير عبد الرحمن
الأوسط وابنه محمد نشرها د. محمود مكى في القاهرة سنة ١٩٧١م ،
وبيروت سنة ١٩٧٣م . وقطعة تتضمن بعض أخبار الحكم المستنصر
نشرها د. عبد الرحمن الحجى في بيروت سنة ١٩٦٥م ، كما نشر
لينى برونفسال قطعة من الجزء الثاني في مجلة (الاندلس)
الأسبوعية المجلد الخامس عشر ، العدد الأول سنة ١٩٠٥م .
ويوجد الجزء الخامس مخطوطاً في المكتبة الملكية بالرباط
رقم ٨٧ .

لم يصلنا منه شيء إلا فقرات نقلها منه بعض المؤرخين اللاحقين كابن بسام في الأخيرة .

وقد اشتهر ابن حيان بالصراحة البالغة ، والنقد الشديد ، وذكر المحاسن والمساوىء دون تحرج حتى بالنسبة للأمراء والكبراء . فرغم أنه كان من كتاب المنصور إلا أنه لم يتحرج من نقد بعض افراد أسرته ولو من بعيد . ونراه يظهر أسفه على زوال الدولة الأموية .

وقد ذكر عن نفسه أنه أولع بالتاريخ من صغره ، وشغف به حباً ، ناعد له مدته . ويقال إنه كان يؤلف كتبه لنفسه وولده إلا أنه غير رأيه فنشره في الناس . وإن كنا نرى في هذا مبالغة شديدة (٧٩) .

وقد لخص كتاب المقتبس أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدى (٤٨٨هـ) في كتابه المسمى (جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس) وهو الوحيد الذى وصلنا من كتب الحميدى التى وصل عددها إلى تسعة عشر (٨٠) .

ثم تتابع المؤرخون الأندلسيون بعد ذلك كابن بشكوال وابن الأبار وابن بسام وغيرهم . ويلاحظ على التاريخ في الأندلس سواء كان تاريخاً علمياً ، أو تراجم رجال أنه قد تأثر بعلم الحديث ومنهجه في المشرق . ويرجع ذلك إلى أن أكثر المؤرخين في الأندلس محدثين وفتناء أشسبه ما يكونون بالطبرى ، وكان منهمجه متجها يسوده في الغالب منه الإلمام

(٧٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ وبعدها .

(٨٠) طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٣م بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، ثم أعيد طبعه في الدار المصرية للتأليف والنشر سنة ١٩٦٦ (انظر مقدمة هذه الطبعة) .

مالك وما يبنى عليه من حديث وتفسير ، فكان ذلك يمثلهم من ترجمة رجال الفقه والتفسير والحديث إلى ترجمة رجال العلم والأدب ، كما ان التاريخ في الأندلس اتصل بالأدب أكثر من المشرق أيضا . حيث كان أكثر المؤرخين أقباء كذلك ، وكانت عواطفهم نحو بلدهم أقوى وخاصة بعد تساقط البلاد الأندلسية في يد الأسبان واحدة بعد الأخرى ، فكما سقطت بلدة رثاها الأدباء ، وتحدث عنها المؤرخون . ولذلك كانت هذه الناحية في الأندلس أشد وأقوى (٨١) .

الجغرافية : أما عن الجغرافية فإنها لم تفرق عن التاريخ في الأندلس بوجه خاص ، حيث لا نكاد نجد مؤرخا أندلسيا إلا وكان جغرافيا في نفس الوقت ، أو بدأ تاريخه بمقدمة جغرافية وكما اشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بعلم التاريخ وخاصة تاريخ بلادهم إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول ابن سعيد المغربي (٨٢) ، فقد اشتهروا أيضا برلمهم الشديد بالرحالة والفتنل والأسفار ، وكان الواحد منهم بمعب بانه لم يرتحل إلى المشرق لطلب العلم . ولهذا ظهر من بينهم نخبة من الرحالة الذين زاروا بلادا كثيرة ، وسجلوا مشاهداتهم في وصفها من نواحي شتى ، لمحتل مؤلفاتهم ببادء جغرافية كبيرة .

وبطبيعة الحال فقد احصل وصف وطنهم الأندلس مكننا بارزا في مؤلفاتهم ، فتحثوا بالتفصيل عن خططها ومساكنها ومدنها وكورها ، وانهارها وجبلها ، وتقسيماتها الإدارية وغير ذلك . كما اهتموا بضبط

(٨١) انظر : أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٨٢) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس

ص ٦٥ - ٦٦ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٣ .

الاسماء الاعجمية ، ومحاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الاغريقية ، وابتكروا طريقة لطيفة في هذا المجال لإظهار محاسن كل مدينة عن طريق إقامة منازعات على السنة المدن الاندلسية المخططة تنخر كل منها بنفسها ، وتظهر اوصافها ومزاجها التي لا توجد في غيرها (٨٣) .

وقد جمع الكثير من المؤرخين الاندلسيين معلومات جغرافية في كتبهم ، وخاصة من الاندلس ومنهم ابن حيان ، كما ألف بعضهم كتباً في الجغرافيا أيضاً إلى جانب التاريخ ، مثل أحمد بن موسى الرازي (٣٤٤ هـ) الذي ألف كتاباً في مسالك الاندلس ومراسبها ، وأمهاك منها ، ويدور معظمه حول صفة الاندلس ، ويعتبر مقدمة جغرافية لكتابه الكبير في التاريخ عن أخبار ملوك الاندلس (٨٤) .

ومحمد بن يوسف اللقب بالتاريخي الوراق ، الذي ألف للحكم المستنصر كتاباً ضخماً في مسالك إفريقية وممالكها ، كما ألف في أخبار ملوكها وحروبهم ، وفي أخبار تيهرت ، ووهران وتونس وسجلها ونكرو وغيرها (٨٥) .

وأحمد بن محمد المعزى (٤٧٨ هـ) الذي جمع في كتابه (ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك معلومات جغرافية كثيرة (٨٦) .

(٨٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٨٤) تاريخ علماء الاندلس ترجمة ١٣٧ ، جنوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ، نشأة تدوين التاريخ العربي في الاندلس ص ٣٣ — ٣٦ .

(٨٥) بغية المقتبس ترجمة ٣٠٤ ص ١٤١ ، جنوة المقتبس ترجمة ١٦٠ ص ٩٧ .

(٨٦) نشأة تدوين التاريخ العربي في الاندلس ص ٥٥ — ٥٧ .

(م ٣٠ — المجلد الاندلسي)

ولا شك أن الجغرافيين الأندلسيين قد استفادوا من الكتب القديمة التى وضعت فى تاريخ الأندلس وجغرافيتها مثل كتاب هروسيس ، وكتاب القديس ايزيدورو الباجى والمسمى (اصول الكلمات) ، ونقلوا منها مثل المؤرخين كالرازى والمذرى والبكرى وغيرهم ، وهذا لا يقال مطلقا من قيمة العمل الذى قاموا به ، بل يدل على تسامحهم وأمانتهم العلمية واتساع أفقهم وحرصهم على الاستفادة من تراث الآخرين (٨٧) .

أما أول الجغرافيين الأندلسيين الحقيقيين وأقدمهم فهو البكرى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب (٤٣٢ — ٤٨٧هـ) ، الذى ألف معجما جغرافيا فى أسماء البلاد والأماكن لازال بين أيدينا وهو (معجم ما استعجم) ، وله أيضا كتاب (المسالك والممالك) الذى وصلت إلينا قطع منه ، وضم فيه نفسا من التاريخ إلى جانب الجغرافية ، وتعرض فيه لجغرافية إفريقية ومصر والأندلس والعراق وبلاد وراء النهر .

وفى الأجزاء الباقية من هذا الكتاب تتجلى بوضوح دقة البكرى فى ذكر الأسماء ونطقها وتفسير بعض أصولها مثل قوله عن طليطلة : « واسم طليطلة باللاتينى تولاطو Tolatom ومعناها فرح ساكنها لحصانتها » ، وقد ثبت أن فى مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافى ، وقوله عن

(٨٧) بالنسبة : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣١١ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ .

(٨٨) عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى القسم الأول الكويت سنة ١٩٧٤ ، مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ص ٥٣ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .
دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

إشبيلية » ورأيت لبعض المؤرخين أن مدينة إشبيلية تسمى (إشبالي Hispalis) ومعناه المدينة المنبسطة . وقوله في وصف مدينة ماردة » وقد أحرق بالمدينة سور عرضه اثنا عشر ذراعا ، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا ، وعلى بابها كتابة ترجبها بالأمعية براءة لأهل إلباء « (٨٩) .

وحسب البكري فخرا ما توصل إليه من حقائق جغرافية سبق بها زمانه مثل قوله « وايقانس البحر المحيط (الأقيانوس أو المحيط الاطلنطي) لا يدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا ، والشمس إذا غابت في أقصى الصين طلعت في الجزائر (الخالدات) — وهي التي تعرف اليوم بجزر كهريلس أو الكناريا — وبالأندلس » .

وقد علق د. حسين مؤنس على هذه العبارة بقوله « وهذه — لا زيادة — هي الفكرة التي جعلت من كولبس من هو في تاريخ البشر ، وكأنها أخذ أبو عبيد البكري بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم ، وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون البكري من أبناء ولاية وهي على أميال قليلة من الربطة Tarabida وفيها الدير الذي لجأ كولبس إلى إجاره لييسروا له مقابلة فرديناند وإيزابيلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور في إشبيليته البلد الذي عاش فيه كولومبوس زينا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشيء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبوس إلى العالم الجديد من ميناء (سان لوكار) أقرب بلد إلى ولبة والمصافة

(٨٩) د. أحمد العبادي : تاريخ الاندلس لابن الكرديبوس ووصفه لابن

الشباط ص ١٣٩ مخريد سنة ١٩٧١ م .

بينهما بضعة كيلو مترات » (٩٠) .

وفى هذا التعليق ما يكفى للدلالة على مدى تأثير البيئة المحلية الأندلسية فى خلق شخصيات جغرافية فذة كالبكرى وغيره من الأندلسيين الذين حاولوا قبل كولومبوس كشف غياهب بحر الظلمات أو البحر الأخضر أو الأتيانس (المحيط الأطلسى) الذى تطل عليه الأندلس .

فيحدثنا البكرى : عن خشخاش بن سعيد بن أسود الذى خاطر مع جماعة من الشبان ، فركبوا البحر وغابوا فيه مدة ، ثم عادوا بفنائم كثيرة وأخبار مشهورة . وقد ظهر اسم خشخاش ووالده ضمن قادة الأسطول الأندلسى الذى تصدى لفارات النورمان فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) .

وهذا ينكرنا بمحاولة أخرى قام بها فقيه من أهل اشبونة (لشبونة) فى القرن الرابع الهجرى أطلق عليهم الفتيحة المغرورين أو المغربين أو المغربيين وكثافوا ثمانية ، حيث توغلوا فى المحيط الأطلسى حتى وصلوا إلى جزر أخرى غير (جزر الأزور) القريبة من ساحل المغرب) . وينكر أنهم ساروا فيه أحد عشر يوما ، ثم اتجهوا جنوبا حتى وصلوا فى اليوم الثالث والعشرين إلى جزيرة سموها (بجزيرة الغنم) تتميز بكثرة اغنامها ، وبوجود رجال فيها ثغر الوجوه شعورهم . سبطة (٩١) .

(٩٠) الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس من ٩٧ ، مجلة المختار من

عالم الفكر ص ١١٤ — ١١٥ .

(٩١) البكرى : المغرب فى فكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٦١ — ٨١ ، الحميرى : الروض الماطر ص ١٦ ، ٢٨ ، المختار من عالم الفكر

ص ١١٥ .

ثم جاء بعد ذلك الشريف الإدريسي أشهر الجغرافيين الأندلسيين
بل والمسلمين (٤٦٢ — ٥٦٠ هـ) الذي تلقى تعليمه في قرطبة ولذلك عرف
بالقرطبي ، واتصل بالملك روجر الثاني ملك صقلية — فعرف بالصقلي
أيضا — والف بتشجيع منه كتبه الشهير (نزهة المشتاق في ذكر
الأمصار والاقطار والبلدان والجزر والمداين والامناق) والذي يعرف
بنزهة المشتاق في اختراق الإماق وملاء بالضرائط اللازمة التي تزيد عن
أربعين خريطة ، وبلغ من إعجاب الأوروبيين به أن ترجموه إلى اللاتينية
في وقت مبكر ، وكان من أوائل القائلين بكروية الأرض ، ورسم مصورات
تتفق مع ذلك ، وقسم العالم إلى سبعين جزءا رسم لكل جزء بصورة (٩٢) .
ويذكر انه عندما طلب منه روجر الثاني وضع خريطة للأرض ،
طلب منه ان يصنع له كرة كبيرة من النضة ليرسم عليها معالم الأرض ،
مولذلك فإنه يعيد باعتراف علماء الغرب أول من وضع أصول الرسم على
سطح كروي مما كان له اثر في تحديد معالم الكرة الأرضية تحديدا

» (٩٢) د . السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٨ هامش ١ ،
د . سعيد عثور وآخران : دراسات في تاريخ الحضارة العربية
الإسلامية ص ٨٠ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

ذكر ابن خلدون في مقدمته ما يدل على أنه كان على علم
بمحاولات البرتغاليين السير في البحر المحيط بمحاذاة سواحل
إفريقية فيقول : « وفي بحر الظلمات من جهة غربية الجزائر
الخلاصات التي منها بدأ بطليموس يأخذ أطوال البلاد ... وهي
في البحر المحيط جزر متكررة أكبرها وأشهرها ثلاث ويقال إنها
معمورة ، وقد بلغنا ان سلتان الإفرنج مرت بهما في أواسط هذه
المائة (المائة الثالثة) وقاطوهم ففتحوا منهم وسبوا ، وباعوا
بعض أسرارهم بسواحل المغرب الأقصى (المقدمة ص ٤٩) .

واقعيًا مليخا (٩٣) .

الرحلات : وما يتصل بالجغرافيا أكبر اتصال الرحلات ، وكما كان في المشرق رحالة كثيرون فكذلك كان في الأندلس رحالة كثيرون جابوا الكثير من الاقطار والبلدان ووصفوها وصفا دقيقا .

ومن الملاحظ أن من كتبة الرحلات كتبة علمية قد بدأ في الأندلس فرابنا نخبة من الرحالة الأندلسيين الذين وصلتنا كتبهم — وإن كان ذلك بعد العصر الأيوبي — يصفون لنا الكثير من مشاهداتهم في البلاد التي زاروها من نواحي شتى جغرافية واقتصادية وسياسية واجتماعية وعمرانية ... الخ ، كان بطوطة وابن جبير وابن العربي وأبو حامد الغرناطي وغيرهم .

ومن أوائل الرحالة الأندلسيين الذين قدموا لنا وصفا لبلاد الروس التاجر اليهودي الأندلسي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي ، ويبدو أنه أسلم وتسمى باسم إبراهيم بن أحمد ، ودخل في خدمة الخليفة الحكم المستنصر ، وكان من تجار الرقيق الأبيض الذي كان يجلب من المانيا وشرق أوروبا من الصقلية والروس .

وقد قدم إبراهيم وصفا لرحلته إلى الخليفة المستنصر أودعه مكتبته ، وعنه نقل ابن عذاري المراكشي ، كما نقل عنه البكري في كتابه المسالك والممالك معلومات جغرافية تعتبر من أقدم وأدق ما لدينا عن وسط أوروبا وشرقها خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .
فقد زار إبراهيم بن يعقوب بلاد الملك أوتو الأكبر إمبراطور الدولة القبطونية ، ووصف بلاده وما فيها وصفا ممتعا ، كما زار شرق أوروبا

(٩٣) مجموعة من المؤلفين : دراسات في الحضارة الإسلامية ج ١

ص ٢٥٠ .

وجاء عنها باتباء ذات قيمة علمية كبيرة اهتم بها علماء الالمان والروس
مناية كبيرة . وقد ايد الباحثون المحدثون ما ذكره ابراهيم من انه لقي
الامبراطور سنة ١٧٢م (٣٦٢ — ٣٦٣ هـ) .

ومع ان النقول التي اخذت من وصفه قد حرفت إلا ان المحققين
والدارسين استطاعوا ان يقوموها ويخرجوا منها بمعلومات مفيدة وقيمة
ساعدت كثيرا في دراسة جغرافية هذه البلاد (١٤) .



(١٤) د . معبد عاشور وآخران : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية
العربية ص ٧٨ — ٧٩ ، لحد لين : ضحى الإسلام ج ٢
ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر القديمة

- ١ — ابن الأبار : الحلة السرياء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، سلسلة ذخائر العرب رقم (٥٨) ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥ م .
- ٢ — ابن الأثير : اسد الغابة في معرفة الصحابة ، المكتبة الإسلامية طهران ١٣٠٢ هـ .
- ٣ — ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- ٤ — ابن الأحرر (الأجير اسماعيل بن يوسف بن محمد ٨٠٧ هـ) : نثير غرائد الجبان في نظم فحول الزمان ، دراسة وتحقيق د. محمد رضوان الداية ، المكتبة الاندلسية رقم (١٨) ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .
- ٥ — ابن الخطيب (لسان الدين) : أفعال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر إلى ذلك من شجول الكلام ، نشر ليفي بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٤ ، بيروت سنة ١٩٥٦ م .
- ٦ — ابن الزبير : صلة الصلة ، تراجم لعلماء الاندلس في القرن الثالث عشر الميلادي نشر ليفي بروفنسال — الرباط ١٩٣٨ م .
- ٧ — ابن الفرسي : تاريخ علماء الاندلس ، سلسلة ترافنا ، المكتبة الاندلسية (٢) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ م .
- ٨ — ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، نشر خوليان ريبيرا مدريد سنة ١٩٢٦ م ، وتحقيق عبد الله اتيس الطباع بيروت ١٩٥٨ م .
- ٩ — ابن سلام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، طبع

لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٥ م ، وطبع
دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٥٩ م .

١٠ - ابن بشكوال : كتاب الصلوة في اصحاب القاضى أبى عبد الله
الصدفى نشر فرنسيسكو كوديرة بمريد سنة ١٨٨٣ م ، وطبع
القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

١١ - ابن جليل : طبقت الاطباء ، تحقيق فؤاد سيد مطبوعات المعهد
العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٥٥ م .

١٢ - ابن حزم الأندلسى : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ،
القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .

١٣ - ابن حزم الأندلسى : جبهة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام
هارون ، سلسلة ذخائر العرب (١٢) الطبعة الرابعة ، دار المعارف
بمصر سنة ١٩٧٧ م .

١٤ - ابن حزم الأندلسى : رسائل ابن حزم ، تحقيق د. إحسان
مبلس ، بيروت سنة ١٩٥٩ م .

١٥ - ابن حزم الأندلسى : طوق الحمامة فى الإلفه والالاف ، تحقيق
د. الطاهر مكي - الطبعة الخامسة - دار المعارف بمصر ١٩٩٣ م .

١٦ - ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، طبعة لندن سنة ١٩٣٨ م .
وطبعة دار الحياة ببيروت د. ت .

١٧ - ابن حيان : المقابس فى اخبار بلد الأندلس ، قطعة من تحقيق ملثور
انتونية ، باريس سنة ١٩٣٧ م ، وقطعة من تحقيق د. عبد الرحمن
الحجى بيروت سنة ١٩٦٥ ، وقطعة من تحقيق د. محمود مكي ،
طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (٢١) القاهرة ١٩٧١ م
ونشر دار الكتب العربى ببيروت ١٩٧٣ م .

- ١٨ - ابن خاتن (الفتح) : مطمح الأنفس ومسرح الفانس فى ملح أهل
الاندلس قسطنطينية ، الجزائر ، ١٣٠٢ هـ ، ط القاهرة سنة ١٩٥٤ م
- ١٩ - ابن خلدون : المقدمة ، المطبعة البهية بمصر د.ت ، الاميرية ١٣٢٠ هـ
- ★ - ابن خلدون : العبر وديوان المتدا والخبر طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ .
- ٢٠ - ابن حجية الكتبي : المطرب من اشعار أهل المغرب ، تحقيق
ابراهيم الإبيلى وآخرون ، الاميرية سنة ١٩٥٤ م ، وتحقيق
د. مصطفى عبد الكريم ، الخرطوم ١٩٥٤ م .
- ٢١ - ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د. شوقى
ضرب طبيا دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤ م .
- ٢٢ - ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، نشر ليفى بروفنسال ، باريس
سنة ١٩٤٧ م .
- ٢٣ - ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب ،
دوى ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦ م .
- ٢٤ - ابن غالب الاندلسى : كتاب فرحة الأنس فى تاريخ الاندلس ، نشر
د. لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة
سنة ١٩٥٩ م .
- ٢٥ - ابو عبيدة الخرجى : بين الإسلام والمسيحية - تحقيق د. محمد
شامة مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- ٢٦ - الإدريسى (الشريف) : نزهة المشتاق فى اختراق الأماق نشر
دوى ، ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦ م .
- ٢٧ - البكرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد
إفريقية والمغرب نشر دى بلان ، الجزائر سنة ١٩٤٩ م .

- ٢٨- — البغدادي (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق ، ط ٢ بيروت ١٩٧١م .
- ٢٩ — الحميدى : جنوة المتبسى فى ذكر ولاية الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٣) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦م .
- ٣٠ — الحميدى : الروض المعطار فى خبر الاقطار ، ط لجنة التأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٣٧م ، وتحقيق د. إحسان عباس بيروت سنة ١٩٧٥م .
- ٣١ — الخشنى : قضاة قرطبة — سلسلة تراثنا — المكتبة الأندلسية (١) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦م .
- ٣٢ — الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة سنة ١٩٥٤م .
- ٣٣ — الشهرستاني : الملل والنحل ، تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م .
- ٣٤ — الضبى : بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٦) — دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧م
- ٣٥ — الطرطوشى : الحوادث والبدايع — تحقيق محمد الطالبي — تونس سنة ١٩٥٩م .
- ٣٦ — المراكشى (عبد الواحد بن على التميمي) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب مطبعة السعادة بصر سنة ١٣٢٤هـ ، ونشر محمد سعيد العريان ومحمد العلمى القاهرة سنة ١٩٤٩م .
- ٣٧ — المقدسى البشارى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم . ط ٢ مطبعة بريل ، لندن سنة ١٩٠٦م — مكتبة المثنى ببغداد .

- ٣٨ - المقرئ : نفع الطبيب في غصن الاندلس الرطب و ذكر و زيرها لسان الدين بن الخطيب ، المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .
- ٣٩ - النباهي (ابو الحسن بن عبد الله) : تاريخ قضاة الاندلس المسمى (المرتبة العليسا فيمن يستحق القضاء والفتية) ، نشر ليفي برونفيسال ، دار الكتب العربي القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
- ٤٠ - مؤلف مجهول : اخبار مجموعة في فتح الاندلس و ذكر امرائها ، مجرط سنة ١٨٦٧ م ، مكتبة الخفي ببغداد .
- ٤١ - ياقوت الحموي : معجم الادباء طبعة د. احمد رفاعي مطبوعات دار المأمون للطباعة القاهرة د.ت .
- ٤٢ - ياقوت الحموي : معجم البلدان بيروت سنة ١٩٦٠ م .

ثانيا : المراجع

- ١ — د. ابراهيم أحمد العدوي : الامويون والبيزنطيون ، ط ٢ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة د. ت .
- ٢ — د. ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى اسبانيا ، ط ٢ دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨٠ م .
- ٣ — د. ابراهيم على طرخان : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٤ — أبو صالح الألفى : الفن الإسلامى (أصوله — فلسفته — مذهب) دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ م .
- ٥ — د. إحسان النص : العصبية القبلية واثرها فى الشعر الاموى ، منشورات دار البقعة بيروت د. ت .
- ٦ — د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ط ١ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٠ م .
- ٧ — أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ط ٤ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ م
- ٨ — أحمد أمين : فجر الإسلام ، ط ١٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ م .
- ٩ — د. أحمد الشعراوى : الأمويون امراء الأندلس الأول . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٩ م .
- ١٠ — د. أحمد الشعراوى : دراسات فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ط دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- ١١ — د. أحمد العبادى : المجل فى تاريخ الأندلس ، سلسلة المكتبة التاريخية (١) القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
- ١٢ — د. أحمد العبادى وآخر : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، بيروت سنة ١٩٦٩ م .

- ★ — د. احمد العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس مؤسسة
الثقافة الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٦٨م .
- ١٣ — د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية،
ج ٣ ط ٤ سنة ١٩٧٠ ، ج ٤ ط ٦ سنة ١٩٨٢م مكتبة النهضة
المصرية بالقاهرة .
- ١٤ — د. احمد هيكى : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ،
ط ٣ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧م .
- ١٥ — آدم متر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة
د. محمد عبد الهادى ابو ريدة . ط ٣ مطبعة لجنة التأليف
١٦ — البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس من الفتح العربى حتى
نهاية عصر ملوك الطوائف ، المكتبة العصرية ببيروت ١٩٦٧م .
- ١٧ — د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس
من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار المعارف لبنان
سنة ١٩٦٢م .
- ١٨ — د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ،
ج ١ نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر بالإسكندرية
سنة ١٩٨٤م .
- ١٩ — د. الطاهر أحمد مكى : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ
والفلسفة ، ط ٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .
- ٢٠ — د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق
الحياة ، ط ٢ مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

- ٢٢ - الفرد جيوم وآخرون : تراث الإسلام ، ج ١. لجنة النشر للجمعيين ،
مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ٢٣ - بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، الطبعة
الخامسة دار المعارف بمصر د. ت .
- ٢٣ - بنيلين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ، ترجمة امين ت كلا ،
القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
- ٢٤ - توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. حسن ابراهيم
وآخرين مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ م .
- ٢٥ - جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الاوربية ، ط ١ دار
المعارف بمصر سنة ١٩٦٠ م .
- ٢٦ - جنثالث بالنسبا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة د. حسين مؤنس ،
القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- ٢٧ - د. جوده هلال وآخر : قرطبة في التاريخ الإسلامى ، المكتبة
الثقافية (٧٢) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والنشر ، القاهرة نونبر سنة ١٩٦٢ م .
- ٢٨ - د. حامد زيان غانم : تاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية واثرها
على اوروبا ، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٧ م .
- ٢٩ - د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام المسبلى والدينى
والثقافى والاجتماعى ، ج ١ ط ٩ سنة ١٩٧٩ م ، ج ٢ ط ١٠ سنة
١٩٨٣ م ، ج ٣ ط ١١ سنة ١٩٦٣ م مكتبة النهضة المصرية القاهرة .
- ٣٠ - د. حسن على حسن : الحياة الدينية في المغرب (القرن الثالث
المجرى) ، دار النهر للطباعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

- ٣١ — د. حسين مؤنس : شيوخ العصر في الاندلس — المكتبة الثقافية (١٤٦) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
- ٣٢ — د. حسين مؤنس : بحر الاندلس . القاهرة سنة ١٩٥٩ م .
- ٣٣ — د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ط ١ ، دار مطابع المستقبل القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- ٣٤ — د. خالد الصوفي : تاريخ العرب في اسبانيا (عصر المنصور الاندلسي) دار الكتاب العربي د. ت .
- ٣٥ — خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الاندلس ، اصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ، ترجمة د. الطاهر مكي ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤ م .
- ٣٦ — دبلاس أولبري : الفكر العربي ومكانته في التاريخ . ترجمة د. تمام حسان المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦١ م .
- ٣٧ — رينهارت دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ (الحروب الأهلية) ، ترجمة د. حسن حبشي دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ م .
- ٣٨ — د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ج ١ ، الانجلو المصرية سنة ١٩٧٨ م .
- ٣٩ — د. سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ، نشر عالم الكتب القاهرة سنة ١٩٨٧ م .
- ٤٠ — د. سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام ، ط ٢ مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٨٨ م .
- ٤١ — د. سعيد عبد الفتاح وآخرون : دراسات في تاريخ الحضارة

الإسلامية العربية ، ط ٢ دار السلاسل الكويت سنة ١٤٠٦هـ .
١٩٨٦م .

٤٢ - سيد عبد الله حسين : الأجوبة الخفيفة في مذهب الإمام أبي حنيفة
ط ١ نشر المكتبة المحمدية التجارية ببصرى د. ت .

٤٣ - شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في أوروبا وجزر البحر
المتوسط ، مطبعة الحلبي القاهرة سنة ١٩٣٣م .

٤٤ - صلاح الدين رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ، نشر
مكتبة نهضة الشرق - جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

٤٥ - صمويل مستيرن : الموشح الأندلسي ، ترجمة د. عبد الحميد
شيخة ، ط ١ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

٤٦ - د. طه الحاجري : ابن حزم صور أندلسية ، دار الفكر العربي ،
مطبعة الاعتقاد بالقاهرة د. ت .

٤٧ - طاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا - طرابلس .

٤٨ - طاهر أحمد الزاوي : ترتيب القاموس المحيط ، دار الفكر بيروت د. ت

٤٩ - عادل مسعود بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ط ١ مطابع
انترنسيونال برس القاهرة سنة ١٩٨٣م .

٥٠ - د. عبد الرحمن علي الحجى : التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي
حتى سقوط غرناطة ، ط ١ بصورة ، دار الامتصام بالقاهرة
١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٥١ - د. عبد الشافي عبد النظيف : العالم الإسلامي في العصر الأموي ،
ط ١ دار الوفاء للطباعة القاهرة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٥٢ - د. عبد العزيز الأهواني : الزجل في الأندلس ، القاهرة سنة
١٩٥٧م .

- ٥٤ - د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الاندلس ، النهضة العربية
بيروت سنة ١٩٧٦م .
- ٥٥ - د. عبد المتعم ملجى : التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ٢ .
الانجلو المصرية سنة ١٩٧٩م .
- ٥٥ - د. عبد الواحد ذنون طه : نشأة تدوين التاريخ العربى فى
الاندلس ، ط ١ سلسلة الموسوعة التاريخية المصرة - دار
الشؤون الثقافية العامة ، بغداد سنة ١٩٨٨م .
- ٥٦ - د. على حسنى الخربوطلى : العرب والحضارة ، مكتبة الانجلو
المصرية القاهرة سنة ١٩٦٦م .
- ٥٧ - فرناندو دى لاجرانخا : مقابلات ورسائل اندلسية (نصوص
ودراسات) ، ترجمة د. عبد الحليم عبد اللطيف ، ط ٢ دار الثقافة
العربية بالقاهرة د.ت .
- ٥٨ - د. فوزى عيسى : الهجاء فى الأدب الاندلسى ، دار المعارف
بمصر د.ت .
- ٥٩ - فون شك : الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ، ترجمة د. الطاهر
مكى دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م .
- ٦٠ - د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ، سلسلة المكتبة
التاريخية (٢) ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٦٩م .
- ٦١ - لويس ارشيبالد : القوى العربية والتجارية فى حوض البحر
الموسط . ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٩م .
- ٦٢ - لويس مطوف : المنجد فى اللغة والإسلام . دار المشرق بيروت
١٩٨٦م .
- ٦٣ - ليفى برونفسال : ادب الاندلس وتاريخها ، ترجمة د. محمد
عبد الهادى شعيرة ، الأهرية بالقاهرة سنة ١٩٥١م .

- ٦٤ - ليفى بروننسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة د. السيد سالم ، د. لطفي عبد البديع ، محمد حطى القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٦٥ - ليفى بروننسال : الحضارة العربية في أسبانيا ، ترجمة د. الطاهر مكي ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧ م .
- ٦٦ - لين بول وآخرون : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأمر الحكمة ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ م .
- ٦٧ - لين بول : قصة العرب في أسبانيا ، ترجمة علي الجارم ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩ م .
- ٦٨ - مجموعة مؤلفين : دراسات في الحضارة الإسلامية ، ثلاثة مجلدات صدرت بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥ م .
- ٦٩ - د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود في الأندلس ، المكتبة التتانيية (٢٣٧) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- ٧٠ - محمد ديب : تاريخ العرب في أسبانيا ، ج ١ القاهرة ١٩١٤ م .
- ٧١ - د. محمد زكريا عفتي : الموشحلت الأندلسية ، سلسلة عالم المعرفة (٣١) الكويت يوليو سنة ١٩٨٠ م .
- ٧٢ - محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ، مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة د.ت .
- ٧٣ - محمد عبد الله عزان : دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى نهاية ملكة غرناطة ، العصر الأول (القسم الأول) ط ١ مطبعة لجنة التأليف القاهرة ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م ، العصر الأول (القسم الثاني - عصر الفتن) ط ١ مطبعة مصر ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

- ٧٤ - محمد على الصابوني : روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام ،
٢ منشورات مكتبة الغزالي بدمشق ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ٧٥ - د. محمد كليل حسين : نظرية المثل والمثول ، دار الفكر العربى
القاهرة سنة ١٩٤٨م .
- ٧٦ - د. محمد محمد شتا زيتون : المسلمون فى المغرب والاندلس ج ١ ،
الطبعة الاولى دار اللواء للطباعة بالقاهرة سنة ١٩٨٣م .
- ٧٧ - د. محمد محمد عبد القادر الخطيب : دراسات فى تاريخ الحضارة
الإسلامية ، ط ١ مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٠م .
- ٧٨ - د. محمود على حمالة : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ،
ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .
- ٧٩ - د. مصطفى الشكعة : الأدب الاندلسى (موضوعاته وفنونه)
ط ٤ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٩م .
- ٨٠ - مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ، سلسلة إقرا (٢٣٠)
لبرابر سنة ١٩٧٢م دار المعارف بمصر .
- ٨١ - د. منير بن محمد بن عبد الله : المسلمون فى الاندلس وعلاقتهم بالفرنجة
(١٩٢ هـ - ٢٠٦ هـ) ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٨٦م .
- ٨٢ - د. نعيم رضى شهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق
والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
سنة ١٩٧٣م .

... ثالثاً : الدوريات

- ١ — دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب (٦١) ، (٦٤) مطابع الشعب القاهرة سنة ١٩٥٩م .
- ٢ — مجلة البحوث الإسلامية عدد ١٧ . السعودية سنة ١٩٨٤م .
- ٣ — مجلة المجلة ، عدد ٢ فبراير سنة ١٩٥٧م القاهرة .
- ٤ — مجلة المختار من عالم الفكر — (١) دراسات إسلامية ، الكويت سنة ١٩٨٤م .
- ٥ — مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٠) عدد (٢) سبتمبر سنة ١٩٧٩م الكويت .
- ٦ — مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٢) عدد (١) (حضارة الاندلس) سنة ١٩٨١م الكويت .
- ٧ — مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٥) عدد (٣) (كتابات في الحضارة) سنة ١٩٨٤م الكويت .
- ٨ — مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمبديد ، المجلد الثاني ١٩٥٤م .
- ٩ — مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمبديد ، المجلد الخامس ١٩٥٧م .
- ١٠ — مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٥٦م .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣ — ٧
الفصل الأول : (عناصر السكان في الأندلس)	٨ — ٦٦
تقديم	٨ — ١٣
أولا : العنصر العربي	١٤ — ٢٠
ثانيا : العنصر البربري	٢١ — ٢٩
ثالثا : الموالي	٣٠ — ٣٣
رابعا : العنصر الآسياني	٣٤ — ٤٠
خامسا : عنصر المولدين	٤١ — ٤٥
سادسا : اليهود	٤٦ — ٥٠
سابعا : الصقلية	٥١ — ٦٠
ثامنا : النورمان (الفايكنج)	٦١ — ٦٦
الفصل الثاني : (العلاقات بين عناصر السكان)	٦٧ — ١٣٤
أولا : الاختلاط بين الأجناس	٦٩ — ٧٨
ثانيا : الامتزاج بين الثقافات	٧٩ — ٨٥
ثالثا : النزاع بين عناصر السكان	٨٦ — ١٢٥
النزاع بين العرب وبعضهم — النزاع بين العرب والبربر — الفتن بين العرب والمولدين — ثورة ابن حنصون	
رابعا : العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة	١٢٦ — ١٣٤
الفصل الثالث : (الحالة الدينية)	١٣٥ — ٢٠٠

الصفحة	الموضوع
١٦٥ — ١٣٧	أولا : المذاهب الفقهية
	المذهب المالكي — المذهب الشافعي — المذهب
	الحنفي — المذهب الظاهري
٢٠٠ — ١٦٦	ثانيا : المذاهب الدينية (الكلائية)
	- مذهب الشيعة — مذهب المعتزلة — مذهب
	الخوارج — التصوف
٣٣٣ — ٢٠١	الفصل الرابع : (مظاهر الحياة الاجتماعية)
٢٦٤ — ٢٠٣	أولا : العمارة (الدينية والمدنية)
٢٨٧ — ٢٦٦	ثانيا : مجالس الموسيقى والغناء
٢٩١ — ٢٨٨	ثالثا : الطعام والشراب
٣٠١ — ٢٩٢	رابعا : الملابس والأزياء والزينة
٣١١ — ٣٠٢	خامسا : الأعياد والمواسم والحفلات
٣١٨ — ٣١١	سادسا : وسائل اللهو والتسلية
٣٣٣ — ٣١٩	سابعاً : المرأة ودورها
٣٧٩ — ٣٣٣	الفصل الخامس : (الحالة الاقتصادية)
٣٣٧ — ٣٣٥	أولا : موقع الأندلس وبنائها
٣٤٠ — ٣٣٧	ثانيا : البيئة الطبيعية للأندلس
٣٤٦ — ٣٤٠	ثالثا : الزراعة
٣٥٨ — ٣٤٧	رابعا : الصناعة
٣٦٤ — ٣٥٩	خامسا : التجارة
٣٧٩ — ٣٦٥	سادسا : موارد الدولة ونظامها المالي
٤٧١ — ٣٨٠	الفصل السادس : (الحالة العلمية والثقافية)

الموضوع	الصفحة
أولاً : روافد الحركة العلمية وعوامل نشاطها ..	٢٨٢ — ٢٩٦
ثانياً : التعليم عند الانتلسيين	٣٩٧ — ٤٠٣
ثالثاً : الإجازات العلمية	٤٠٣ — ٤٠٥
رابعاً : أهم العلوم وأشهر العلماء	٤٠٥ — ٤٧١
١ — العلوم الحديثة والعربية	٤٠٥ — ٤٣٢
٢ — العلوم العقلية	٤٣٣ — ٤٧١
قائمة المصادر والمراجع	٤٧٣ — ٤٨٧
مهرس الموضوعات	٤٨٨ — ٤٨٩

رقم الابداع بدار الكتب والوثائق القومية

رقم ٧٩٩٤/٢٥٤٧

تحريراً في ١٢٩٤/١/٢٥

مطبعة الحسين الإسلامية

٢٥ حارة المدرسة - خلف الجامع الأزهر

تليفون ٥١٠٦٧٢٤

